نصوص ودروس

المجموعة التاريخية



أحوال النصارى في خلافة بني العبّاس

بقلم
الدكتور جان موريس فييه



أحوال النصارى في خلافة بني العباس

تأليف

أ. الدكتور جان موريس فييه

نقله إلى العربية حسني زينه



دار المشرق ش.م.م
ص.ب. ٩٤٦، بيروت - لبنان
ISBN 2-7214-8011-1

التوزيع : **المكتبة الشرقية**
ص.ب. ١٩٨٦، بيروت - لبنان

تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**

مصدر صورة الغلاف :
صورة مطران أو جاثليق من رسوم سامرّاء
(القرن التاسع ميلادي/الثالث هجري)

أحوال النصارى

في خلافة بني العباس

تأليف

أ. الدكتور جان موريس فييه

نقله إلى العربية حسني زينه



ساهم في اصدار هذا الكتاب

مجلس كنائس الشرق الأوسط

"لا تُقدِم على قول الباطِل
وَلا تصبر على كِتمَان الحق"

شيشرون ، في الخطابة ٢ : ١٥

المصادر والمراجع

أ ـ المصادر العربية

١ ـ الكتب والمقالات

إبن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العبّاس: **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، تحقيق نزار رضا، ١٩٦٥.

إبن الأثير، عزّ الدين: **كتاب الكامل في التاريخ**، ١٣ جزءًا، بيروت، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧.

إبن الأزرق، أبو عبدالله الأندلسي: **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق محمد بن عبد الكريم، جزآن، تونس، ١٩٧٧.

إبن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ١٣ جزءًا، طبعة القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٥.

إبن جبير: **رحلة**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨.

إبن الجوزيّ، أبو الفرج عبد الرحمن: **كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق كرنكوف، ٨ أجزاء، حيدر آباد، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٩/١٩٣٨ ـ ١٩٤٠.

إبن خلّكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عبّاس، ٨ أجزاء، بيروت، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢.

إبن رجب البغداديّ: **الذيل على طبقات الحنابلة**، تحقيق هـ. لاوست وس. دهان PIFD الجزء الأوّل، دمشق، ١٩٥١.

إبن الساعي، تاج الدين: **الجامع المختصر**، تحقيق مصطفى جواد، الجزء التاسع، بغداد، ١٣٥٣/١٩٣٤.
نساء الخلفاء، تحقيق مصطفى جواد، سلسلة دخائر العرب، ٢٨.

إبن شاكر الكتبيّ: **فوات الوفيّات**، تحقيق إحسان عبّاس، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٣ - ١٩٧٤.

إبن الطقطقي، محمّد بن عليّ: **الفخري في الآداب السلطانية**، دار صادر، بيروت ١٩٦٦.

إبن عبد ربّه: **العقد الفريد**، سبعة أجزاء، القاهرة، ط.٣، ١٩٦٥.

إبن العبري: **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربيّة إسحاق أرملة، بيروت، ١٩٨٧، وقد ظهر من قبل بعنوان تاريخ الدول السريانيّ، بقلم إسحاق أرملة نفسه، وذلك في أجزاء: ملوك العرب، **المشرق** ٤٣ - ٤٧ (١٩٤٩ - ١٩٥٣) ص ٩٥ - ٥٠٦، ملوك التتر، حتّى العدد ٥٠ (١٩٥٦).

واختُصر بالعربيّة بعنوان: **مختصر الدول**، بيروت، ١٨٩٠.

إبن الفوطي(؟)، انظر: **الحوادث الجامعة**.

إبن قتيبة، أبو محمّد عبدالله: **عيون الأخبار**، تحقيق أحمد زكي العدوي، القاهرة ١٣٥٣هـ.

كتاب المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

إبن القفطي: **تاريخ الحكماء**، تحقيق أمين الخانجي، مصر، ١٣٢٦/١٩٠٨.

إبن قيّم الجوزيّة: **أحكام أهل الذمّة**، تحقيق صبحي الصالح، جامعة دمشق، ١٣٨١/١٩٦١ مختارات (ص ٦٥٧ - ٨٩٣): شرح الشروط العمريّة.

إبن كثير، إسماعيل: **البداية والنهاية في التاريخ**، ١٣ جزءًا، بيروت، الرياض.

الأبشيهي: **المستطرَف في كلّ فنّ مستظرَف**، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٩٨٣.

الأزدي، أبو زكريّا: **تاريخ الموصل**، تحقيق عليّ جيبة، القاهرة، ١٣٨٧/١٩٦٧.

الأزدي، محمّد بن أحمد أبو المطهّر: **حكاية أبي القاسم البغداديّ**، تحقيق آدم متز هيدلبرج، ١٩٠٢.

الأصبهاني، عماد الدين: **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق بهجت الأثري وجميل سعيد، جزآن، بغداد، ١٣٧٥/١٩٥٥.

أمين، حسين: **نظام الحكم في العصر السلجوقيّ**، سومر، ٢٠ (١٩٦٤)، ص ٢٠٩ - ٢٦٦.

إيليّا النصيبيني: **تاريخ إيليّا برشينايا**، الترجمة العربيّة بقلم يوسف حبّي، بغداد، مجمع اللغة السريانيّة، ١٩٧٥.

بابو، إسحاق روفائيل: **تاريخ نصارى العراق**، بغداد، ١٩٤٨.

أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسيّة، بغداد، ١٩٦٠.

البداية، انظر ابن كثير.

برصوم، انظر **اللؤلؤ**.

البستاني، فؤاد افرام: **تمازج العناصر البشريّة في بغداد العبّاسيّة**، **المشرق**، ٣٢ (١٩٢٤) ص ٤٠٩ - ٤٤٠.

الثقافة الإنسانيّة في بغداد العبّاسيّة، محاضرة في مهرجان القرن الثاني عشر لبغداد، ١ - ٨ كانون الأوّل ١٩٦٢، مطبوعة على الآلة الكاتبة.

موسوعته المعروفة بـ دائرة المعارف.

البيروني: **الآثار الباقية من القرون الخالية**، تحقيق زاخاو، ليبزغ، ١٨٧٨.

تاجر، جاك: **أقباط ومسلمون منذ الفتح العربيّ إلى العام ١٩٢٢**، القاهرة، ١٩٥١.

تجارب، انظر MISKAWAiH.

التنّوخي، أبو عليّ الحسن بن عليّ: **نشوار المحاضرة**، تحقيق عبّود الشالجي، ٨ أجزاء بيروت، ١٩٧١ - ١٩٧٣.

الفرج بعد الشدّة، تحقيق عبّود الشالجي، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٨.

التوحيدي، أبو حيّان: **مثالب الوزيرَيْن**، طبعة دمشق ١٩٦١.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسالة في الردّ على النصارى في ثلاث رسائل للجاحظ، سعى في نشره يوشع فنكل، القاهرة، ١٣٤٤هـ.
كتاب التاج، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، ١٩٧٠.
جبر، جميل: الجاحظ ومجتمع عصره، بيروت، ١٩٥٧.
الجندي، محمّد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٦٢ - ١٩٦٤.
الجهشياري، أبو عبدالله: كتاب الوزراء والكتّاب، القاهرة، ١٩٣٨.
جواد، مصطفى: سيّدات البلاط العبّاسيّ، بغداد، د. ت.، انظر ابن الساعي.
الحاجري، طه: الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، ١٩٦٢.
حبّي، يوسف: يوحنّا بن حيلان معلّم الفارابي في المنطق، بين النهرين، ٣ (١٩٧٥) ص ١٢٥ - ١٥٤.
الحوادث الجامعة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١/١٩٣٢، انظر: شذرات تاريخيّة.
الذهبي، شمس الدين: كتاب دول الإسلام (التاريخ الصغير) جزآن، حيدر آباد ١٣٦٤ - ١٣٦٥هـ.
رحمة الله، مليحة: الحالة الاجتماعيّة في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، بغداد، ١٣٩٠/١٩٧٠.
رستم، عبد السلام: أبو جعفر المنصور، القاهرة، ١٩٦٥.
الزركلي، خير الدين: الأعلام، عشرة أجزاء، ط. ٢، القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٩.
الزيّات، حبيب: اليهود في الخلافة العبّاسيّة، المشرق، ٣٦ (١٩٣٨) ص ١٤٩ - ١٧٣. (أعيد طبعه في الخزانة ج٣، ١٩٤٦، ص ٥٤ - ٧٨).
شهداء النصرانيّة في الإسلام، المشرق، ٣٦ (١٩٣٨) ص ٤٥٩ - ٤٦٥ (الخزانة ج٣، ص ١٠٢ - ١٠٨).
الجوالي أو جزية رؤوس النصارى في الإسلام، المشرق ٤١ (١٩٤٧) ص ١٤٥ - ١٥٦ (الخزانة ج٤، ١٩٤٨، ص ٥٤ - ٦٥).

الأسماء والكنى والألقاب النصرانيّة في الإسلام، المشرق ٤٢ (١٩٤٨) ص ١ ـ ٢١، (الخزانة ج ١، ١٩٥٢، ص ١ ـ ٢١).
سمات النصارى واليهود في الإسلام، المشرق، ٤٣ (١٩٤٩) ص ١٦١ ـ ٢٩٢، (مستلّة، ١٩٥٠، ٩٤ صفحة).

ساكو، لويس الأب، البطريرك تيموثاوس الكبير رائد الحوار المسيحيّ الإسلاميّ، مجلّة بين النهرين، ١٤ ـ ١٥، ١٩٧٦، ص. ٢٣٥ ـ ٢٤٥، وتعقيب سعيد الديوهجي، المصدر نفسه، ١٦، ص. ٤٤٩ ـ ٤٥٣.

السامرائي، يونس أحمد: البحتري في سامراء بعد عصر المتوكّل، بغداد، ١٩٧١.

السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٩.

الشابشتي: كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عوّاد، بغداد، ١٩٥١ و١٩٦٦.

شذرات تاريخيّة من صحائف منسيّة، نشرها لويس شيخو في مجلّة المشرق، ١٨ (١٩٢٠) ص ٥٩٦ ـ ٦٠٧، وهي الحوادث الجامعة المذكورة أعلاه، انظر كتابي: (Mossoul Chrétienne, 1959, P 46, n.2).

شيخو، لويس: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ط.٢، بيروت ١٩٦٧.

الصابي: انظر هلال.

صليبا بن يوحنّا (عمرو بن متّى): أخبار بطاركة كرسي المشرق، تحقيق جيسموندي، روما، ١٨٩٦.

الصولي، أبو بكر محمّد: أخبار الراضي والمتّقي بالله، مكتبة الصاوي، مصر، ١٩٣٥.

الطبري، أبو جعفر محمّد: تاريخ، عشرة أجزاء، القاهرة، ١٦٩٠ ـ ١٩٦٩.

الطبري، عليّ بن ربّن: الدين والدولة، حقّقه وقدّم له عادل نويهض، بيروت، ١٩٧٧.

طه، سليم: التاريخ وكبار المؤرخين في الإسلام، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص ٣٣٩ ـ ٣٩٠.

عبد الرقيب، يوسف: مستشفيات وأطبّاء في عهد الدولة الدوستكيّة، بين النهرين ٢١ (١٩٧٨) ص ٥ ـ ١٤.

عروضي، نظامي: **المقالات الأربع**، ترجمة عبد الوهّاب عزّام ويحيى الخشّاب، القاهرة ١٩٤٩.

عريب بن سعد القرطبي: **صلة تاريخ الطبري**، تحقيق ميكال يان دي خويه، ليدن ١٨٩٧.

العلي، صالح أحمد: **بغداد** (استنادًا إلى ابن الفقيه الهمذاني)، بغداد، ١٩٧٧.

عمر، فاروق: الولاء الأمويّ في العصر العبّاسيّ، آفاق عربيّة، ١٢ (١٩٧٨) ص ٥٧ ـ ٥٩.

العمري، ابن فضل الله شهاب الدين: **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق محمّد مسعود، القاهرة، ١٣١٢/١٨٩٤.

العميد، طاهر مظفّر: **بغداد، مدينة المنصور المدوّرة**، النجف، ١٣٨٧/١٩٦٧.

الإمارة العبّاسيّة في سامراء، بغداد، ١٩٧٦.

عوّاد، كوركيس: **كتاب الديارات للشابشتي**، ط. ١، بغداد، ١٩٥١، ط. ٢، بغداد ١٩٦٦. ديارات بغداد القديمة، ديارات الجانب الشرقي، **مجلّة مجمع اللغة السريانيّة**، ٢ (١٩٧٦) ص ٤٧ ـ ٧٤، ديارات الجانب الغربي، ٣ (١٩٧٧) ص ٧٩ ـ ١٢٢.

عوّاد، ميخائيل: **أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، لهلال الصابئ بغداد، ١٩٤٨.

الفهرست: أنظر النديم.

قاسم عبده قاسم: **أهل الذمّة في مصر العصور الوسطى**، القاهرة، ١٩٧٧.

الكامل: انظر ابن الأثير.

كتابجي، زكريّا: **الترك في مؤلّفات الجاحظ**، بيروت، ١٩٧٢.

كحّالة، عمر رضا: **أعلام النساء**، خمسة أجزاء، دمشق، ١٩٥٩.

الكندي، أبو عمر محمّد التجيبي: **كتاب ولاة مصر**، تحقيق سهيل نصّار، ١٣٧٩/١٩٥٩.

لؤلؤ ٢: أي **اللؤلؤ المنثور**، طـ٢، حلب، ١٩٥٦، بقلم البطريرك إغناطيوس افرام برصوم.

ماري بن سليمان: **أخبار بطاركة كرسي المشرق**، تحقيق جيسموندي، روما، ١٨٩٩.

متز، آدم: **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ**، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، طـ٤، ١٩٦٧.

المسعودي، أبو الحسن: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق شارل بللا، ٧ أجزاء، الجامعة اللبنانيّة، بيروت، ١٩٦٦ - ١٩٧٩.

كتاب التنبيه والإشراف، تحقيق ميكال يان دي خويه، ليدن، ١٨٩٤.

مسكوني، يوسف يعقوب: الديارات النصرانيّة في بغداد وضواحيها في العصور العبّاسيّة، **المعرفة**، ٢ (١٩٦٢) ص ٣٤ - ٤٠.

المقدسي، شمس الدين: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق ميكال يان دي خويه، ليدن، ١٨٧٧.

النديم: **كتاب الفهرست**، تحقيق ج. فلوجل، ١٨٧١.

نشوار المحاضرة: أنظر التنوخي.

النصرالله، موسى فريد: **آثار الديارات في العصر العبّاسيّ**، رسالة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٢.

نظام الملك: **سياسة نامة**، نقله إلى العربيّة أحمد لواساني بعنوان: **سير الملوك**، أطروحة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٩.

النووي، محيي الدين: **منهاج الطالبين**، النص العربي وترجمته إلى الفرنسيّة بقلم L.W.C. فان دن برغ، ثلاثة أجزاء، باتافيا، ١٨٩٢ - ١٨٩٤.

رياض الصالحين، قدّم له وراجعه حسن تميم، بيروت، د.ت.

النويري، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ١٨ جزءًا، القاهرة ١٩٢٣ وما بعدها.

هلال الصابي: **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق أمدروز، ١٩٠٤.

رسوم دار الخلافة، مع ترجمة إلى الإنكليزيّة بقلم إيلي سالم، بيروت، ١٩٧٧.

الهمداني، محمّد بن عبد الملك: **تكملة تاريخ الطبري**، تحقيق ألبرت كنعان، بيروت ١٩٥٨ ـ ١٩٦٢.

الواسطي، غازي: الردّ على أهل الذمّة، النص العربي وترجمته إلى الإنكليزيّة بقلم ر. غوتهيل، في **J.O.A.S XLI** (١٩٢١) ص ٣٨٣ ـ ٤٥٧.

ياقوت الحموي: **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** (معجم الأدباء) تحقيق د. س. مرغوليوت، سبعة أجزاء، القاهرة، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥.

معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧.

٢ ـ الدوريات

آفاق عربيّة، بغداد، ١٩٧٥ وما بعدها.

الأبحاث، الجامعة الأميركيّة في بيروت، ١٩٤٨ وما بعدها.

بين النهرين، الموصل، ١٩٧٣ وما بعدها.

التراث الشعبيّ، بغداد، ١٩٧٠ وما بعدها.

سومر، بغداد، ١٩٤٥ وما بعدها.

لسان المشرق، الموصل، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢.

مجلّة مجمع اللغة السريانيّة، بغداد، ١٩٧٥ وما بعدها.

المسرّة، لبنان ١٩١٠ وما بعدها.

المشرق، بيروت، ١٨٩٨ ـ ١٩٧٠.

المعرفة، بغداد، ١٩٦١ وما بعدها.

ب - المصادر والمراجع الأجنبية

١ - الكتب والمقالات

ABOTT, NABIA, *Two Queens of Baghdad*, U. Chicago, 1946.

ABDUL HAQ, Historical Poems in the Dīwān of Abū Tammām, *Islamic Culture*, XIV (1940), p. (17-29).

- Abū Tammām,his Life and Poetry, *Ibid*, XXVI² (1952), p. 16-41.

ABEL, ARMAND, Les marchés de Bagdad, essai historico-géographique: situation, voies d'accès, ressources, dans *Bulletin de la Société belge d'études géographiques*, XI², (déc. 1939), p. 148-164, 2 cartes.

ABRAMOWSKI, R., *Dionysius von Tellmahre, jakobitischer Patriarch von 818-845, Zur Geschichte der Kirche unter dem Islam*, Leipzig, (1940) 1966.

ABU HAYYAN, v. *AL-TAWHIDI*.

ABU'L-MAHASIN, v. *IBN TAĠRIBIRDI*.

ABU YUSIF YA'QUB, *Kitāb al-Ḫarāǧ* (livre de l'impôt foncier)

- tr. fr. E. FAGNAN, Paris, 1921.
- *V. BEN SHEMESH*.

AḤMAD, L.I., *The Role of the Turks in Iraq during the Caliphate of Mu' taṣim (218-227/833-842)*, Thèse Ph.D., Manchester, 1965.

ALLARD, MICHEL, Les chrétiens à Bagdad, dans *Arabica*, IX (1962), p. 375-388 (numéro spécial sur Bagdad).

ALLARD, MICHEL, Histoire de la pensée arabe et société, dans *Etudes philosophiques offertes au Dr. Ibrahim Madkour*, Le Caire, 1974, p. 121-130 (Commentaire de la lettre [de Ǧāḥiẓ?] sur les secrétaires).

ALLOUCHE, I.S., Un traité de polémique arabo-chrétien au IXème siècle, dans *Hesperis*, XXVI (1939) p. 123-155 (Traduction de al-Radd 'ala 'l-Naṣāra).

AMEDROZ, H.F., v. *MISKAWAYH*.

- Three Years of Buwayhid Rule in Baghdad (A.H. 389-393), *JRAS*, (1901) p. 501-536, 749-786 (= Hilāl).

- Abbasid Administration in its Decay, *JRAS*, (1913), p. 823-842.
- The Vizier Abū 'l Faḍl b. al-'Amīd, *Der Islam*, III (1912), p. 323-351, = Miskawayh.
- The Tajarib al-umam of Abū 'Alī Miskawayh, *Der Islam*, V (1914), p. 335-357.

AMEDROZ, H.F. et MARGOLIOUTH, D.S., *The Eclipse of the Abbasid Caliphate, (Original Chronicles of the 4th Islamic Century)* Oxford-Londres, 1920-1921, 7 vol.

AMIN, HUSAYN, L'administration au temps des Salǧūkides (ar.), *Sūmer*, XX (1964), p. 209-226.

ANAWATI, G.C., Polémique, apologie et dialogue islamo-chrétien, dans *Euntes docete*, (U. Pontif. Urbaniana), XXII (1969), p. 375-452.

ARKOUN, MOHAMMED, *Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVème/Xème siècle: Miskawayh, philosophe et historien*, Etudes philosophiques, XII, Vrin, 1970.

ARKOUN MOHAMMED, Pour un remembrement de la conscience islamique, dans *Mélanges offerts à Henry Corbin*, Tehran, 1977, p. 191-215.

ARNALDEZ, ROGER, Les chrétiens selon le Commentaire de Rāzī, dans *Mélanges islamologiques* (vol. à la mémoire d'Armand Abel), éd. P. SALMON, Leiden 1974, p. 45-57.

ARNOLD, Th.W,, *The Preaching of Islam*, éd. Sh.M. Ashraf, Lahore, 1961.

AL-ASNAWI, v. *V.PERLMANN, M.*

AL-BAĠDADI, 'ABD ALLAH, Le livre des secrétaires, éd. et présentation D. SOURDEL, dans *BEO*, XIX (1952-1954), p. 128-153.

AL-BAĠDADI, 'ABD AL-LATIF, *K. al-Ifada wa'l-I'tibār*, tr. angl. The Eastern Key, par K.H. ZAND, JOHN A. et IVY E. VIDEAN, Londres, 1965.

Al-BAĠDADI, AL-ḪATIB, (Abû Bakr A.b. 'Alī b. Ṯābit), v. *KRENKOW*.

BAR HEBRAEUS (Grégoire Abu'l-Faraǧ), *Chronicon Ecclesiasticum*, éd. syr., tr. lat. ABBELOOS J.B. et LAMY Th.]., 3 vol., Louvain, 1872-1877.

BAR KALDUN, JEAN, *Vie de Rabban Yousef Bousnaya*, tr. fr. CHABOT, J.B. ROC, II (1898).

BAUMSTARK, ANTON, *Geschichte der syrischen Literatur*, Bonn, 1922.

BEN SHEMESH, A., *Taxation in Islam*, 3 vol., Leiden, 1958-1969. = les trois specimens restants de K. al-Ḫarāǧ: Vol. I, YAHYA b. ADAM AL-QURASI. Vol. II, QUDAMA b. ǦA'FAR Vol. III, ABU YUSIF.

BERNHAUER, A. WALTER, Mémoire sur les institutions de police chez les Arabes, les Persans et les Turcs: *JA*, 5ème série, XV (1860) p. 460-508; XVI (1860), p. 114-190, 347-392; XVII (1861) p. 5-76. En fait l'auteur n'est pas al-Nabrāwi mais al Šayzari (m 589/1193).

BETTS, ROBERT BRENTON, *Christians in the Arab East. A Political Study.* Athènes, 1975.
B.H., v. BAR HEBRAEUS, *Chron. Eccl.*
BIDAWID, R.j., v. *TIMOTHEE.*
BOSWORTH, CLIFFORD EDMUND, *The Islamic Dynasties,* Edinburgh U.P., 1967.
BOSWORTH, CLIFFORD EDMUND, v. *TA'ĀLIBĪ.*
BOUVAT, L., Les Barmécides, *Revue du monde musulman,* vol. XX, Paris, 1912.
BOWEN, H., *The life and Times of 'Alī b. 'Īsā, the Good Vizier,* Cambridge et Londres, 1928.
BRAUN, O., v. *TIMOTHEE.*
BROCKELMANN, CARL, *Geschichte der arabischen Litteratur (= GAL),* 2 vo. et 3 suppléments, Leiden, 1943.
BROOKS, B.W., Byzantines and Arabs in the Time of the Early Abbasids, dans *The English Historical Review,* XV (1900), p. 728-747; XVI (1901), p. 84-92.
BUSSE, HERIBERT, *Chalif und Grosskönig. Die Buyiden im Iraq (945-1055), Beiruter Texte und Studien. Bd. 6, Beyrouth, 1969.*
CAETANI, L., *Annali dell'Islam,* 10 vol., Milan, 1905-1926.
CAHEN, CLAUDE, Fiscalité, propriété, antagonismes sociaux en Haute Mésopotamie au temps des premiers Abbassides, d'après Denys de Tell Mahré, *Arabica,* I (1954), p. 136-152.
———, Compte rendu de F. LOEKKEGAARD, Islamic Taxation, dans *Arabica,* I (1954), p. 346-353.
———, L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman ancien, dans *Studia Islamica,* III (1955), p. 93-115 (suggère thèmes d'études).
———, Mouvements et organisations populaires dans les villes de l'Asie musulmane, milices et associations de foutouwwa, dans *Recueils de la Société Jean Bodin,* VII (1955), p. 273-288.
———, Compte rendu de IBN GAWZI, Mir'at al-zamān, et YUNINI, Ḏayl, dans *Arabica,* IV (1957), p. 191-194.
———, L'Islam et les minorités confessionnelles au cours de l'histoire, dans *La table ronde,* no. 126, juin 1958, p. 61-72.
———, Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen-Age, dans *Arabica,* V (1958), p. 225-250; VI (1959), p. 25-26, 233-265.
———, La changeante portée sociale de quelques doctrines religieuses, dans *L'élaboration de l'Islam,* p. 5-22.

———, Histoire économico-sociale et islamologie: le problème de l'adaptation entre les autochtones et l'Islam, dans *Correspondance d'Orient*, no. 5, p. 197-215 (= *Colloque sur la sociologie musulmane*, Bruxelles, *1961).*
———, Bagdad au temps de ses derniers califes, *Arabica* LX (1962), p. 289-302.
———, différents articles dans *E.I.*[2]
CANARD, MARIUS, *Histoire de la dynastie des Hamdānides de Djazira et de Syrie*, t. I, Alger, 1951. (tables: dans *Arabica* XVIII (1971), p. 279-519).
———, Quelques «à côté» de l'histoire des relations entre Byzance et les Arabes, dans *Studi orientalistici in onore de Giorgio Levi Della Vida*, I, Rome (1956), p. 98-119.
———, Bagdad au IVème siècle de l'Hégire (Xème A.D.), dans *Arabica*, IX (1962), p.267-288.
CASPAR, ROBERT, Les versions arabes du dialogue entre le catholicos Timothée I et le calife al-Mahadī (IIème/VIIème s.), dans *Islamochristiana*, III, (1977), p. 109-175.
CERDIC (Annuaire du -, 1976) = Eglises et groupes religieux dans la société française, intégration ou marginalisation, (5ème collogue du Centre de Sociologie du Protestantisme, Strasbourg, 7-9 octobre 1976), Strasbourg, 1977, U. des sciences humaines de Strasbourg, Coll. Hommes et Eglises 8.
CHABOT, JEAN BAPTISTE, *Littérature syriaque*, Paris, 1934 (Bibl. catholique des sciences religieuses).
Chron. an. 813 = *Chronicon anonymum ad ann. Chr. 813 pertinens*, texte syr. éd. BROOKS, E.W., 1905, tr. lat. 1907, CSCO, Chronica minora III, T. vol. 5/Syr. 5, p. 243-260; V. Vol. *6/Syr.* 6, p. 183-196.
Chron. an. 846 = *Chronicon anonymum ad ann. p. Chr. 846 pertinens*, texte syr. éd. BROOKS, E.W., tr. lat. CHABOT, I.B., 1904, CSCO, Chronica minora II, T. vol 3/Syr. 3, p. 157-238; V. vol *4/Syr. 4, p. 121-180.*
Chron. 1234 = *Anonymi auctoris chronicon ad A.C. 1234 pertinens*, V. II, tr. ABOUNA, ALBERT, CSCO, vol. 354, *Syr*, 154, 1974. (= l'Edessénien anonyme.)
DENNET, DANIEL C.Jr., *Conversion and the Poll Tax in Early Islam*, Harvard U. Press. 1950 (Harvard Historical Monographies, no. XXII); tr. ar. FAWZI FAHMI FAHIM. *al-Ġizya wa'l-Islām*, Beyrouth, 1960.
DE GOEJE, M.J., Mémoire sur la conquête de la Syrie, dans ses *Mémoires d'histoire et de géographie orientales*, 2ème éd., Leiden, 1886.
DELLY, E.K., *La théologie d'Elie Bar Šénaya*, Rome, 1957 (Studia Urbaniana, 1).
DENYS DE TELL MAHRÉ, *Chronique* (4ème partie), tr. fr. CHABOT, J.B., Bibl. Hautes Etudes, fasc. 112, Paris, 1895. Ed. complète CHABOT,

J.B. et BROOKS, E.W. CSCO vol. 91 et 104; tr. partielle, CHABOT, J.B., CSCO vol. 121.

DONOHUE, JOHN JOSEPH, *The Development of Political and Social Institutions in Iraq under the Buwaiyhids,* 334-403 H., Thèse Harvard U., 1966 (dactylographiée).

DOZY, R.P.A., *Al-mu'ğam al-mufassal bi asmā' l-malābis 'ind al-'Arab,* tr. ar. par AKRAM FADHIL (Bagdad, 1971) du *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes (1843).*

DUNLOP, D.M., The Translations of al-Biṭrīq and Yaḥya [Yūḥanā] b. al-Biṭrīq, *JRAS,* 3d series, 1959, part ¾, p. 140-150.

EDELBY, NEOPHYTE, *Essai sur l'autonomie législative et juridictionnelle des chrétientés d'Orient sous la domination musulmane,* Thèse dactylographiée U. Latran, Rome, 1951.

L'élaboration de l'Islam, Colloque 1959 du Centre d'études d'histoire des religions, Strasboug, PUF, 1961.

ELGOOD, CYRIL, *A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate,* Cambridge U.P., 1951.

ELIE DE NISIBE (Bar Šināya) *Chronographie = La chronologie d'Élie bar Šināya,* tr. fr. DELAPORTE, L.J., Bibl. des Hautes Etudes, fasc. 181, Paris, 1910.

———, *Opus chronologicum = Eliae metropolitae Nisibeni, Opus chronologicum,* T. syr. et V. lat. BROOKS, E.W. et CHABOT, J.B., CSCO vol. 62*, 62**, 63* et 63**.

ELISSÉÉF, NIKITA, *Nur ad-Din,* 3 vol., PIFD, 1967.

———, *Thèmes et motifs des Mille et une Nuits,* PIFD, 1949.

E.N., v. *Élie de NISIBE.*

EUTYCHIUS, v. *SA'ID b. AL-BITRIQ.*

FARES, BISHR, *Vision chrétienne et signes musulmans,* Mém. Inst. Eg., 56 (1961).

FATTAL, ANTOINE, *Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam,* coll. *Recherches, X. Beyrouth, 1958.*

FIEY, J.M., Rūm à l'est de l'Euphrate, dans *Le Muséon,* XC (1977), p. 365-420.

FINKEL, JOSHUA, A risāla of al-Jāhiz, dans *JOAS,* XLVII (1927), p.311-334.

FRAYHA, ANIS, Influence of Syriac Grammar on Arabic, dans *al-Abhath,* XIV (1961), p. 39-60.

GAL **v. BROCKELMANN.**

GARDET, LOUIS, *La cité musulmance,* Paris, 1954.

———, Philosphie et religion en Islam avant l'an 330 H., dans *L'élaboration de l'Islam*, p. 39-60.
———, *Les hommes de l'Islam, Approche de mentalités*, coll. Le Temps et les hommes, Paris.1977.
GARSOIAN, NINA G., Le rôle de la hiérarchie chrétienne dans les rapports diplomatiques entre Byzance et les Sassanides, dans *Revue des Etudes Arméniennes*, Nelle série, X (1973-1974), p. 119-138.
GCAL, V. GRAF.
GEORR, KHALIL, *Les catégories d'Aristote dans leurs versions syro-arabes*, Beyrouth, 1948.
GERMANUS, JULIUS, The Role of the Turks in Islam, dans *Islamic Culture*, VII (1933), p. 519-532 et VIII (1933), p. 1-15.
GOLDZIHER, IGNAZ, Zür Literatur des Ichtilāf al-madāhib, *ZDMG*, XXXVIII (1884), p. 669-682.
———, Usages juifs d'après la littérature religieuse des musulmans, dans *Revue de Etudes Juives*, XXVIII (1894), p. 75-94.
GOTTHEIL, RICHARD, A Fetwa on the Appointement of Dhimmis to Office, dans *Zeitschrift für Assyriologie*, XXVI (1912), p. 203-214.
GRAF, GEORG, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, 5 vol., Vatican, 1944-1953 (= Studi e Testi, vol. 118, 133, 146, 147, 172).
HAGE, WOLFGANG, *Die Syrish-Jakobitische Kirche in Frühislamischer Zeit*, Wiesbaden, 1966.
HARTMANN, ANGELIKA, La conception gouvernementale du calife an-Nāṣir li-Dīn Allāh, dans *Orientalia Suecana*, XXII (1973), p. 52-61.
———, *An-Nāṣir, li-Dīn Allāh (1180-1225), Politik, Religion, Kultur in der später 'Abbāsidenzeit*, W. de Gruyter, Berlin-New York, 1975.
HILĀL (AL-ṢABĪ), *V. AMEDROZ, Three Years.*
HAMIDULLAH, MUHAMMAD, Nouveaux documents sur les rapports de l'Europe avec l'Orient musulman au Moyen-Age, dans *Arabica*, VII (1960), p.281-300.
INAYATULLAH, SH., Contribution to the Historical, Study of Hospitals in Medieval Islam, dans *Islamic Culture*, XVII (1944), p. 1-14.
IBN AL-BANNA', *v.MAKDISI, G.*
IBN AL-NAQQAŠ, MUHAMMAD b. AL-DAKKALI, *Fatwa sur la condition des dhimmi*, tr. M. BELIN, *J.A.*, VIII (1851), p. 417-516; XIX (1852), p. 97-140.
IBN QUDAMA, *Précis de droit*, tr. H. LAOUST, PIFD, 1950.
JEAN (moine), *Eloge du patriarche nestorien Mār Denḥa Ier (1265-1281)*, éd. P. BEDJAN, *Vie de Yahwālāhā*, éd. 1895, p. 332-346; Tr. CHABOT, J.B., *J.A.*, 9ème série, V (1895), p. 110-141.
JEAN b. KALDUN, Histoire de Rabban Youssef Bousnāya (+ 979), tr.

CHABOT. J.B., *ROC*, 1900.
KABIR, MAFIZULIA, Libraries and Academies during the Buwayhid Pcriod, dans *Islamic Culturc*, XXXIII (1959), p. 31-33.
KAUFHOLD, HUBERT, *Syrische Texte zum islamischen Recht (Johannes V. b. Abgārē)*, Munich, 1971.
———, *Die Rechtssamlung des Gabriel von Basra und ihr Varhältnis zu den anderen juristischen Sammelwerken der nestorianer*, Berlin, 1976.
KAWERAU, PETER, *Die jakobitische Kirche im Zeitalter der syrischen Renaissance, Idee und Wirklicheit*, Berlin, 1960.
KHALIL, SAMIR, *Deux cultures qui s'affrontent: Une controverse sur L'I'rāb au XIème s., entre Elie de Nisible et le vizir Abū 'l-Qāsim, dans Mélanges H. Fleisch*, II, p. 619-649. [= *MUSJ*, 49 (1975-1976)].
KHAN, M.S., The Eye-witness Reporters of Miskawayh's Contemporary History dans *Islamic Culture*, XXXVIII (1964), p.295-313.
EL-KHATIB, NACHEAT, *Etude historique de l'époque abbasside à travers le K. al-Agānī*, thèse Paris Sorbonne, 1975, (ronéotypée).
KRENKOW, FRITZ, The Tarikh Baghdad (vol. XXVII) of the Khatib Abu Bakr b. Ahmad b. 'Ali b. Thabit al-Baghdadi, Short Account of the Biographies, *JRAS*, 1912, p. 31-79; Appendix, p. 77-79, The Appearance of the Prophet in Dreams.
DE LACY O'LEARY, *How Greek Science Passed to the Arabs*, Londres, 1949/1951.
LAOUST, HENRI, Ibn Kaṯīr historien, dans *Arabica*, II (1955), p.42-88.
———, *La profession de foi d'Ibn Baṭṭa*, PIFD,. 1958.
———Le Hanbalisme sous le califat de Bagdad (241-656/855-1258),*REI*, XXVII (1959), p. 69-128.
———, *Les schismes dans l'Islam*, Paris, 1965.
———, Les agitations religieuses à Bagdad aux IVème et Vème s. H., dans *Islamic Civilisation, 950-1150*, vo. 3. Papers on Islamic History, p. 169-185. (= *Colloquium Oxford*, 1969) éd. D.S. RICHARDS, Oxford, 1973.
———, *v. Ibn QUDAMA.*
LECOMTE, GÉRARD, *Le traité des divergences du hadith d'Ibn Quatayba*, tr. annotée du K. Ta'wīl muḫalif al-ḥadīṯ, PIFD, 1962.
———, *Ibn Qutayba, L'homme, son œuve, ses idées*, PIFD, 1965.
LE STRANGE, GUY, *The Lands of the Eastern Caliphate*, 3ème éd., Londres, 1966.
———, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900.
LEVY, REUBEN, *A Baghdad Chronicle*, Cambridge U. Press, 1929.
LEWIS, BERNARD, *Studies in Classical and Ottoman Islam (7th-16th. c.)*, Variorum Reprints, Londres, 1976.

MAKDISI, GEORGE, Notes on Hilla and the Mazyadids in Medieval Islam, dans *JAOS*, LXXIV (1954), p. 249-262.
———, Ibn al-Bannā', Autograph Diary of an Eleventh-Century Historian of Baghdad, dans *BSOAS*, XVIII (1956), p. 9-31, 239-260; XIX (1957), p. 13-48, 281-303, 426-443.
———, The Topography of Eleventh Century Baghdad, Materials and Notes, dans *Arabica*, VI (1959), p. 178-197, 281-309.
———, *Ibn 'Aqīl et la résurgence de l'Islam traditionnel au XIème s.* (Vème s. H.) PIFD, 1963.
AL-MAQRIZI, TAQI'L-DIN AHMAD, *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte*, (tr. M. QUATREMERE *du K. al-sulūk fī ma'rifat duwal al-mulūk)*, 2 vol., Paris, 1845.
MARGOLIOUTH, D.S., Some extracts from the K. al-imtā 'wa 'l-mu'ānasa of *ABU HAYYAN AL-TAWHIDI*, dans *Islamica* II (1926), p.380-390.
———, Wit and Humour in Arabic Authors, dans *Islamic Culture*, I (1927), p. 522-534.
———, Meetings and Salons under the Caliphate, dans *Islamic Culture* III (1929), p. 1-17.
MASON, HERBERT, *Two Statesmen of Medieval Islam*, Mouton, La Haye-Paris, 1972.
MASSIGNON, LOUIS, La politique islamo-chrétienne des scribes nestoriens de Deir Qunna à la cour de Bagdad au IXème siècle, dans *Vivre et penser (Revue biblique)*, II (1942), p. 7-14; repris dans *Opuscula Minora*, I, p. 250-257, Beyrouth, 1963.
———, *La passion de Hallâj*, 2ème éd., NRF, 1975, 4 vol.
MAWARDI, *v. LAOUST.*
MEYERHOF, MAX, On the Transmission of Greek and Indian Science to the Arabs, dans *Islamic Culture*, XI (1937), p. 17-29.
M.S. = MICHEL LE SYRIEN (LE SYRIAQUE), *Chronique de -*, éd. syr. et tr. fr. J.B. CHABOT, 4 vol., Paris 1899-1910, (et Bruxelles, 1963).
MINGANA, ALPHONSE, A Charter of Protection Granted to the Nestorian Chruch in A.D. 1138, by Muktafi, Caliph of Baghdad, dans *The Bulletin of the John Rylands Library*, X (1926).
———, Timothy's Apology, repris dans *Woodbrooke Studies*, II, Cambridge, 1928, préf., tr. et texte, p. 1-162.
MORONY, MICHAEL C., Religious Communities in Late Sasanian and Early Muslim Iraq, dans *JESHO*, XVII (1974), p. 113-135.
MORSY, ZAGHLOOL, *La tolérance, essai d'anthologie*, Editions arabes, Lyon, 1975 (UNESCO).
MOUBARAC, YOUAKIM, Note sur les chrétiens et les lettres arabes, dans

Mémorial du cinquantenaire (1914-1964), Ecole des Langues Orientales Anciennes de l'Inst. Cath. de Paris, p. 123-130.
MUFADDAL b. AL-FADA'IL, *Histoire des sultans mamlouks*, texte ar. et tr. fr. E. BLOCHET, P.O., XII, p. 343-550; XIV, p. 375-672; XX, p. 1-269.
MUIR, W., *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall*, Beyrouth, 1963.
Muntazam, v. *IBN AL-ĞAWZI.*
NADVI, S.S., The Origins of the Barmakids, dans *Islamic Culture*. VI (1932), p.19-28.
NARSRALLAH, J., Abū 'l-Farağ al-Yabrūdī, médecin chrétien de Damas, Xème-XIème s., dans *Arabica*, XXIII (1976), p.13-22.
———, Nazif b. Yumn, médecin, traducteur et théologien melkite du Xème s. dans *Arabica*, XXI (1974), p. 303-312.
NAU, FRANCOIS, Les traductions du grec en syriaque au VIIème s., *RHL*, IC (1929), p. 256-287.
NWYIA, PAUL, Actualité du concept de religion chez Hunayn b. Ishaq, dans *Arabica*, XXI (1974), p. 313-317.
———, Un dialogue islamo-chrétien au IXème s., dans *Axes*, IX. 5 (1977), p. 7-22.
OMAR, FĀROUK, *The Abbasid Caliphate (132-170/750-786)*, Bagdad, 1969.
———, Some Observations on the Reign of the 'Abbāsid Caliph al-Mahdī (158-169/775-785), dans *Arabica*, XXI (1974), p. 139-150, et *Sūmer* XXX (1974), p. 195-203.
———, A General Sketch of the Attitude fo the Early Abbasids towards Ahl al-Dimma, dans *Journal of the Syriac Academy*, I (1975), p. 29-35.
———, The Relations between the mu'tazilites and the Abbasids before al-Ma'mūn, dans *Sūmer*, XXXII (1976), p. 189-194.
ORTIZ DE URBINA, *Patrologia syriaca*, 1ère éd., Rome, 1958: 2ème éd. 1965.
PELLAT, CHARLES, Ğāḥiẓ à Bagdad, *Rivista degli studi orientali*, XXVII (1952), p. 47-67.
———, Le dernier chapitre des Avares, de Ğaḥiẓ, dans *Arabica*, III (1955), p. 322-352.
———, Al-Ğaḥiẓ, pionnier de la géographie humaine (en arabe), *Machriq*, LX (1966), p. 165-205.
———, Essai d'inventaire de l'œuvre ğaḥizienne, dans *Arabica* III (1956), p. 147-180.
———, Une charge contre les secrétaires d'Etat, attribuée à Ğāḥiẓ, dans *Hesperis*, XLIII (1956), p. 29-50.
———, Al-Ğāḥiẓ: les nations civilisées et les croyances religieuses (K. al-aḫbār wa Kayfa taṣiḥḥ), dans *JA*, CCLV (1967), p. 65-90. Reproduit dans

Etudes sur l'histoire socio-culturelle de l'Islam (VIIème-XVème s.), Varioum Reprints, 1976 [V].

PERLMANN, MOSHE, Asnawi's Tract against Christian Officials, dans *Ignace Goldziher Memorial Volume*, Jérusalem, part 2, 1958, p. 172-208; réédition: *Al-kalimāt al-muhimma fī mubāšarat ahl al-ḏimma*, U. Brookline (Mass.), 1969.

PINTO, OLGA, The Libraires of the Arabs during the Time of the Abbasids, tr. angl. F. KRENKOW, dans *Islamic Culture*, III (1929), p. 210-243.

PUTMAN, HANS, *L'Eglise et l'Islam sous Timothée I (780-823)*, coll. Recherches, nouvelle série, B. Orient chrétien, 3, Beyrouth, 1975.

QUDAMA, ABU'L-FARAĞ, ĠA'FAR AHMAD MAKKI, *Qudāma b. Ğa'far et son œuvre*, thèse. Paris, 1955 (dactylographiée).

QUDAMA, ABU'L-FARAĞ, b. ĞA'FAR, AHMAD MAKKI, *v. BEN SHEMES SH.*

RONDOT, PIERRE, L'évolution historique des Coptes, dans *Cahiers de l'Orient contemporain*, XXII (1950), p. 129-155; (compte-rendu de TAGHER).

SA'ID b. AL-BITRIQ, *Annales*, éd. L. CHEIKHO, B. CARRA DE VAUX, H. ZAYAT, CSCO, vol. 51, p. 1-88 (complété par YAHYA b. SA'ID, q.v.).

SALMON, G., *Introduction topographique à l'Histoire de Bagdad d'al-Khaṭīb al-Baġdādi*, Bibl. Hautes Etudes, fasc. 148, Paris, 1904.

SAUVAGET, JEAN, *Historiens arabes*, Paris, 1946 (= Initiations à l'Islam, V)

SCHLUMBERGER, GUSTAVE, *L'épopée byzantine, à la fin du Xème s.*, Paris 1900.

SEGAL, J.B., Syriac Chronicles as Source Material for the History of Islamic Peoples, p. 246-258, dans *Historians of the Middle East*, éd. B. LEWIS et P.M. HOLT, Oxford U. Press, 1962.

SELB, WALTER, *'Abdišō' b. Bahrīz* Vienne, 1970.

SHEDD, WILLIAM AMBROSE, *Islam and the Oriental Chruches, Their Historical Relation*, Philadelphie, 1904.

SIVAN, EMMANUEL, Notes sur la situation des chrétiens sous les Ayyūbides, dans *RHR*, CLXII, (1967), p. 117-130.

———, *L'Islam et la Croisade*, Paris, 1968.

SOMOGYI, J. de, The K. al-Muntaẓam of Ibn al-Jawzī, dans *JRAS*, (1932), p. 49-76.

SOURDEL, DOMINIQUE, Le «Livre des secrétaires» de Abd Allah al-Bagdādī, dans *BEO* (Damas), XIV (1952-1954), p. 115-153.

———, La valeur littéraire et documentaire du «Livre des vizirs» d'al-

Ğahšiyārī, d'après le chapitre consacré au califat de Hārūn al-Rašīd, dans *Arabica*, II (1955), p. 193-210.

———, Fragments d'al-Şūlī sur l'histoire des vizirs 'abbāsides, dans *BEO*, XV (1955-1957), p. 99-108.

———, Nouvelles recherches sur la seconde partie du «Livre des vizirs» d'al-Ğahšiyārī, dans *Mélanges Louis Massignon*, PIFD, III, 1957, p. 271-299.

———, *Le vizirat 'abbāside de 749 à 936*, 2 vol., PIFD, 1959-1960.

———, La politique religieuse des successeurs d'al-Mutawakkil, dans *Studia Islamica*, XIII (1960), p. 5-21.

———, La politique religieuse du calife al-Ma'mūn, dans *REI*, XXX (1962), P. 27-48.

———, Un pamphlet musulman anonyme d'époque abbasside contre les chrétiens, dans *REI*, XXXIV (1966), p. 1-33.

AL-SULI, ABU BAKR MUHAMMAD b. YAHYA, *Al-Awrāq: Ābān al-Lāhiqī, le zindīq*, éd. ar., introduction et étude en russe et français, par A.E. KRYMSKI.

TEOPHANES, *Chronographia*, éd. grecque et tr. lat. J. CLASSEN, vol. I, Bonn, 1839, (C.S. Historiae Byzantinae).

TIBAWI, A.L., Christians under Muhammed and his first two Caliphs, dans *The Islamic Quarterly*, VI (1961), p. 30-46.

TIMOTHÉE, *Timothei Patriarchae I, epistulae*, CSCO,. vol. 74, 75, O. BRAUN, 1914-1915.

———, *Les lettres du patriarche nestorien Ier*, R.J. BIDAWID, Rome, 1956 (Studi e Testi, 187).

TIMOTHÉE, v. *PUTMAN*.

TISSERANT, EUGÈNE, art. Nestorienne (Eglise), dans *DTC*, XI.1 (1931), col. 157-323.

TOHMÉ, ANTOINE, *Intérêt pour l'histoire sociale de «la réfutation des chrétiens» de Ğāḥiẓ*, mémoire, Beyrouth, 1977 (ronéotypé).

TRITTON, A.S., Islam and the Protected Religions, *JRAS*, (1928), p. 485-508.

———, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*, Oxford, 1930.

———, Islam and the Protected Religions, *JRAS*, (1931), p. 311-338.

———, Sketches of Life under the Caliphs, extraits de MUHAMMAD b. HILĀL AL-SĀBI K., al-Hafawāt, ms., dans *The Muslim World*, LIV (1964), p. 104-111, 170-179.

TROUPEAU, GÉRARD, Recherches sur un médecin-philosophe de Bagdad:

Ibn Atradi (XIème s.), dans *Mémorial Mgr Gabriel Khouri-Sarkis*, Louvain 1969, p. 259-262.
TURAN, OSMAN, Les souverains saljoukides et leurs sujets non-musulmans, dans *Studia Islamica*, (1953), p. 65-100.
VAJDA, G., Une liste d'autorités du calife al-Nāṣir li Dīn Allāh, dans *Arabica*, VI (1959), p. 173-177.
———, art. Ahl al-Kitab, dans *E.I.*[2] s.v.
WALZER, R., *Greek into Arabic, Essays on Islamic Philosophy*, Oriental Studies, I, Londres et Oxford, 1962.
WIET, GASTON, *Soieries persanes*, Mémoires de l'Institut d'Egypte t.52, Le Caire, 1947.
———, Le «Traité des famines» de Maqrīzī, dans *JESHO*, V (1962), p.58.
YAHYA b. SA'ID, *Annales*.
———, éd. ar. L. CHEIKHO, B. CARRA DE VAUXM H. ZAYAT, dans CSCO, vol. 51, p. 91-273.
———, éd. et tr. fr. *Histoire de Y. d'Antioche*, I. KRATCHKOVSKY et A. VASILEV, P.O XVIII p. 699-834; XXIII, p345-520.

ZAYAT, HABIB, (ar.). *Les Juifs au temps des califes abbassides*, *Machriq*, XXXVI (1938) p. 149-173 (repris dans *Ḥizāna* III, *1946, p. 54-78).*
———, *Martyrs chrétiens en Islam*, *Machriq* XXXVI (1938) p. 459-465 *(Ḥizāna*, III p. 102-108).
———, *La Capitation des chrétiens en Islam*, *Machriq* XLI (1947), p. 145-156, *(Ḥizāna*, IV, 1948, p. 54-65).
———, *Noms, prénoms et surnoms chrétiens en Islam*, *Machriq* XLII (1948) p. 1-21, *(Ḥizāna*, I, 1952, p. 1-21)
———, *Signes distinctifs des chrétiens et des juifs en Islam*, *Machriq* XLIII, (1949) p. 161-292 (Tiré à part, 1950, 94 pp.)

٢ ـ الدوريات والسلاسل

Arabica, Paris, 1954 ss.
Axes, Paris, 1969 ss.
***BEO** = Bulletin d'Etudes Orientales*, Damas, 1931, ss.
***BGA** = Bibliotheca Geographorum Arabicorum*, Leiden, 1917, ss.
***BSOAS** = Bulletin of the Royal School of Oriental Studies*, Londres, 1917, ss.
Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Le Caire, 1935, ss.
Byzantion, Bruxelles, 1924 ss.
Cahiers Archéologiques, Paris, 1945, ss.
Correspondance d'Orient, Bruxelles, 1962, ss.

***CSCO** = Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, (Paris) Louvain-Washington, 1903, ss.

***DHGE** = Dictionnaire d'Histoire et Géographie Ecclésiastiques*, Paris, 1912, ss.
***DTC** = Dictionnaire de Théologie Catholique*, Paris, 1930, ss.
***E.I.** = Encyclopédie de l'Islam* (éd. fr.), Leiden-Paris.
E.I.^{1} = 1ère éd. et supplément, 1908-1938.
E.I.^{2} = 2ème éd., 1954, ss.
ETI = En Terre d'Islam, Alger-Lyon, 1925-1948.
Etudes, Paris, 1856, ss.
Hesperis, Maroc, 1921, ss.
Iraq, Londres, 1934, ss.
Islam (Der --), Berlin-Leipzig, 1910, ss.
Islamic Culture, Hyderabad, 1927, ss.
Islamic Quarterly, Londres, 1954, ss.
Islamica, New York, 1924, ss.

Islamochristiana, Rome, 1975, ss. (Dirasāt islāmiya masiḥiya).
JA = *Journal Asiatique*, Paris, 1822, ss.
JAOS = *Journal of the American Oriental Society*, Yale, 1843, ss.
JESHO = *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Leiden, 1958, ss.
Journal of the Syriac Academy, v. Maǧallat.
JRAS = *Journal of The Royal Asiatic Society*, Londres, 1834, ss.
Lumière et Vie, Lyon, 1951, ss.
MIDEO = *Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales*, Le Caire, 1954, ss.
MIE = *Mémoires de l'Institut d'Egypte*, Le Caire, 1919, ss.
Muséon (Le --), Louvain, 1881, ss.
MUSJ = *Mélanges de l'Uneversité Saint Joseph (ex Mélanges de la Faculté Orientale)*, Beyrouth, 1906, ss.
Muslim World (The --), Hartford, 1911, ss.
Nouvelle Revue du Caire, 1975, ss.
Nouvelle Revue Théologique, Louvain, 1869, ss.
OC = *Oriens Christianus*, Rome-Leipzig, 1901, ss.
OCA = *Orientalia Christiana Analecta*, Rome, 1935, ss.
OCP = *Orientalia Christiana Periodica*, Rome, 1935, ss.
Oriens, Leiden, 1948, ss.
Orientalia Suecana, Uppsala, 1952, ss.
OS = *Orient Syrien (L' --)*, Paris, 1956-1967.
PIFD = *Publications de l'Institut Français de Damas*, 1933, ss.
PO = *Patrologia Orientalis*, Paris, 1903, ss.
POC = *Proche Orient Chrétien*, Jérusalem, 1951, ss.
Revue des Etudes Arméniennes, Paris, 1920-1932, 1964, ss.
REI = *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, 1927, ss.
Revue des Etudes Juives, Paris, 1880, ss.
Revue d'Histoire des Religions, Paris, 1880, ss.
Revue du Monde Musulman, Paris, 1906-1926 (puis: *REI*).
ROC = *Revue de l'Orient Chrétien*, Paris, 1896-1946.
RSO = *Rivista degli Studi Orientali*, Rome, 1922, ss.
Studia Islamica, Paris, 1954, ss.
SOC = *Studia Orientalia [Christiana]*, Le Caire, 1958, ss. (Id. Collectanea).
Table Ronde (La --), Paris, 1948, ss.
Travaux et Mémoires, Paris, 1965, ss.
ZA = *Zeitschrift für Assyriologie*, Leipzig-Berlin, 1886, ss.
ZDMG = *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, Leipzig, 1846, ss.

مقدّمة المترجم

ربّما كان من العصيّ أن تُجمع الوقائع التاريخيّة كلّها حول موضوع معيّن، والأمانة العلميّة تقتضي، مع ذلك، جمع أقصى ما هو متاح منها. والمؤرّخ أمام هذا الحشد العظيم من الوقائع لا يملك إلاّ أن يستقرئ بعض الأحكام، كما أنّه معرّض لمشكلة صعبة هي: كيف يتجنّب، قدر الوسع والطاقة، الحكمَ المنحاز الذي يصدر تارةً عن هوى المؤرّخ (سواء أكان شخصيًا أو محكومًا بتبعيّته لطائفة اجتماعيّة) وطورًا عن مسلّمات ميتافيزيقيّة لا تقع تحت التجربة والبرهان. وتشاء الأقدار أن يكون أبسط هذه الأحكام أفقرها بيّنة، وأكثرها تعميمًا، وأبعدها عن احتواء العدد الأكبر من الوقائع الجزئيّة بنظر الاعتبار.

لا يقبل الأب فييه بالنظرة الميتافيزيقيّة إلى العلاقة بين النصارى وبين دولة المسلمين في الشرق. لأنّه لا يرى لهؤلاء ولا لهذه صفات «الكلّ» المتجانس، أو الكيان الميتافيزيقيّ ذي الصفات الجوهريّة التي لا مدخل للصيرورة فيها. بل إنّ نظرته المركّزة على الجزئيّات تفرغ تاريخ العلاقة من مضمونه الأسطوريّ: موقف دولة المسلمين من النصارى ليس نابعاً من ماهيّته الخارجة عن الزمن، ولكنّه نابع من تاريخ هذه الدولة وظروف تشكّلها وملابساته، فضلاً عن الظروف الخارجيّة. ففي الممارسة الفعليّة للسلطة مجال للتناقض والسهو والخطأ والحسابات الشخصيّة، والكثير من قرارات ولاة الأمور تصدر عن مثل هذا.

لذلك يستنطق المؤلّف الوقائع الجزئيّة على هدي المتغيّرات التاريخيّة والظروف المحليّة ويحرص على وضع شهادات المؤرّخين المسلمين إلى جانب غيرها من شهادات

المؤرّخين النصارى لتقدير ما كان يجري، فيخلص إلى أن الموقف من النصارى كان محكومًا بإحداثيّات الزمان والمكان، وأنّ هبّات «الاضطهاد»، إذا صحّ أن تُسمّى كذلك، كانت على قلّتها متفرّقة لا شاملة، ناشئة عن احتكاكات فرديّة لا عن سياسة منظّمة مقصودة.

ولئن جاز لنا أن نستخلص العبرة من امتحان الأب فييه الحكمَ بالهوى (على علاقة النصارى بالمسلمين) أمام التاريخ، قلنا: إنّ هذا الحكم حكم قارّ لا يعبّر عن تموُّجات التاريخ، إنّه مسخ هائل تعجز أصابعه الضخمة عن الإمساك بجزئيّات التاريخ لتأمُّلها.

والكتاب، بعد هذا، جزء من ثلاثيّة تتناول أحوال النصارى السريان في ظلّ الساسانيّين فالعبّاسيّين فالمغول. وكان المؤلِّف الذي نزل بالموصل في العام ١٩٣٩، ولم يزل مقيمًا في المشرق منذئذٍ، قد مهّد لهذه الثلاثيّة بأربعة مجلّدات تستقصي كلّ ما يُعرف عن الديارات والكنائس والمواضع النصرانيّة بالعراق، ومقالات عديدة عن نصارى إيران القديمة، جمعت في مجلّد نُشر بلندن، وكتابات أخرى عن مؤلّفات وشخصيّات وأحداث مهمّة في تاريخ السريان.

وقد تطلّبت منّي ترجمة هذا الكتاب التحقُّق من اقتباساته العربيّة، فوقفتُ عليها واحدة واحدة وضبطتُها على أصولها، ثمّ قرأتُ الترجمة على المؤلِّف في جلسات مطوّلة لا تُنسى، كان من ثمارها مزيد من التدقيق في بعض المصادر، وتصحيح بعض المعلومات على هدي الدراسات التي استجدّت منذ صدور الأصل الفرنسيّ سنة ١٩٨٠. ونظرًا إلى اشتمال النصّ على أسماء مواضع ومفردات وعبارات غير مألوفة، ألحقت بالكتاب ملحقًا ألفبائيًّا في التعريف بها.

المقدّمة

لقد كُتبت عدّة تواريخ للكنائس السريانيّة في ظلّ العبّاسيّين، وقد وُصفت فيها حياة الكنائس الداخليّة وتنظيمها وإشعاعها الروحيّ والفكريّ والرساليّ بكثير من الاقتدار.[1] على أنّ أعمال البحّاثة المشرقيّين لم تحظَ بنصيب مماثل من الشهرة: فقد أثمرت أعمال المأسوف عليه رفائيل بابو إسحق البغداديّ والعلأمة حبيب الزيّات ثمارًا جمّة، ولا سيّما بفضل معرفة الأخير الواسعة بمجموعات المخطوطات.[2]

وقد نشرتُ[3] أنا، خصوصًا منذ ١٩٥٩، كلّ ما وجدته سواء في المصادر المكتوبة أو في أرض المشرق عن الأبرشيّات والأماكن والأديرة والقوائم الأسقفيّة والسنكسارات، إلخ. كان لا بدّ من إحصاء تلك الأماكن كلّها والتثبّت منها وتحديد مواقعها، كما لم يكن بدّ من إحصاء أولئك الأشخاص المذكورين في حياة الكنائس والتثبّت من أسمائهم ونسبتهم إلى بلدانهم. وقد تمّ هذا العمل التمهيديّ استنادًا إلى المصادر المسيحيّة السريانيّة والعربيّة بشكل أساسي.

بيد أنّ المصادر المسيحيّة السريانيّة الأصل لا تكفي. فقد عاش السريان مع جماعات مسيحيّة أخرى كالأرمن والأقباط والملكيّين بين ظهرانيّ شعوب إسلاميّة كالفرس والترك والعرب خصوصًا. وإنّ أخبار البطاركة التي جمعها كلّ من ماري وصليبا للمشارقة من السريان، وتواريخ ديونيسيوس التلمحري وميخائيل السريانيّ وابن العبري والرهاوي المجهول، إلخ، للمغاربة من السريان، تذكر ذكرًا عابرًا (وفي أغلب الأحيان مشوَّهًا) أسماء أصناف شتّى من الشخصيات: نصارى علمانيّين من

أطبّاء وكتّاب، أو حكّام غير نصارى من وزراء وأمراء وسلاطين وخلفاء ومَن شاكلهم. فمن أجل التحقّق من هؤلاء، وفهم علاقاتهم في ما بينهم بالتالي، كان لا بدّ من الالتفات إلى المصادر الإسلاميّة، والعربيّة منها بخاصّة.

في رأس هذه المصادر، كما لا يخفى، يأتي القرآن الكريم،[٤] إمام المسلمين في سلوكهم.

فقد حدّد الوحي الذي أوحيَ إلى النبيّ محمّد، ودوِّن في المصحف، الوضع القانونيّ لأهل الكتاب من سكّان الجزيرة العربيّة، حتّى من قبل الفتح الذي ضمّ إلى دار الإسلام جماعات من أهل الكتاب، النصارى بخاصّة، ممّن كانوا رعايا في الأمبراطوريّة الساسانيّة الفارسيّة: عرب ونبط (آراميّون)، والأمبراطوريّة البيزنطيّة (روم). هذا الوضع هو وضع المعاهدين.

فقد سُمح لهؤلاء الناس الذين لم يدخلوا في الدين الجديد بأن يستمرّوا في الإقامة بدار المسلمين.[٥] كانوا يتمتّعون بحماية (ذمّة) المسلمين وكانوا يعفون من الخدمة العسكريّة،[٦] على شرط أن يخضعوا لشرائع الإسلام ويؤدّوا الجزية. ولذلك سمّوا بأهل الذمّة أو بالذمّيّين.

ومع سير الفتوحات تغيّرت شروط تطبيق هذا المبدأ بحسب «العهود» التي كانت تكتب للبلدان المفتوحة صلحًا، بيد أنّ النصوص القرآنيّة الأساسيّة بقيت هي نفسها.

ثمّة آيتان من بين الآيات المتعلّقة بالنصارى واليهود، هما الأكثر ذكرًا. الأولى هي الآية ٢٩ من سورة التوبة[٧] وتختصّ بالجزية، الفريضة الموروثة من القانون الساسانيّ[٨] والطبيعيّة تمامًا في ذلك الوقت وفي ظروف الفتح. لذلك لم تكن فريضة الجزية المنصوص عليها في القسم الأوّل من الآية موضع أخذ وردّ، بل لم تزل مقبولة من حيث المبدأ. وهذه هي الآية: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية﴾**.

حقًّا كان مبلغ هذه الجزية عرضة لتخمينات تتراوح في الشدّة[٩]، ولكن بقيّة

الآية كانت مدعاة لتفسيرات متساهلة أحيانًا وصارمة أحيانًا أخرى. أمّا هذه البقيّة فهي: ﴿... عن يد وهم صاغرون﴾. وقد حمل بعض المتشدّدين هذه العبارة على المعنى الحرفيّ وذهبوا إلى اعتبارها توجب إذلال الذمّيّين، فمن ذلك ما تعرّضوا له أحيانًا من مضايقات يرقى مثالها الأوّل إلى الوثائق المتأخّرة المعروفة بالشروط العمريّة، التي سنراها في حينها.

أمّا الآية الثانية، التي فُسّرت أحيانًا تفسيرًا متشدّدًا، فتقول: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومَن يتولّهم منكم فإنّه منهم**﴾ (المائدة: ٥١). ولسوف يستشهد بهذه الآية كلّ الذين يريدون إقصاء المسيحيّين عن خدمة المسلمين ولا سيّما في الوظائف الرسميّة.(١٠)

على هذه القاعدة القرآنيّة حدّدت المذاهب الفقهيّة، في كتب الفقه، سبل السلوك النظريّة التي لم تحظَ دائمًا بالتطبيق والتي تتجاوز دراستها نطاق بحثنا. وقد قام بهذا الأمر خير قيام A.S. Tritton وأنطوان فتّال والمطران إدلبي.

وليس من غرضنا أيضًا أن ندرس العلاقات بين النصارى والمسلمين في ظلّ الأمويّين.(١١) لم يكن لخليفة دمشق صلة بالكنيسة السريانيّة الشرقيّة إلاّ من خلال ولاة العراق. وقد ترك تعريب الدواوين معظم الكتّاب النصارى في مراكزهم بيد أنّ أولى الإجراءات التمييزيّة ربّما بدأت في ظل أواخر الأمويّين. يعقد ابن قيّم الجوزيّة في كتابه أحكام أهل الذمّة فصلاً يجمع فيه تحت باب «المنع من استعمال اليهود والنصارى (في) شيء من ولايات المسلمين وأمورهم» (١٢) أهمّ الوثائق السابقة على عصره (القرن ١٤) فيجعل أوائل هذه الإجراءات في خلافة عمر بن عبد العزيز (أي بعد ٧١٧)،(١٣) مع أنّ الوثائق التي تُنسب إلى هذا الخليفة، من بين رسائل و«شروط» ربّما كانت ترقى إلى زمن متأخّر جدًّا عن زمنه، كما سنرى ذلك في موضعه.(١٤) وهذا يلفت انتباهنا إلى نقطة منهجيّة أولى. على الرغم من كراهة التأريخ المعاصر لتغليب توزيع الأحداث توزيعًا زمنيًّا متسلسلاً فإنّ دراستنا ستلتزم دائمًا بتأريخ الوقائع تأريخًا دقيقًا.(١٥) من ذلك أنّ موقفًا نجده في القرن ١٣ ربّما اختلف اختلافًا بيّنًا عن موقف نجده في صدر الإسلام. ولئن اقتصرنا على موضوع الجزية فليس بوسعنا أن نستخلص مبادئ عامّة من سلوك ابن فضلان

الصارم، لا سيّما إذا تذكّرنا توصيات فقيه آخر معاصر للرشيد، هو أبو يوسف يعقوب، إذ يقول: «ولا يُضرب أحد من أهل الذمّة في استيدائهم الجزية، ولا يُقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يُجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ولكن يُرفق بهم، ويُحبسون حتّى يؤدّوا ما عليهم ولا يخرجون من الحبس حتّى تُستوفى منهم الجزية».[١٦] ويقول: «قد ينبغي يا أمير المؤمنين أيّدك الله أن تتقدّم في الرفق بأهل ذمّة نبيّك وابن عمّك محمّد (ص) والتفقّد لهم حتّى لا يُظلموا ولا يُؤذوا ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم ولا يُؤخذ شيء من أموالهم إلاّ بحقّ يجب عليهم».[١٧]

إلى جانب العامل الزمنيّ الذي يجب أن يظلّ ماثلاً في الذهن، لا بدّ أيضًا من تجنّب عدّة مغالط. من ذلك أنّه ينبغي التحرّز الشديد من التعميم عند استعمال لفظَتيْ «المسلمون» و«النصارى» حتّى في داخل حقبة واحدة محدودة كخلافة «بني العبّاس» مثلاً.

فنحن، إذ نتكلّم عن النصارى المشرقيّين، لسنا أمام جماعة واحدة ولا أمام موقف موحّد في داخل الجماعات الفرعيّة: المشارقة من السريان (النساطرة)، المغاربة من السريان (اليعاقبة) أو الروم الملكيّون، كما أنّنا إذ نقف أمام الإسلام لا نجد جماعة قُدّت من قطعة واحدة. وكما يقول بحقّ محمّد أركون[١٨]: «إنّ ما نسمّيه الإسلام السنّيّ يمثّل واقعًا اجتماعيًّا ثقافيًّا ودينيًّا فرض نفسه في وقت متأخّر، وخصوصًا منذ القرن الرابع للهجرة. معنى هذا أنّ التنافس كان حتّى ذلك الحين حادًّا بين أشكال اجتماعيّة ثقافيّة لم تزل تتنازع إدارة المدينة. إنّ صروف الصراعات الشيعيّة السنيّة تعبّر، في الواقع، عن توازنات وإعادة توازنات مجتمع يعاني أزمة مستديمة: أزمة نموّ حتّى وفاة المأمون (٢١٨ هـ.)، ثمّ أزمة وهن عضويّ يصيب سلطة عاجزة عن محو الإشكال الأصليّ القائم في جوهر دولة المسلمين محوًا دائمًا. فإنّ هذه الدولة، التي يُفترض فيها أن تكون «ثيوقراطيّة عداليّة»، من حيث المبدأ، لم تستطع أبدًا أن تيسّر بالفعل، وفي منظور الأمّة الحاضر صوريًّا، اندماج الجماعات والطبقات والشعوب المتباينة جدًّا والتي كانت تقوم، كدولة، بأمر حكمها وتدبيرها».

من ذلك أنّنا عندما نقرأ المصادر الأصليّة أو نقرأ دراسات كلود كاهن،[١٩] فاروق عمر، ماريوس كانار، جورج لوكونت، هنري لاوست، جورج مقدسي،

شارل بلا، دومينيك سورديل، إلخ.، عن هذه الشخصيّة المهمّة أو تلك المرحلة المتميّزة من التاريخ، سرعان ما يتبيَّن لنا أن التقلّبات التي يفيد منها النصارى أو يذهبون ضحاياها (حتّى من قبل أن يحدّد «وضعهم» كأقليّة) ما هي إلاّ أصداء هامشيّة مصدرها التيّارات الكبرى وأحيانًا الدوّامات العنيفة التي تعصف بالمجتمعات الإسلاميّة نفسها. وهذا ما يفسّر كون مواقف المذاهب الفقهيّة المختلفة من النصارى بعيدة، حتّى نظريًّا، عن الإجماع.

لذلك كان لزامًا علينا، ومن منظورنا الضيّق، البقاء على أقرب مسافة ممكنة من النصوص لتحديد زمن وظروف هذا الحادث أو ذاك، هذا القرار أو ذاك. وإنّ ما يلفت النظر هو، كما سبق لترِيتون أن أشار، «أنّ المؤرّخين المسلمين (باستثناء المقريزي، إذن لمصر) لم يصرفوا اهتمامهم إلاّ نادرًا إلى التأريخ للأقليّات، ومنها النصارى».[٢٠]

وهذا يصحّ، من باب أولى، على كتب الأدب التي يغلب عليها التكلّف إلى حدّ يلجئنا إلى التردّد في الاغتراف منها مع خوفنا من إغفال بعض المعلومات النفيسة إذا أهملناها.

إنّ المؤرّخ إذ يقف أمام المؤلّفين المسلمين الذين «تنشأ معظم إشاراتهم إلى الذمّيّين من بعض الاضطرابات التي تقع بين هؤلاء وبين جيرانهم المسلمين»، وينظر إلى المؤلّفين المسيحيّين الذين «اعتادوا الإطناب في ذكر مساوئ المسلمين» معرّض لأن يوحي[٢١] بأنّه إنّما أراد تقديم «عرض لأعمال القمع والاضطهاد تتخلّله فترات أبهى».[٢٢]

فمن أجل تحاشي هذا الخطر و«استعادة المنظور الصحيح» لا بدّ من «توزيع الأحداث على إمبراطوريّة واسعة»[٢٣] وعلى مدّة زمنيّة متطاولة. هذا ما حاولناه متّبعين الحبكة التاريخيّة العامّة. ولا بدّ أيضًا من أن ننسب هذه الأحداث إلى الذهنيّة العامّة السائدة في ذلك الزمن، وإن كان هذا لا يغيّر شيئًا في الأحداث، كأن «نتخيّل، مثلاً، نوع المعاملة التي قد يلقاها في البلاد المسيحيّة المعاصرة أناس يدينون بغير الديانة السائدة» أو حتّى في حقبة أحدث، «كالظروف المفروضة على

الكاثوليك في إيرلندا الشماليّة...» هذا صحيح، ولذلك سأحمل نفسي، ما استطعت، بعد تأمّل الـ «كيف» على حزر الـ «لماذا»، حزر الذهنيّة المحيقة بالحدث.

فمن اليسير، في معالجة موضوع كالذي نتناوله، اتّهام الكاتب بالانحياز، أو قل بالتعصّب، ربّما لا لشيء إلاّ لأنّه يحرّك أحيانًا «ذكريات مؤلمة» كان من الأجدى (كما يقال) أن يطويها النسيان. لذلك أقول للقارئ إنّه ربّما كان أجدر به ألاّ يتوغّل أكثر في قراءة هذه الدراسة إذا لم يكن مستعدًا لأن يحسن الظنّ بي.

ثمّة مصدر أخير للصعوبات في عمل كهذا، ألا وهو خطّة الكتاب: كيف ينظّم عرض بحيث يكون عامًّا ومفصّلاً في الوقت نفسه، كما تمنّى كلود كاهن؟

بالنسبة إلى العصر العبّاسيّ أمامنا ستّة وثلاثون بطريركًا سريانيًا شرقيًا لا يقابلون إلاّ في العدد سبعة وثلاثين خليفة لأنّ ولايات الفريقين تتراكب. وسرعان ما يتبيّن لنا صعوبة تفضيل أحد التصنيفَيْن على الآخر: التصنيف بحسب البطاركة أو بحسب الخلفاء. والحقّ أنّنا قد أخذنا الاثنين في نظر الاعتبار وإن كنّا أميَل إلى إيلاء أهميّة أكبر للبيئة المسلمة التي عاش النصارى في أكنافها. ولّما كنّا قد اعتمدنا الخلفاء السبعة والثلاثين رؤوسًا للأقسام فقد أظهرنا، بإخراج طباعيّ مناسب، توالي البطاركة الستة والثلاثين ضمن الأقسام التي يندرجون تحتها. لم يغب عن بالنا أنّ الأولويّة التي اختصصنا بها الخلفاء قد يوجد ما يسوّغها بالنسبة إلى أوائل دولة بني العبّاس، أي عندما كان الخلفاء هم الشخصيّات البارزة (وإن كان لبعض وزرائهم دور مهمّ)، وأنّه لا يوجد حتمًا ما يسوّغها في العصور المتأخّرة من تلك الدولة كالقرن الشيعيّ في ظلّ البويهيّين أو التصلّب الدينيّ زمن السلاجقة.(٢٤) إنّ هذه التقسيمات الكلاسيكيّة نفسها لا تنطبق على موضوعنا، إذ إنّه من المحال أن نعمّم فنقول مثلاً إنّ «موقف» البويهيّين(٢٥) من النصارى كان كهذا بينما كان «موقف» السلاجقة كذاك...

إنّ الأمر ليكتسي صعوبة بالغة بالنسبة إلى الأواخر، لأنّ السلطة الحقيقيّة، من وجهة النظر التي تعنينا، أي من حيث العلاقة بالنصارى، كانت في أغلب الأحيان بيد العامّة الذين يحرّكهم القصّاص أو معلّمو المدارس (أمثال ابن فضلان)

الذين كان قرارهم يغلب على قرار أولئك الذين كانوا يمسكون اسميًا بزمام السلطة. ذلك لأنّ الحكّام لم تكن لهم أيّة رغبة في إرباك سلطتهم المتهافتة بمناصرة جماعة متناقصة الأهميّة، وإن لم يكن في وسعنا أن نحدّد التاريخ الدقيق الذي بدأ فيه هذا التغيّر يرتسم أو يزداد حدّة.

والحقّ أنّه مع كرّ السنين تضاعف عدد الذين دخلوا الإسلام من أهل الذمّة ولم يعد من همّ السلطة الالتفات إلى هذه الأقليّات المتناقصة. وقد تُوصّل إلى حل توفيقيّ ارتضى معه الذمّيّون التقوقع في وضع مواطنين من الدرجة الثانية على ما في هذا الوضع من الذلّة.[٢٦]

وإنّني مقرّ بعد هذا بالعجز عن إيجاد «حبكة واحدة» تنتظم هذا العمل، وإن عرّضني ذلك إلى تهمة كتابة تاريخ «أخباريّ»، لأن «البنى» التي يجب علينا تحليلها هنا هي بنى ذهنيّة أكثر ممّا هي بنى ماديّة: عندما تضيع ساقية في الرمل هل نستطيع أن نعرف متى بدأت تغور ومتى انتهت؟

ربّما كان على المؤرّخ هنا أن يستحيل عالمًا في الاجتماع[٢٧] لكي يحاول الكشف عن العوامل الخفيّة، غالبًا، التي تسود العلاقات المتحرّكة بين أهل الذمّة وممثّلي الأمّة الإسلاميّة في ذلك الزمن. نظرًا إلى استحالة عمل ذلك في الكلّ (لأنّ كلّ تعميم، حتّى في نطاق فترة زمنيّة قصيرة سيكون خاطئًا) سنقتصر على القيام بذلك في بعض الحالات المحدّدة التي نملك فيها عناصر الحكم. أمّا في معظم الأحيان فسنضطر إلى سرد الوقائع، من دون محاولة تأويلها.

الحواشي

(١) أنظر في ثبت المصادر والمراجع: HAGE. KAWERAU. TISSERANT إلخ. وعن تواريخ الأدب السريانيّ أو العربيّ المسيحيّ انظر: GRAF. CHABOT. ORTIZ DE URBINA. BAUMSTARK، برصوم، أبونا، إلخ.

(٢) وقد سبقت هذه الدراسة محاولة SHEDD الذي لم يكد يستند إلاّ على المصادر المسيحيّة. وإنّ ملحقاته لتمثّل تجربة أولى في سبيل تصنيف الأحداث البارزة في أبواب تجمعها. وهو يضيف أيضًا رواية قصيرة للشروط العمريّة (p. 235-238). وكذلك رسالة ماجستير في الجامعة

الأميركيّة ببيروت (١٩٤٢) بقلم عبد العزيز علوان تحت إشراف الأستاذ قسطنطين زريق. (لم أطّلع عليها).

(٣) تحاول الدراسة الحاضرة أن تسدّ الفراغ الواقع بين حقبة الفرثيّين والساسانيّين والتي كتبت عنها في **Jalons pour une histoire de l'Eglise en Iraq** (CSCO vol. 310, Subsidia, 36, 1970) وحقبة المغول التي أعالجها في **Chrétiens Syriaques sous les Mongols** (CSCO vol. 362, Subsidia 44, 1975).

(٤) يأسف الطيباوي، ص (٣٠)، لكون معظم المستشرقين، إن لم نقل كلّهم «لا يدرسون القرآن، وسيرة الرسول وبدايات تاريخ الإسلام على الأقلّ، آخذين وجهة النظر الإسلاميّة بعين الاعتبار الجادّ». وهو يرى أنّ عليهم أن يتذكّروا دائمًا أنّ «الإنسان، في الفكر الإسلاميّ، خاضع للتوجيه الإلهيّ كما نصّ عليه القرآن، ورسّخته سنّة الرسول وخلفائه الراشدين التي استلهمت هذا التوجيه». وما فتوحات الإسلام، ومنها علاقاته بالشعوب المغلوبة، إلاّ «تنفيذ للأمر الإلهيّ» (وتندرج بالتالي في تدبير لا يتغيّر)، كما أنّ «بعثة محمّد تتوجّه إلى الإنسانيّة جمعاء» (وهذا التدبير يحكم الجميع إذاً). لذلك فإنّ «نمط الإدارة» المستمدّ من هذين المبدأين قد أُقرّ وأُبرم ولا يجوز له أن يتغيّر بتغيّر الأمكنة والأزمان.

(٥) النووي، منهاج، ج ٣، ص ص ٢٧٥ ـ ٢٩٢.

(٦) يرد الطيباوي على قول بعض المستشرقين إنّ الربط بين الجزية والإعفاء قد يكون «تفسيرًا متأخّرًا». وهو يشير (بعد ARNOLD, **The Preaching of Islam**, p.21-62) إلى عدّة حالات أُعفي فيها بعض النصارى العرب من الجزية لدى قتالهم إلى جانب المسلمين. ويقول الطيباوي إنّ الجزية اكتسبت منذ خلافة عمر بن الخطّاب دلالة «قوميّة» وعسكريّة بعد أن كانت لها دلالة دينيّة في زمن الرسول.

(٧) يذهب BEN SHEMESH في مقدّمة الجزء الثالث، ص ص ٢٠ ـ ٢١ إلى أنّ الجزية المنصوص عليها في هذه الآية لم تكن إلاّ «ضريبة عقوبة جماعيّة» تعدّ علامة على الخضوع والتحقير وتصاحبها علائم الإذلال الخارجيّة. ويرى أنّ الفقهاء لم يقارنوها بالجزية الإيرانيّة والبيزنطيّة السابقتين على الإسلام إلاّ لاحقًا(؟).

(٨) DENNETT, P. 42، وقد اعتبرها الفرس من قبل علامة على الدونيّة يذهب C.E. BOSWORTH في Abu Abdallah al-Hwarizmi on the Technical Terms of the Secretary's Art, **JESHO**, 12 (1969), p.131-132 إلى أنّ اللفظ نفسه أراميّ أكثر ممّا هو فارسيّ، فهو يظهر في صورة جزيت/ جزيث في الإدارة الساسانيّة المتأثّرة جدًّا بالآراميّة.

(٩) أنظر مقالة CL. CAHEN تحت Djizya في E.I², II, p.573-576 والنويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٧، قاسم ص ٢٨.

(١٠) تستند كلمات الأسنوي إلى القرآن والحديث وأخبار الخلفاء. لا يشكّ هذا المفسّر المصريّ من القرن الرابع عشر في كون الشروط المفروضة على الذمّيّين أمورًا «اجتمع عليها حكّام

الشرع المطهّر أعزّه الله، ورؤوس أمراء المسلمين. . . فصار ذلك أمرًا محكومًا به لا تجوز مخالفته ولا يحلّ نقضه». الكلمات المهمّة في مباشرة أهل الذمّة، ص ٥.

(١١) هذا موضوع كتاب DENNETT عن العلاقات بين اعتناق الإسلام والجزية في أوائل الإسلام حيث يدرس السواد والشام والجزيرة (الرها) ومصر وخراسان. أنظر أيضًا الطيباوي، المرجع المذكور، AI-DURI, Notes on Taxation in Early Islam, in JESHO, XVII, (1974) p. 136-144. لا بدّ من أن يُدرس يومًا بدقّة موقف عمر بن الخطّاب من النصارى. فالمتطرّفون من القرون المتأخّرة ينسبون إليه ألوانًا من الأقوال، هل هذه الأقوال صحيحة؟ منها قوله: «لا تولوا اليهود والنصارى فإنّهم يقبلون الرشا في دينهم ولا يحلّ في دين الله الرشا» مذكور في مقالة A. Fetwa, Gottheil ص ٢٠٦ مع إحالة إلى الطرطوشي (المتوفى سنة ١١٢٦) والأبشيهي (المتوفى ١٤٤٦)، نضيف إلى ذلك الأسنوي (المتوفى ١٣٧٠) ص ٨. إنّ دراسة كهذه قد تدلّ على أنّنا كلّما ابتعدنا عن عصر عمر وجدنا الأقوال المنسوبة إليه أشدّ قسوة. وإنّ هذه الأقوال لتناقض، على أيّة حال، ما ينسبه إلى عمر ذلك الحنفيّ المتقدّم، أبو يوسف يعقوب (المتوفى ٧٩٨) من قوله قبيل موته: «أوصي الخليفة من بعدي بذمّة رسول الله (ص) أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم» ص ١٢٥. ـ حتّى عمر بن عبد العزيز كان يقول «إنّ الذين كانوا قبلي كانوا يُكلّفون أهل الذمّة فوق طاقتهم». كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ١٣٢. ـ وقد ورد هذا الموضوع في مؤتمر عُقد بعمان حول «بلاد الشام في العهد الأمويّ» بين الرابع والعشرين والتاسع والعشرين من تشرين الأوّل ١٩٨٧.

(١٢) ج ١، ص ٢٠٨ ـ ٢٣٨.

(١٣) W.W. BARTHOLD, Caliph Umar II and the Conflicting Reports on his Personality, in **Islamic Quarterly**, XV, p.69-95.

(١٤) ينبغي مقارنة هذا بكتب الفقه وبخاصّة كتاب الأحكام لابن قيّم الجوزيّة.

(١٥) ينبّه كلود كاهن، في نقده F. LOEKKEGARD, Islamic Taxation, dans **Arabica** المرجع المذكور آنفًا، ص ٣٥٣، إلى اللامبالاة بالمواقع والتواريخ، وإلى خطر رسم صورة جامدة وتركيب صورة متوسّطة (ومتناقضة) انطلاقاً من معطيات تتوالى في الحقيقة. ويرى P. RONDOT في المرجع المذكور ص ١٣٢، أنّ موقف المسلمين من النصارى لم يكن قطّ «تنفيذاً منهجيًا مطّردًا لمخطّط دقيق ومتماسك» بل تناوبًا مزاجيًا بين تدابير وديّة وتدابير قاسية. وهو يصف هذه «السياسة» بأنّها متقطّعة وأحيانًا متناقضة».

(١٦) ص ١٢٣.

(١٧) ص ١٢٤ ـ ١٢٥. يروي المؤلّف في هذا الشأن عن الرسول قوله: «مَن ظلم معاهدًا أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه». وقد استعمل الإمام الأوزاعي هذا الحديث عينه في توبيخ

صالح بن عليّ حاكم لبنان الذي نكل بالقبائل المغلوبة، البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمّد رضوان، مصر ١٩٣٢، ص ١٦٨.

(١٨) Miskawayh, p.161.

(١٩) في E.I². Dhimma.

(٢٠) المرجع المذكور، ص ١٥٠.

(٢١) هذا ما يأخذه المطران أدلبي على حبيب زيّات، سمات النصارى واليهود في الإسلام في MARMADUKE PICKTHALL,P.O.C. II (1952), p.192-193 وعلى TRITTON في مقاله (The Caliphs) في مجلّة Islamic Culture, IV (1930), p.474-477

(٢٢) «نصارى لبنان، في منطقة الشرق الأدنى» عبارة في عرف دكتور في علم الاجتماع، (Informations Catholiques Internationales, N 532, p.32) «مرادفة لـ : مضطهدين خلال خمسة عشر (كذا!) قرنًا» ـ أمّا R.B. BETTS في المرجع المذكور ص ٧ ـ ١٩ فيقدم على تسمية الفترة الممتدّة «من الفتح العربيّ حتّى حملة نابليون على مصر (٦٣٣ ـ ١٧٩٨): «The Dark Millenium» (ألف سنة من الظلام)...

(٢٣) مع التذكير بأنّنا لا نملك معلومات كافية عمّا كان يجري في ولايات عدّة.

(٢٤) قد نجمع الخلافات في أعصر كبرى كما فعل لاوست مثلاً في Les Schismes dans l'Islam ولكن هل أدّى الانتقال من عصر إلى عصر إلى تغيّر الموقف من المسيحيّين؟

(٢٥) كما لو كان للبويهيّين كلّهم، أو السلاجقة كلّهم موقف واحد!.

(٢٦) يقول كلود كاهن في ص ٢٣٦ من Dhimma المذكور آنفًا إنّه يجب التشديد على أنّ وضع الذمّيّين كان يتحوّل تدريجيًّا بسبب تحوّلهم في كلّ مكان من وضع الأكثريّة إلى وضع الأقليّة، ولكن كيف وصلت الأمور إلى هنا؟ ولئن ظهر، على وجه الإجمال، تصلّب ضدّ الذمّيّين في بلاد الإسلام ابتداء من القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، وكان للنسبة العدديّة الجديدة ضلع ماديًّا ومعنويًّا في ظهور هذا التصلّب، فكيف نفسّر هذه «النسبة الجديدة»؟ وما المقصود «بالعوامل الاجتماعيّة أصلاً التي أدّت حينًا إلى انكفاء الجماعات غير المسلمة وأحيانًا إلى اضمحلالها التامّ»؟

(٢٧) الفصل الأخير من كتاب بول فين (Comment on écrit l'Histoire (Seuil, 1971 المعنون: «التاريخ، علم الاجتماع، التاريخ الكامل» يدعوني إلى كثير من القلق. ولكن ربّما كنت، لما ينطوي عليه موضوع بحثي من تلاوين الأهواء، أدرى من أن أجازف باستخلاص نتائج قد تبدو للبعض منحازة ولكنّها تبدو لي مفتقرة إلى الإرهاف، بل قاصرة عن احترام الآخر.

١ ـ السفّاح (١٣٢ ـ ١٣٦/٧٤٩ ـ ٧٥٤)

I كان الجاثليق آبا الثاني[١] يدبّر، منذ ٧٤١، الكنيسة السريانيّة الشرقيّة التي كان يطلق عليها اسم «كنيسة بلاد فارس» لمّا استولى أبو العبّاس عبدالله الملقّب بالسفّاح[٢] على إيران كلّها وسار على الكوفة ثمّ انتصر في معركة الزاب سنة ٧٥٠ على آخر خلفاء بني أميّة، مروان (الحمار)، الذي مضى إلى مصر حيث قضى آخر أيّامه.

كان هذا التغيير في النظام موافقًا جدًّا للجاثليق وقومه.[٣] فقد كان أهل العراق[٤] والنصارى من أهل الذمّة بخاصّة، يذكرون أعمال التفرقة المهينة التي دبّرها بعض ولاة الأمويّين من أمثال الحجّاج بن يوسف (٧٥ ـ ٩٥/ ٦٩٤ ـ ٧١٤) وقريبه يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ ـ ١٢٦/ ٧٣٨ ـ ٧٤٣).

منذ الفتح الإسلاميّ، كانت المدائن[٥]، عواصم فارس القديمة ومقرّ كرسيّ الجثلقة، قد بدأت تفقد من أهميّتها. حتّى من قبل ولاية آبا الثاني، كانت أبواب مدينة بهرسير (التي كانت تضمّ كنيسة كوخي، كرسي مار ماري) قد نقلت إلى الكوفة، وكان البطريرك ايشوع يهب الثالث قد غادر البلدة إلى كركا دبيت سلوخ،[٦] أي كركوك الحاليّة. وقد ترك آبا الثاني أيضًا المدائن الملكيّة، في السنة السادسة لولايته، عندما اصطدم بمكائد سكّانها النصارى والتمرّد الذي أعلنه طلاّب المدرسة البطريركيّة هناك.[٧] وبعد أن عيّن عليها وكيلين انتقل أوّل الأمر إلى موطنه كسكر حيث أقام في دير واسط.[٨] ومن ثمّ نجده في الكوفة، ثمّ في الحيرة، ثمّ في

كسكر مرّة أخرى، وأخيرًا عاد إلى المدائن حيث توفّي. يروى أن آبا الثاني مات عن مئة وعشر سنين، في السنة الثانية لخلافة السفّاح. وربّما التقى الرجلان بالكوفة؟ على أيّة حال، إنّ السن العالية التي بلغها البطريرك، فضلاً عن هموم السفّاح، تجعلنا نستبعد انشغال الخليفة الجديد كثيرًا بأمور النصارى.

كان هذا الأخير يبحث عن مركز يقيم فيه إدارته. وقد استقرّ أوّلاً في الكوفة، حيث مكث سنتين وتسعة أشهر، ثمّ ارتحل وحلّ على مقربة من الأنبار[٩] حيث شرع في الثالث من حزيران سنة ٧٥٢، في بناء قصر ومدينة هي مدينة الهاشميّة[١٠] وهناك مات، وبها كان قبره.

لقد ركّز المؤرّخون في ما بعد على أهمّيّة بناء المنصور مدينة بغداد عاصمة نهائيّة للخلافة العبّاسيّة (باستثناء خمسين سنة في سامراء). والحقيقة أنّ العبّاسيّين كانوا قد مالوا إلى الخيار «الشرقيّ» منذ أن استقرّ السفّاح على الفرات الأوسط. ربّما كان السبب الحقيقيّ الرغبة في الابتعاد عن ناحية غلب عليها طابع الأمويّين المكروهين، ولكن هذا ربّما دلّ على خروج الخلافة في الوقت نفسه من فلك بيزنطية، الذي كانت دمشق من مواقعه المتقدّمة الباهرة، ودخول هذه الخلافة في فلك فارس، ومعلوم أنّ سلالة بني العبّاس قد انطلقت من خراسان. وقد تعزّز هذا التوجّه الشرقيّ بعد ذلك بعشرة أعوام، عندما أنشأ المنصور مدينة السلام دافعًا عاصمته نحو إيران، ناقلاً إيّاها من وادي الفرات إلى وادي دجلة.

جاثليقان متنازعان...

بعد وفاة آبا الثاني، ظلّ كرسي الجثلقة شاغرًا مدّة سنتين، بسبب الخلافات على مَن يخلفه. عندئذ، وفي السنة الثالثة لخلافة السفّاح (في العام ٧٥٢، إذن؟) «استشهد» (؟) الطبيب النصرانيّ إسرائيل،[١١] ولا نعرف شيئًا عن ظروف موته. ولقد شهد أوّل النزاع على خلافة الجاثليق الميّت محاولات الاستعانة بالقوّة الزمنيّة كسابق عصرها في النزاع على هذا المنصب أيّام الساسانيّين. في البداية جرت الأمور بعيدًا عن الخليفة وظلّت على المستوى المحلّي، بالمدائن، وقام بالدور الأوّل عامل المدينة الذي لا نعرف عنه إلاّ أن اسمه أبان.[١٢]

II كان أحد المرشّحين للجثلقة، واسمه سورين[١٣] قد نصِّب بالحيلة مطرانًا لنصّيبين، ثمّ نقل إلى حلوان ولم يكن له من مؤيّد لترشيحه إلاّ مطران مرو. لم يتورّع سورين هذا عن تجريد الكنائس من أوانيها الطقسيّة وستائرها النفيسة ليرشو العامل. فما كان من أبان إلاّ أن أكره، بقوّة جلاوزته، بقيّة المطارنة على رسم صاحبه جاثليقًا. ولكن الدخيل لم يمكث في السدّة إلاّ واحدًا وخمسين يومًا، لأنّ يعقوب مطران جنديسابور تمكّن من إعلام السفّاح بما جرى. عزل الخليفة عامل المدائن وأمر بردّ أموال الكنائس، وانتُخب يعقوب جاثليقًا شرعيًّا وبُعث سورين مطرانًا إلى البصرة. ولكن هذا لم يكفّ عن الكيد ليعود جاثليقًا، كما لم تكفّ رعيّته بالبصرة عن اعتباره كذلك.

أمّا يعقوب الذي ظلّ جاثليقًا من ٧٥٣ إلى ٧٧٣، فقد كان عجوزًا بلا حول ولا قوّة، وقبل، على ما روى الأخباريّ صليبا، كلّ الشروط التي فرضها عليه، عند انتخابه، المطارنة وحتّى رجال رعيّته النافذون، في أغلب الظنّ. إنّها المرّة الأولى التي نلتقي فيها، في ظلّ العبّاسيّين، بالعلمانيّين النصارى الذين كثيرًا ما سيطروا على الجثلقة أيّام الساسانيّين، وصنعوا تاريخ النصارى في الخلافة العبّاسيّة أسوةً بالجثالقة.

في قضيّة رسامة الجاثليق يعقوب سنة ٧٥٣، سنكتفي بالإشارة إلى وجود شخص مجهول اسمه يحيى بن إبراهيم[١٤]، رافق الجاثليق إلى المدائن ليستوثق، في ما يبدو، من مرور شعائر الرسامة بسلام. ولئن صحّ ظنّي في كون يحيى هذا نصرانيًا فلا ريب أنّه كان ذا منصب رسمي، ومن العسير عليّ أن أحدّد الآن ماهيّة هذا المنصب. وربّما كان هو الذي أعلم الخليفة باغتصاب سورين سدّة الجثلقة بعدما أقدم الأخير على فعلته.

أودّ أن أنبّه قبل اختتام فصل السفّاح إلى أنّ حركة دخول النصارى في الإسلام، التي تعزى جزئيًا إلى الرغبة في التحرّر من الجزية (وهي حركة بدأت منذ صدر الإسلام)[١٥] استمرّت في ظلّ الخليفة العبّاسيّ الأوّل. يقول ساويرس بن

المقفّع:(١٦) «وكتب عبد الملك إلى جميع مملكته أنّ كلّ مَن يصير على دينه ويصلّي كصلاته يكون بغير جزية، فمِنْ عِظمِ الخراج والكلفة عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه». وما يقوله ابن المقفّع عن مصر يصحّ على بقيّة نواحي المملكة.

الحواشي

(١) عن أبا الثاني، انظر ماري، ص ٦٦ - ٦٧، صليبا، ص ٦٢، ابن العبري، التاريخ الكنسي، ج ٢، عمود ١٥٤ - ١٥٦، إيليّا برشينايا، تاريخ، ص ٧٠.

(٢) ثمّة إشكال حول دلالة اللقب ما المقصود به، أهو الكثير العطاء أم الكثير سفك الدماء؟ أنظر B. LEWIS The Regal Titles of the First Abbasid Caliphs, dans **Studies**, cit II, p.15-16.

(٣) إبن العبري، وهو من المتأخرين جدًّا، لأنّ معظم تاريخه قد كتب بعد سقوط العبّاسيّين، يفضّل هؤلاء على الأمويّين قائلاً إنّ العبّاسيّين «كانوا أفضل من الذين كانوا بدمشق». إبن العبري، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٤ - ١٥٦. ومن غير المجدي، أن نبحث على مَ يستند R.B. BETTS, (cit p10) عندما يكتب: «في منتصف القرن الثامن كان النصارى ورؤساؤهم قد أدركوا أنّ التسامح الإسلاميّ الرسميّ، الذي بدا جذّابًا منذ حوالى قرن، لم يكن في الواقع إلاّ سجنًا صارمًا لا مناص منه إلاّ بالإسلام أو الفرار»، فمن نكد الحظّ أنّ مثل هذه التعميمات السهلة شائعة جدًّا.

(٤) لم يكن العراق الغربيّ يشتمل في ذلك العصر إلاّ على القسم الجنوبيّ من العراق الحاليّ، وكان شماله يشكّل ولاية الجزيرة.

(٥) على بعد ٣٥ كلم إلى الجنوب من بغداد.

(٦) **Chron. anon. 670/680**, tr. GUIDI, p26

(٧) Lettre d'Aba II aux membres de l'Ecole, texte syr et tr. fr. J.B. CHABOT, dans **Actes du XI Congrès des orientalistes**, Paris, 1897 (1898), quatrième section, p. 295-335.

(٨) لقد أبحتُ لنفسي الإحالة إلى فهارس مجلّداتي «أشور المسيحيّة» Assyrie Chrétienne للاستعلام عن البلدات المسيحيّة بالعراق، وعن بلدات إيران أحلت إلى مجموعة مقالاتي الصادرة في مجموعة، Variorum Reprints, Londres, 1979.

(٩) هنا استكتب أبا العلاء حسّان بن سنان التنّوخي، من نصارى الأنبار «على جميع أمره» وكان حسّان قد أسلم قبل هذا وحسن إسلامه، «وكان يتكلّم ويقرأ ويكتب بالعربيّة وبالفارسيّة وبالسريانيّة». وقد عمّر حتّى أدرك خلافة الرشيد في العام ١٨٦/٨٠٥ وكان قد بلغ حينها ١٢٠ سنة. التنّوخي، نشوار، ج ٦، ص ١٠٠، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٨، ص ٢٥٩.

(١٠) يذهب المقدسي، ص ١١٩ ـ ١٢١، إلى أنّ السفّاح هو الذي أحدث بغداد، ثمّ بنى فيها المنصور مدينة السلام.

(١١) صليبا، ص ٦٣.

(١٢) لم يظهر اسمه بين أسماء الولاة الذين أحصاهم صالح أحمد العليّ في مقاله «المدائن في المصادر العربيّة»، في سومر، المجلّد ٢٣ (١٩٦٧)، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١٣) ماري، ص ٦٧ ـ ٧٠، صليبا، ص ٦٢ ـ ٦٣، ١٥٦، ابن العبري، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦.

(١٤) المسمّى «المقلّد» أو الملقّب به؟

(١٥) يقدّم ARNOLD في ص ٨١ ـ ٨٤ أمثلة على بعض هذه الحالات بين خلافتي عمر وعبد الملك، وبخاصّة في خلافة عمر بن عبد العزيز.

(١٦) كتاب سير الآباء البطاركة، P.O. ، ج ٥، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

٢ ـ المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨/٧٥٤ ـ ٧٧٥)

بعد تردّد كان لا بدّ منه خلال عهد الخليفة العبّاسيّ الأوّل، اتّخذت الخلافة العبّاسيّة المتزايدة القوّة اتّجاهًا دائمًا، ومركزًا ثابتًا في بغداد خلال خلافة واحد من أكابر الخلفاء، ألا وهو أبو جعفر عبدالله المنصور.[١]

من المحال أن نظهر الخليفة الجديد في لوحة تبيّن جوانب شخصيّته كلّها. فالمزايا التي ينسبها إليه المسعودي، مثلاً،[٢] لم تكن تزيّنه إلاّ في أواخر خلافته التي دامت ثلاثًا وعشرين سنة. فقد كان كما يقول المؤرّخ نفسه «محنّك السنّ حازم الرأي قد عركته الدهور وحلّت الأيّام سطوته».[٣]

ولا بدّ أيضًا من التمييز، في تعامله مع النصارى، بين طريقته في التعامل مع نصارى الثغور الملكيّين والمغاربة من السريان (اليعاقبة)، وخصوصًا إبّان الحملات على العدو البيزنطيّ، حليفهم الطبيعيّ، وبين طريقته في التعامل مع أولئك المقيمين في قلب دار الإسلام ببغداد بخاصّة، أي مع المشارقة من السريان (النساطرة).

زد على ذلك أن وشايات (بعض الحسّاد من النصارى، أو حتّى المطارنة) كانت تؤدّي في العديد من الأحوال، كما سنبيّنه من بعد، إلى عواقب وخيمة على مصائر إخوانهم في الملّة أو حتّى على بطاركتهم. والأنكى من هذا أنّ بعض النصارى لم يكتفوا بتبادل الاتّهامات بل استغلّوا قربهم من السلطة للإثراء وأبدوا من مظاهر الخيلاء ما استعظم المسلمون احتماله. من ذلك كانت الشكاوى إلى الخليفة وبعض ردود الفعل العنيفة أحيانًا.[٤]

بعد تولّي الخلافة، أي في ١٣٦ ـ ١٣٧/٧٥٤ ـ ٧٥٥، كان على المنصور أن

يهتمّ ببعض شؤون النصارى. فمن ذلك أن طبيبًا نصرانيًا اسمه سرجيس، كان في خدمة نصر، صاحب الجيش، توصّل بوساطة سيّده إلى استدراج البلاط إلى التدخّل في النزاع بين الجاثليق يعقوب الثاني[٥] ومنافسه المخلوع سورين. كان ذلك الطبيب من أنصار سورين، وقد استصدر أمرًا من الخليفة بخلع يعقوب، فأبعد هذا عن منصبه. ربّما نسب إلى الخليفة، من جرّاء ذلك، شيء من التهوّر، ولكنّه لم يكن يتجاوز السادسة والثلاثين آنذاك! وقد تعلّم الخليفة بسرعة أنّ شؤون النصارى في ما بينهم وفي ما يخصّ علاقاتهم بالمسلمين معقّدة جدًّا. وفي الخبر التالي مثال على ذلك.

عيون الخليفة

يبدو أنّ إحدى أوائل المشكلات بين الخليفة والنصارى قد نشأت عن الثقة التي أولاهم إيّاها، في غرّة عهده، ليكونوا عيونًا له تترصّد مَن بقي حيًّا من آل أميّة وأتباعهم.[٦]

كانت فرصة سانحة: فكلّ ما يخطر بالبال من ملاحقة وابتزاز وتنكيد من كلّ ضرب كان يُمارس تحت ستار هذه المهمّة. فمن ذلك أنّه لّما أراد راهب يُدعى زُعاره، من دير مار متّى القريب من الموصل، أن يستولي على نفائس ديره، اتّهم إخوانه بالتستّر زاعمًا: «أنّ ذهب بني هشام وبني مروان كان بالدير». فما كان من السلطة إلاّ أن أصدرت «أمرًا عامًّا بالقبض على رؤساء الأديرة والكنائس وبإحصاء أموال الأديرة والكنائس والمعابد».[٧] ولو أنّ النصارى اكتفوا بالتناهب في ما بينهم لهان الأمر. إلاّ أنّهم تجرّأوا على التستّر وراء «مهمّتهم» ليظلموا المسلمين ويعرقلوا أشغالهم ويتطلّعوا إلى أموالهم ويمسّوا كراماتهم. وقد جاء الردّ عندما حجّ[٨] المنصور أي في العام ١٤٠/٧٧٦ - ٧٧٧.[٩]

عندئذٍ اشتكى نفر من المسلمين إلى نديمه شبيب بن شيبة،[١٠] الذي أوصل شكواهم إلى الخليفة. فأمر الخليفة حاجبه الربيع بن يونس[١١] بأن يكتب إلى الولاة بعزل الذمّيّين من مناصبهم والاستعاضة عنهم بغيرهم من المسلمين. ويروى أنّ شبيبًا لّما رأى الخليفة يأمر بذلك قال له: «يا أمير المؤمنين، إنّ المسلمين لا يأتونك

وهؤلاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدّة، فكلّما ولّيت رجلاً عزلت آخر».(١٢)

إنّ هذا الخبر ليطلعنا على مبلغ النفوذ الذي كان لبعض النصارى، ولا سيّما الكتّاب منهم، لدى الخليفة وحاشيته،(١٣) إذ قد كان عليه وعلى حاشيته أن يتحمّلوا مكائدهم لصعوبة الاستغناء عن خدماتهم حتّى ذلك الوقت.

شؤون اليعاقبة

ولكن الأمبراطوريّة العبّاسيّة لم تكن تضمّ النساطرة وحدهم، أي المشارقة من السريان بل كان هناك المغاربة منهم الملقّبون باليعاقبة والذين كان مقرّ بطريركهم في أنطاكية. عند هؤلاء كانت خلافة البطريرك تسبّب أزمة يستعين أطراف النزاع فيها بالسلطة السياسيّة.(١٤)

في العام ٧٥٥ وبعد وفاة بطريرك أنطاكية إيوانيس (يوحنّا الخامس) أوحى مقاتل بن حكيم العكي والي الجزيرة(١٥) إلى المنصور أنّ أحد رهبان دير قرطمين، واسمه إسحق الحراني، يحسن علم الصنعة. وقد أثار هذا اهتمام الخليفة الذي كان يعتقد باستحالة المعادن،(١٦) وكان يحتاج إلى ذهب كثير لعساكره. لذلك نصّب المطارنة اليعاقبة إسحق الحراني بأمر من الخليفة فما كان من الكنيسة السريانيّة الغربيّة إلاّ أن رفضت الاعتراف بشرعيّته لأنّه لم يُنتخب انتخابًا حرًّا. ولكن من نكد الدنيا على إسحق أنّ الخليفة لم يلبث أن اكتشف مخرقته قبل نهاية العام، فأمر به فخنق(١٧) وألقيت جثّته بالفرات.

وفي السنة عينها، توصّل غاصب آخر اسمه أثناسيوس الصندليّ إلى أن يُعيّن بطريركًا لأنطاكية وتوصّل أيضًا إلى الحصول، بوساطة أصحابه في البلاط، على عهد الخليفة بتعيينه. وهذا الغاصب أيضًا مات شرّ ميتة في نهاية حياة حافلة بالمكائد.(١٨) أخيرًا وفي العام ٧٥٨ انتخب المطارنة اليعاقبة، في صورة شرعيّة، وفي مجمع لهم عقدوه في منبج البطريرك جرجس البعلتاني.(١٩)

هل أرهق البطريرك رعاياه بمطالبه؟ هذا على الأقلّ ما اتّهمه به داود أسقف

دارا، الذي وشى برئيسه إلى مالك، كاتب الخليفة، مزوّقًا وشايته بحجج من شأنها إثارة السلطات المسلمة: فالبطريرك لم يكتف بالتقاعس عن طلب عهد الخليفة بتثبيته، بل فعل ذلك عمدًا لكي يتجنّب، فيما قال «إدخال اسم النبيّ في صرّته».

وقد قُبض على جرجس وعُذّب على الرغم من فجاجة الافتراء.[٢٠] ولكنّه استطاع أن يردّ التهم الملفّقة ضده في سهولة (ألم يكن يحمل في صرّته اسم النبيّ المكتوب على دنانير الخليفة؟).[٢١] إلاّ أن فطنته ألهمت الخليفة سؤالاً لم يكن في الحسبان وإن كان يعبّر عن اهتماماته الماليّة: ألم يكن جرجس هذا يعرف علم الصنعة؟ ومن سوء الطالع أن البطريرك لم يقدر على الإجابة إلاّ بالنفي. ولم يدم حسن المعاملة الناجم عن اهتمام الخليفة العابر إلاّ قليلاً، وتوقّف عندما أدرك الخليفة أنّه لن ينتفع من جرجس بشيء. وقد بقي جرجس في السجن ببغداد تسع سنوات[٢٢] حتّى تولّي خليفة المنصور، أي من ٧٦٦ إلى ٧٧٥.

في هذه الأثناء أوعز المنصور إلى المطارنة بتعيين داود أسقف دارا المفتري بطريركًا على أنطاكية. ولدى رسامته المفروضة أحاط عسكر الخليفة بالمذبح شاهرين سيوفهم وأكرهوا رعيّته على قبول القربان من يده. وكان من جرّاء ذلك أن استتر عدد من المطارنة وجابوا أبرشياتهم متنكّرين بثياب بيض كالتي يلبسها العلمانيّون لا بالمسوح السود التي للرهبان، ذلك «لأنّ الملك أعطى الغاصب خطًّا بسجن كلّ مَن لم يطعه، وضربه وإهلاكه».[٢٣] ولا يُلام المسلمون على تعدّيات ارتكبوها ضد بعض النصارى نزولاً عند طلب نصارى آخرين من أبناء ملّتهم.

النصارى وتأسيس «بغداد»

يعدّ تأسيس بغداد «عادة واحدًا من أهمّ الأحداث العظام في تاريخ العالم الإسلاميّ»[٢٤] ومع ذلك فالمنصور لم يؤسّس بغداد، بل إنّ ما بناه في السنة التاسعة من خلافته ١٤٥/٧٦٢، هو مدينة السلام، المدينة المدوّرة التي أراد أن يسكن فيها أصحابه الخراسانيّين.

وقد أدّى نموّ العمران نموًّا سريعًا حول المدينة المدوّرة، ومن ثمّ على الضفة

الشرقيّة لدجلة، إلى غلبة الاسم القديم،[٢٥] الذي كانت تتسمّى به إحدى البليدات الصغيرة التي احتوتها عاصمة العبّاسيّين، على العاصمة نفسها.

كان السلوقيّون قد غادروا من قبل وادي الفرات إلى وادي دجلة، تاركين بابل ليؤسّسوا سلوقية تنفيذاً لإرادة الانقطاع عن نظام الحكم القديم ومخالفته، لأسباب تشبه الأسباب التي دعت العبّاسيّين إلى الاستقرار في العراق. ولقد ابتعد المنصور أكثر عن مراكز الأمويّين، ولكنّه خضع أيضًا لجاذبيّة عاصمة الساسانيّين، المدائن الملكيّة سلوقية، طيسفون وما إليهما.

لِمَ لا يكون المنصور قد اتّخذ في بساطة هذا الموقع الرائع حيث يداني دجلة الفرات ويتّصل به عبر نهر الملك؟ ألم يأخذه الفرثيّون عن السلوقيّين وزادوا طيسفون، مدينتهم الخاصّة على سلوقية مدينة السلوقيّين ثمّ مرفأ بلاشاباد، واتّخذها الساسانيّون فبنوا إلى جانبها بهراسير. كان ثمّة ما يغري بالظنّ أنّ حضور الأكاسرة قد استؤصل منها منذ أن غادرها ولاة الأمويّين إلى الكوفة. ولكن ربّما كانت المدائن الملكيّة قد أصبحت أكثر تهلهلاً بعد أن انتزعت بواباتها وتداعت أسوارها وأحدثت فيها فيضانات دجلة ثغرات شتّى.[٢٦] على أيّة حال، لقد اختار المنصور موقعاً يبعد خمسة وثلاثين كيلومترًا إلى الشمال.[٢٧]

في ذلك الزمن جرى أمر يكشف عن العقليّات السائدة.[٢٨] فقد اقترح أبو أيّوب المرياني[٢٩] الوزير، الذي كان فارسيًّا من خوزستان لا إيرانيًّا، أن ينقض طاق كسرى ليستعمل لبناته في البناء. فحاول خالد البرمكي، الذي هاله الأمر، أن يجد الأعذار ليصرف المنصور عمّا عزم عليه قال: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام(؟)... وهو مصلى عليّ بن أبي طالب (ع) والمؤونة في نقضه أكثر من نفعه» فأجابه المنصور: «أبيت يا خالد إلاّ ميلاً إلى العجميّة؟».[٣٠] لذلك نقض قسم من الطاق، وفاقت النفقة الوفر المرتجى لأنّ كلّ نقلة كانت تستغرق يومين ذهابًا وإيابًا.

عندئذٍ أراد المنصور الرجوع عمّا أراد فقال لخالد: «قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم الإيوان» إلاّ أنّ خالداً نصح له بمواصلة الهدم حتّى لا يقال إنّ الخليفة أضعف همّة من نقض ما بناه غيره، فكان أن أصرّ وتوقّف الهدم.[٣١] حتّى إنّه أمر بعد

ذلك، وقبل موته بأربعة أعوام بترميم قصر الساسانيّين الأبيض في طيسفون وفرض غرامة ماليّة على كلّ مَن وجدت في حوزته لبنات من قصر كسرى، وكأنّي به قد أحسّ أخيرًا بسحر المشهد. بالنسبة إلى الكنيسة السريانيّة الشرقيّة أيضًا كان تأسيس بغداد يعني العودة إلى مركزها التقليديّ في ما يسمّونه بيت أرامايي أي ديار الآراميّين. ذلك أنّ الموقع الذي اختاره الخليفة لبناء عاصمته كان محفوفًا بالأديرة صغارها وكبارها، وللرهبان دور عظيم الأهمّيّة في الأساطير المتنبّئة بتأسيس المدينة.[٣٢] كان ثمّة دير على مقربة من الموضع الذي بُني فيه قصر الخلد. إلى الشرق، وبالقرب من قرية العتيقة كان ثمّة دير آخر لمار فثيون نزل به المنصور وطرد منه بعض المسلمين الذين ملكوه بوضع اليد.[٣٣]

بديهيّ أنّ الخليفة لم يخطّط لحيّ النصارى في مدينة السلام، لأنّه كان ينوي إيواء أصحابه الخراسانيّين. ومع ذلك سرعان ما نشأت زيادة على قرية العتيقة وديرها (مار فثيون)، ضاحية لليعاقبة بالقرب من باب المحوّل (مع كنيسة لمار توما) وإلى الجنوب الغربيّ من الكرخ، وحيّ للروم والنساطرة بالقرب من باب الشماسيّة، الباب الشماليّ للرصافة التي بُنيت سنة ٧٦٨/١٥١ لابن الخليفة الذي صار من بعد يُعرف بالخليفة المهدي.

طبيب عظيم

في العام ٧٦٥/١٤٨، وبعد ثلاث سنوات من تأسيس بغداد «مرض (المنصور) وفسدت معدته»[٣٤] ولّما عجز أطبّاء المدينة عن شفائه ذكر له اسم أحد معلّميّ مدرسة جنديسابور الشهيرة، ومدير بيمارستان تلك المدينة الطبيب النسطوريّ جورجيس بن جبرائيل من بني بختيشوع، الذين اشتُهروا في ما بعد.[٣٥]

عندما بلغه أمر الخليفة بالشخوص إلى بغداد للتوّ، أراد الطبيب الذي لم يكن معتادًا على طاعة الأوامر أن يهيّئ نفسه للسفر خلال أربعة أيّام. إلاّ أنّ عامل المدينة أمهله حتّى الغد ولّما امتنع اعتقله وأراد اصطحابه بالقوّة. ولكنّ جورجيس كان محبوبًا من الشعب في جنديسابور إلى حدّ أن خبر اعتقاله أثار الشغب في المدينة. ومن حسن التوفيق أنّ المطران هدّأ الجموع وأقنع جورجيس بالمسير، وترك

إدارة البيمارستان لابنه بختيشوع. كان الابن يفضّل مرافقة أبيه إلى العاصمة ولكن الأب أقنعه بالبقاء حيث هو واصطحب معه تلميذه إبراهيم. وقد توصّل بختيشوع بدوره إلى إقناع والده باصطحاب تلميذ آخر، معروف بسوء فعاله هو عيسى بن شهلوفا[٣٦] الذي حظي من بعد بصيت مشؤوم في بغداد. أمّا في ذلك الوقت فكان يقال عنه إنّه «يؤذي أهل البيمارستان».

كان أوّل لقاء بين الطبيب ومريضه الكبير ناجحًا. فقد مدح جورجيس الخليفة بخطبة بليغة بالفارسيّة وبالعربيّة،[٣٧] فاستحقّ بذلك رضا الخليفة وإنعامه. أمّا العلاج الذي بدا أنّه سيطول فقد كان يبشّر بالشفاء.

غير أنّ ظلاً من الإزعاج ظلّ يشوب إقامة الطبيب، إذ لم يقدّم له الخمر مع أوّل وجبة طعام جلبت له.[٣٨] ولّما طالبهم بها قيل له بامتعاض: «إنّ الشراب لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين،[٣٩] فأجاب: «لا آكل طعامًا ليس معه شراب» ولّما تيقّن أن لا سبيل إلى نيل مراده تجمّل بالصبر وارتضى الشرب من ماء دجلة، وكذلك كان شأنه في العشاء. ويبدو أنّه اقتنع في اليوم التالي بمشروبه الجديد، إذ نسمعه يقول: «ما كنتُ أحسب شيئًا يجزي من الشراب، فهذا ماء دجلة يجزي من الشراب».

ويسوق لنا ابن أبي أصيبعة الأخبار برواية أخرى، تبدو لنا أشبه بطبع الطبيب. بعد أيّام على وصوله لاحظ الخليفة أنّ سحنته قد تغيّرت، فارتاب من الأمر وسأل وزيره الربيع: «لا تكون قد منعته ممّا يشربه على عادته؟» فأجابه الربيع أن نعم، فأمر الخليفة بأن يجلب للطبيب من أفضل خمور قطربل...

مع وصول جورجيس حصل النساطرة على نصير عظيم النفوذ قادر على بلوغ أذن الخليفة الذي كان إعجابه به يزداد يومًا بعد يوم. وكان من خبر ذلك هذه القصّة الطريفة عن الهديّة التي أهداها الخليفة إلى طبيبه[٤٠] في عيد الميلاد سنة ١٥١/٧٦٨: فلمّا بلغ المنصور أنّ جورجيس قد غادر في عيلام زوجته التي شاخت وأقعدها الوهن عن القيام على رجليها، بعث إليه ثلاثة آلاف دينار مع ثلاث جوار روميّات حسان بصحبة سالم الخصيّ. ولكنّ جورجيس ردّ الجواري وقال للخليفة:

«هؤلاء لا يكونون معي في بيت واحد. لأنّنا معشر النصارى لا نتزوّج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها. فحسن موقعه من الخليفة، وأمر في وقته أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه ويخدمهن».(٤١)

وقد زاد إثر ذلك موضع الطبيب في عين الخليفة وعظم محلّه، فهل أدّى تزايد نفوذ جورجيس إلى تغيّر موقف الخليفة من الجاثليقَين المتنافسَين؟ لقد بدا أنّ المنصور، الذي أصغى في غرّة خلافته إلى نصر صاحب الجيش ومال إلى سورين الدخيل وأيّده ضد الجاثليق الشرعيّ يعقوب، قد صار أميل إلى يعقوب حتّى إنّه حبس سورين. على أيّة حال، إن توالي دخول المتنافسين إلى السجن وخروجهما منه أمر يصعب تحديد تسلسله الزمنيّ، لأنّه يوافق تفاوت نصيب حماتهما العلمانيّين من رضا الخليفة وسخطه.

وقد جرى أمر آخر في أثناء وجود جورجيس الطبيب ببغداد، هذا إذا أصاب ابن العبري عندما أرّخ لبناء كنيسة صغيرة للنساطرة في تكريت سنة ٧٦٧/١٥٠.

نقرأ في تاريخه لتلك الحقبة أنّ الأسقف صليبا زخا قد خرج من السجن الذي كان فيه مع الجاثليق يعقوب، وبدأ بترميم كنائس أبرشيّته بالطيرهان، ومعلوم أنّ ترميم الكنائس يدلّ دائمًا على تحسّن العلاقة بالسلطة في دار الإسلام. وفي الحالة التي بين أيدينا، عقد اتّفاق ثلاثيّ بين كبير أساقفة اليعاقبة (بمباركة بطريركه المحبوس) وقبريانوس مطران نصيبين النسطوريّ، وصليبا زخا أسقف الطيرهان النسطوريّ، أُتيح بموجبه لصليبا أن يبني كنيسة صغيرة بتكريت عاصمة اليعاقبة بدلاً من كنيسة القدّيس ضوميط التي ردّت إلى يعاقبة نصيبين من بعدما أخذها منهم النساطرة.(٤٢) ولكنّ جورجيس بن بختيشوع مرض وكان ذلك من سوء حظّ الخليفة الذي شفي على يديه ومن سوء حظّ النصارى الذين نعموا بحمايته، فأذن له المنصور بالعودة إلى جنديسابور.

ولّما مثل بين يدي الخليفة ليستأذنه بالمسير، دعاه الخليفة إلى الإسلام قائلاً: «أسلم وأنا أضمن لك الجنّة». ولكنّ الطبيب تجرّأ على الردّ قائلاً: «رضيت حيث آبائي في الجنّة أو في النار».(٤٣) سنرى مرارًا أكابر المسلمين يستهلّون حديثهم

بدعوة كهذه. فهذا واجب عليهم[٤٤] ولم يكن المستنيرون منهم يستاؤون إذا ما أخفقت محاولتهم.[٤٥] لذلك حصل جورجيس الطبيب على هديّة وداع بلغت عشرة آلاف دينار. وقبل أن يغادر أوصى بعيسى بن شهلوفا بديلاً عنه، وكان ذلك سنة ٧٦٩/١٥٢.

الطبيب الملعون

كان عيسى بن شهلوفا شمَّاسًا نسطوريًا، وقد قدَّر المنصور براعته في الطبّ. ومع ذلك فلا أحد يصنّف عيسى هذا في مصاف كبار الأطبّاء، ولم يؤثر عنه أيّ عمل مكتوب، لا نقلاً عن اليونانيّة أو السريانيّة ولا تأليفًا من عند نفسه.

عندما أراد الخليفة، الذي لم يزل في حاجة إلى المال،[٤٦] أن يزيد الخراج، وكل أمر النصارى إلى طبيبه الجديد الأثير. فما لبث هذا أن استدعى الجاثليق (رئيسه الدينيّ!) الذي لم يجرؤ على رفض المثول أمامه بل جاء في رهط من ستّة وثلاثين أسقفًا، ربّما في محاولة للتهويل على الداهية المقتدر. إلاّ أنّ عيسى نظر إليهم باستعلاء، وتكلّف مدّ يده إليهم ليقبّلوها. فما كان من شليمون أسقف حديثة الموصل الملتهب إلاّ أن قرّعه تقريعًا شديداً ووصفه بأنّه «يهوذا الثاني». وقد دفع شليمون ثمن جرأته غاليًا.[٤٧]

حاول الرؤساء الدينيّون جاهدين أن يستعملوا ضدّ عيسى نفوذ نصرانيّ آخر ذي مكانة هو ابن الطباخ الكسكري صاحب بيت المال، ولكن هذا لم يكن قرن ذاك.

وقد ذهب الخيلاء والحميّة بالشمّاس المتغطرس إلى حد العمل على حبس جاثليقه. وعندئذٍ خلا له الجو ليأمر الأساقفة بتسليمه أموال الكنائس، ويعزل أولئك الذين رفضوا الانصياع لأوامره: وقد أعانه على مراده أنّ سورين الدخيل كان دائمًا جاهزًا لرسامة أساقفة جدد... وإنّ المرء ليفهم الآن الظروف التي دفعت ماري[٤٨] إلى أن يقول: «وبسطت أيدي العمّال على النصارى وفارق بعضهم دينه».[٤٩]

المصادر المسيحيّة تذكر اسم أحد هؤلاء الولاة: والي حديثة الموصل أي أبرشيّة شليمون، وكان اسمه إبراهيم بن يحيى. وقد أنزل إبراهيم، بموافقة عيسى بن شهلوفا، كلّ أنواع الإهانات بالأسقف شليمون.

ربّما كان علينا أن نفسّر، على ضوء هذه الظروف عينها صنوف التنكيل التي أنزلها بالنصارى كما بالمسلمين،(٥٠) موسى بن مصعب،(٥١) عامل الجزيرة، وعلى دفعتين في ما يبدو،(٥٢) في ٧٦٩ ـ ٧٧٠ وفي ٧٧٤ ـ ٧٧٥.

أيّة تكن التواريخ الصحيحة فالمحنة قد وقعت في خلافة المنصور. أقدم الطاغية الذي يصفه ديونيسيوس المزعوم بالمسيح الدجّال(٥٣) ويسمّيه ميخائيل السريانيّ باليهوديّ،(٥٤) على اعتصار مدن عمالته وقراها.(٥٥) فقد سلب الكنائس والأديرة وألزم الذمّيّين أن يتقلّدوا في أعناقهم أقراصًا من الرصاص للدلالة على كونهم ذمّيّين، وتلك علامات مميّزة سنجدها في ما بعد.

يبدو أنّ المنصور لم يستجب للشكاوى التي رُفعت إليه ضد الطاغية، وبخاصّة لدى إحدى زياراته لمدينة الموصل.(٥٦) ومن الجدير بالذكر هنا أيضًا أن بعض النصارى قد مالأوا الظالم على ظلمه. حتّى إنّ ديونيسيوس المزعوم نفسه يعترف بذلك إذ يقول:(٥٧) «فانقسمت القرى وأثرى بعض الرهبان».

في بغداد دالت أخيرًا دولة عيسى بن شهلوفا الغشوم. أمّا البطل الذي خلع الطاغية عن عرشه فكان قبريانوس(٥٨) مطران نصيبين. فقد كتب عيسى إلى قبريانوس كتابًا يطلب فيه منه أن ينفذ إليه من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر ويتهدّده متى أخّرها عنه وقال في كتابه: «أليس تعلم أنّ أمر الملك بيدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته». واتّفق أن خرج المنصور في بعض سفراته حتّى وصل إلى قريب من نصّيبين. فاحتال المطران في إيصال الكتاب إلى وزير المنصور الربيع بن الفضل الذي اغتنم الفرصة للتخلّص من الطبيب المتفخ. فأطلع الخليفة على ما في الكتاب فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى وتأديبه ونفيه وزوجته إلى الهند.(٥٩)

وقد مال المنصور إلى قبريانوس جزاء ما أسداه إليه من خدمات(٦٠) وأحسن إلى الرهبان ورؤساء البيع.

لننظر عابرين إلى هذا الخبر الذي يورده ماري عن المنصور. فبعد أن نفى عيسى سأل الخليفة بعض النصارى: «أليس يقال إنّ الأساقفة يسمع الله صلواتهم فلِمَ لا يسألون الله قتل عيسى؟ فأجابه: إنّه بدعائهم قد نُفي ولا يعرف له خبر». سنجد أمثلة أخرى من خلفاء وغيرهم من أعيان المسلمين ممن كانوا يؤمنون بقدرات الأساقفة الخارقة للعادات.

ظلّت أصداء ما ارتكبه عيسى بن شهلوفا من أعمال الغصب والابتزاز تتردّد في أثناء جثلقة حنان يشوع الثاني خليفة يعقوب الثاني. فقد مات حنان يشوع مسمومًا بسمّ دسّه له دائن أراد أن يستخلص منه قرية دوقرة[٦١] التي كان سلفه قد رهنها ليستدين بها مالاً طلبه منه عيسى.[٦٢]

إبراهيم الطبيب الطيّب

حاول المنصور أن يقنع جورجيس بن بختيشوع بالعودة إلى بغداد بديلاً من عيسى بعدما عُزل ونُفي. بيد أنّ جورجيس اعتذر وانتدب تلميذًا آخر من تلامذته اسمه إبراهيم. وقد تحسّنت حال النصارى[٦٣] بفضل إبراهيم هذا وبفضل قبريانوس مطران نصيبين. فقد سمح للمطارنة بالعودة إلى كراسيهم التي خُلعوا عنها، كما أفرج عن السجناء منهم من أمثال الجاثليق يعقوب وشليمون الحديثي.

المنصور يضطهد النصارى؟

هل اتّخذت في ظل المنصور إجراءات تمييزيّة ضد النصارى، إذا ما استثنينا الحقبة السوداء التي كان هؤلاء إبّانها عرضة لكلّ ألوان التنكيد يرتكبها... عيسى بن شهلوفا باسم الخليفة؟

يسرد المؤرّخ البيزنطي ثيوفانوس (المتوفى نحو ٨١٨)[٦٤] قائمة بمثل هذه الإجراءات:

- سنة ٧٥٧: يحظر بناء كنائس جديدة وإنشاد الترانيم الدينيّة خارج جدران الكنيسة وكذلك مجادلة المسلمين.

- سنة ٧٥٨: أخضع الرهبان والعموديّون للجزية التي سبق إعفاؤهم منها وختم على السكرستيات إلى أن يستردّ النصارى الأواني المقدّسة من اليهود[٦٥] ويدفعوا أثمانها.

- سنة ٧٦٠: أُقصيَ النصارى عن كتابة ديوان بيت المال، ولكنّهم أعيدوا إلى وظائفهم للحاجة إليهم.

- سنة ٧٦٧: أمر بنزع الصلبان عن قبب الكنائس، وبإقامة الشعائر الدينيّة ليلاً وتعلّم الآداب النصرانيّة.

- سنة ٧٧٠: أمر بحلق اللحى وباعتمار قلانس طول الواحدة منها ذراع ونصف.

- سنة ٧٧٣: أمر بوسم اليهود والنصارى بالحديد الحامي، هؤلاء يهربون إلى الأراضي البيزنطيّة.[٦٦]

إنّ هذه القائمة لتعطينا فكرة عمّن اتّخذت هذه الإجراءات ضدّهم. ففي نهاية أحكام سنة ٧٦٧، وبعد الأمر بتعلّم الآداب النصرانيّة يوضح كارالفسكي أنّ المقصود بذلك هو اليونانيّة.[٦٧]

هذا وإنّ كون المصادر البيزنطيّة (والمصادر السريانيّة الغربيّة في جزء منها) تتفرّد بذكر مثل هذه الإجراءات في تلك الحقبة، يدلّ، في ما يبدو، على أنّ هذه الإجراءات لم تمسّ إلاّ ذلك الجزء من الخلافة الذي كان سابقًا تحت سلطة البيزنطينيّين. هناك كان النصارى على مذهب العدوّ في الدين، كما أنّ الخوف من الطابور الخامس في تلك المناطق الحدوديّة كان يسوّغ التميّز بألوان الثياب (وحتّى الكيّ بالحديد الحامي) اللذين فرضا على النصارى. ومن هذا المنطلق يجب أن نفهم ما دبّره المنصور من إجلاء بعض النصارى عن الثغور.[٦٨] لا سبيل إلى إنكار نيّة الإذلال الكامنة في هذا التدبير، ولكنّ الإنصاف يقتضي منّا أن نذكر أمر مقاتل بن حكيم العكي عامل الجزيرة القاضي بأن يلبس المسلمون كلّهم السواد.[٦٩] في هذه الحالة لم يكن للعلامات المميّزة من وظيفة غير تلك التي يدلّ عليها لفظها نفسه.

ولئن أخذ على المنصور قسوته على النصارى في بعض الحالات أجبنا بأنّه لم

يكن بالمسلمين أرفق، وخصوصاً في أوائل خلافته.[٧٠] وهذا يكفي على أيّة حال لإعفائه من تهمة التعصّب ضد النصارى.[٧١]

يُنسب قطع رأس رجل مرتدّ اسمه قورش إلى عبّاس عامل الجزيرة[٧٢] الذي يمتدحه كثيراً ديونيسيوس المزعوم نفسه، والذي لم يتجاوز ما فعله إقامة حدّ الإسلام على كل مرتدّ.

البصرة

ربّما كان بوسعنا أن نُنزل البصرة، مع الحدود البيزنطيّة، في منزلة المناطق التي بدا فيها المسلمون أكثر عرضة للإثارة، فردّوا بعنف على تجاوزات بعض النصارى. على أيّة حال فقد وقع في البصرة حادثان: ففي بداية العام ١٥٠/٧٦٧ اتّهم طبيب نصرانيّ بصريّ، اسمه خصيب، بالتسبّب في موت محمّد، أحد بني الخليفة السفّاح، أي ابن أخي المنصور، فسجن حتّى مات. بيد أنّ ابن أبي أصيبعة يرى أن خصيبًا قد ظُلم ويبرئ ساحته ممّا اتّهم به.[٧٣]

الحادث الثاني هو طرد كاتب نصرانيّ من كتاب الخليفة من أحد مساجد البصرة وذلك على الرغم من الوعيد الذي توعّد به القاضي سوارا بن عبدالله[٧٤] إذ أمر برميه خارج المسجد. وقد أثنى المنصور على القاضي.

هنا أيضًا لا يجوز لنا أن ندين مدينة بكاملها بناء على حادثين. ربّما كان نصارى البصرة، على قول طه الحاجري،[٧٥] قد بالغوا في نشاطهم التبشيري واستعملوا وسائط ضغط نجهلها. وهذا ما يستبين من المرثاة التي رثى بها أبان بن عبد الحميد اللاحقي[٧٦] سوارا القاضي:

كم مسلم أنقذ من عُصبة ... تسجد للصلبان كفّارِ
يُدعى إلى الكفرِ فإن عافه ... دانَ بإكراه وإجبارِ

في نهاية خلافة المنصور كان كلّ شيء جاهزًا لبداية حضارة: إدارة تستمدّ خزائنها، الملأى الآن، إمبراطوريّة مترامية الأطراف، وعاصمة تكبر يومًا بعد يوم، ولم يبقَ إلاّ العثور على الرجال، على الخلفاء أو مَن يقوم مقامهم لإدارة الكلّ.

الشيء نفسه يصحّ على النصارى. فعلى الرغم من الشوائب المتعلّقة بشكل مخصوص بالمناطق الحدوديّة وبالملكيّين أو بالمغاربة من السريان، فإنّ الكنيسة التي كانت أكثريّتها من مشارقة السريان كانت تستند على الكتبة والأطبّاء ممثّلين لها أكفياء لدى السلطة. وقد استطاعت أن تقوم بدورها في نموّ هذه الحضارة كلّما حظيت ببطريرك أو بمطران مبرّز إمّا بقداسته أو بعلمه، إذ إنّ المسلمين يقدرون الاثنين. عندئذٍ كانت تستعيد مكانتها كديانة ثانية للدولة (غير رسميّة طبعًا) تلك المكانة التي كانت تتمتّع بها في ظلّ الساسانيّين بالطرق نفسها: بطاركتها وجثالقتها وأساقفتها من جهة، كتبتها وأطبّاؤها من جهة ثانية، علمًا بأنّ أحبارها كانوا يخرجون من صفوف الكتبة والأطبّاء حينًا، أو يتحدّرون من أسر الكتّاب والأطبّاء أحيانًا.

الحواشي

(١) كتاب عبد السلام رستم، أبو جعفر المنصور، القاهرة، ١٩٦٥، ١٥٢ صفحة، يحتوي على تحليل تقريظي لشخصيّة المنصور من خلال شواهد أدبيّة (تفتقر في معظم الأحيان إلى الإحالات المناسبة). عن لقبه: أنظر B. LEWIS, Studies, cit. II, p.16-19.

(٢) مروج، الفقرة ٢٤١٩.

(٣) التنبيه، ص ٣٤١.

(٤) سيكون هذا عاملاً من عوامل الاحتكاك الثابتة، عاملاً يميّزه P. RONDOT (ص ١٣٣) في كتاب جاك تاجر، (ص١٥٩). بالنسبة إلى أقباط مصر الذين استغلّوا الثقة التي أولاهم إيّاها الخلفاء ليمارسوا سياسة المحاباة والوساطات إزاء إخوانهم في الملّة، وسياسة العداء واللامبالاة حيال الأكثريّة... فقد عرفوا المجد والمال، الجاه والسلطة حتّى جاءهم غضب الشعب بزوال النعمة وانحطاط الشأن. كذلك (ص ١٣٢): «كانت جماعة الأقباط تكفّر في أغلب الأحيان عن أخطاء بعض الطامعين وشططهم الذي يسوّغ أعمال المسلمين الانتقاميّة».

(٥) ماري، ص ٦٧ ـ ٧٠، صليبا، ص ٦٣، ابن العبري، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦ ـ ١٦٤.

(٦) إنّ الفتوى المنسوبة إلى محمّد بن عليّ ابن النقّاش الشافعيّ المصريّ والتي ترقى إلى سنة ١٣٥٧/٧٥٩ ـ ٨ هي تكرار حرفيّ للفصل الذي يعالج الموضوع نفسه في كتاب أحكام أهل الذمّة لابن قيّم الجوزيّة الحنبليّ الشاميّ المتوفى ١٣٥٠/٧٥١، ص ٢١٤ ـ ٢٣٨.

(٧) ديونيسيوس المزعوم، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٨) نجد في قوائم أمراء الحج الملحقة ببعض طبعات مروج الذهب للمسعودي (مثلاً طبعة محمّد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٤، ج ٤، ص ٤٠١ - ٤٠٢) أنّ المنصور قد حجّ (فضلاً عن سنة ١٣٦ أي قبل مبايعته) سنة ١٤٠ و١٤٤ و١٤٧ و١٥٢. وقد مات على طريق الحجّ سنة ١٥٧. ويذكر المقريزي في الذهب المسبوك في ذكر مَن حجّ من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيّال، القاهرة، ١٩٥٥، أنّ ثلاثة من الخلفاء العبّاسيّين وحسب قد حجّوا وهم المنصور والمهدي والرشيد(؟).

(٩) عرفت مطاردة الأمويّين في أوائل العصر العبّاسيّ إلاّ أنّنا نجد دلائل على التعاطف مع الأمويّين خلال القرن الثلاثة الأولى للهجرة. أنظر فاروق عمر، الولاء، المصدر المذكور.

(١٠) وكان يلقّب «بجليس الفقراء» و«أخي المساكين» الزركلي، ج ٣، ص ٢٢٩، مع مراجع.

(١١) لم يصبح الربيع وزيرًا إلاّ سنة ١٥٣، SOURDEL, Vizirat, p 725. ولكن منذ متى كان حاجبًا؟ من غير المستبعد أن يكون ابن قيّم الجوزيّة، ومن بعده ابن النقّاش ص ٤٣٧، وهما من المتأخّرين قد غلطا في تسمية الشخصيّات، كما في العديد من الأحوال الأخرى، ونسبا الرواية إلى الربيع، نديم المنصور المعروف في كتب الأدب. أنظر SOURDEL, Vizirat, p 88n².

(١٢) إبن قيّم الجوزيّة، أحكام أهل الذمّة، ج ١، ص ٢١٥.

(١٣) حتّى عندما كان الخليفة يريد إقصاءهم عن مناصبهم، كما أراد أن يفعل عمر بن الخطّاب (؟). كان يقوم دائمًا رجل كأبي موسى الأشعري ليقول له: «له دينه ولي كتابته» ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٤٣.

(١٤) إبن العبري، التاريخ الكنسيّ، ج ١، العمود ٣١٦ - ٣٢٨.

(١٥) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤: يتّهمه ميخائيل السريانيّ بقتل راهب كان في الطريق إلى القدس بغية الاستيلاء على كتاب في الصنعة ظنّه في حوزته. في العام ١٣٦/٧٥٤ خلف العكي أبا جعفر عندما صار هذا خليفة، ولقّب بالمنصور، الطبري، ج ٧، ص ٤٧٠.

(١٦) يقول المؤرّخ محمّد بن عليّ المهدي المذكور في مروج الذهب للمسعودي الفقرة ٣٤٤٦، إنّ المنصور كان أوّل خليفة قرّب المنجّمين وعمل بأحكام النجوم. وفي كتاب سير الآباء البطاركة (P.O.,X, P.364-365) نجد أنّ إسحق قد ظهر لزوجة المنصور في الحلم وتنبّأ لها بمولود طال انتظارها له. ويذهب النصّ إلى أنّ إسحق أراد أوّلاً خلع البطريرك القبطيّ مينا الأوّل ٧٦٦ - ٧٧٥.

(١٧) يكتفي ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT، ص ٥٨، بالقول: «الذي رفعه حطّه وأهلكه» كذلك يقول ميخائيل السريانيّ: «قيل للملك: إنّه يعرف الصنعة ولا يريد أن يعلمك إيّاها». ج ٢، ص ٥٢٥.

(١٨) هذا وقد كان قبل ذلك، وفي ظلّ مروان، قد اتّهم بطريركه يوانيس بسوء السيرة والمتاجرة بالرتب الكنسيّة وما إلى ذلك، ابن العبري، التاريخ الكنسيّ، ج ١، العمود ٣٠٨ - ٣١٠. يبدو ديونيسيوس المزعوم وكأنّه يعتبر انتخابه شرعيًّا. أمّا موته فيوشّحه بوشاح الحياء إذ يقول: «وهو أيضًا لم يُرزق بطول العمر، إذ هلك سريعًا ومات هذه الميتة على قول أو تلك الميتة على قول آخر. أمّا نحن فلسنا نزعم لأنفسنا الحقّ في الكلام بالأمور المكتومة بل نكلها إلى الله الذي يظهر له كلّ شيء واضحًا جليًّا»، ترجمة CHABOT، ص ٥٩.

(١٩) بُلَيْلَة من نواحي الرها، وكان جورجيس هذا راهبًا من قنّسرين، ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT، ص ٥٩، ميخائيل السريانيّ، ج٢، ص ٥٢٥.

(٢٠) وقد كان حبس البطريرك مناسبة ليكيل ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT الشتائم للخليفة قائلاً، ص ٨٧: «وكان هذا الملك، متى بلغه أن رجلاً حرّك يده أو رجله في طول المملكة وعرضها، لا يهدأ له بال قبل أن يهلكه سواء أكان هذا الرجل فارسيًّا (عبّاسيًّا)، عربيًّا (امويًّا) أو سريانيًّا. وكان يُعدُّ كأعظم صديق له مَن دلّه على رجل يملك شيئًا». ويقول المؤرّخ نفسه في الصفحة ١٤١: متى كان الملك ظالمًا، كان كلّ وزرائه ظلمة. ومعلوم أنّ الكتاب ليس من وضع البطريرك ديونيسيوس بل ربّما كان لراهب من دير زقنين.

(٢١) وقد كانت هذه القضيّة تطرح على بعض المسلمين السؤال المعكوس: «ألا يجب إزالة آيات القرآن من على النقود، لأنّها كانت تمرّ في أيدي اليهود والنصارى ورجال جنب ونساء حيّض»، G. WIET, Le traité des famines de Maqrizi, dans **JESHO**, V.I. (1962), p. 58. وانظر المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق Daniel EUSTACHE dans **Hesperis**- Tamuda X, (1969), p. 112-113. وهو سؤال طُرح على عمر بن عبد العزيز أو على عبد الملك بن مروان.

(٢٢) ميخائيل السريانيّ، ج ٢، ص ٥٢٧ - ٥٢٩.

(٢٣) ديونيسيوس المزعوم، ص ٨٧ - ٨٨، يحاول هذا المؤلّف الدفاع عن داود زاعمًا أنّه لم يكن له يد في المظالم التي كان رجاله يرتكبونها باسمه. إنّ كلّ هذه المحاولات للدفاع عن بطاركة غير شرعيّين تحول دون القبول بنسبة هذا الكتاب إلى بطريرك شرعيّ مثل ديونيسوس.

(٢٤) Bagdad, Capitale du nouvel Empire abbasside, par D.SOURDEL, dans **Arabica**, 9, (1962), P.26. كما يشير L.GARDET في الصفحة ٤٣ من كتابه **Philosophie et religion en Islam** إلى أن تأسيس هذه المدينة يمثّل «انفتاحاً على الشرق» - وانظر أيضًا Some aspects of the Arab-Iranian Culture from the earliest time up to the fall of Bagdad, par S.B. SAMADI, **Islamic Culture**, XXVI, 1952, p32-49.

(٢٥) عن معنى الاسم انظر عبد العزيز الدوري في E.I², p. 920 ويميل باحثون آخرون إلى أنّ

أصل الاسم آرامي. وقد أصبحت القرية حيّا لأبي العبّاس الفضل، انظر: LEVY, A Baghdad Chronicle, p. 6 وانظر أيضاً صالح أحمد العليّ، بغداد، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢٦) أنظر مقالتي عن خطط المدائن، مع خريطة تبيّن تحوّلات مجرى دجلة في مجلّة سومر، ٢٣، (١٩٦٧)، ص ٣ - ٣٨.

(٢٧) من وجهة النظر الجغرافيّة، تلعب بغداد دورًا مشابهًا لدور المدائن عاصمة لأواسط مجرى هذا النهر، متوسّطة تقريبًا بين الشمال والجنوب ومواجهة لمنفسح الجبال نحو إيران (طريق خراسان)، تمامًا كما أنّ الموصل عاصمة الشمال تلعب دورًا مشابهًا لدور مدن أشور، نمرود، نينوى وخورسباد.

(٢٨) يروي الخبر ابن الطقطقي، ص ١٢٥.

(٢٩) راجع: SOURDEL, Vizirat, p.78-87.

(٣٠) يبيّن S.S. NADVI في كتابه The Origin of the Barmakids ص ٢٤، أنّ الأسرة جاءت من بلخ ولها صلات ببوذيّة الهند.

(٣١) سنة ٧٦٣/١٤٦.

(٣٢) يروي الطبري، ج ٣، ص ٢٧٧ أنّ الرهبان كانوا يعلمون أنّ ملكًا يلقّب بأبي الدوانيق سيأتي إلى هذا الموضع ويبني مدينة. وكان هذا لقب المنصور بالذات، راجع لطائف المعارف للثعالبي تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، مصر، ١٩٦٠، ص ٤٤. ويذهب ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٥٧ - ٥٦٠. إلى أنّ اسم المؤسّس مقلاص وهذا أيضًا ما كان يدعى به الخليفة في صباه. أمّا سعيد بن البطريق فيقول في: Annales, CSCO, 51, p.49 إنّ اسم بغداد هو اسم راهب (؟) كانت صومعته بالموضع الذي بنى فيه المنصور مدينته. والحقيقة أنّه كانت هناك بليدة بهذا الاسم على ضفّة نهر الصراط. أنظر أساطير مختلفة في R. LEVY, A Baghdad Chronicle, p. 15 17.

(٣٣) الطبري، ج ٣، ص ٢٧٤ - ٢٧٥، ٢٧٧، صليبا، ٦٩ - ٧٠ - كما بيّنت في مقالي، Rum à l'est de l'Euphrate, Le Muséon, 90, (1977), p. 372 أنّ هذا النص يدلّ على بطلان المزاعم الواردة في كتاب La vie de Christophore والقائلة إنّ المنصور طرد النصارى من حول المدينة.

(٣٤) إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، ص ١٨٣ - ١٨٦.

(٣٥) لمزيد من المصادر عنه راجع مقال دومينيك سورديل في E.I.², I,p. 1138

(٣٦) تختلف كتابة الاسم باختلاف المؤلّفين: نجده «ابن شهلا» عند ابن أبي أصيبعة، وابن شهلافا عند ابن القفطي الذي يخصّه بإشارة خاصّة (ص ١٦٥).

(٣٧) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١ - عن دور جورجيس في ترجمة كتب الطبّ اليونانيّة. أنظر ابن أبي أصيبعة، ص ٢٧٩، وخصوصًا ص ١٨٣.

(٣٨) الطبري، III، ص ٤٢٤.

(٣٩) نجد في الكامل لابن الأثير، ج ٦، ص ٢٤ أنّ الخليفة منع الملاهي في البلاط، حتّى إنّه أمر بكسر طنبور على رأس بعض الخدم.

(٤٠) أنظر إيليّا النصيبيني في حوادث هذه السنة، وابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٠ ـ ١١.

(٤١) إبن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص ١٨٥.

(٤٢) أظنّ أنّني استطعت التعرّف على هذه الكنيسة النسطوريّة «الصغيرة» في المبنى الذي وجد الأثاريّون العراقيّون به سنة ١٩٧١ ثلاثة قبور عليها كتابات سريانيّة ومنها واحدة عليها صليب. وهذا المبنى «ملاصق للسور» كما يقول ابن العبري، **التاريخ الكنسيّ**، ج ٢، العمود ١٥٦ ـ ١٥٨، في الزاوية الداخليّة الشماليّة الغربيّة من سور المدينة على مسافة ٧٠ مترًا تقريبًا من دجلة. وقد نقل اقتراحي حول هذا الموضوع J.N. POSTGATE في مجلّة **Iraq** للمدرسة التنقيبيّة البريطانيّة في العراق، ج ٣٤، (١٩٧٢)، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٤٣) إبن القفطي، **أخبار**، ص ١١١، ابن العبري، **مختصر**، ص ٢١٥.

(٤٤) آل عمران: ٦٤: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله». فالإسلام في ذاته «ديانة رساليّة»، طيباوي، ص ٤٦. إنّ واجب النصيحة ربّما وجد صدى له في قول الإنجيل: «ألحّ عليهم حتّى يدخلوا»، لوقا ١٤: ٢٣.

(٤٥) وهذا يتّفق مع خاتمة الآية وهي: «فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون». يروي ابن قتيبة في كتاب التأويل، ص ٥٦ ـ ٥٧، خبرًا مماثلاً مغفلاً ذكر الأسماء قال: «وبلغني أنّ رجلاً من أصحاب الكلام قال لرجل من أهل الذمّة، ألا تسلم يا فلان فقال حتى يريد الله تعالى فقال له قد أراد الله ولكن إبليس لا يدعك فقال له الذمّيّ فأنا مع أقواهما».

(٤٦) «وكان يعطي الجزيل والخطير إذا كان إعطاؤه تبديلاً ويمنع اليسير والحقير إذا كان إعطاؤه تضييعًا»، المسعودي، مروج، فقرة ٢٤٣١.

(٤٧) عن الإهانات التي تعرّض لها انظر **Assyrie Chrétienne, I, p.108–111** والجدير بالذكر أنّ عيسى كان مطلق اليدين بقدر ما كان الخليفة منشغلاً بمطاردة الزنادقة، أي جميع أعداء الإسلام. ففي العام ٧٧٢م، أعدم ابن المقفّع وابن أبي العوجاء. LAOUST, **Schismes**, p.72–73.

(٤٨) ص ٦٨، س ١٧ ـ ١٨.

(٤٩) ومنهم والد معروف الكرخي، وفيّات رقم ٧٠٠، الزركلي، ج ٨، ص ١٨٥. ثمّة رواية أخرى في مناقب معروف الكرخي لابن الجوزي، تحقيق صادق محمّد الجميّل، في المورد، بغداد، ٩ (١٩٨١)، ص ص ٦١٧ ـ ٦١٨.

(٥٠) ديونيسيوس المزعوم، تاريخ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٥١) كان اسمه موسى بن كعب التميمي تبعًا للطبري، ج ٨، ص ٤٧، ٥٤، ٥٦. وتسمّيه مصادر أخرى موسى بن مصعب (الخثعمي). نظرًا إلى التخليط الكثير في الأسماء فإنّني أميل

إلى الملاحظة التي يبديها محقق كتاب تاريخ الموصل لأبي زكريّا الأزدي (القاهرة) ص ٢٢٤، الحاشية رقم ٣. قارن: تاريخ ديونيسيوس المزعوم، ص ٩١. الرهاوي المجهول ٢٥٦ ـ ٢٦٦ إلخ.

(٥٢) تختلف التواريخ التي يوردها كلّ من ديونيسيوس المزعوم وميخائيل السريانيّ.

(٥٣) تاريخ، ص ٩١، ويخصّص له الكاتب ما يقارب المئة صفحة الأخيرة من القسم الرابع.

(٥٤) ميخائيل السريانيّ، ج ٢، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٥٥) المقصود هنا هي الجزيرة لا جزيرة ابن عمر التي لم تكن تسمّى هكذا في ذلك الزمن.

(٥٦) هنا أيضًا يكيل ديونيسيوس المزعوم التهم للمنصور (ص ١٠٠): «ولكن لمّا كان الملك يسرّ بالتخريب أكثر ممّا يسرّ بالسلام طرد المشتكين من حضرته وأنزل عقوبات صارمة بأكابرهم».

(٥٧) ص ٩٨.

(٥٨) قبريانوس الأوّل، المنتخب سنة ٧٤١، هو نفسه الذي كانت له مشاكل مع آبا الثاني (المتوفى سنة ٧٥١) والذي حرّض طلاّب المدائن ضدّه. وقد كان تصالح مع يعقوب الثاني وتوفّي سنة ٧٦٧ بعدما شغل كرسي المطرانيّة خمسًا وعشرين سنة، راجع .Nisibe, p.75-78

(٥٩) إبن القفطي، ص ١٦٥، ابن أبي أصيبعة، ص ١٨٥، ماري، ص ٦٩.

(٦٠) وقد كان المنصور، عند اعتلائه سدّة الخلافة في العام ٧٥٤، استعان بخدمات قبريانوس لينقل إلى الحيرة الأموال التي جمعها من الهاشميّة مدينة السفّاح، ماري، ص ٧٠.

(٦١) بالقرب من واسط، ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٦٢) صليبا، ص ٦٣ ـ ٦٤. هذا الدائن المشؤوم هو أبو العبّاس الفضل بن سليمان الطوسي الذي يذكره الطبري مرارًا في الجزء الثالث من تاريخه. وقد شارك في مسيرة العبّاسيّين الطويلة من خراسان منذ سنة ١٢٩هـ. وقد ولي سنة ١٤٦هـ. قطائع الضفّة الغربيّة للعاصمة، وصار صاحب ختم الخليفة سنة ١٥٨هـ، ووالي خراسان وسجتان سنة ١٦٦ حتّى ١٦٧. وقد عاد إلى بغداد سنة ١٧٠، ودفع إليه مجدّدًا ختم الخليفة، ثمّ مات في السنة نفسها.

(٦٣) ربّما كانت تلك مناسبة لأوّل نكبة تقع على موسى؟ وقد أُعيد هذا العامل القاسي إلى منصبه ثمّ خلع لدى مبايعة المهدي (ميخائيل السريانيّ، ج ٢، ص ٥٢٧) «وانكشف ما نزل بالناس من كروب».

(٦٤) Chronographia, p.678-679, 687,690 وشاهد من C.KARALEVSKIJ في: D.H.G.E., III, S.V. Antioche, vol, 598

(٦٥) حبيب الزيّات، الخزانة الشرقيّة، المجلّد ٣، ١٩٤٦ في مقالة «اليهود في الخلافة العبّاسيّة»، ص ٥٤ ـ ٧٨، يتكلّم عن «عداء اليهود للنصارى في الإسلام».

(٦٦) التدبير الأخير ينسبه ديونيسيوس المزعوم إلى موسى بن مصعب، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٦٧) يذكر ابن الأزرق، ص ٦٨٤، أنّ النصارى قد تعهّدوا بأن لا يعلموا صبيانهم القرآن الكريم.

(٦٨) البلاذري، فتوح البلدان، طبعة ليدن، ج ١، ص ١٩٦ مذكور عند فاروق عمر، ص ٣١، ميخائيل السريانيّ، ج ٢، ص ٥٢٢، حيث يسمى هؤلاء «جرمقايي» أي الجرامقة (السريان).

(٦٩) ديونيسيوس المزعوم، ص ٤٦. ومن هذا الباب أنّ بعض ملوك الساسانيّين كان قد «أمر العرب حينئذٍ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن لا يركبوا الخيل إلاّ عراة». الإبشيهي، المستطرف، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص ١٩٩.

(٧٠) عن فظائع المنصور، انظر تعليق عبّود الشالجي في تحقيق كتاب الفرج بعد الشدّة للتنوخي، ج ٣، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٧١) يبدو مع ذلك أنّ بعض أيدي الكتّاب قد قطعت، وينسب ابن القيّم ذلك إلى المهدي، (ص ٢١٦). ومن ضحايا القطع رجل اسمه سهونا. في ما بعد ذكر سليمان بن وهب أنّ بعض أجداده، واسمه ماهويه الواسطي، قد حدّه بالأنبار حماد التركيّ الذي قلّده المنصور «تعديل» السواد، الجهشياري (طبعة الحلبي، ص ١٣٤).

(٧٢) ميخائيل السريانيّ، ج ٢، ص ٥٢٧. يلاحظ ميخائيل أنّ الارتداد «كان بسبب بعض الأهواء».

(٧٣) ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٧٤) D. SOURDEL, **Nouvelles recherches**, p. 276. أمّا ابن القيّم فيجعل هذه الحادثة في خلافة المهدي.

(٧٥) كتاب الجاحظ، حياته وآثاره، ص ٣٦٠.

(٧٦) فؤاد افرام البستاني، دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٨ - ٣٩. نلاحظ أنّ اللاحقي كان الشاعر المفضّل لدى الجاحظ، PELLAT, **Ǧâhiz à Baghdad**, p. 63 avec réf. ربّما أعان هذا على إلقاء بعض الضوء على شخصيّة الجاحظ المتعدّدة الجوانب لا سيّما إذا ذكرنا أنّ الجاحظ نفسه كان بصريًا وأنّ أبان هذا كان يعدّ زنديقًا؟ أنظر A.E. KRYMSKI, **Ābān al Lāhiqi le Zindiq**, بالروسيّة والفرنسيّة، مع نصّ عربيّ للصولي، الأوراق، Moscow, 1913 وفيه فقرة عن ديانة أبان ص ١٧ - ١٨. يخصّص ابن الأبار فقرة طويلة لأبان اللاحقيّ في كتابه أعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، مطبوعات المجمع العلميّ بدمشق، ١٣٨٠/١٩٦١، ص ٧٧ - ٨٢.

٣ - المهدي (١٥٨ - ١٦٩/٧٧٥ - ٧٨٥)

كان الخليفة العبّاسيّ الثالث أبو عبدالله محمّد، الذي تسمّى بالمهدي يختلف كثيرًا عن أبيه المنصور. فقد أمر بفتح أبواب السجون[١] حال تولّيه الخلافة. وقد استفاد جرجس بطريرك اليعاقبة المحبوس منذ تسع سنوات من هذا العفو،[٢] ومثله يوحنّا مطران نصيبين النسطوري.[٣] ولكن المهدي، احترامًا منه لأوامر أبيه، منع جرجس من التلقّب بلقب البطريرك.[٤]

وقد ظلّ المهدي على هذا الحلم مدّة حياته. وقد قال عنه المسعودي إنّه كان «محبّبًا إلى الخاصّ والعامّ لأنّه افتتح أمره بردّ المظالم وكفّ عن القتل وأمّن الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في إعطاء الأموال».[٥] أمّا ماري فيقول إنّه «أحسن السيرة وترك خراج سنة على الناس وردّ ضياعهم عليهم وعاملهم في أموالهم بخلاف سيرة أبيه».[٦] بيد أنّ المهدي كانت له مساوئ تقابل مزاياه. فقد فتح خزائن أبيه وعمّه وراح ينفق منها بسخاء سيئ العاقبة على الجيش والدواوين والطرق والبريد فحسّنها كثيرًا، ثمّ تجاوز إنفاقه الحدّ حتّى شمل الجواري[٧] والقيان، وكلّ أولئك الذين كان يريد مكافأتهم.[٨] كان طيّبًا جوادًا، نبيلاً متسامحاً، وكان أيضًا سهل التصديق للخوارق مثله مثل سائر أهل عصره وجعل يجمع كتب السحر.[٩]

كان منجّمه الرسميّ رجلاً خلقيدونيًا، ويذهب ابن العبرى إلى أنّه كان مارونيًا ويُدعى ثيوفيلوس بن توما. وقد تنبّأ ثيوفيلوس هذا بأنّ موت سيّده سيكون بُعيد موته هو بقليل، فكان كما قال.[١٠]

وقد دفع حبّ الاستطلاع المهدي إلى إقامة علاقات (بين غزوتين) مع القيصر

لاوون البيزنطيّ، ليطلب منه كتب علوم اليونان القديمة. وهكذا تطوّرت في ظلّ المهدي حركة الترجمة الكبرى التي بدأها المنصور منذ تأسيس بغداد مع البطريق[١١] الذي ربّما كان من بعض أسرى الروم. وقد نقل ثيوفيلوس نفسه من اليونانيّة إلى السريانيّة أشعار هوميروس وبعض كتب أرسطو. ومعلوم أنّ السريان كانوا قد بدأوا منذ زمن بعيد بنقل كتب اليونان[١٢] إلى لغتهم، ولذلك جاء معظم الترجمات الأولى من السريانيّة إلى العربيّة.

وقد نبّه ابن خلدون إلى دور النصارى في «تحضُّر» العرب[١٣] عندما كتب في مقدّمته الشهيرة:[١٤] «حتّى إذا تبحبح السلطان والدولة وأخذ (العرب) من الحضارة بالحظّ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم... تشوّفوا إلى الاطّلاع على هذه العلوم الحكميّة بما سمعوا من الأساقفة والأقسّة المعاهدين بعض ذكر منها... فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيّات. فقرأها المسلمون واطّلعوا على ما فيها وازدادوا حرصًا على الظفر بما بقي منها».

سنعود ثانية إلى الدور المهمّ الذي قام به النصارى في حركة الترجمات العلميّة من اليونانيّة إلى السريانيّة والعربيّة. ولنقل ها هنا إنّه يحقّ لنصارى الشرق المعاصرين أن يفتخروا بهذا الإسهام الجليل في تشكيل الثقافة العربيّة.[١٥] بيد أنّ هذه اللوحة يتخلّلها بعض الظلال، إذ قد جاء وقت مع خلافة المتوكّل التفت فيه المسلمون إلى الجانب السلبيّ أو حتّى الهدام لدخول ذلك القدر الضخم من العناصر الغريبة في الفكر الإسلاميّ. فالأزمة التي ارتبطت بنشوء الفكر المعتزليّ تسترفد في ما تسترفد الترجمات التي بدأت في عصر المنصور والمهدي. ولقد أحسن المسعودي إذ ربط اعتقادات الملحدين والذاهبين عن الدين بما «انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون ممّا نقله عبدالله بن المقفّع وغيره وترجمت من الفارسيّة والفهلويّة إلى العربيّة».[١٦]

المقصود هنا هو اللسان الفارسيّ، ولكن مجرّد إدخال الفلسفة قد حرف الفكر العربيّ المسلم النقيّ عن اتّجاهه، إذ حوّله من الإيمان إلى علم الكلام. والنصارى

السريان مسؤولون (بصورة غير مباشرة) عن ذلك، فضلاً عن الفرس والروم. وهم سوف يؤاخذون على ذلك من بعد.

الصيدلاني الظريف

كان للمهدي طبيب اسمه موسى بن إسرائيل الكوفيّ،[17] ولكنّنا نجد إلى جانبه، وفي بطانة الخيزران، رجلاً نصرانيًّا كان الوسيط المعترف به بين أهل ملّته، والجثالقة منهم بخاصّة، وبين عرش الخلافة. كان هذا النسطوري المدعوّ أبو قريش عيسى نسخة جديدة عن سلفه جبرائيل السنجاريّ الذي كان الآمر الناهي في بطانة الملكة شيرين في عصر كسرى. كان أبو قريش صيدلانيًّا وكانت له دكة بالقرب من بعض أبواب قصر الخلافة.

يروي لنا ابن العبري[18] في كثير من الطلاقة ما كان من خبر هذا الصيدلانيّ في بعض أيّام سنة ١٤٣/٧٦٠. فقد جاءته جارية بقارورة فيها بول ليقول لها ممّ تشكو صاحبتها. فما كان من صاحبنا إلاّ أن نظر إلى التفسرة بعين الجدّ مظهرًا أنّه يتفحّصها ثمّ أجاب بلا تردّد ولا اضطراب: «صاحبة هذا الماء حبلى وستلد مولودًا ذكرًا يكون له شأن عظيم ويملك على الناس». يعلم الله كم كان خوف هذا المزّاح عظيمًا عندما قالت له الجارية إنّ التفسرة لم تكن إلاّ للخيزران[19] جارية وليّ العهد الأثيرة، وإنّه إذا صدق تنبّؤه أثرى إلى ولد الولد،[20] أمّا إذا كان كاذبًا... إرتاع المسكين وأُسقط في يده، فراح يعدو من هذه الكنيسة إلى ذاك الدير ويكثر من الصوم والصلاة والزكاة حتّى ذلك اليوم الموعود. ومن حسن التوفيق أنّ موسى، الذي لقّب بالهادي من بعد، ولد سنة ١٤٤/٧٦١[21] فاستقبل أبو قريش عيسى في القصر بحفاوة بالغة، ثمّ رقي إلى مرتبة طبيب الأميرة الرسميّ. ولّما صار المهدي، والد الطفل، خليفة سنة ١٥٨/٧٧٥، وصارت أم ولده الخيزران صاحبة السلطة الحقيقيّة صار للنساطرة في شخص عيسى نصير ذو نفوذ.

شؤون الجاثليق

كان أوّل دور اضطلع به «الطبيب» هو الحصول على إذن المهدي لأهل طائفته

بانتخاب جاثليق جديد[٢٢]. ولّما حصل عيسى على الإذن لم يتدخّل في الاختيار. فقد كان ثمّة مرشّحان يناصر كلاً منهما فريقٌ من رجال الكنيسة والعلمانيّين. ومعلوم أنّ هؤلاء، ولا سيّما أعيان المدائن (والآن أعيان بغداد) كانوا يلعبون دورًا رسميًّا، في انتقاء المرشّحين لا في عمليّة الانتخاب نفسها التي كانت من امتيازات الأساقفة والمطارنة.

هذه المرّة كان أوّل مَن تقدّم للانتخاب حنان يشوع أسقف لاشوم[٢٣] وكان شابًّا عالمًا بارعًا ذكيًّا نقيًّا،[٢٤] وكان من ورائه رئيس الشمامسة مارَوْي وأهل الحيرة والجرامقة، أمّا المرشّح الثاني فكان راهبًا يُدعى جيورجيس من دير بيت حالا متضلّعًا من السريانيّة والعربيّة والفارسيّة.

لماذا لم يتوصّل مجمع دير مار فثيون ببغداد إلى انتخاب شرعيّ؟ يكتفي المؤرّخون هنا بالقول إنّ القضيّة رُفعت إلى المهدي الذي استدعى المرشّحين.

إنّ لمجرى امتحان الخليفة للمرشّحين دلالة على ذهنيّة ذلك العصر. ففي مرحلة أولى دعا الخليفة الرجلين إلى الإسلام قيامًا بواجب النصيحة، فرفض جيورجيس، أمّا حنان يشوع فتخلّص متذرّعًا بأنّه لا يعرف العربيّة (؟) بعد هذه الرسميّات بدأت اللعبة التي ستتيح اختبار علم الحبرين. سألهما الخليفة: «عصا موسى التي صنع بها العجايب من أي أصناف الخشب كانت»[٢٥]. لا يهمّنا مَن أوحى للخليفة بهذا السؤال، ولا ما كانت الأجوبة: فقد كان جيورجيس أبرع الاثنين فمنحه المهدي جائزة العلم. ولكن الخليفة أعجب ببهاء طلعة حنان يشوع ووقاره فرجّح كفّته. وربّما كان الخليفة منزعجًا من رفض جيورجيس القاطع الدخول في الإسلام. الخلاصة أنّ حنان يشوع قد اختير وكلّف الربيع بن يونس الوزير بتنفيذ القرار.[٢٦]

III لا نعرف إلاّ القليل عن جثلقة حنان يشوع الثاني، وذلك من قول صليبا المختصر: وقد «أعجب الناس تدبيره». وبعد أربع سنوات من التنازع، توصّل الدائن الغضوب أبو العبّاس الطوسيّ، الذي صادفناه في ما تقدّم، إلى وضع حدّ لمطالبة الجاثليق بقرية دوقرة، فسمّم الحبر «وخرجت الدوقرة عن أملاك الكرسي».

يتّهم المؤرّخ البيزنطيّ ثيوفانوس المهدي أيضًا باضطهاد النصارى.[٢٧] وهو يجعل ذلك في العام ٧٧٢، إذن قبل مبايعة المهدي بالخلافة. يروي ثيوفانوس أنّ الأمير قد أرسل من دبيق، قاعدة عمليّاته ضد البيزنطيّين، «ماكيزياس المتعصّب، وأمره باستعباد النصارى وإكراههم على الخروج من دينهم وتخريب الكنائس». والحقّ إنّ «ماكيزياس» هذا ليس إلاّ المحتسب[٢٨] الذي أرسله المهدي «في بداية خلافته» لكي «يخرّب الكنائس التي أُنشئت في زمن العرب ويبيع عبيد النصارى. فهُدمت كنائس كثيرة وهرب العبيد». يقول ابن العبري إنّ إحدى الكنائس التي هُدمت كانت للخلقيدونيّين (الروم) بحلب، وهذا يحدّد موقع التخريب. وفي حلب أيضًا أكره المهدي سنة ٧٧٨ بني تنوخ من العرب النصارى على الإسلام فأسلم ٥٠٠٠ رجل، ويُذكر في هذه المناسبة استشهاد رجل يُدعى الليث.[٢٩]

يدرج ميخائيل السريانيّ هذه الإجراءات في سياق ردّة فعل الخليفة ضد الزنادقة وعلى رأسهم المانويّة. ويبدو أيضًا أنّ من أسبابها سخط الخليفة إثر هزيمته أمام لاوون الرابع.[٣٠] لذلك كان بوسعنا أن نشاطر رأي فاروق عمر[٣١] إذ يعتبر أنّ هذه الحالات استثنائيّة وأنّ «موقف المهدي العام» إنّما كان موقف التسامح. وسيتاح لنا أن نتبيّن ذلك أكثر في علاقاته مع الجاثليق طيماثاوس.

ولكن يبقى أمامنا خبر «شهيد»: ففي يوم الاثنين الأوّل من أيّار ٧٨٠ أُعدم في الرافقة الراهب السوريّ رومانوس. فقد أخذ رومانوس في غزوة سنة ٧٧١ وظلّ أسيرًا منذئذٍ ببغداد حينًا في معسكر وحينًا آخر في منزل لبعض أثرياء النصارى. وقد اتّهم منذ سنة ٧٧٨ بالتجسّس، فاستطاع أن يثبت أنّ ثمّة التباسًا في الأسماء بينه وبين سميّ له، ولكن دنا أجله لّما توصّل إلى ردّ بعض أسرى الروم إلى النصرانيّة من بعد ما اعتنقوا الإسلام. أمر الربيع بجلده وأمر المهدي بقتله من بعدما حاول زعزعة إيمانه.[٣٢]

أمّا الإجراءات التي ينسبها إلى خلافة المهدي كلّ من ابن القيّم[٣٣] وابن النقاش[٣٤] فقد تبيّن أن عددًا منها يرقى بالفعل إلى عهد المنصور.[٣٥] فاللازمة

الأساسيّة في كتاب أحكام أهل الذمّة هي إنّه «في عهد هذا الخليفة أو ذاك تعاظمت اهمّيّة أهل الذمّة»... فظلموا المسلمين. والأمر يتعلّق دائمًا بالكتّاب المتعجرفين (الذين لا غناء عنهم). وقد مرّ دهر قبل أن يتوصّل الخلفاء إلى الاستغناء عنهم، على الرغم من هجاء المتذمّرين. من ذلك أنّ بعض الصالحين ممّن كانت له عادة في حضور مجلس الخليفة ذكر للمهدي اجتماع الناس إلى بابه متظلّمين من ظلم أهل الذمّة ثمّ أنشده:

بأبي وأمّي ضاعت الأحلامُ	أم ضاعت الأذهانُ والأفهامُ
مَنْ صدَّ عن دين النبيّ محمّدٍ	أَلَهُ بأمرِ المسلمين قيامُ
إلاّ تكن أسيافُهم مشهورةً	فينا، فتلك سيوفُهم أقلامُ

تجدر الإشارة هنا إلى أنّه في هذه الحقبة أي ابتداءً من العام ١٦٦/٧٨٢ وحتّى نهاية عهد المهدي ظلّت الوزارة، في ما يبدو، بين يدي الفيض بن أبي صالح، وهو سليل أسرة من نيسابور كانت نصرانيّة. كان هذا الوزير الرفيع الأدب سخيًّا مفضالاً، عزيز النفس كثير الكبر والتيه، وكانت له، ولا شكّ علاقات بأهل ملّة أبيه، ولكن المؤرّخين لا يذكرون شيئًا عن هذا الشأن.

بين جاثليقين

كان المهدي في أواسط سنيّ خلافته العشر عندما مات البطريرك حنان يشوع مسمومًا بيد الطوسي.

وقد تقدّم إلى خلافة الجاثليق المغدور أربعة مرشّحين: الراهب جيورجيس الذي لم يوفّق في المرّة السابقة، توما أسقف كسكر مدبّر السدّة الشاغرة، افريم مطران جنديسابور الأوّل في الرتبة بين المطارنة وهو السايوم الأوّل شرعًا، وأخيرًا مطران مغمور من بعض أبرشيّات الأطراف التابعة لحدياب،[٣٦] طيماثاوس أسقف بيت بغش.

هذه المرّة جمع جيورجيس الراهب، بمعونة رئيس الشمامسة بيرُوْي، أصوات نصارى (المدائن) وأهل كسكر، وأهل نصيبين.[٣٧] وقد أعان الطبيب على انتخاب جيورجيس ولكنّهم وجدوه ميتًا.

١٧ لن أعود إلى تفاصيل انتخاب طيماثاوس المعروفة جيّدًا، ذلك الانتخاب الذي يصعب غسله من وصمة الاتّجار بالدين. فقد رشح كاتب يُدعى أبو نوح الأنباري، نجد عقبه في خدمة المتوكّل من بعد، أسقف بيت بغش. وقد كان هذا الكاتب قد تربّى مع طيماثاوس بمدرسة إبراهيم بن دشنداد الأعرج في شوش.[٣٨] ثمّ إنّ طيماثاوس اختار الترهّب أمّا أبو نوح فصار كاتبًا لدى موسى[٣٩] بن مصعب عامل الموصل. ومن موقعه هناك مدّ يد العون إلى طيماثاوس، (الذي صار أسقف بين بغش)، ليستردّ خراج أبرشيته. ويبدو أنّ أبا نوح كان (في بعض الدواوين) ببغداد عند انتخاب طيماثاوس في أيّار سنة ٧٨٠ لأنه كان هناك لاقتراح اسم صديقه.[٤٠]

أمّا أبو قريش عيسى الذي مات مرشّحه فقد انحاز إلى مؤيّدي طيماثاوس، بدليل أنّنا نراه يلوم افريم مطران جنديسابور على معارضته، تلك المعارضة التي أدّت إلى إعادة شعائر الرسامة مرّة ثانية في كنيسة الأصبغ العبادي (المنسوب إلى الحيرة) بدار الروم.

يوسف المروزي

ثمّة حادث ربّما عكّر علاقات طيماثاوس بالمهدي، ذلك هو خبر يوسف مطران مرو. فقد كان يوسف هذا خطيبًا مشهورًا بالعربيّة والفارسيّة، وكان قد أعطى صوته لطيماثاوس لقاء وعود كاذبة. وعندما تنكّر طيماثاوس لوعوده من بعد انتخابه، انضمّ يوسف إلى المتمرّدين الذين رسموا جاثليقًا منافسًا في دير الطين بالقرب من حديثة دجلة فحرمهم طيماثاوس من شركة المؤمنين.

هل تعلّقت قضيّة ثانية بهذه؟ يقول ابن العبري إنّ يوسف قد قبض عليه متلبّسًا باللواط.[٤١] عندئذٍ لم يرَ المذنب إلاّ حلاً واحدًا لمشكلته: فأشهر إسلامه بين يدي المهدي الذي استعمله على بعض أعمال البصرة.

ولّما أراد تسويغ إسلامه أمام الخليفة أطلق الاتّهام الذي أصبح (لسوء الحظّ) كلاسيكيًّا:[٤٢] «النصارى يدعون ليل نهار لانتصار الروم». كان هذا الكلام

يساوي، في ظروف الحرب الدائرة آنذاك، اتهامًا بالخيانة. في البداية حمل الخليفة الأمر على محمل الجدّ، وهدّد بالقضاء على النصارى. ومن حسن التوفيق أنّ الطبيب عيسى لم يكن بعيدًا عن مجرى الأحداث فأجاب الخليفة فورًا: «الروم يكرهوننا أكثر من اليهود».

وقف المهدي متحيّرًا بين هذين القولين (وهذا ممّا يشرّفه)، وأحبّ أن يقف على حقيقة الأمر: ما كانت علاقات النساطرة بالروم؟ طرح السؤال على بطريق شريف كان أسيرًا عنده. فلم يترك جوابه مكانًا لأدنى ريب: «يكاد النساطرة أن لا يكونوا نصارى. وهم إلى العرب أقرب منهم إلينا» يعني أنّ تمييز النساطرة وجهين في ذات المسيح يلغي آلام الإله وأمومة مريم للإله، ويجعل موقفهم أدنى إلى عقيدة المسلمين.

من بعدما أخفق يوسف في الهجوم العام، أراد أن يوقع بطيماثاوس الذي كان قد كذب عليه وألقى عليه الحرم. دبّر يوسف مكيدة منمّقة: رسالة مزيّفة من الجاثليق إلى قيصر الروم تقول: «إنّ العرب ضعاف، فاغزهم تنتصر». وقد خبّئت الرسالة، مع شيء من الذهب في موضع يسهل اكتشافه لدى أيّة مصادرة. ولكن الحيلة لم تنطلِ على الخليفة. لم يبقَ يوسف المرتدّ كثيرًا في وظيفته بالبصرة بل هرب ولحق بالروم حيث ارتدّ إلى النصرانيّة في ما يُروى.

طيماثاوس والمهدي

إنّ المؤلّفات الكثيرة التي نُشرت عن هذا الموضوع[٤٣] لتعفينا من بسط الكلام فيه. يؤكّد صليبا[٤٤] أنّ الخليفة كان يستدعي الجاثليق «في أكثر الأيّام ... (وكانت) له معه مباحث يطول شرحها».[٤٥]

يروي طيماثاوس نفسه بعض ما جرى في هذه المناظرات في رسائله إلى صديقه سرجيس. ففي بداية وقائع مناظرات اليوم الثاني، كما وردت في النص السرياني[٤٦] يُسرُّ الجاثليق إلى صديقه: «بأنّ المقابلات مع الخليفة كانت تجري باستمرار، وكانت حينًا في شؤون الدولة، وحينًا لإرواء الظمأ إلى الحكمة الذي كان

يشتعل في صدر الخليفة. فهو ودود ويحب تعلّم الحكمة متى وجدها عند غيره». ربّما دلّت الجملة الأخيرة على أنّ التواضع لم يكن من خصال طيماثاوس، ولكنّها تعبّر، في أيّة حال، عن جميل الثناء على الخليفة.

وقد طلب المهدي من طيماثاوس أيضًا أن يترجم له كتاب طوبيقا لأرسطو عن السريانيّة. وفي سنة ٧٨٢، أنجز الجاثليق، بمعاونة أبي نوح، ترجمة فضّلها الخليفة على ترجمة أخرى من اليونانيّة رأسًا.(٤٧) ولكن الجاثليق اعترف بعد ذلك بكثير، حوالى سنة ٧٩٩، بأنّه استعان ببعض الروم لمراجعة النصّ الأصليّ.(٤٨)

من المعروف، أخيرًا، أنّ طيماثاوس كان يهتمّ بالعلوم وقد صنّف فيها مصنّفات عدّة، منها كتاب في علم الفلك.(٤٩) وقد كان من شأن هذا أيضًا أن يقرّبه إلى الخليفة.

تجدر الإشارة، ختامًا، إلى أنّه ليس لنا أن نركّز خلافة المهدي كلّها على علاقاته الطيّبة بطيماثاوس، وكأنّ هذا كان مستشاره المسموع الكلمة النافذ الأمر. ولئن استفاد النصارى من هذه الظروف المؤاتية، فإن محور الاهتمام كان غيرهم، إنّه هاجس المهدي في حلٍّ سلميّ لمعضلة أهمّ من المشاكل الصغيرة المتعلّقة بالنصارى. وما تلك إلاّ معضلة العلويّين في نزاعهم مع الهاشميّين،(٥٠) أولئك العلويّين الذين تعقّبهم المنصور، والذين أوشكت إحدى انتفاضاتهم أن تطيح بالخلافة. وقد كان المهدي يرى حلّ هذه المشكلة برفع سلسلة نسب الأئمّة إلى جدّه العبّاس بحيث يتمكّن من جمع شمل الفئتين المتنافستين.

كذلك، فقد كان لازدهار حياة البلاط(٥١) المؤاتية للهوايات المترفة والجدل الوديّ، عواقب وخيمة منها «خلق جوّ من عدم الاستقرار لما كان لنفوذ الموالي، حسّاد وزير الخليفة، من دور في الكيد لهذا الأخير مكائد لا يتوصّل دائمًا إلى التغلّب عليها» ولقد شهدت العهود اللاحقة تفاقم هذا الميل وتزايد نفوذ الفرس في الدواوين وبين أهل الحكم. وقد استفاد النصارى من هذه الحال قبل أن يقعوا ضحايا ردّة الفعل عند تصلّب العقيدة في خلافة المتوكّل.

كانت عناصر المآسي التالية جاهزة كلّها عندما توفّي المهدي عن ثلاثة وأربعين عامًا في ٢٢ محرّم ١٦٩/٤ آب ٧٨٥.

الحواشي

(١) تناول العفو الشيعة بخاصّة وذلك في سياق سياسة التهدئة، LAOUST, **Schismes**, p.73.

(٢) الرهاوي المجهول، ص ٦٦٦.

(٣) إيليّا النصيبيني في أخبار السنة ١٥٩هـ. يبدو أنّ هذا المطران قد حُبس بالموصل مع بعض أعيان المدينة، من قبل موسى بن مصعب.

(٤) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٣ - ٤، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٢٨. يضيف ميخائيل السريانيّ «وأنّ بعض الوشاة (النصارى؟) اتّهموه لدى العكي أمير الجزيرة بأنّه قد داس برجليه أوامر الملك». وقد دافع المطران ثيودوسيوس الحرّاني عن البطريرك. نلاحظ في هذا الشأن، أنّ جرجس لم يكن يعرف العربيّة فكان على المطران أن يترجم ما يقول.

(٥) مروج، الفقرتان ٢٤٤١ و٣٤٤٧، التنبيه، ص ٣٤٣.

(٦) ص ٧٠.

(٧) الرهاوي المجهول، الصفحة نفسها.

(٨) الكامل، ج ٦، ص ٨٣ - ٨٤، ابن الطقطقي، ص ١٤٣. نرى الخليفة يشاطر بعض النبط (السريان) طعامه. أنظر أيضًا في الطبري، ج ٣، ص ٥٤٢، قصّة الجارية الروميّة الحسناء التي انكشف جيبها الواسع عن صليب ذهبيّ معلّق بين ثدييها.

(٩) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١.

(١٠) تاريخ الزمان، ص ١١ - ١٢. إنّه المنجّم النصرانيّ الوحيد الذي يذكره ك. نللينو في مقـالـه. Sun, Moon and Stars (Muhammedan) de l' **Encyclopedia of Religions and Ethics**, 2nd. ed., 1934, vol. 12,p.91.

(١١) DUNLOP, D.M., The Translations of al-Bitriq and Yahya b. al-Bitriq, in **JRAS**, 1959, p.140-150.

(١٢) أنـظر مقـالتي في: MIDEO (القـاهـرة)، ج ١٨، ص ٣٥٣ - ٣٥٧، Le Mystérieux Traducteur. أنظر S.P. BROCK, Greek into Syriac في مجلّة مجمع اللغة السريانيّة، ج ٣، (١٩٧٧)، ص ٤٠٦ - ٤٢٢.

(١٣) M. ALLARD, dans **Mélanges H. Fleisch**, Beyrout, 1977, II, p.730-737.

(١٤) طبعة دار الكتاب اللبنانيّ، ج ١، ص ٨٩٢.

(١٥) **Note sur les Chrétiens et les lettres arabes**, par Youakim MOUBARAK, P. 123-130. De même: Influence of Syriac Grammar on Arabic, par Anis FRAYHA. في الأبحاث، ١٤، (١٩٦١)، ص ٣٩ - ٦٠، إلخ.

(١٦) مروج الذهب، الفقرة ٣٤٤٧.

(١٧) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٣٠ - ٢٣٢.

(١٨) ج ٢، العمود ١٦٤ - ١٦٦، ابن أبي أصيبعة، ص ٢١٦ - ٢١٧. إبن القفطي، ص ٢٨٠ - ٢٨٣.

(١٩) مصطفى جواد، سيّدات البلاط، ص ١٥ - ١٩، الزركلي، ج ٢، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، AB-BOT, **Two Queens**, p. 21-134.

(٢٠) يقول ماري في الصفحة ٧٠، إنّه تلقّى عربونًا قيمته ألفا درهم.

(٢١) كان في السادسة والعشرين من عمره عندما توفّي سنة ٧٨٦/١٧٠.

(٢٢) ينفرد صليبا بجعل الانتخاب في خلافة المنصور سنة ٧٧٣. أمّا ماري وعمرو (ملحق صليبا في Gismondi, p.129) فيجعلانها في خلافة المهدي وكذلك إيليّا النصيبيني الذي يجعلها في سنة ٧٧٥/١٥٩.

(٢٣) **Assyrie Chrétienne**, III, p.54-60 خلافًا لما يقوله ماري (ص ٧٠) فإنّ هذه البلدة متميّزة عن الدافوق (طاؤوق) الموجودة على بعد ١٢ كلم منها. لن أعطي بعد الآن مراجع عن التقسيمات الإداريّة المسيحيّة، فبوسع طالبها أن يجدها في مجلّدات **Assyrie Chrétienne**

(٢٤) ماري، ص ٧٠ - ٧١، صليبا، ص ٦٣ - ٦٤، إبن العبري، ج ٢، العمود ١٦٤ - ١٦٦. إيليّا النصيبي، تحت السنة ١٥٩هـ.

(٢٥) في هذا الحديث نموذج عن المناقشات التي ازدهرت خلال هذه الخلافة والخلافة التي أعقبتها. وقد تكلّم الكنديّ عن هذه الأحاديث في ظلّ المأمون، نظامي عروضي، ص ١١٠ - ١١١.

(٢٦) نحن إذن في مستهلّ خلافة المهدي، إذ قد أفل نجم الوزير بعيد ذلك. سنلتقي به ثانية في خلافة الهادي.

(٢٧) **Chronograhia**, I, p. 700

(٢٨) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٣. إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١.

(٢٩) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٤٧٨ - ٤٨٠.

(٣٠) R. CASPAR, Les Versions Arabes, p.115

(٣١) Some Observations ومقالات أخرى للباحث نفسه.

(٣٢) أنظر جملة من التفاصيل حول هذه الحالة وحول حياة الأسرى ببغداد في St. Romain le Néomartyr, d'après un document géorgien, par le p. PEETERS, **Analecta Bollandiana**, XXX, (1911), p.393-427. (مع ترجمة لاتينيّة) يعتقد الكاتب أنّ هذه الرواية مستقاة من أصل عربيّ مفقود.

(٣٣) ص ٢١٥ - ٢١٧.

(٣٤) ص ٤٣٨ - ٤٤١.

(٣٥) فالمنصور هو الذي استعمل على الأهواز ودجلة وفارس عماره بن حمزة، الطبري، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٣٦) أبرشيّة نسطورية تشمل شمال العراق الحاليّ.

(٣٧) إذا صحّت لنا قراءة «صوبا» بدلاً من «صوب»؟

(٣٨) صليبا، ص ٦٦ - ٦٨.

(٣٩) ماري، ص ٧١، يسمّيه أبا موسى.

(٤٠) وقد ورد في مخطوطة ينفرد الأب بولس سباط بذكرها (في ملحق كتابه الفهرس ص ١١ فقرة ٩٣) أنّ أبا نوح قد صار كاتبًا لطيماثاوس. وقيل إنّ اسمه عبد المسيح.

(٤١) سنرى حالات مماثلة عند رجال الكهنوت، من ذلك قِس من الحيرة «ترك الإنجيل حبًّا للصبا»، على قول جحظة البرمكيّ (المتوفى سنة ٣٢٤/٩٣٦)، نشوار المحاضرة، طبعة الشالجي، ج ٢، ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٤٢) ثمّة مقارنات مع ما كان يحصل في ظلّ الفرس، تذكرها N. GARSOIAN في **Le rôle de la hiérarchie chrétienne, p. 132-135**

(٤٣) آخر ما كُتب فيه هو كتاب H.PUTMAN الذي يعرض القضيّة من شتّى جوانبها ويقدّم بيبلوغرافيا وافية. أضف إليه مقالة L. SAKO ومقالة T. CASPAR

(٤٤) ص ٦٤ - ٦٦.

(٤٥) يوجز طيماثاوس في رسالته الأربعين (بيداويد، ٣٢ - ٣٣) إلى سرجيس مناظرة دارت بينه وبين فيلسوف أرسطوطاليسي حول بعض الأمور الدينيّة: الله، أفعاله، تجسّده، إلخ. يذهب المطران بيداويد (ص ٣٢، الحاشية رقم ٢) إلى أنّ هذا الفيلسوف ربّما كان عبدالله الهاشمي الذي كتب في رسالة له إلى الكنديّ: «وقد قرأت ذلك كلّه ودرسته وناظرت فيه مع طيماثاوس جاثليق». الأغلب أنّ عبدالله هذا كان نسطوريًّا أسلم. أنظر KINDI par G. TROUPEAU, E.I.², IV, p.123-124

(٤٦) في — CASPAR

(٤٧) الرسالة ٤٣، بيداويد ٣٥، راجع G. BAUDOUX, La lettre du patriarche Timothé au prêtre docteur Péthion, dans **Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales, volume offert à Jean Capart**, III, (1935), p.40.

(٤٨) Ep. 48، بيداويد ٣٧ - ٣٨.

(٤٩) ماري، ص ٧٤.

(٥٠) SOURDEL, **Vizirat**, p. 92-93

(٥١) المرجع، نفسه، ص ١١٦.

٤ - الهادي (١٦٩ - ١٧٠/٧٨٥ - ٧٨٦)

وعلى ذكر المكائد، فقد ذهب الخليفة الجديد ضحيّة إحداها بعد سنة واحدة من تولّيه الخلافة، ولم يكن بعد قد تجاوز السادسة والعشرين من العمر. أمّا مَن دبّر موته فهي والدته الخيزران التي كانت قد سُرّت كثيرًا بولادته، والتي بدأ القلق يساورها من هذا الولد عندما أراد التخلّص من سلطتها[1] وحبس هارون أخيه الأثير عندها. فهي، في ما روي، التي دبّرت خنق الهادي[2] لتستخلف ابنها الأطوع لإرادتها هارون الرشيد.

أدّت مؤامرة الخيزران[3] ووفاة الهادي إلى إنقاذ حياة أطبّائه النصارى أبي قريش عيسى، عبدالله الطيفوري[4] وداود بن سرابيون[5] الذين كان الهادي قد حكم عليهم بالموت لأنّهم ما أفلحوا في شفائه.[6] وفي اللحظة الأخيرة استُدعي إلى سرير الخليفة العليل طبيب آخر كان يقيم بالقرب من نهر صرصر، اسمه عبد يشوع. كما أنّ بختيشوع بن جورجيس، قد استُدعي أيضًا من جنديسابور، إلاّ أنّه وصل من بعد فوات الأوان.[7]

لا نعرف الكثير عن حال النصارى في ظلّ هذا الخليفة العابر «القاسي القلب الشرس الأخلاق».[8] فقد أخذ بسيرة أبيه في مطاردة الزنادقة ونهج نهج العداء للعلويّين.

يروي لنا ماري حدثًا عجيبًا، يبرز في حياة الهادي القصيرة، كالصخر العظيم النابئ في عرض الجبل. فقد اتّفق أنّه لّما مرّ الخليفة بحديثة الموصل أراد، لسبب لا نعرفه، أن يكسر تابوتًا لبعض الشهداء، معظّمًا عند نصارى الناحية، ويطرحه في

دجلة. إلاّ أنّه تراجع عمّا أراد بعدما ألمّت برأسه وعينيه أوجاع حادّة مفاجئة. ولّما شفي جدّد الأمر بكسر التابوت. وتقول رواية إنّ الأوجاع تجدّدت، وإنّه مات هذه المرّة... يختلف سبب موت الخليفة في هذه الرواية اختلافًا بيّنًا عمّا ينسبه المؤرّخون إلى الخيزران من ضلوعها في تدبير قتل ولدها(٩) وعلى أيّة حال يبقى سلوك الخليفة عصيًّا على التفسير. إذ ربّما كان قد ضاق صدره، بعد خيبة رجائه في شفاء عجائبيّ منّاه به راهب دعيّ من رهبان الحديثة المؤمنين بقدرات التابوت، مثلما كان قد خاب ظنّه في علم الأطبّاء الثلاثة من قبل؟

لا نعرف شيئًا عن علاقات طيماثاوس بالهادي. ويجوز لنا أن نقدّر أنّهما قد تبادلا بعض الأحاديث، إذ يقال عن الخليفة إنّه «كان كثير الأدب محبًّا له».(١٠) زد على ذلك أنّ الهادي كان في أوّل عهده «كثير الطاعة لأمّه الخيزران مجيبًا لها في ما تسأل من الحوائج»(١١) للمقرّبين إليها ولعلّ طيماثاوس كان منهم بفضل أبي قريش. إنّ مرض الهادي الذي جعله نفورًا من الناس وخلافته القصيرة التي خيّم على أواخرها ظلّ خلافاته مع أمّه، لم يسمحا للخليفة الشاب بإقامة علاقات وثيقة مع الجاثليق. وإن كان ماري يؤكّد بلا تردّد، ومن بعدما ذكر الهادي في جملة الخلفاء المعاصرين لطيماثاوس: «أنّه لم يبقَ ملك إلاّ وكاتبه وجذبه إلى الإيمان وتلمذه».

الحواشي

(١) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٧، يبيّن أنّ الهادي قد حظر عليها الاشتغال في شؤون الخلافة سواء ما خصّ منها المسلمين أو ما خصّ الذمّيّين.

(٢) يذهب فاروق عمر إلى أنّ سبب الوفاة هو تسمّم عرضيّ نتج عن خطأ بعض الجواري، Caliphate, p. 341.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣٤ - ٣٤٣.

(٤) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٢٠ - ٢٢٤.

(٥) هل هذا الطبيب هو الجغرافي الذي قدّم رواية جديدة لكتاب صورة الأرض للخوارزمي؟ راجع André MIQUEL, **La géograhie humaine du monde musulman**, I, 1976 (1973) p. XXVIII.

(٦) إبن القفطي، ص ٢٨١.

(٧) إبن أبي أصيبعة، ص ١٨٦ - ١٨٧.
(٨) مروج، الفقرة ٢٤٧٠.
(٩) يذهب السيوطي، ص ٢٨٠، إلى أنّ الهادي ربّما حاول من قبل تسميم أمّه؟ وجاء في بعض روايات مقتل الخليفة أنّ أمّه «عملت على قتله لّما وعك بأن غمّوا وجهه ببساط وجلسوا على جوانبه».
(١٠) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٠.
(١١) المصدر نفسه، الفقرة ٢٤٧٦.

٥ ـ الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣/٧٨٦ ـ ٨٠٩)

لا يجوز لنا أن نحكم حكمًا عامًّا على عهد دام ثلاثًا وعشرين سنة، علمًا بأنّ الخليفة الجديد قد باشر أمور الخلافة وهو بعد في العشرين من العمر. فالخيزران، تلك الأمّ المتسلّطة التي دبّرت، في ما قيل، قتل ابنها البكر موسى الهادي لتضمن العرش لابنها الأثير هارون الرشيد، قد ظلّت «خلف الستار» بالمعنى الحقيقيّ للعبارة.[1]

بعدما أوصل الخليفة الشاب والدته إلى مثواها الأخير،[2] بدأ يتصرّف بصورة مستقلّة، فعيّن مثلاً بعض الرجال في مناصب كان قد أجّل تعيينهم فيها لأنّ أمّه لم تكن راضية عنهم،[3] ومن حسن حظّ المملكة أنّه كان متأثّراً بالبرامكة (١٧٠ ـ ١٨٧/٧٨٦ ـ ٨٠٣)[4] فقد «اختلت أموره بعد البرامكة وبان للناس قبح تدبيره وسوء سياسته»[5] على حدّ قول المسعودي الصارم.[6]

أمّا عن النصارى فقد كان طيماثاوس الجاثليق في السدّة منذ ستّ سنوات[7] وقد تمتّع برعاية المهدي والد الخليفة الجديد وحماية أمّ ولده الخيزران بمساندة أبي قريش عيسى الطبيب. وعمّا قليل سنراه في جملة المقرّبين إلى الرشيد مشمولاً بعطف السيّدة زبيدة، ومتمتّعًا برصيد آل بختيشوع أطبّاء البلاط ورصيد غيرهم من الكتّاب النصارى.

وزارة يحيى بن خالد (١٧٠ ـ ١٨٧/٧٨٦ ـ ٨٠٣)

منذ العام ٧٨٠، وعقب غزوة مظفّرة للأراضي البيزنطيّة[8] أسكن يحيى

البرمكي وأبوه خالد في حيّ البرامكة الأرستقراطيّ بالشماسيّة (شمال شرق بغداد) جماعة من الروم كان سباهم وأجلاهم، وفيهم بطريقهم، عن بلدة سمالـووس[9] البيزنطيّة. وقد صـارت دار الروم[10] التي أحلّوا فيهـا، دير الـروم ومقرّ جثلقـة المشارقة من السريان بعد مئة سنة من ذلك التاريـخ. وقد بقي منهـا إلى جانب الكنيسة البطريركيّة، كنيسة للملكيّين يقال لها كنيسة سمالو وكنيسـة أخرى لليعاقبة. كان البرامكة يقيمون علاقات وثيقة مع النصارى، ويشهد على ذلك أيضًـا اسم حيّهم: الشماسيّة (نسبة إلى الشمّاس).

إنّ ما ينسبه المسعوديّ[11] إلى يحيى البرمكي من أنّه كان: «ذا علم ومعرفة وبحث ونظر» وأنّه كان يجمع في داره للمناظرة عددًا من مشاهير أهل النظر المسلمين ومن الفرق كلّها، يصحّ أيضًا على الجيل الأوّل من البرامكة كلّه.

شجّع البرامكة عمل الترجمة[12] الذي كان قد بدأ في خلافة المهدي. ومن المحتمـل أن تكون قـد أسّست بدافـع منهم المكتبة الشهـيرة التي عُرفت بخـزانة الحكمة[13] والتي صارت من بعد نواة معهد الترجمة الذي سُمّي بيت الحكمة.

وقد استقدم يحيى إلى بغداد، لإدارة البيمارستان الذي أنشأه، طبيبًا هنديًّا[14] عرّف العرب بالطبّ الهنديّ من خلال ترجماته. وفي العام ١٧٥/٧٩١ استخـدم جعفر البرمكيّ جبرائيل بن بختيشوع الذي كان والده بختيشوع بن جورجيس قد عاد إلى بغداد سنة ١٧١/٧٨٧، من بعدما أزاحه أبو قريش عيسى، وشفى هارون الرشيد.[15]

سنتكلّم عمّا قليل عن دور جبرائيل بن بختيشوع لدى الخليفة، وليكفنا أن نلحظ هنا أن جعفرًا البرمكيّ كان يحبّه حبًّا جمًّا.

وقد جاء لعلاج الرشيد من جنديسابور أيضًا ماسويه بن يوحنا[16] الصيدلاني والكحّال، أوّل ساعور في أوّل بيمارستان أُنشئ ببغداد.[17] أمّا ابنه، أبـو زكريّـا يوحنّا بن ماسويه فقد صار في خلافة المأمون رئيسًا للمترجمين وخدم المتوكّل أيضًا، حتّى وفاته بسامراء، سنة ٢٤٥/٨٥٧.[18]

وقع حوالى سنة ٧٩٠ م. خبر من شأن ذكره أن يكمل في نظرنا صورة بلاط

الرشيد. فقد عيّن الخليفة عبيدالله بن المهدي عاملاً على مصر.[١٩] وقد أرسل عبيدالله إلى الرشيد جارية نصرانيّة، من البيما بصعيد مصر، صارت حظيته. ومن سوء التوفيق أنّ المحبوبة اعتلّت، فاستدعي طبيب مصريّ شهير هو بولتيانوس (٨٦٧ ـ ٨٠١) بطريرك الإسكندريّة للملكيّة من النصارى ولم يلبث هذا النطاسي أن شخّص العلّة: إنّه الحنين إلى الأوطان. وقد صحّت الحسناء بعدما أكلت «من كعك مصر الخشن والصير» وسرّ الخليفة بذلك وهدأ سرّه. فكان أن تسلّم بولتيانوس جائزة نقديّة سنيّة فضلاً عن منشور من الخليفة بأن تعاد إليه كنائسه التي غصبه إيّاها «اليعاقبة» (أي الأقباط هنا).[٢٠]

سواء أجلبت المخطوطات على يد مَن كان يبعث لشرائها من الأمبراطوريّة البيزنطيّة أم كانت في جملة غنائم الغزوات، فقد أغنت مكتبات بغداد وجاءت بعمل كثير للمترجمين. وتجدر الإشارة هنا إلى تغيّر نظرة الفقهاء: ففيما كان الإمام الأوزاعي المتوفى سنة ٧٧٤، في خلافة المنصور، يرى أنّ الكتب الإغريقيّة إذا ما أُخذت في بعض الغزوات يجب أن تُدفن في الأرض لأنّ فيها شركًا، نجد الشافعيّ المتوفى سنة ٨٢٠، في خلافة المأمون، يرى أن يؤتى بمَن يترجمها: فإذا كانت في الطبّ أو العلوم لم يستقبح بيعها، أمّا إذا كان فيها شرك وجب تمزيقها.[٢١]

إنّ ما يعنينا هنا ليس النشاط الفكريّ الكثيف لذلك العصر، فهذا موضوع قد أُشبع درسًا من قبل،[٢٢] بل إنّ ما يهمّنا هو دور النصارى البارز في هذا النشاط، ذلك الدور الذي يشرّفهم حقًّا. ولكن يجب أن ننبّه أيضًا إلى ما كان ينطوي عليه وضع نخبة المثقّفين النصارى المتميّز من خطر على جماعة النصارى كلّها. إنّ ارتفاع نسبة تمثيل النصارى في الطبقات المهنيّة العليا من المجتمع (كتاب، أطبّاء) كان من العوامل المؤدّية إلى تفاقم الوضع الهامشيّ لفئة الأقليّة النصرانيّة. وذلك لأنّ البنية الاجتماعيّة المهنيّة لهذه الفئة عينها لا تماثل البنية الاجتماعيّة المهنيّة للأكثريّة المسلمة التي لم تكن حتّى ذلك الوقت ممثّلة بنسبة كافية في الطبقات المهنيّة العليا نفسها.[٢٣]

قبل أن نغادر يحيى البرمكيّ وولديه، نذكر في جملة الشعراء الذين مدحوهم أبا قابوس عمرا بن سليمان الحميري من بني شيبان الذين كانوا بالحيرة.[٢٤]

أوّل تنظيم لأحوال النصارى

هل كان الفضل وأخوه جعفر ابن يحيى البرمكيّ أقلّ تسامحًا من والدهما؟ ينسب غازي الواسطي(٢٥) إليهما قرارًا بعزل غير المسلمين من الدواوين. فالفضل، في ما قيل، قد «خرّب (. . . .) معاقلهم ومعابدهم بخراسان وأمر بأن لا يمكنوا من بياض شيء ممّا بقي من كنائسهم لئلاّ يتشبّهوا بمساجد المسلمين في البلاد».

على أيّة حال أنّ أوّل تنظيم لأحوال أهل الذمّة يعود إلى القاضي(٢٦) أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاريّ الكوفيّ المولد، المستشار القانونيّ لجعفر البرمكيّ. فقد خلع عليه الرشيد (لأوّل مرّة في الإسلام) لقب قاضي القضاة وكلّفه بتصنيف كتاب في القانون. وقد عُرف كتابه الذي كُتب في صورة رسالة، هي في الحقيقة مجموعة أمالي جمعها تلميذه بشر بن الوليد الكنديّ،(٢٧) تحت عنوان كتاب الخراج، ولو أنّه يعالج جملة متنوّعة من المباحث الأخرى، ومنها الأصول الواجبة في معاملة النصارى.

إنّ هذه الأصول التي تكشف عن مكانة النصارى المرموقة في مجتمع البرامكة، تعبّر عن تسامح كثير. وقد ذكرتُ طرفًا منها في المقدّمة، لدى الكلام عن الجزية.

لنلاحظ هنا أنّ النصّ يطلعنا على المقدار الذي يجب أن تدفعه كل «طبقة» ويوقفنا على المهن التي كان يمتهنها اليهود والنصارى من أهل الذمّة في المدن. فالصيارفة وتجّار النسيج وأصحاب الضياع والتجّار والأطبّاء كانوا يُعدّون في الأغنياء وكان عليهم أن يدفعوا ٤٨ درهماً في السنة، أمّا التجّار وأصحاب الحرف فكانوا يُعدّون أغنياء أو متوسطيّ الحال وكانت جزيتهم إمّا ٤٨ أو ٢٤ درهمًا سنويًا وأمّا العمّال اليدويّون كالخيّاطين والأساكفة والصبّاغين فكان عليهم ١٢ درهمًا.(٢٨) وكان هذا المبلغ يمثّل حسب كلود كاهن أجر عشرة إلى خمسة عشر يومًا. ويرى هذا المؤلّف: «أنّ الرجل الخاضع للجزية لم يكن مع ذلك أسوأ حالاً من المسلم الذي كان مكلّفًا بالزكاة التي كان الذمّيّ معفى منها من حيث هو كذلك».(٢٩)

كان يُسمح للنصارى بالإقامة في مدن المسلمين وأسواقهم ولكن لم يكن يحقّ لهم أن يبيعوا الخمر فيها ولا الخنزير. ويعالج فصل كامل(٣٠) مسألة الكنائس

والبيع: وخلاصة القول إنّه يجوز ترميمها ويحظر إحداث أيّ منها، كما أنّه يجب ألاّ تظهر الصلبان في العلن. هذا كلّه ليس جديدًا بل هو جزء من شروط الصلح التي أبرمت عند الفتح.

ثمّة فصل يفاجئنا بما ينطوي عليه من إذلال، إنّه ذاك الذي يعالج «لباس أهل الذمّة وزيّهم». ولقد أُشير إلى هذا الأمر من قبل: إنّ هذه التدابير لا أساس لها في القرآن الكريم بل تصدر عن سياسة زمنيّة ومؤقّتة.[٣١] لن نناقش صحّة النعت الأخير، إذ إنّه من المفهوم أن يفرض على نصارى الثغور المتاخمة للعدوّ البيزنطيّ «أن يتميّزوا عن المسلمين»، وخصوصًا عن العسكر، كما أمر بذلك عمر بن الخطّاب في ما قيل. بيد أنّ أبا يوسف يدهشنا عندما يوصي[٣٢] ببغداد وبين العام ١٧٠ و١٨٢/٧٨٦ و٧٩٨، وفي خلافة الرشيد ووزارة البرامكة «بأن لا يترك أحد منهم يتشبّه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنّارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كلّ واحد منهم، وبأن تكون قلانسهم مضرّبة، وأن يتّخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمّانة من خشب، وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنيّة، إلخ...»[٣٣]

عندما تصلّبت العقيدة عند الحنابلة من السنّة وعند الشيعة تطوّرت هذه الإجراءات التمييزيّة المذلّة حتّى أضحت المعاملات اليوميّة مع النصارى موضع تحرّج إذ عدّت مصافحتهم سببًا للجنابة.[٣٤] ثمّ صارت تطرح أسئلة أخرى عن جواز الردّ على تحيّتهم.[٣٥] وهل يجوز الشراء من دكاكينهم؟ هذا عدا عن المسائل الشرعيّة المتعلّقة بالزواج والوصاية على الأطفال والمواريث... وقد كانت المسألة الأخيرة مدعاة لعدد من التسويات الشرعيّة وتكييف القوانين النصرانيّة بما يوافق الشرع الإسلاميّ.[٣٦]

أدّت الإجراءات التمييزيّة والضرائب الخاصّة مدّة خلافة الرشيد إلى خروج بعض النصارى من دينهم. وقد حاول بعضهم، في ما يبدو، أن يجد بعض المخارج؟ ويبيّن الفقيه محمّد الشيباني[٣٧] (المتوفى سنة ٨٠٥) تلميذ أبي يوسف كيف يجبر المدّعون على اعتماد سلوك لا لبس فيه: «فأمّا اليوم ببلاد العراق فإنّ (اليهود

والنصارى) يشهدون أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمَّدًا رسول الله، ولكنّهم يزعمون أنّه رسول إلى العرب[٣٨] لا إلى بني إسرائيل. ويتمسّكون بظاهر قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم﴾ فمَن يقرّ منهم بأنّ محمَّدًا رسول الله لا يكون مسلمًا حتّى يتبرّأ من دينه مع ذلك، أو يقرّ بأنّه دخل في الإسلام. حتّى إذا قال اليهوديّ أو النصرانيّ: أنا مسلم أو أسلمت لم يحكم بإسلامه. لأنّهم لا يدعون ذلك. فإنّ المسلم هو المستسلم للحقّ المنقاد له: وهم يزعمون أنّ الحقّ ما هم عليه. فلا يكون مطلق هذا اللفظ في حقّهم دليل الإسلام حتّى يتبرّأ من دينه. كذلك لو قال: برئت من اليهوديّة ولم يقل مع ذلك: دخلت في الإسلام، فإنّه لا يحكم بإسلامه، لأنّه يحتمل أن يكون تبرّأ من اليهوديّة ودخل في النصرانيّة. فإن قال مع ذلك: ودخلت في الإسلام فحينئذٍ يزول هذا الاحتمال».

واضح أنّ الهدف من الصيغة التي يجب على مَن يودّ الدخول في الإسلام أن يتلفّظ بها هو قطع الطريق على أصناف التحايل كلّها. إنّ أوّل مَن صنّفت له صيغة الخروج من النصرانيّة كان، في ما قيل، عون كاتب الفضل بن الربيع،[٣٩] ولعلّه أبو الفضل عون بن هارون بن مخلد بن أبان كاتب الضياع في خلافة المأمون (١٩٦ - ٢١٨/٨١٤ - ٨٣٣).[٤٠] وقد حفظ لنا النويري،[٤١] وهو كاتب من القرن الثامن للهجرة (١٤م)، نصّ هذه الصيغة، وهي تحتوي على «الشهادتين المعظّمتين وهما شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمَّدًا عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، وأنّ عيسى عبدالله ونبيّه، ومريم أمة الله، وأنّ محمَّدًا (ص) خاتم النبيّين، وأفضل المرسلين، وأنّ شريعته أفضل الشرائع وملّته أفضل الملل، وأنّ ما جاء به عن الله حقّ، وقال: «أنا برئت من كلّ دين يخالف دين الإسلام». ثمّ تسجّل شهادته عند القاضي ويشهد عليه شاهدان».

ولدينا فضلاً عن هذه وثائق أخرى أصرح منها تختصّ بالملكيّين المصريّين الذين يعتنقون الإسلام، وفيها صيغ بديلة لليعاقبة أو النساطرة. من هذه الوثائق قانون إيمان مسيحيّ مقلوب قد خلط ببعض المعتقدات الساذجة، كتمثيل الثالوث باعتباره مؤلّفًا من الآب والأم والروح القدس. ولا يكتفي المسلم الجديد بالاعتراف

بأكل لحم الجمل والزواج من امرأتين. بل يعلن موافقته، على ذبح الشمامسة والديرانيّين، وهدم الكنائس والأديرة. هذا النص الكاريكاتوريّ الكريه مثبت في كتاب لتعليم الترسّل[٤٢] كنموذج على «يمين النصارى» الداخلين في الإسلام.

تهمة التجسّس

كانت أحوال النصارى من رعايا العبّاسيّين حرجة دائمًا حيثما تاخمت أراضي الخلافة أراضي الأمبراطوريّة البيزنطيّة التي كانت تدين رسميًّا بالنصرانيّة. لم يكن في هذا شيء يختلف عمّا كانت عليه الحال منذ أيّام الساسانيّين،[٤٣] ولقد رأينا أسلاف الرشيد يتّخذون التدابير الكفيلة بشلّ الطابور الخامس المحتمل أو صبّ سخطهم عليه إذا ما باؤوا بهزيمة ما.

هنا أيضًا تنفرد المصادر البيزنطيّة[٤٤] والسريانيّة الغربيّة[٤٥] بتقديم المعلومات، ذلك لأنّها هي وحدها المعنيّة بها مباشرة. وتروي هذه المصادر أنّ الرشيد «قد زاد الجزية في أوّل عهده، فهاجر كثيرون من هؤلاء وهربوا من بلدهم وبقيت أراضيهم في يد العرب». كذلك أمر الخليفة «في السنة الثانية بأن تخرّب الكنائس والمعابد إلى الغرب من نهر سنجا» ليكمل بناء مدينة الحدث[٤٦] التي استنقذها من البيزنطيّين من بعدما استولوا عليها قبل إتمامها. لذلك استعملت حجارة كنيسة كيسوم الكبيرة وحجارة بضع عشرة كنيسة أخرى بدلاً من المقالع لإعادة بناء سور الحدث. [٤٧] لا نعرف هل جرت هذه الأمور لأنّ الخليفة نفسه أمر بها أم كانت بمبادرة قام بها عامل الناحية عبد الملك بن صالح.

يشير طيماثاوس الجاثليق في رسالة أُرفقت بنصّ القوانين الكنسيّة التي أقرّت في مجمع سنة ٧٩٠[٤٨] إلى زيارته الخليفة ستّ مرات، ويبدو أنّه قد خصّص هذه الزيارات الستّ للحصول على إذن الرشيد بإعادة بناء هذه الكنائس.[٤٩]

ومن حسن طالع النصارى، ولا سيّما نصارى الثغور، أنّ غزوات الرشيد الأولى كانت مظفرة، وبخاصّة في العام ١٨١/٧٩٧ ـ ٧٩٨، إذ قبلت الأمبراطورة هيلانة بأن تدفع الخراج للعرب.[٥٠]

يقتحم الظلمة ويبدّدها ويغشاها، ولكنه يرهب إليها ويخشاها، هو عين جوّاسة مجهرة، ترمي العالم بالنظرة الرحيمة الواسعة، ثم تعود مغمضة جفنيها على دمعة تترقرق فيها، وحسرة تذوب في مجاهرها، هو فيض من سلام وحنان وصفح، يتحدر من نبع قوي صاف فيصطدم بالبغضاء والقسوة والغل. . . » ـ مثل هذا الرجل النابغة العظيم، بل هذا العبقري الفذ في هذا الوطن السيّء الحظ، يحارب ثم يحارب ثم يحارب أضعاف ما ينال من معاونة ضئيلة، فينفجر منه شعر الألم. . . وكيفما كانت قيمة هذا الشعر من الوجهة الفنية فهو وصمة في جبين الجيل، وأين شكاوى حافظ إبراهيم على قلّة ما أنتج من شكوى أبي شادي العامل المنجب يخجلنا أيما إخجال بقصيدة «نشوة اليأس» ـ ص ٢٧ من ديوان «الشعلة»:

دَعُوني أُناجي اليَأسَ مِن نَشْوَة اليَأسِ
وَلاَ تُوهِمُوني أنَّ حَوْلي مَا يُنْسي

اعيشُ بأرضٍ للشياطين والأذى
تصبح في رجسٍ وتُمسي على رجسِ

حرامٌ علينا مأمل في ربُوعِها
وفيها تجلّ مصرَع الفكر والحسّ

عَلامَ التمادي في المنى حينما نرى
ضَحَايا المُنى اضحُوكَةَ الحظّ والبُؤسِ؟!

أنعلّق بالآمالِ في البلدِ الّذي
يصولُ بهِ مَنْ صال بالشرِ والدسِّ؟

خِفافٌ إلى الإفسادِ في كلِّ مطلب
ثقالٌ على الإحسانِ، حَرْبٌ على النَّفسِ

في السنة ٧٩٧ عينها[٥١] اجتاز الرشيد بالرها، «فواجهه المسلمون وشكوا النصارى مدّعين أنّ ملك الروم يزورهم كلّ سنة سرًّا ويصلّي في كنائسهم» وطلبوا منه هدم الكنيسة الكبرى وإبطال دقّ النواقيس. وقد تدخّل يحيى[٥٢] مستشار الخليفة فردّ التهمة عنهم. فكان أن أمر الخليفة بضرب المسلمين وطردهم بدلاً من أن يستمع لهم.

في العام ٨٠٧ كاد قرياقوس بطريرك أنطاكية لليعاقبة أن يذهب ضحيّة مكيدة دبّرها له أساقفته أنفسهم:[٥٣] كان الرشيد في قاعدة عمليّاته بمرج دابق[٥٤] عندما جاءه الأحبار ليسوقوا ضد قرياقوس الاتّهامات المعتادة «لقد سُوِّدَ قرياقوس علينا من دون الرجوع إلى رأينا، وبيده عهد ويرهقنا بالمكوس. إنّه يحادّ الملك والمسلمين جميعًا. وهو يبتني البيع في بلاد الروم ويكاتبهم، ولا يرتضي المكوث في موضع أنت فيه، فإذا كنت بالمشرق ذهب إلى المغرب».[٥٥]

بدأ الخليفة بتصديق المفترين لما استعظم قدرهم. وما إن أطلع أحد عمّاله، المدعو ابن مطر، على سخطه حتّى سارع إلى التنكيل بالنصارى في أنطاكية والقدس إلخ. وهدم بعض الكنائس. «وغنم من ذلك مالاً كثيرًا».

بعد ذلك عملت أصناف النفوذ المتضاربة. كان للبطريرك محام بارع ذو علاقات مكينة بأهل السلطة، ألا وهو ثيودوسيوس أسقف سلوقية الذي صادفناه من قبل. بيد أنّ المتمرّدين أضافوا إلى افتراءاتهم تهمة القتل، قالوا إنّ البطريرك قد اغتال أحد الأساقفة.

ولّما بلغ قرياقوس أنّ الخليفة قد سيّر الجند ليقبضوا عليه بالرقّة، قصد الخليفة بنفسه وارتمى على قدميه وصلّى من أجله. فوقع ذلك في نفس الرشيد فوكل أمر محاكمته إلى إسماعيل بن صالح الكاتب. وكان هذا يعرف البطريرك فلم يصعب عليه تبرئة الحبر. فسمح له الخليفة بالعودة إلى ديره بالرقّة.

وقبل أن نختتم أخبار الحروب مع البيزنطيّين، نشير إلى أنّ الخليفة كان يصطحب في أسفاره أحيانًا طيماثاوس جاثليق النساطرة. هل كان يفعل ذلك للاستمتاع بحديثه العلميّ أم للتبرّك به؟ أم لاستخدامه وسيطًا في تعامله مع سكّان

الأرض من النصارى الذين يجدهم في طريقه أو يرجو استسلامهم السريع؟ هذه الأسباب كلّها قد صادفناها من قبل عندما كان الملوك الساسانيّون يصطحبون أسلاف طيماثاوس[٥٦] ولو بالقوّة أحيانًا. ولدينا بالنسبة إلى هذا الأخير مثال محدّد: ففي السابع من حزيران ٧٩٩ (١٨٣هـ) استجاب الجاثليق لأمر الرشيد باللحاق به إلى الأراضي البيزنطيّة. وقد سمح له باستعمال مطايا البريد الملكيّ[٥٧] ليعجّل في الوصول.

مفصل العام ١٨٧/٨٠٣

كان اليوم المقدّر يقترب، ذلك اليوم الذي خلع فيه هارون الرشيد إمّا سأمًا أو حسدًا،[٥٨] الوصاية الثانية في حياته، وصاية البرامكة. وقد جاء القرار كالكثير من قرارات الخلفاء الخطيرة بعيد عودة الخليفة من الحجّ.[٥٩] ذهب الرشيد أوّلاً إلى الحيرة حيث أقام بضعة أيّام[٦٠] عند أحد كبار أثرياء النصارى، عون الجوهريّ الذي كان قصره المسكن اللائق الوحيد في المدينة.[٦١]

لنتوقّف قليلاً أمام عون العباديّ هذا (أو العبادانيّ، المنسوب إلى العباد أي نصارى الحيرة من العرب) الذي كان صاحب الحيرة[٦٢] وكان جوهريًّا[٦٣] من حيث حرفته. وإنّ المرء ليقدر الثراء العريض الذي تمتّع به هذا الرجل إذا ما رأى النفقات الباذخة التي كان ينفقها الأكابر[٦٤] ليزيّنوا حظاياهم وأحبّاءهم وحتّى كلابهم.

هل كانت أرباح هذا الجوهريّ فاحشة؟ يبدو أنّ الأمر كان كذلك، حسب الخبر الذي يرويه ماري عن الجواهر التي أهداها الرشيد إلى بعض سراريه فباعتها من عون الذي اشتطّ في الثمن لّما أراد الخليفة شراءها من جديد. لذلك ذاق الجوهريّ الغبيّ طعم الحبس ولم يفرج عنه إلاّ بعدما تدخّل جبرائيل بن بختيشوع المتطبّب وتاوفيلا الرهاوي[٦٥] القهرمان. وقد فرّق عون صدقات[٦٦] جزيلة فرحًا بخروجه من الحبس.

كان لعون أيضًا مشاكل مع طيماثاوس الجاثليق. ذلك أنّ عونًا كان، كغيره

من النصارى الموسرين، منذ جبرائيل السنجاري أيّام كسرى وحتّى بختيشوع في ظلّ المتوكّل. قد تأثّر بعادات بيئته واتّخذ لنفسه بعض الجواري، فلامه طيماثاوس على ذلك.[٦٧]

بعدما أقام الخليفة مدّة بالحيرة عند عون الجوهريّ،[٦٨] أصعد على الفرات إلى دير كان بالقرب من الأنبار.[٦٩] هذا الدير المشهور هو دير يونان الراهب تلميذ مار أوجين.[٧٠] من هناك انطلق مسرور الخصيّ بالأمر المقدّر بقتل جعفر البرمكيّ. إنّ تفاصيل هذا الحادث الكئيب لم تزل موضع نقاش،[٧١] وليكفنا أن نشير هنا إلى أنّنا نجد في عداد المقرّبين الذين شاركوا جعفرًا آخر أكلة له، الطبيب النصرانيّ بختيشوع الذي كان آنئذ في خدمة البرمكي.[٧٢]

درع للنصارى[٧٣]

بعد نكبة جعفر البرمكيّ وحبس معظم أهله، وفيهم يحيى الذي مات سنة ١٩٠/٨٠٥، فقد جبرائيل بن بختيشوع، طبيب جعفر الخاصّ، سيّده وحاميه. بيدَ أنّه وجد سيّدًا أعظم نفوذًا واحتلّ منه مكانة لا تضاهى.

في السنة عينها، ١٩٠/٨٠٥، استدعي جبرائيل إلى البلاط[٧٤] حيث تحقّقت على يديه سلسلة من الشفاءات المدهشة، بدءًا بالمحظيّة التي نسيت أنّ ذراعها مشلولة عندما بسطت يدها في حركة غريزيّة لستر عورتها إذ خافت أن تنكشف. وقد نال جبرائيل من شفائها ٥٠٠،٠٠٠ درهم.[٧٥]

والأهمّ أنّ جبرائيل قد حاز ثقة هارون الرشيد المطلقة. فقد نجده في الرقّة[٧٦] سنة ١٩٣/٨٠٨، أوّل مَن يدخل على الخليفة كلّ صباح ويحادثه بأحاديث حميمة.[٧٧] وقد أزال التكلّف في معاملة الرشيد، حتّى كان يستجيز لنفسه من الإدلال ما كان قمينًا بأن يودي بحياة أي شخص آخر لو أقدم على مثله. من ذلك ما وقع له على مائدة عون العباديّ بالحيرة. فقد أثبت جبرائيل للخليفة أنّ طريقة أكله السمك من غير أن يشرب عليه من خمر طيزناباذ (الموصوف كخمر قطربل) تشبه طريقة مَن يسعى إلى تسميم نفسه.[٧٨] فلمّا اقتنع الخليفة أمر بأن

يحمل إليه خمسة آلاف دينار وقال لمَن له أذنان: «مَن يلومني على محبّة هذا الرجل الذي يدبّرني هذا التدبير؟».

كان من شأن أنعام الخليفة على هذا «الذمّيّ» والمبالغ الطائلة التي كان الطبيب يجمعها[٧٩] أن تثير حفيظة الكثيرين وحسدهم. ويبدو أنّ الرشيد كان يستمتع بإثارة الحسّاد. من ذلك ما أعلنه على مسمع من الحاشية كلّها عقب عودته من الحج: «دعوت لك (جبرائيل) والله في الموقف دعاء كثيرًا»[٨٠] فقال له أحدهم بحياء أنّ الطبيب ليس إلاّ ذمّيًا فردّ عليه الخليفة: «نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي. فصلاحهم بصلاحه وبقائه» فسارع الجميع إلى الموافقة على قول الخليفة.

إلى جانب أولئك الذين كانوا يقرّون بنبوغه الطبّيّ الذي لا يمارى فيه (على ما في تفسيرات الطبّ في ذلك العصر من مفاهيم تدعونا إلى التبسّم) نجد رهطًا يحرقون الأسنان عليه، كهذا الشاعر المتيّم الذي أنشد.[٨١]

ألا قل للذي ليس على الإسلام والملّة
لجبرائيل أبي عيسى أخي الأنذال والسفلة (كذا!)

أفي طبّك يا جبريل ما يشفي ذوي العلّة
غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلّة

ولكن مَن كان يجرؤ على الكلام عندما يعيّن الرشيد جبرائيل وسيطًا عامًا إذ يقول: «كلّ مَن كانت له إليّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأنّي أفعل كلّ ما يسألني فيه ويطلبه منّي»[٨٢] كان في يد جبرائيل، الذي صار بمنزلة يوسف بن يعقوب من عزيز مصر، أن يعين طيماثاوس الجاثليق على تدبير شؤون رعيّته.[٨٣]

فقد نرى جبرائيل ينصر طيماثاوس لدى الخليفة في أحوال التنافس الشائكة على الكراسي الأسقفيّة،[٨٤] في الحصول على عهد الخليفة[٨٥] وفي جملة قضايا أخرى[٨٦] كان فيها جبرائيل، في ما كتب الجاثليق، «يدًا لي وشفتين ولسانًا على باب ملكنا المظفّر، بل كان منّي ضميرًا وقلبًا يعقل. كان منّي ذلك كلّه وكذلك كان للكنيسة الجامعة. مدّ الله في أجله وأجل مولانا الملك المظفّر سنين مديدة».[٨٧]

أمّا القضيّة التي برزُ فيها «ظلّ» الخليفة فكانت قضيّة السمات المميّزة التي أراد الرشيد أن يفرضها على النصارى ببغداد.

ينزل هذا القرار في منزلة نزوة من نزوات السخط الذي انتاب الخليفة إثر الهزيمة التي أوقعها به نقفور قيصر الروم سنة ١٩١/٨٠٦.

في رمضان ١٩١/نيسان ٨٠٧، أصدر الرشيد أوامره[٨٨] من الرقّة بهدم الكنائس بالثغور، وأخذ أهل الذمّة، حتّى ببغداد، بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.[٨٩] ولكن جبرائيل أبطل هذا التدبير، إذ حالما عاد الخليفة إلى بغداد دخل عليه جبرائيل بطيلسان[٩٠] مصبوغ لابسًا الغيار والزنّار. فلمّا أنكر الرشيد ذلك عليه قال للخليفة: «أنا أحد الذمّة ولا يجوز أن أخالف زيّهم» فرفع الرشيد الأمر عن النصارى.[٩١]

وفي خلافة الرشيد، في ما روى، أخبر بعض النساطرة ممّن زاروا مصر جبرائيل أن قبر نسطور، بكوم الشقف[٩٢] قرب أخميم بالصعيد، في أزرى حال. فاليعاقبة، أي الأقباط هنا، يرجمونه بالحجارة ويقولون إنّ القبر لا يمطر أبدًا لأنّ نسطور قد أحرقته نار الغضب الإلهيّ. حصل جبرائيل على كتاب من الخليفة، حمله هذا النسطوريّ إلى مصر، يأمر عامل الناحية أن يجعل رفاة نسطور في تابوت ويبعث بها إليه لكي يصار إلى دفنها بما يليق من الإجلال في كنيسة الجثلقة بكوخي. ولكنّ راهبًا نسطوريًا استدرك الأمر ليزيل العار عن أبناء ملّته ويبرهن لهم أنّ الذي يسخر به اليعاقبة ويرجمونه ليس نسطورَ فادّعى أنّ أحد الرسل القدّيسين ظهر له في الحلم ليلاً وقال له: «إنّ هذه الحكاية لا نصيب لها من الصحّة وأنّ عظام نسطور ليست في مصر ولا يعرف أحد مكان قبره. فكفّ جبرائيل الطبيب عن نقل العظام من مصر».[٩٣]

وكان لجبرائيل دور فاعل أيضًا في قضيّة تهديم كنائس البصرة ومرفأ الأبلة المجاور لها.[٩٤]

وأصل ذلك أنّ رجلاً يُدعى حمدون بن عليّ (ويتّهمه ماري ببغض النصارى)

توصّل إلى إقناع الرشيد بأنّ النصارى «يعبدون ويسجدون لعظام الموتى وهي في بيعهم» فحصل من الخليفة على أمر بهدم هذه البيع.

فما كان من سرجيس مطران البصرة إلاّ أن أطلع جبرائيل على ذلك، فعمَل الطبيب وغيره من النصارى الذين في خدمة الخليفة على تصحيح معلوماته، فأصدر الرشيد أمرًا بإعادة البناء. لنلاحظ عابرين الدعم القويّ الذي لقيه طيماثاوس، في هذه الحالة، من قبل السيّدة زبيدة، ولنا عودة إلى دور هذه الملكة في الرفق بالنصارى.

وعلى الرغم من تعاطف المقامات العليا لم تنته قضيّة البصرة ببساطة. فقد وقف حمدون في وجه تنفيذ أمر الخليفة، ولم يكن من سبيل معه إلاّ بأمر ثان، بعيد حلم رآه الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨/٨٠٩ ـ ٨١٣)، حتّى أجبر هذا المعاند على السماح بإعادة بناء المعابد المهدّمة.

ولكن لنعد إلى جبرائيل المتطبّب. لقد كان أجفى طبعًا وأصعب قيادًا من أن يكتفي بالموافقة طائعًا على قرارات جاثليقه أو أن يشاطره آراءه كلّها. وها نحن نراه يدعم إبراهيم أسقف جي (بناحية أصبهان) في تمرّده على طيماثاوس.(٩٥) كما نراه يعاند الجاثليق في قضيّة الجواري اللواتي اتّخذهن لنفسه.(٩٦)

إي نعم! لقد أضحينا على بعد شاسع من بختيشوع الأوّل الذي ردّ الجواري الروميّات الحسان. لقد انساق جبرائيل مع تيّار بيئته واتّخذ لنفسه الجواري، كما فعل عون العباديّ. فلمّا حرمه طيماثاوس ردّ على توبيخ الجاثليق بقبيح القول، فما زاد طيماثاوس على أن قال «يا مسيح كافه».

لم يطل الأمر باللعنة حتّى حلّت بالطبيب العاصي. فلدى عودته من لدن الجاثليق «كبا بِهِ الفرس، فوقع واندقّت يده اليمنى ورجله» فحملته أمّه إلى الجاثليق بدير كليليشوع. لم يقبله طيماثاوس بل فرض عليه الصوم ثلاثة أيّام، أقام بعدها الحبر الصلاة ثمّ أخذ زيتًا من القنديل ومسح الجريح وشفاه...

كاد جبرائيل حقًّا أن يموت قتلاً قبل موت الرشيد. كان هذا الطبيب في صحبة الخليفة إبّان مرض موته بسناباد، قرب طوس سنة ١٩٣/٨٠٩، حيث صرّح

بفجاجة أنّ السبب الحقيقيّ لمرض الخليفة هو تهالكه على ملذّات المائدة والفراش. عندئذٍ جيء بطبيب آخر، هو أسقف من بلاد فارس[٩٧] فألقى على جبرائيل التبعة في تفاقم علّة الرشيد، وقال للخليفة: «الذي عالجك لم يكن يفهم الطبّ... هذا المرض كلّه من خطأ جبرائيل». صدّقه الخليفة[٩٨] وأمر بقتل جبرائيل،[٩٩] ولكن الفضل بن الربيع الوزير[١٠٠] أنقذه بتأخير تنفيذ الإعدام. وهكذا مات الخليفة واستطاع جبرائيل أن يتابع خطّه، فخدم الأمين بن الرشيد بخاصّة بعد أن كان مؤدّبه من قبل.[١٠١]

زبيدة

إبنة المنصور وزوج الرشيد وأم الأمين، لقد خلّفت هذه الأميرة ذكرى كأعظم ما يكون لكبرى سيّدات العصر العبّاسي،[١٠٢] وقد خلفت الخيزران المستبدّة، وكان لها حميد الأثر في سيرة الرشيد.

يذكر ماري[١٠٣] أنّ زبيدة كانت «تكرّم طيماثاوس كثيرًا وتميل إلى النصارى وتستخدمهم»، وقد شاركت في عمل «أعلام الشعانين»، ولكنّه لا يذكر في أي دير شهدت ذلك العيد الشعبيّ. وعملت الصلبان من الذهب والفضّة وأعطت طيماثاوس أوان من الذهب والفضّة وبعض الأقمشة الفاخرة...

رأينا سابقًا دور هذه الملكة في مساعدة جبرائيل وسرجيس مطران البصرة للحصول على توقيع الخليفة بإعادة بناء ما تهدّم من كنائس المدينة على أيدي أصحاب حمدون بن عليّ، وقد حصلت أيضًا، وبنفسها هذه المرّة، على إذن بترميم قسم متهدّم (متى هُدّم؟) من دير غير معروف الاسم. وقد سمح الرشيد أيضًا بتوسع هذا الدير. ومعلوم أنّ طيماثاوس قد جدّد دير كليليشوع ثمّ انتقل إليه[١٠٤] فسمّي منذئذ بدير الجاثليق.[١٠٥]

ترتبط باسم زبيدة، في علاقاتها بالنصارى، قصّة تطليقها الذي يلفّه الغموض والذي توصّل طيماثاوس، في ما قيل، إلى تجنيبها إيّاه بحيلة فقهيّة. إن ملفّ هذه القضيّة «المزعجة» ضخم حتّى الآن[١٠٦] وقد انضاف إليه مؤخّرًا مقالة

الأب ساكو وردّ السيّد سعيد الديوه جي عليه.[١٠٧] أوافق الأب بوتمان على أنّ طيماثاوس كان قديرًا على اقتراح حلّ ملتو لهذه القضيّة، ولكنّني أوافق السيّد ديوه جي إذ يستبعد مصادقة الفقهاء المسلمين على حلّ كهذا (أن تتظاهر زبيدة بالتنصّر). حتّى الخليفة الذي لم يكن فقيهًا لم يكن ليقبل هذا الحلّ.[١٠٨] فثمّة بون شاسع بين الدعاء على عرفات لصديق نصرانيّ وبين القبول بردّة ولو كانت ظاهريّة فقط. وقد ظلّ المسلمون متشدّدين في هذا الأمر، حتّى إنّ قرشيًّا اسمه روحي، في ما قيل، ارتدّ إلى النصرانيّة بسبب معجزة،[١٠٩] فحُبسَ سنتين ليستتاب ثمّ حكم عليه بالقتل بأمر الرشيد في الرافقة يوم ٢٩ تشرين الأوّل سنة ٧٧٩.[١١٠] ثمّ حمل نصرانيّ من فارس رأسه إلى بلدته.[١١١]

لذلك قد أقبل أنّ طيماثاوس أسدى خدمة إلى زبيدة بإيجاده مخرجًا فقهيًّا لحلّ الخليفة من يمينه المتهوّرة، ولكنّني أشكّ في أنّ هذا المخرج هو كما يصفه ماري.

أيّام العروس

كانت خلافة الرشيد كأيّام العروس[١١٢] بالنسبة إلى النصارى، وذلك بفضل جبرائيل وفضل زبيدة وفضل طيماثاوس خاصّة، ولو أنّ هذه الصورة تبدو أجمل بكثير ممّا كانت عليه الحال في بقيّة أنحاء المملكة.[١١٣] كان الحوار[١١٤] دارجًا أو بالأحرى المناظرات. «ومن جملة ما جرى (لطيماثاوس) مع (الرشيد) ذات يوم عند انقضاء المجلس قال له: يا أبا النصارى أجبني عمّا أسألك باختصار وأيّ الأديان عند الله الحق؟ فقال له مسرعًا: الذي شرائعه ووصاياه تشاكل أفعال الله في خلقه فأمسك عنه فلمّا انفصل من المجلس قال: لله درّه لو قال النصرانيّة لأسأت إليه ولو قال الإسلام لطالبته بالانتقال إليه ولكنّه أجاب جوابًا كليًّا لا دفع له...»[١١٥]

لا تخبرنا الرواية ما كان عسى الرشيد أن يفعل ليسيء إلى طيماثاوس لو قال إنّ النصرانيّة «عند الله هي الدين الحقّ». تدلّ الرواية، بالنسبة إلى عقل النصرانيّ الذي يوردها، على براعة طيماثاوس. وهي تدلّ أيضًا على سعة أفق الخليفة الذي اكتفى بجواب لا يخفى عليه غموضه، وإن تجاوز عنه لما ينطوي عليه من حسن تخلّص الجاثليق.[١١٦]

المسلمون المتشددون أنفسهم كانوا يفضّلون هذه المناظرات مع النصارى على الموضوعات الملتهبة التي بدأت تُطرح بين المسلمين أنفسهم:[١١٧] هل القرآن مخلوق؟ ما علاقة النظر العقليّ بالسمع؟ إلخ. كانت المناظرة مع النصارى مطمئنة على الأقلّ. فهؤلاء قوم على جانب من المغايرة لا يخشى معه انتقال العدوى. لذلك كان من شأن الموقف المتساهل حيالهم[١١٨] أو قل حتّى الموقف الأبويّ، أن يزيد الشعور بامتلاك الحقيقة. فالتسامح صفة يتّصف بها مَن يقدر ألاّ يكون متسامحًا لأنّه الأقوى. ومن ذلك العطايا التي ليست إلاّ وسيلة لتأكيد التفوّق. لذا يكتب طيماثاوس إلى صديقه سرجيس أنّه نزل على الخليفة ضيفًا لثلاثة أيّام متتالية، وأنّه استقبل ببشاشة وحبور وأنّه أعطي ٨٤٠٠٠ زوزي، إلخ.[١١٩]. إنّ مجرّد ذكر هذه الأشياء كلّها يبيّن إلى أي مدى كان الجاثليق يشعر بمجانيّة موقف الخليفة. كان كلّ واحد من المتحاورين قادرًا على أن يطمئن نفسه. وكان كلّ واحد منهما راضيًا عن نفسه.

بمَ فكّر طيماثاوس عندما مات الرشيد؟ لا بدّ أنّ المخاطر الأخيرة التي تعرّض لها صديقه جبرائيل قد أقلقته، كما أزعجه وجود ذلك الأسقف الفارسيّ ببغداد. ذلك الدسّاس الذي ألقى التهمة على جبرائيل... ولا ريب أنّ طيماثاوس لم يستحسن ما دبّره الخليفة من تقسيم المملكة بين ولديه. ألم تنبئ هذه القسمة بتقاتل الإخوة في المستقبل؟ لا شيء في رسائله يتيح لنا أن نحزر مشاعره في تلك الحقبة.

الحواشي

(١) الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) مروج، الفقرة ٢٤٩٥.

(٣) عن تسلّط الخيزران على الرشيد، انظر: D. SOURDEL. **Vizirat**, p. 161

(٤) أنظر مشجر سلالة البرامكة في كتاب **Vizirat** ص، ٧٤٤، ومعلومات أخرى عن البرامكة في الكتاب نفسه ص ١٢٧ - ١٨١، وأيضًا مقالة سورديل في $E.I.^2$

(٥) التنبيه، ص ٣٤٦.

(٦) ليس فاروق عمر في $E.I.^2$ III, p.239-241. (هارون الرشيد) بأوفر ثناء على الرشيد. فعلى

الرغم من «الصورة البرّاقة التي نجدها عن العصر الذهبيّ» في ألف ليلة وليلة يرى هذا الكاتب في خلافة الرشيد «نقطة بداية التفكّك السياسيّ للأمبراطوريّة الإسلاميّة».

(٧) لا يمكننا الاعتماد على تسلسل أخبار طيماثاوس لأن رسائله ليست مؤرّخة، انظر بيداويد، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٨) أنظر مقتطفات من المؤرّخين عن غزوات العبّاسيّين الأوائل في E.W. BROOKS, **Byzantines and Arabs.**

(٩) أنظر مقالتي: Rūm à l'est de l'Euphrate, **le Muséon**, 90, (1977), p.374–376.

(١٠) المقصود هنا هم الروم البيزنطيّون وليس النصارى بعامّة كما ظنّ LE STRANGE في كتابه بغداد ص ٢٠٧. ليس من الصحيح أن يقال إنّ لفظي «روميّين» أو «روم» كانا يستعملان بهذا المعنى في عربيّة القرون الوسطى. أنظر حبيب الزيّات في مجلة المشرق، ٣٥، (١٩٣٧) ص ٣٣٩ ـ ٣٥٢.

(١١) مروج، الفقرة ٢٥٦٥.

(١٢) من بين المترجمين النصارى المعروفين في خلافة الرشيد، نذكر فثيون مترجم كتب الطبّ، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤، ٢٨٠.

(١٣) كوركيس عوّاد، خزائن الكتب القديمة في العراق، بغداد، ١٩٤٨، ص ١٠٥ ـ ١١٢، O. PINTO, **The Libraries**, p. 223.

(١٤) الفهرست، ص ٣٤٥. يُدعى هذا الطبيب ابن الدهان عند العرب، INAYATULLAH, p. 3.

(١٥) بدعوة من يحيى، مختصر، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦، BOUVAT, p. 50, 51 et 71, 72 يروي ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٧، كيف امتحن لدى وصوله بحضور أبي قريش عيسى وعبدالله الطيفوري وداود بن سرابيون وسرجيس تلميذ والده. وقد توصّل إلى تقرير أنّ التفسرة التي عُرضت عليه قد أُخذت من بول بغل لا من بول بعض الجواري كما قيل له، ابن أبي أصيبعة، ص ١٨٦ ـ ١٨٧. وقد توفّي جبرائيل حوالى سنة ١٩٠/٨٠٦، أو ربّما بعد وفاة الرشيد، على قول الصفدي، الوافي بالوفيّات، ج ١٠، ص ٨٩، رقم ٤٥٣٣. يذهب الصفدي إلى أنّ الاسم سريانيّ وأنّ معناه «خادم المسيح»(؟).

(١٦) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦، R. LEVY, **A Baghdad Chronicle**, p. 67.

(١٧) INAYATULLAH, p.2

(١٨) راجع الزركلي، ج ٩، ص ٢٧٩، PUTMAN, p. 103, n.2 يضاف إلى ذلك تنبّؤه المنحوس في شأن تلميذه حنين بن إسحق، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٣. ويشير ابن الأثير في الكامل، ج ٦، ص ٥٩، إلى أنّه توقّع موت عبد الرحمن بن أنعم قاضي إفريقيا (أنظر الزركلي، ج ٤، ص ٧٨) سنة ١٦٢/٧٧٨ ـ ٧٩(؟). نلاحظ أنّ ابن الأثير قد ذكر في

مكان آخر (الكامل، ج ٦، ص ١٢) تاريخًا آخر (١٥٦هـ) لموت القاضي، ثمّ كيف كان «يحيى» بن ماسويه بالقيروان في ذلك التاريخ؟ وكم كان له من العمر؟

(١٩) عامل أرمينية سنة ٧٨٨/١٧٢، الطبري، ج ٣، ص ٦٠٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١١٨.

(٢٠) إبن أبي أصيبعة، ص ٥٤٠ حيث يجب تصحيح تعليق المحقّق على معنى كلمة «يعاقبة». يبدو أنّ «كتاب سير الآباء البطاركة» P.O., X, p.384 يلمّح إليه إذ يقول إنّ بولتيانوس كان «طبيبًا ماهرًا وكانت ملوك الإسلام تراعيه لأجل صناعته».

(٢١) Informations fournies par les ouvrages de droit sur la conduite de la guerre, M. Canard, dans **Quelques à côté**, p.117-119.

(٢٢) من ذلك M. MEYERHOF, Kh, GEORR, DE LACY O'LEARY, R. WALZER, etc.

(٢٣) راجع J. CARBONNIER, dans **CERDIC**, p.133

(٢٤) شيخو، شعراء، ص ٢٤١ - ٢٤٨، دائرة، ج ٥، ص ٤٨ - ٥٠.

(٢٥) ص ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢٦) منذ ١٦٦هـ، في خلافة الهادي، الطبري، ج ٣، ص ٥١٧.

(٢٧) Préface de FAGNAN, p.X; voir maintenant BEN SHEMESH

(٢٨) ص ١٢٢ - ١٢٣، هذه الطبقات الثلاث هي تلك المقبولة في المذهبين الحنفيّ والحنبليّ، النويري، ج ٨، ص ٢٣٧. أمّا عند النوويّ الشافعيّ المذهب، منهاج الطالبين، ج ٣، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ فالحد الأدنى هو دينار، أمّا متوسطيّ النعمة فيدفعون دينارين وأمّا الأثرياء فأربعة. ويترك المذهب المالكيّ تقدير الجزية إلى الإمام.

(٢٩) ويقول CL. CAHEN, **L'Islam, des origines au début de l'empire Ottoman** p. 82-83 أيضًا: ولا تنقصنا النصوص التي تشهد أنّ جماعة النصارى، أي الأيسر حالاً، كانت تُلزم فعلاً بدفع جزية الأفقر حالاً.

(٣٠) ص ١٣٨ - ١٤٩.

(٣١) محمّد حميد الله، في مقدّمة تحقيق كتاب الأحكام لابن القيّم، ج ١، ص ٧٤ - ٩٥، قاسم، ص ٢٧، إلخ.

(٣٢) ص ١٢٧.

(٣٣) يرى دي خويه، في الصفحة ١٤٩ من كتابه **Mémoire sur la conquête de la Syrie** أنّ عمر بن العزيز قد أصدر فعلاً أوامر مشابهة لتلك التي يُوصي أبو يوسف هارون الرشيد بالإبقاء عليها (؟) ولكنّه يضيف «ويبدو أنّ الخليفة لم يصغِ إليه».

(٣٤) يورد G. Wiet في كتابه **Le traité des famines de Maqrizi** ، ص ٥٣ الحاشية رقم ٣، إحالات إلى تنزيل النصارى واليهود منزلة الرجال الجنب أو النساء الحيّض. في خلافة

المهدي سأل رجل سفيان الثوري: «أصافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجلك نعم»، وفيات الأعيان، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٣٥) وقد ورد مع ذلك الجوانب بنعم على هذا السؤال في صحيحي مسلم والبخاري.

(٣٦) وقد دُرست وجهة النظر الحقوقيّة المسيحيّة في كتابَي W. SELB et H. KAUFHOLD.

(٣٧) في شرح كتاب السِّيَر الكبير، إملاء محمّد بن أحمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مصر، ١٩٥٧، ج ١، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣٨) يواخذ الطيباوي بعض المستشرقين «من أمثال موير، لامنس وكايتاني» على موقف مماثل، ص ١.

(٣٩) القلقشندي، ج ١٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٤٠) نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٤٥.

(٤١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب النويري (٦٧٧ - ١٢٧٨/٧٢٣ - ١٣٢٣)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٩، ص ١٤٥.

(٤٢) كتاب التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمري (المتوفى سنة ١٣٤٩/٧٤٩) طبعة القاهرة ١٨٩٤/١٣١٢، ص ١٥٢ حتّى ١٥٤. يقدّم H. DE CASTRIES في كتابه: **L'Islam, impressions et études,** Paris, 1896 ، الملحق ٣، نصّ يمين أخرى للنصارى بحسب ابن سلمون قاضي قرطبة (٣٢٢ - ٣٢٣). وهو يشفع النصّ بصيغة لجحد الإسلام فرضتها الكنيسة البيزنطيّة على المرتدّين عن الإسلام إلى النصرانيّة (ص ٣٢٣ - ٣٣٤). وينبّه الكاتب إلى «نسيج الخرافات الذي تنطوي عليه صيغ اللعنات التي تكال للنبيّ العربيّ وملّته». وثمّة شعائر جحود بيزنطيّة أخرى في **Patrologia Graeca,** vol. 140, p. 124-146 نُشرت جزئيًا في: **Revue de l'histoire des religions,** 53 (1906),
A.T. KHOURY, **Les théologiens byzantins et l'Islam** (Louvin- Paris 1969) p.145-163
p.187-194 مع مراجع. وأيضًا J. NASRALLAH, **R.E.I.,** XLVI, (1973), p.148

(٤٣) N. GARSOIAN, **Rôle de la hiérarchie chrétienne,** p. 135 et n.69.

(٤٤) THEOPHANE ad. an. 6278 (787 A.D.), p.46, cité par **DHGE** s.v., Antioche, col 599.

(٤٥) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٨، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٣، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ١.

(٤٦) بين ملطية وسميساط ومرعش، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٤٧) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٨، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٣.

(٤٨) رسالة إلى أفريم مطران جنديسابور، E.P.I، بيداويد ٣٩.

(٤٩) لا من باب الاهتمام بحادثة البصرة التي سنتكلّم عنها لاحقًا.

(٥٠) أنظر المراجع في PUTMAN ص ١٣٦، الحاشية رقم ٣.

(٥١) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٤، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ١.

(٥٢) ربّما كان البرمكيّ يحيى بن خالد الذي لم يكن قد لقّب بعد بلقب الوزير، Vizirat, p. 136.

(٥٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٩ - ٢١، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٥٤) في هذه الفترة لا يذكر الطبري هذا الموقع إلاّ مرّتين في العام ١٨٨ و ١٨٩ (ج ٣، ص ٧٠١، ٧٠٧) كما أنّه لا يذكر فيهما وجود القاسم ابن الرشيد.

(٥٥) سيطرح مقرّ بطريرك أنطاكية المزيد من المشاكل (الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ٢١١)، لأنّ بعض رعيّته مقيم في الأراضي البيزنطيّة والبعض الأخر في دار الإسلام. وحسب تقلّب العصور، أي حسب حالة العلاقات بين المملكتين نجد تواريخ المغاربة من السريان تقتصر على أبناء الشطر الغربيّ، حيث تُكتب، أو تنحصر في أخبار الشطر الشرقيّ، أي في مفريانة تكريت.

(٥٦) GARSOIAN, **le rôle de la hiérarchie chrétienne**, p. 119- 138.

(٥٧) بيداويد، ص ٣٧ - ٧٧: Ep. 48

(٥٨) ثمّة دراسات لأسباب نكبة هذه الأسرة العظيمة النفوذ منها دراسة وافية في كتاب D. SOURDEL, Vizirat, p. 156-161. وقد توصّل هنري لاوست إلى نتائج مشابهة تقريبًا في كتابه Les Schismes dans l'Islam p.82 فهو يظنّ أنّ البرامكة إنّما أرادوا قلب الخلافة السنّيّة ليحملوا الزنادقة إلى السلطة ويستعملوهم في إقامة خلافة الشيعة.

(٥٩) حجّ الرشيد ثمان مرّات، المسعودي، التنبيه، ص ٣٤٦. يقول ابن الطقطقي إنّ الرشيد كان «يحجّ سنة ويغزو سنة»، ص ١٥٥.

(٦٠) الطبري، ج ٣، ص ٦٧٨.

(٦١) الجاحظ كتاب الأمصار وعجائب البلدان، مذكور عند شارل بللا في المشرق، ٦٠ (١٩٦٦)، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٦٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٥١١.

(٦٣) لا نجد أيّ ذكر لكونه خازنًا أو صاحب بيت المال.

(٦٤) فقد ابتاع الرشيد يومًا ياقوتة ثمنها ٣٠٠،٠٠٠ دينار، ابن الطقطقي، ص ٢٠٩.

(٦٥) يجب أن لا يُخلط بين هذا وبين سميّه ثيوفيلوس بن توما الفلكيّ الذي مات قبل عشرين يومًا من وفاة المهدي، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٢، ماري، ص ٧٤ - ٧٥.

(٦٦) وقد أفاد طيماثاوس من هباته. فقد حصل منه على ٣٠٠٠ «زوزي» (دينار؟) لشراء أرض. كما حصل على مبلغ مماثل من متبرّع آخر هو جبرائيل الطبيب Ep. 22، بيداويد، ص ٤٦ بتاريخ ٧٩٩/٨٠٤ (؟).

(٦٧) الوحيد الذي حفظ ذكر هذا الخبر هو الجاحظ في كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٧ - ٢٨.

(٦٨) يذكر ابن أبي أصيبعة، ص ١٩٦، أنّ جبرائيل قد لام الخليفة على قلّة الرزء للطعام ونصح

له بتغيير الهواء واقترح عليه الذهاب إلى الحيرة فتمنع الرشيد قائلاً: «قد نزلنا الحيرة مرارًا فأجحفنا بعون العبادي في نزولنا بلده».

(٦٩) **الطبري**، ج ٣، ص ٦٧٥، **الكامل**، ج ٦، ص ١٧٧. مروج، الفقرة ٢٥٩٦، ٢٦٠٢.

(٧٠) **Assyrie Chrétienne, III,p.237-239** . يمكن الاطّلاع من كتاب **الديارات** للشابشتي على إقامات الرشيد في الأديرة، كدير زكّا بالرقّة على الفرات حيث قرض الشعر وحيث ترك ماردة أمّ المعتصم (ص ٢٢٠ - ٢٢٧)، أو دير عانا الذي ماتت بقربه أمّ الفضل (ص ٢٢٩) وهي في الطريق إلى الحجّ مع الخليفة إلخ. تذكر **وفيّات الأعيان**، (طبعة بيروت، ج ١، ص ٤٥٦) أنّ الخليفة كان ينزل كثيرًا بدير العذارى قرب بغداد ليشرب.

(٧١) **Vizirat, p.152-154**

(٧٢) **إبن الطقطقي**، ص ١٧٠. مع أنّ جبرائيل قد حذّر يحيى من أنّ الخليفة يأخذ عليه استبداده بالأمر، **Vizirat, p. 157, 170** . من بين شعراء البرامكة ظلّ أبو قابوس النصرانيّ، الذي صادفناه من قبل، وفيًّا لذكراهم حتّى إنّه تجاسر على مدح جعفر، من بعد نكبته، في حضرة الرشيد، على أنّ الخليفة لم يعاقبه. أنظر شيخو، شعراء، ص ٢٤١ - ٢٤٨.

(٧٣) **طيماثاوس**، Ep. 21، **بيداويد** ص ٨٢، مؤرّخة بسنة ٨٠٤/٧٩٩ (؟).

(٧٤) إبن العبري، **تاريخ الزمان**، انظر مراجع أخرى في PUTMAN, p 98 no. 5

(٧٥) إبن أبي أصيبعة، ص ١٨٨

(٧٦) من الصعب الموافقة على رأي، A. ABEL, **les marchés de Bagdad**, p. 151 الذي يعزو إقامة الرشيد بالرقّة، «في أهل بلاطه» إلى «أنفه» من بغداد، لا سيّما إذا نظرنا إلى ما ينسبه إليه الطبري، ج ٣، ص ٧٠٦، من ثناء على العاصمة. لقد كانت اضطرابات الشام من أسباب هذا التنقّل في البداية، وفي ما بعد، ربّما كان وجود محبوبته الروميّة بقصر هرقلية على بعد ١٠ كلم إلى الشرق من الرقّة، قد أسهم في إبقاء الخليفة بعيدًا عن بغداد. ولكنّنا قد ندفع بالمفارقة بعيدًا إذا ما شدّدنا على أنّ الخليفة الذي يرتبط اسمه عادة باسم بغداد هو الذي أقام فيها فعليًّا أقلّ من غيره. مع ذلك، فلا شكّ في أنّ الرشيد كان قد بدأ في عمارة قصر ومدينة مسوّرة بالقاطول، قرب سامراء، «ليتنزه بها إذا ضجر من المقام ببغداد». **الطبري**، ج ٣، ١١٨٠.

(٧٧) **الطبري**، ج ٣، ص ٧٣٥ - ٧٣٧.

(٧٨) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٥١١، ابن أبي أصيبعة، ص ١٩١ - وقد حفظ أبو نوّاس في بعض أشعاره نصيحة أخيه

«... أبي عيسى وجبريل له عقلُ
فقلت الراح يعجبني فقال كثيره قتل
فقلت فقدّر لي فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الإنسا ن أربعة هي الأصل

إبن أبي أصيبعة، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٧٩) يعدّد ابن أبي أصيبعة على مدى صفحات تفاصيل ثروة جبرائيل بن بختيشوع وخزانته وأمواله في جنديسابور وسوس والبصرة والسواد. وكلّ ما جمعه خلال ٢٣ سنة قضاها في خدمة الرشيد وأكابر المملكة. وعن زيادة رزقه انظر التنوخي، الفرج بعد الشدّة، ج ٤، ص ٢١٩ ـ ٢٢٦ .

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٩٢ .

(٨١) المصدر نفسه، ص ٢٠١ ، بحسب كتاب المجرّد في الأغاني.

(٨٢) إبن أبي أصيبعة، ص ١٨٨ .

(٨٣) لا أتكلّم هنا عن مكانة جبرائيل العلميّة. فمن المعروف أنّه كان يستعين على ترجماته بصديقه المطران عود يشوع بن بحريز، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٨٢ .

(٨٤) في نصيبين مثلاً، Nisibe, p 81 . وقد حاول الأطبّاء المتحدّرون من المدينة التصدّي لنفوذ جبرائيل.

(٨٥) PUTMAN, p. 100 et no. 4

(٨٦) كما توّسط طيماثاوس لدى جبرائيل ليحول دون استقدام أحد الأطبّاء من جنديسابور إلى بغداد. فكان أن جيء بماسويه الصيدلاني، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٤٥ .

(٨٧) Ep. 54، بيداويد، ص ٤٠ ، ٧٧ ـ ٧٨، مؤرّخة بسنة ٨٠٤/٧٩٩ (؟).

(٨٨) الطبري، ج ٣، ص ٧١٣، الكامل، ج ٦، ص ٢٠٦ .

(٨٩) يجعل ابن القيّم هذه الإجراءات «لمّا قلّد [هارون الرشيد] الفضل بن يحيى أعمال خرسان» ص ٢١٧ . والحقيقة أنّ تعيين الفضل بن يحيى يقع سنة ٧٩٣/١٧٧ (Vizirat, p 145-147). ولم تكن ظروف ذلك التاريخ مؤاتية، في ما يبدو، لقرار كهذا. وليست هذه أوّل مرّة يغيّر فيها ابن القيّم تواريخ الأحداث.

(٩٠) رينهارت دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١، ص ٧٣.

(٩١) ماري، ص ٧٣.

(٩٢) Coptes et Syriaques, contrats et échanges, dans **S.O.C. Collactanea**, no. 15 (1972-1973), p.317-318.

(٩٣) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨ .

(٩٤) ماري، ص ٧٣ ـ ٧٥.

(٩٥) Ep.3، بيداويد، ص ٢٠ ، ٨٢ مؤرّخة بسنة ٧٨١/٧٨٠(؟). كذلك شقّ يوحنّا بن بختيشوع عصا الطاعة على مطران جنديسابور، فكتب طيماثاوس إلى والده ليضع حدًّا لرعونته. Ep. 45، بيداويد، ص ٣٦ مؤرّخة بسنة ٧٩٨/٧٩٥(؟).

(٩٦) ماري، ص ٧٤.

(٩٧) إبن أبي أصيعة، ص ١٨٩ . هل هو نفس «الجاثليق» (كذا) الذي أتي به من «شيراز» سابقًا (قبل ٨٠٣) ليعالج طرفًا من البرص في صدر الفضل بن يحيى البرمكيّ على ما يرويه لنا نظامي عروضي في المقالات الأربع، الحكاية الحادية عشرة عن الأطبّاء.

(٩٨) يصدق السيوطي، ص ٢٩٦، الرواية القائلة بغلط جبرائيل في المعالجة. ويذكر بعض المؤرّخين، ومنهم السيوطي، ص ٢٩٠، قول الرشيد: «ولكلّ واحد من ولديّ علي رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين».

(٩٩) يبدو أنّ مثل هذا القرار كان على شيء من الشيوع حتّى صار أحد موضوعات القصص الشعبيّة، ELISSEEFF, **1001 nuits**, p. 120

(١٠٠) وزر منذ ١٨٧/٨٠٣، انظر ANWAR G. CHEJNE, Al-Fadl b. Rabi', a politician of the early abbasid period, in **Islamic Culture**, 36, (1962), p. 167–181, 237–244.

(١٠١) **الطبري**، ج ٣، ص ٧٣١، **الكامل**، ج ٦، ص ٢٠٧.

(١٠٢) كحالة، **أعلام النساء**، ج ٢، ص ١٧ ـ ٣٠، مصطفى جواد، **سيّدات البلاط**، ص ٤٥ ـ ٥١، ABBOT, **Two Queens**, p.137–264

(١٠٣) ص ٧٣، ٧٥.

(١٠٤) من قطيعة أم جعفر حيث كان يقيم من قبل.

(١٠٥) أنظر مقالة عبد العزيز الدوري عنه في M.ALLARD, **Chrétiens à Bagdad**, p. 378–379; E.I², II, p. 203 كوركيس عوّاد، الشابشتي، ط ٢، ص ٢٨ ـ ٣٢، ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

(١٠٦) PUTMAN, p. 139-140، تتحاشى أبّوت الكلام عنها. أمّا في ألف ليلة وليلة فإنّ القاضي أبو يوسف هو الذي يبرّئ ساحة زبيدة من ريبة الرشيد الجائرة ELISSEEFF, p. 163 et 196 no. 65.

(١٠٧) أنظر لائحة المصادر والمراجع تحت هذين الاسمين.

(١٠٨) لقد أجمع الفقهاء على ضرورة زواجها من غيره قبل أن يحلّ الخليفة من يمين الطلاق.

(١٠٩) رؤيا حمل في القربان، ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ١٨ ـ ١٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٦.

(١١٠) كان اسمه النصرانيّ أنطونيوس، حبيب الزيّات، شهداء النصرانيّة في الإسلام، مجلّة المشرق، ج ٣٦ (١٩٣٨)، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٥. يروي سنكسار الملكانيّين أنّه استشهد في ٢٥ كانون الأوّل ويُحتفَل بعيده في ٢٤، J.M. SAUGET, **Premières recherches sur l'origine et les caractéristiques des synaxaires melkites** (XI-XVIIème siècle). Subsidia Hagiographica, no. 45, Bollandistes, Bruxelles 1969. Passion arabe, (I. DICK), dans **le Muséon**, LXXIV (1961), p.109–133.

(١١١) أين؟ يكرّس SAMUEL M.ZWEMER كتابًا كاملاً لدراسة The Law of Apostasy in **Islam**, London, 1924. أنظر الفصل الثاني منه، ص ٣٣ ـ ٥٤، «الشريعة» الفصل

الرابع، ص ٧٧ ـ ١٠٢ «Centuries of Intolerance and Persecution» حيث لا يذكر المؤلّف أيّ مثال من الفترة التي تعنينا. ثمّة مقال يستحقّ المناقشة في Islamic Review 1916, p.485–492 عنوانه: Apostasy and its Consequences Under Islam and Christianity.

(١١٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٤٩.

(١١٣) لا أتكلّم هنا عن العلاقات المزعومة بين الرشيد وشارلمان. فكما يقول فاروق عمر في E.I²: «لم نجد حتّى اليوم شيئًا في المصادر العربيّة يسوّغ هذا الادّعاء. ويبدو أنّ لا أساس له من الصحّة». وثمّة تفاصيل جديدة في مقالة فاروق عمر، الاستشراق وتاريخ العصر العبّاسيّ، في مجلّة الاستشراق، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(١١٤) فلا مجال لقيام حوار حقيقيّ إذا لم يكن الطرفان المتحاوران في وضع من المساواة يعترف به كلاهما، وهذا ممّا لا يمكن أن يقوم بين خليفة وبين بعض أهل الذمّة.

(١١٥) ص ٦٥.

(١١٦) ينبّه دومينيك سوردبل في مقالته Kātib في E.I.², IV, p.786 إلى «أنّ الناس في ذلك العصر كانوا يتذوّقون كثيرًا الكتابات... التي تثير الدهشة أو الإعجاب».

(١١٧) أنظر قول أبي إسحق الفزاري الكوفي (المتوفى ١٨٥/٦ ـ ٨٠١/٢) في كتاب الشرح والإبانة، لابن بطّة العكبري، تحقيق هنري لاوست، دمشق، ١٩٥٨، ص ٢١: «لأن أجلس إلى النصارى في بيعتهم أحبّ إليّ من الجلوس في حلقة يتخاصم فيها الناس في دينهم». وأيضًا قول الفضيل بن عيّاض (ت ١٨٧/٨٠٣): «آكل طعام اليهوديّ والنصرانيّ ولا آكل طعام صاحب بدعة». ص ٣٩.

(١١٨) في هذه النقطة على الأقلّ نجد الحكايات الشعبيّة تعبّر تمامًا عن عقليّة ذلك العصر يلاحظ «ELISSEEFF, 1001 nuits, p49» أننا لا نجد فيها أي أثر لعداوة المسلمين للنصارى.

(١١٩) Ep.8، بيداويد، ص ٧٧.

٦ - الأمين (١٩٣ - ١٩٨/٨٠٩ - ٨١٣)

إعتلى أبو موسى محمّد، الذي تسمّى بالأمين،[١] بن هارون الرشيد، عرش الخلافة سنة ١٩٣/٨٠٩. وقد عاش طيماثاوس إلى ما بعد خلافته القصيرة التي مزّقتها الحربُ مع أخيه المأمون.

والحقّ أنّ الأمين لم يتح له الوقت الكثير ليهتمّ بالنصارى باستثناء القرار الذي أحيا به أمر الرشيد بإجبار حمدون بن عليّ على القبول بإعادة بناء كنائس البصرة.[٢]

نجد في بطانته الأشخاص أنفسهم الذين صادفناهم في خلافة أبيه. فمنهم عون الجوهريّ الذي استضاف الأمين ثلاثة أشهر بالحيرة «لطيب هوائها» وأنفق من ماله الخاصّ على الحاشية كلّها،[٣] ومنهم جبرائيل بن بختيشوع الذي كان مؤدّب الأمين والذي أصبح كاتم سرّه الخاصّ.

وكان الأمين مثل أبيه «لا يأكل ولا يشرب إلاّ بإذن [جبرائيل]».[٤] بيد أنّ الأحداث المأساويّة التي شهدتها حرب الأخوين[٥] والتي لم تشهد بغداد حربًا مثلها في الضرواة من قبل، قد خلّفت آثارًا في سكّان المدينة وبخاصّة في جبرائيل الذي انتهبت العامّة داره.

وقد نهب العلويّون أيضًا مزارعه بالبصرة والأهواز.[٦] يشير ابن أبي أصيبعة إلى الفرق في سلوك جبرائيل حيال هذين الحادثين. في الحادث الأوّل نرى «هلع جبرائيل» الدالّ على شدّة تعلّقه بماله. في الحادث الثاني سروره، لأنّ هذا النهب يكاد يمنحه شهادة الولاء للخليفة، وقد كان ذلك لمصلحة الطبيب، إذ من المعروف أنّ الأمين كان «سفّاكًا للدماء يركب هواه».[٧]

إلاّ أنّ جبرائيل كان في قرارة نفسه قد حكم على عقل الخليفة. وقد اتّفق أنّ الأمين سكر يومًا فأكره أبا عصمة صاحب حرسه وجبرائيل المتطبّب على تبادل ثيابهما. فمن ذلك الوقت تنبّأ جبرائيل بزوال عزّ هذا الملك «لتغييره ما بنفسه [من نعمة]». (٨)

في العام ٨١٢/١٩٧ وقعت إحدى المعارك بين الأمين والمأمون عند باب الشماسيّة(٩) بالقرب من حيّ النصارى بشمال شرق بغداد. وقد انتُزعت لأجل ذلك بعض أعمدة الكنائس ليُعمل منها قذائف تُرمى بالمجانيق، إذ «لم يكن ببغداد حجارة». (١٠)

في العام ٨١٣/١٩٨ قُتل الأمين. ويبدو أنّ المصادر النصرانيّة لا تأسف عليه. وإلى قول المسعوديّ إنّ الأمين كان «قبيح السيرة ضعيف الرأي» (١١) يزيد الرهاوي المجهول(١٢) قوله: «وقد بدّد الكنوز التي كنزها كلّ مَن كان قبله من الملوك الأول، ولكن في الباطل، لأنّه كان ماجنًا وميّالاً إلى الفحش». (١٣)

ربّما كان هذا كلّ ما يمكن أن يقال عن النصارى في عهد الأمين الكئيب لولا أنّ ثمّة اسمًا يذكره الطبري(١٤) ذكرًا عابرًا ويستدعي منّا الالتفات: إنّه مغنٍّ من الكوفة يُدعى أحمد بن إسحق بن برصوما. ولئن حقّ لنا التردّد في اسم أبيه، إسحق، الذي ربّما كان نصرانيًّا أو مسلمًا فلا ريب في أنّ جدّ أحمد هذا كان نصرانيًّا يعقوبيًّا. ما زلنا نجهل ظروف إسلام الأسرة، أو إسلام رجالها على الأقلّ. ولتكفنا الإشارة إلى أنّ أمثال هذه الحالة كانت تحدث، ثمّ صارت تتكرّر أكثر فأكثر بسبب الضغوط الاجتماعيّة بخاصّة. كان تآكل الجماعات المسيحيّة بفعل الإسلام قد بدأ منذ زمن. (١٥)

ملحوظة أخرى: كان ثمّة بعض النصارى في الأحزاب كلّها يعملون في خدمة السلطات النافذة الأمر في أقاليمهم. (١٦) فإذا غُلِبَ حزبهم شاطروا مصير أسيادهم، وفي أغلب الأحيان كان ينصح لهم باعتناق الإسلام، فكان ذلك أيضًا من عوامل تخلّي البعض منهم عن ديانته.

الحواشي

(١) الصفدي، ج ٥، ص ١٣٥ ـ ١٣٩، رقم ٢١٤٩.

(٢) ماري، ص ٧٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) إبن أبي أصيبعة، ص ١٨٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨.

(٥) S.B. SAMADI, The Strugle between the two Brothers, Al-Amin and Al Mamun, in **Islamic Culture**, XXXII (1958), p 99-120.

(٦) إبن أبي أصيبعة، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٧) التنبيه والإشراف، ص ٣٤٩.

(٨) إبن أبي أصيبعة، ص ١٩٧.

(٩) الطبري، ج ٣، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(١٠) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢١.

(١١) التنبيه والإشراف، ص ٣٤٩.

(١٢) ج ٢، ص ٥.

(١٣) يكتفي F. GABRIELI في مقالته E.I[2], p.449-450 بالقول إنّه كان «طائشاً». يكرّر ابن الطقطقي، ص ١٧١، قول ابن الأثير «لم نجد للأمين شيئًا من سيرته نستحسنه فنذكره».

(١٤) ج ٣، ص ٩٥٤ ـ ٩٥٦. يقول الجاحظ في الصفحة ٤٩ من كتاب التاج، إنّ أمّه «كانت نبطيّة لكناء» وقد قسّمت بالسكّين بساطًا نفيسًا أهداه الرشيد إلى ابنها.

(١٥) يقدّر آدم متز، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة ط ٤، ١٩٦٧، ج ٤، ص ٨٤، أنّه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصرانيّ في بداية القرن الثالث للهجرة.

(١٦) نذكر عابرين رجلاً اسمه ميكائيل (ملكانيّ؟) كان في فرقة الخوارزميّة التي ضمّت ٧٠٠ رجل ورافقت عليًّا بن عيسى عندما قدم من الري لمحاربة المأمون سنة ١٩٥/٨١٠ ـ ٨١١، الطبري، ج ٣، ص ٨٠٠.

٧ ـ المأمون (١٩٨ ـ ٨١٣/٢١٨ ـ ٨٣٣)

لا شاهد لدينا على علاقات الخليفة الجديد طيماثاوس،[١] مع أنّ ماري يذكر أنّ هذا الجاثليق (الذي ربّما كان آنئذٍ يناهز الخامسة والتسعين من عمره) قد أدرك خلافة المأمون. ولنذكر، على الرغم من استحالة تأريخ الأحداث بدقّة ويقين، إشارة ماري إلى أنّ طيماثاوس مات عن جثلقة دامت ٤٣ عامًا، سنة دخول المأمون إلى بغداد، بعد ستّ سنوات من تولّيه الخلافة، أي في صفر ٢٠٤/آب ٨١٩.

كانت السنوات التي فصلت بين موت الأمين (أيلول ٨١٣) وبين دخول المأمون، سنوات اضطراب سواء في العاصمة أو في الأقاليم، وبخاصّة الشام وفلسطين القريبتين من تخوم بيزنطية، حيث عانى النصارى من تدهور الحالة العامّة.[٢] ففي الرها أغرى «العرب» النصرَ بين شبث العقيلي[٣] وعمرًا[٤] الخارجين بالقدوم لتهديم الكنائس. فصام النصارى ثمّ جمعوا مبلغ ٥٠٠٠ زوزي وتوصّلوا بوساطة يحيى بن سعيد(؟) إلى صرف المعتدين عمّا عزموا عليه.[٥] وفي حرّان أمر إبراهيم القرشي بتهديم الكنائس الحديثة، ولكنّه أمر في الغد من ذلك اليوم بإعادة بنائها[٦] من بعدما رأى في المنام حلمًا هائلاً.

كان الصراع الذي دام أربع عشرة سنة (١٩٦/٨١١ ـ ٢١٠/٨٢٥) ضد نصر وعمرو الخارجين، حافلاً بالتعدّيات. فقد نهب الخارجان ديرًا لا يسمّيه ميخائيل السريانيّ. ثمّ جاء بعض النصارى المتمرّدين على بطريرك أنطاكية فأجهزوا على الدير. «فكان أوّل دير يُحرق (سنة ٨١٢؟) في مملكة العرب».[٧] وانتشر قطّاع الطرق في الغرب كلّه (الشام)...[٨]

على أنّ هذا كلّه لم يمنع نصرًا «الملعون»، الذي كان يقتل الفرس (أي العبّاسيّين) مثلما يقتل النصارى من أن يتّخذ لنفسه «كاتبًا نصرانيًا فهيمًا».[٩] ولّما قبض الأمير عبدالله بن طاهر على نصر وبعثه إلى المأمون ببغداد امتدحه ميخائيل (نقلاً عن ديونيسيوس؟) قائلاً:[١٠] «كان نصر، على طغيانه، يحبّ النصارى ويثقل كاهل مَن يخرج من دينه منهم بألوان المكوس. وكان يقول: متى دفعتم لي الجزية فأنتم وما تختارون من الدين. فترك كثيرون لذلك المساجد وعادوا إلى الكنائس».

عند اليعاقبة، كان البطريرك قرياقوس (٧٩٣ - ٨١٧) قد جاء إلى الشرق لتعيين رئيس أساقفة[١١] لتكريت، مركز الإقليم الشرقيّ من كنيسته السريانيّة الغربيّة. ولّما كان التنافس لم يزل قائمًا بين هؤلاء «الشرقيّين» وبين البطريرك، ظنّ قرياقوس أنّه قد وقع على الرجل «القادر على مقاومة أعمال هؤلاء القوم ودرئها». كان هذا كاتبًا اسمه باسيليوس، أصله من بَلَد[١٢] «وكان يشتغل في القضاء وفي جباية المكوس».[١٣]

وكان باسيليوس هذا «مصابًا بداء الكبرياء» وكان «بلا روية... تيّاهًا». وكانت فاتحة أمره أن دخل في نزاع (وهذا تقليديّ) مع أهل الموصل ورهبان دير مار متّى، فأغرى الأمير بحبس مَن يشاء وتغريم مَن يشاء، ثمّ إنّه ما اكتفى «بالتعالي على النصارى» بل ربّما تعدّى ذلك إلى ظلم مسلمي تكريت. ولم يقتصر على تدبير الكنائس بل تدخّل في الإدارة العامّة التي لم تكن من شأنه، فكان يخالط الأمراء ويجبي الضرائب حتّى إنّه تسلّق إلى فرض الجزية على المسلمين! ولّما رأى هؤلاء تكبّره قاموا عليه وأساءوا إلى النصارى بسببه، فقتلوا من حميّتهم، الخنازير في الشوارع وهاجموا الكنائس.

عندئذٍ انحدر باسيليوس إلى بغداد ليشتكي على المسلمين. فما كان من هؤلاء إلاّ أن سبقوه فوصلوا قبله وحرّروا دعوى لم تخل من المآخذ التي صارت تقليديّة: الصلبان، النواقيس، الخمر فضلاً عن الخنازير التي «تدخل إلى المساجد». واتّهم المطران وآخر من أعيان رعيّته، يُدعى عبدون، «بشتم الرسول». أمّا الردّ فكان منشوراً بإبطال شرائع النصارى وأمرًا بالقبض على الرجلين المتّهمين، ففرّ باسيليوس وقُبض على عبدون، فأُغري أوّل الأمر بالخلع والشرف والمنصب إذا ما اعتنق

الإسلام فلمّا تمنّع أُرهب بالوعيد ثمّ عُذّب. وبعد سبعة أشهر من الحبس والتعذيب حُدّ بالسيف ثمّ صلب، وقد وقعت بعض المعجزات فوق قبره في ما روي. أمّا باسيليوس «الذي كان يتوعّد العرب بالطرد من بيوتهم»، فلم يتمكّن أبدًا من العودة إلى تكريت. وقد مات سنة ٨٢٩ مختبئًا في دير عين قنا (قصر سرج) بالقرب من مسقط رأسه بَلَد. فهذه الحالة قد تدخل إذن في فئة «الاستفزاز وردّة الفعل».

٧ أخّرت الاضطرابات التي سادت أوائل خلافة المأمون انتخاب خلف لطيماثاوس[١٤] عند المشارقة من السريان.[١٥] كان هذا الخلف إيشوع بر نون وكان إيشوع هذا من الزملاء القدامى لطيماثاوس وأبي نوح الأنباري الكاتب في مدرسة ابراهام بر داشنداد بشوش.[١٦] وقد كان إيشوع بر نون قضى بضعة أشهر ببغداد حوالى سنة ٧٩٠، مؤدّبًا لابن الطبيب جرجس المسمّى ماسويه.[١٧]

إنتخب الجاثليق الجديد في بداية تموز ٨٢٣. وقد توافق الآباء المسيمون على اسم إيشوع برنون بأمر من أربعة رجالات: طبيبين هما جبرائيل بن بختيشوع وصهره ميخائيل، وكاتبين هما يعقوب ووهب. لا نعرف شيئًا عن الاثنين الآخرين وربّما كانا أبوي الكاتبين دُلَيل بن يعقوب وسليمان بن وهب اللذين اشتُهرا في الجيل التالي؟

وقد أُنيط تدبير أموال الجثلقة، إبّان خلوّ السدّة برجل يُدعى عبدا هو ابن عون الجوهريّ العباديّ الذي نعرفه والذي كانت داره باسبانبر، إحدى الضواحي بمدائن طيسفون.

كان جبرائيل بن بختيشوع لا يزال هناك سنة ٨٢٣ منذ أن بدأ في خدمة جعفر البرمكيّ سنة ٧٩١/١٧٥. والحقّ أنّ الفترة الانتقالية التي أعقبت مقتل الأمين، سنة ٨١٣، لم تكن سهلة على جبرائيل الذي رفض التقرّب إلى المأمون. وقد سخط عليه الخليفة الجديد، وقبض عليه وصادر أمواله كلّها.[١٨] ولكن في العام ٨١٧/٢٠٢ اعتلّ الحسن بن سهل،[١٩] الذي صار وزيرًا من بعد، وكان المأمون قد أوكل إليه أمر القبض على جبرائيل. فما كان من الحسن إلاّ أن أطلق جبرائيل ليعالجه ثمّ شفع له بعفو الخليفة (فشفاه الطبيب ولكن إلى حين).

لّما دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤/٨١٩[٢٠] «أمر بأن يجلس جبرائيل في منزله ولا يخدم، ووجّه مَن أحضر ميخائيل المتطبّب، وهو صهر جبرائيل، وجعله مكانه وأكرمه إكرامًا وافرًا كيادًا لجبرائيل».

وفي أثناء فترة السخط هذه انتخب إيشوع بر نون. وقد توصّل جبرائيل وصهره إلى التفاهم على اسمه. في العام ٢١٠/٨٢٥ ـ ٨٢٦ ألم بالمأمون داء أعجز ميخائيل عن شفائه، فاستُدعي يوحنّا بن ماسويه. إلاّ أنّ ميخائيل نجح في إزاحته، إلى أن جيء بجبرائيل الشيخ الذي استطاع أن يشفي الخليفة، فوصله هذا بهدايا جليلة نقدًا وعينًا وأمر بأن يردّ إليه كلّ ما صودر منه من الأملاك والضياع.

ظلّ جبرائيل ينعم مدّة ثلاث سنوات أخرى بالعزّ الذي عرفه من قبل، أيّام الرشيد، حتّى إنّ هذا الطبيب كان، على قول ابن أبي أصيبعة «عند المأمون مثل أبيه» وكان «كلّ مَن تقلّد عملاً لا يخرج إلى عمله إلاّ بعد أن يلقى جبرائيل ويكرمه».[٢١] من ذلك أنّ صالحًا بن الرشيد، عامل البصرة قد حُجب عن الدخول على الخليفة، على ما بذله من مال في محاولة ذلك، واضطرّ إلى العودة بخفيّ حنين، لا لشيء إلاّ لأنّه استكثر طلب جبرائيل خمس مئة ساجة لعمارة داره القريبة من الميدان بالبصرة وعرض حمل مئتي ساجة إليه فحسب.[٢٢]

ولّما انطلق المأمون سنة ٢١٣/٨٢٨ ليغزو الأراضي البيزنطيّة، أراد أن يصطحب طبيبه الهرم. ولكن الخليفة لّما رأى ما عليه من الضعف، اكتفى باصطحاب ابنه بختيشوع. وقد مات جبرائيل إبّان هذه الغزوة، أي في غياب الخليفة، فدُفن في دير مار سرجيس بالمدائن «فمضى في تجميل موته ما لم يمض لأمثاله».

خبا نجم ميخائيل المتطبّب، صهر جبرائيل، ولكن بختيشوع[٢٣] بن جبرائيل قام مقام أبيه، وبقي للنصارى نصير قريب من العرش.

في هذه الأثناء، كان إيشوع بر نون قد أنهى جثلقة دامت أربع سنوات، احتفظ المؤرّخون منها بذكرى بغضه المَرَضيّ[٢٤] لسلفه طيماثاوس. حتّى إنّ الأطبّاء قد اضطرّوا أحيانًا إلى تسليك الأمور بينه وبين الأساقفة الذين كانوا يريدون خلعه.

هَذَأ إيشوع بر نون، ورأى رؤيا منبئة بموافاة المنيّة، ثمّ لفظ أنفاسه الأخيرة في دير الجاثليق الذي كان طيماثاوس قد عمّره.

VI خلف ايشوع بر نون جيورجيس بن **الصبّاح**(٢٥) الذي كانت سنّه تناهز المئة عندما سيم جاثليقًا يوم الأحد في ١٦ حزيران ١٧/٨٢٧ ربيع الأوّل ٢١٢. كان جيورجيس هذا قبل عشرين عامًا رئيس رهبان دير بيت عابي وكان قد لجأ إلى جبرائيل مستعينًا به على استرجاع إحدى ضياع الدير التي اغتصبها جار له. وقد أُعجب رئيس الأطبّاء باستقامة هذا الديراني وسعى لدى طيماثاوس ليرسمه مطرانًا لجنديسابور. والأن عمل جبرائيل وميخائيل على تقديمه إلى كرسيّ الجثلقة بالرغم من علوّ سنّه. لا يذكر المؤرّخون شيئًا مخصوصًا عن علاقات هذا الحبر بالسلطات أو بالخليفة أو بالوزراء. وإنّما يعني هذا أنّ البطريرك لم يكن يقوم دائمًا بالدور الأهمّ في «العلاقات العامّة» لجماعته. فقد اكتفى جيورجيس بصنع آيات ومعجزات مشهورة كشفاء الأمراض الصعبة وإخراج بعض الشياطين. ومن المحتمل أن يكون أهل البلاط، والنساء منهم خاصّة، قد استعانوا به ولكن ليس لدينا أي ذكر لذلك.

وقد توفّي جيورجيس الثاني بعد حوالى أربع سنوات من الجثلقة، في غرّة المحرّم من سنة ٢١٦/آذار ٨٣١.

VII كان خلفه سَبر يشوع(٢٦)، الجاثليق الثالث في خلافة المأمون، قد لفت انتباه الخليفة بالاستقبال الذي هيّأه له «ولأصحابه وجماعة النصارى الذين كانوا معه لمّا حصل بدمشق» التي كان سبر يشوع مطراناً على رعيّتها، سنة ٢١٥/ ٨٣٠.(٢٧) وقد ظلّت ذكرى تلك الحفاوة ماثلة في الأذهان، حتّى إذا شَغَرَ كرسي الجثلقة بموت جيورجس الثاني، انتخب سبر يشوع.(٢٨) لم يحفظ المؤرّخون عن جثلقته إلاّ تجديده (بإذن الخليفة) دير مار فثيون بحيّ العتيقة في جنوب غرب بغداد.

لم يكن للجثالقة الشيوخ الذين خلفوا طيماثاوس، والذين لم تدم جثلقة كلّ منهم أكثر من أربع سنوات، إلاّ علاقات مجاملة، في ما يبدو، بعرش الخلافة، بينما تمتّع ديونيسيوس التلمحري بطريرك المغاربة من السريان في ذلك الزمن برضا المأمون، ولو إلى حين.

ديونيسيوس التلمحري والمأمون

يحذّرنا أحد الباحثين المسلمين المعاصرين[٢٩] من استعمال آثار ديونيسيوس التلمحري إلاّ بكثير من الحيطة،[٣٠] ولا سيّما في تعاملنا مع «أحكامه المتهوّرة» التي ساقته إليها «عداوته للنظام الجديد».

قد سبقت منّا الإشارة إلى أنّ المؤلّفين السريان الغربيّين كانوا من شدّة معاملة السلطات الإسلاميّة لجماعاتهم أغلب شكوى ممّا كان المشارقة من سريان الداخل، وذلك لقرب الأوائل من الحدود البيزنطيّة. فهذا ماري السريانيّ الشرقيّ يكتب عن المأمون أنّه كان «يميل إلى النصارى»[٣١] بينما يقول ميخائيل السريانيّ، السريانيّ الغربيّ[٣٢] (المتأثّر بديونيسيوس؟) إنّ المأمون «كان يلعنه الجميع لما أنزل بالناس من صنوف البلاء». ومع ذلك، يجدر بنا ألاّ نبالغ في التبسيط، إذ إنّ سريانيًّا غربيًّا آخر، هو الرهاوي المجهول[٣٣] يذكر أنّ «الملك المأمون كان عادلاً في أحكامه، محبًّا للسلام رحيمًا». ويضرب على ذلك مثلاً: في العام ٨٢٤ جاءت المواسم وفيرة وانفرجت الشدّة عن الناس: «فأمنت السبل، وخيّم السلام على الناس بفضل طيبة الملك المأمون وحلمه. وقد أمر عمّاله بأن يعدلوا في تدبير الرعيّة وينصفوا، وأن يردّوا على مَن ظُلِمَ من الناس أو نهبت أرضه وماله. وقد أمرهم المأمون بأن يعفوا النصارى من إضافة العسكر وأن لا يظلمهم من العرب أو الفرس[٣٤] أحد. وقد طاب للنصارى العيش في ذلك الزمان، وكانوا يصلّون لله بلا انقطاع سائلينه أن يحفظ عليهم حياة المأمون».

ها نحن قد ابتعدنا كثيرًا عن اللوحة القاتمة التي يرسمها ديونيسيوس المزعوم[٣٥] إذ يكتب: «وقد أخذنا على أنفسنا أن نقول كلّ شيء وأن ننقل إلى مَن يأتي بعدها ذكرى. . . الأعباء التي كان ينوء بها أسلافهم لكيما يحتاطوا لأنفسهم فلا يظلموا».[٣٦] يلاحظ فاروق عمر، بحقّ، أنّ هذا «الحيف» لم يكن نازلاً بالنصارى وحدهم، ولئن فرح الرهاوي المجهول بوفرة الغلال في هذا العام أو ذاك، فهذا يعني أنّ العام السابق كان عام قحط، وكان هذا العسر يصيب الشعب كلّه لا النصارى من دون غيرهم.

زد على ذلك أنّ العمّال منهم مَن كان حسن السيرة ومنهم مَن كان جائرًا. وقد امتدح ديونيسيوس عبدالله بن طاهر[٣٧] عامل المأمون وربيبه الذي كان (على قول المعتصم) أحد أكابر رجالات المملكة الأربعة العظام.[٣٨] وقد أعان عبدالله ديونيسيوس على التخلّص من منافس دخيل اسمه أبي رام.[٣٩] كما قصد ديونيسيوس عبدالله بمصر، سنة ٨٢٦ ـ ٨٢٧، لمّا كان عاملاً عليها ليتوسّط له لدى أخيه محمّد الذي راح نائبه يقظان يهدم كنائس الرها ويكره سكّان المدينة على تحرير عبيدهم ليدخلوا الإسلام. ولا بدّ من الإشارة، مع ميخائيل السريانيّ[٤٠] إلى أن المحرّض على هذه التدابير كاتب خلقيدونيّ (ملكانيّ) اسمه وليد.

وقد كان على ديونيسيوس البطريرك أن يتدخّل لدى الخليفة نفسه في قضيّة شكوى يعاقبة بغداد على أسقفهم لعازر بن شبثا.[٤١] ذلك أنّ الخليفة، لسماحة طبعه،[٤٢] أعطى اليهود المنقسمين إذناً يجيز للجماعة الدينيّة أن تختار رئيسها الدينيّ ولو لم يتجاوز عدد أفرادها العشرة، وأجاز لهذا المختار الحصول على اعتراف الخليفة به.[٤٣] وقد وافق هذا الأمر لعازر الأسقف ولكنّه لم يوافق ديونيسيوس البطريرك الذي قال: «عندما يكثر الرؤساء فينا نضعف ويظهر علينا المسلمون».[٤٤]

لم يشأ الخليفة «الذي كان حصيفًا» أن يظلم البطريرك الذي «جاء ليسلّم عليه بهدايا من أقاصي الأرض»، بل أذن لديونيسيوس «أن يلحق به حيث كان يتنزّه بالبستان ليعرض قضيّته». وقد ناظره ديونيسيوس، في ما روي، «مناظرة الندّ للندّ. . . كمن يخاصم صاحبه في قسمة بعض الغنائم» حتّى «تعجّب أساقفتنا وعسكره ممّا أظهرته، بقوّة الربّ، من الجرأة مثلما تعجّبوا من صبر الملك الحليم». فوعد الخليفة بفحص القضيّة.

بعد عشرة أيّام ذكّره ديونيسيوس بوعده عن طريق لعازر الماردينيّ الكاتب اليعقوبيّ «الذي يقف بين يدي الملك».[٤٥] وبعد مشاورة الفقهاء في هذه القضيّة[٤٦] أذن المأمون لديونيسيوس بالدخول فما كان من البطريرك إلاّ أن ألقى على الخليفة خطبة في البطاركة وسلطاتهم، حتّى نبّهه الخليفة قائلاً: «اسمع يا بطريك. وانظر كم نصبر عليك» وقد أسفر الحوار عن الموافقة على عزل لعازر عن

الأسقفيّة، بيد أنّ الخليفة لم يأذن للبطريرك «بطرده من الكنيسة ولا بحرمانه من الصلاة».

جاءت قضيّة أخرى تنضاف إلى الأولى: أمير الموصل قد ظلم اليعاقبة «ونقض» كنيستهم. لفت الخليفة نظر البطريرك قائلاً: «لا يليق بنا أن ننظر في أمركم». ذلك لأنّ أمثال هذه الشكاوى كانت من اختصاص ديوان المظالم. مع ذلك، فإنّ المأمون لما كان «يقدّر شجاعة البطريرك» أمر بأن ينظر هل «أسلم أهل الموصل بلدهم صلحًا للعرب، كما يقول البطريرك [وهل] الذي فتحها كتب لهم عهدًا بأن لا تنقض كنيستهم وأن لا تنسخ شرائعهم». فجيء الخليفة بالعهد المطلوب[٤٧] فأمر المأمون بأن يكتب بذلك إلى عامل الموصل، وكان ذلك سنة ٨٢٩.

إذا صدقت رواية ديونيسيوس للأحداث فإنّنا لنعجب حقًّا بصبر المأمون. إلاّ أنّه لم يتمالك نفسه عن التأفّف من الصراعات الدائرة في قلب جماعة المغاربة من السريان عندما قال: «لقد والله أسأمتموني وأزعجتموني يا معشر النصارى! ولا سيّما أنتم يا معشر اليعاقبة، مع أنّنا نهمل ما يتظلّم به بعضكم من بعض»، وقد نقل ديونيسيوس قوله بأمانة.[٤٨]

وفي السنة التالية، أي ٨٣٠، حمل ديونيسيوس الهدايا إلى الخليفة ولحق به بدمشق (حيث رأينا المأمون من قبل ينزل ضيفًا على سبريشوع مطران المشارقة من السريان). رأى الخليفة الفائدة السياسيّة التي قد يجنيها إذا ما اصطحب ديونيسيوس البطريرك إلى مصر حيث كان النصارى من الأقباط البشموريّة قد خرجوا على الطاعة. كانت وساطة بطريركهم، يوسف الإسكندريّ قد أخفقت من قبل، ولم يقيّض لوساطة ديونيسيوس نجاح أفضل.[٤٩]

زيادة على هذا الإخفاق تجرّأ البطريرك على إلقاء تبعة التمرّد على إبراهيم، أخي المأمون بسبب جباية الضرائب. هذه المرّة غضب الخليفة من جراءة البطريرك وظلّ كالساخط عليه حتّى نهاية خلافته. وقد سارت أحوال ديونيسيوس من سيّئ إلى أسوأ عندما أصبح إبراهيم نفسه خليفة سنة ٨٣٣ وتلقّب بالمعتصم. فكان على البطريرك أن يختبئ حتّى يصار إلى تهدئة الخليفة الجديد.

تدابير تمييزيّة؟

لم يكن ثمّة ما يرضي المأمون عن نصارى مصر. وعند رجوعه إلى بغداد[٥٠] ساءه أيضًا أنّ النصارى «اتّفق لهم مجاهرة في بغداد بالبغيّ والفساد على معلّمه عليّ بن حمزة الكسائيّ،[٥١] فلمّا قرأ عليه المأمون ووصل إلى قوله تعالى: ﴿**أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى، أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومَن يتولّهم منكم فإنه منهم**﴾ قال الكسائيّ: يا أمير المؤمنين، أتقرأ كتاب الله ولا تعمل به؟»[٥٢]

وقد جمع المأمون، في ما يروى، كلّ مَن كان في خدمته من الذمّيّين «وصرف وسجن ألفين وثمان مئة» وبقي جماعة من الكتّاب اليهود في ديواني الجيش والخراج فأمر المأمون بصرفهم أيضًا.[٥٣] ربّما وجدنا في هذا التصرّف مسوّغًا لقول المسعوديّ عن المأمون:[٥٤] «وربّما حرّك منه الغضب فعجّل بالعقوبة».[٥٥]

ربّما أعان الإطار التاريخيّ على تفسير سخط المأمون. نحن الآن في العام ٨٣٠: تمكّن الأفشين من إخضاع الخارجين بمصر،[٥٦] واشتعلت الحرب مع الروم ثانية، ولعلّنا ندرج في هذا السياق أيضًا خبرًا طريفًا يورده هلال الصابي[٥٧] عن كاتب خائن لئيم يُدعى أبو الفضل فرج بن زياد الرخاجي. فقد كان من كيده لزميله المفضِل عليه أبي الحسن مخلد بن أبان أن جعل في رأس الشاشيّات الأنيقة التي اصطنعها له صلبانًا من خوص النخل، وذلك لإثبات التهمة عليه بالنفاق، إذ أخفى عن الخليفة أنّه من «عبّاد الصليب». ومن حسن التوفيق أنّ المفترى عليه اكتشف المكيدة وأبدل الشاشيّات وأفحم المفتري العقوق لّما اتّهمه بين يدي الخليفة. ولم ينقل لنا المصدر ما كان من شأن المأمون أن يفعل لو قامت البيّنة على التهمة. بيد أنّ مناخ التوتّر الذي ساد أواخر الخلافة، كالذي ساد أوائلها، يجب ألاّ ينسينا السنوات التي مرّت بينهما والتي كانت من ألمع سنيّ العصر العبّاسيّ ومن أشدّها حراجة بالنسبة إلى خيارات علم الكلام داخل الإسلام.

هل كانت ثمّة أراجيف تتّهم الإسلام بالانتشار بقوّة السيف؟ فمن أجل الردّ عليها، في ما يبدو، ومن أجل إظهار تفوّق الإسلام دعا الخليفة إلى بغداد كلّ مَن

كان بدار الإسلام من رؤساء الملل ليناظروا علماء المسلمين. ولعلّ هذه الدعوة تفسّر قدوم[٥٨] يزدان بخت، رئيس المانوية، من الريّ إلى بغداد، وإذ أفحمه علماء المسلمين دعاه الخليفة إلى الإسلام، فلمّا ترفّق في الرفض لم يشأ المأمون إجباره، بل بعث معه مَن يحرسه من سوء معاملة العامّة.[٥٩]

تيّارات علميّة وكلاميّة

في خلافة المأمون عرفت حركة الترجمة إلى العربيّة ذروتها.[٦٠] كانت للخليفة عدّة اتّصالات بقياصرة الروم ليطلب منهم، في ما يطلب، أن يأذنوا لبعثة عربيّة بالسفر إلى بلاد الروم لجمع المخطوطات في علوم الطبيعة والهندسة والطبّ، أو أن يبعثوا إلى بغداد عالما بالرياضيّات يونانيًّا مشهورًا اسمه لاوون. فالمأمون هو مؤسّس معهد الترجمة العظيم الذي يُعرف ببيت الحكمة والذي أنيطت إدارته بسهل بن هارون. كان معظم المترجمين، في البداية، من النصارى الملكانيّين واليعاقبة والنساطرة خصوصًا. وبفضل هؤلاء انتقلت علوم اليونان إلى العرب ثمّ عادت بوساطتهم إلى أوروبا.

وقد بقيت بعض أسماء الذين ترجموا للمأمون. فمن النصارى الحجّاج بن مطر وعبد المسيح بن ناعمة الحمصيّ[٦١] في ترجمة كتب الطبّ، ويحيى بن البطريق الذي «كان في جملة» الحسن بن سهل.[٦٢]

ومن بين الأطبّاء رأينا في بداية خلافة المأمون جبرائيل بن بختيشوع وصهره ميخائيل، بعد ذلك نجد جبرائيل بن بختيشوع[٦٣] إلى جانب الخليفة، حتّى في الحملات على بلاد الروم. وقد اقترن اسمه باسم المأمون في العديد من الأقوال المأثورة[٦٤] التي تنسبها كتب إلى هذا الخليفة وهذا الطبيب، وتنسبها كتب أخرى إلى غيرهما. ويظهر، فضلاً عن بختيشوع، ابن ماسويه الذي صادفناه من قبل[٦٥] وكذلك سلمويه.[٦٦]

كان كحّال الخليفة رجلاً نصرانيًّا اسمه جبرائيل[٦٧] وكان أوّل مَن يدخل عليه كلّ يوم، وكذلك كان أحد مشاهير الكتّاب في ذلك العصر، عليّ بن هيثم

الذي كان يلقّب بجونقا، والذي كان المأمون يتحفّظ إذا تكلّم أمامه لأنّه «تعرّق في الإعراب».[٦٨] وجونقا هذا هو الذي تجرّأ يومًا أن يجلس في «مجلس العرب» في دكّة الشماسيّة، حتّى ذكّره الكتّاب الذين هجر صفوفهم (لا المسلمون) بالأصول، فاضطرّ إلى العودة والجلوس مع النبط.[٦٩] وهذا يذكّرنا بأنّه مهما بلغ شأن النصارى من النفوذ في قصور الخلفاء، فقد كان ثمّة دائمًا «عتبة للتسامح» كانوا يشعرون بوجوب الوقوف عندها. كان عليهم، كما كان يقال آنئذٍ، ألا «يتعدّوا طورهم».[٧٠]

نجد مثالاً آخر على ذلك في خلافة المأمون أيضًا،[٧١] إنه النصرانيّ المصريّ بكّام البيتبوري: «كان بكّام إذا كان يوم الجمعة لبس السواد (لون العبّاسيّين) وتقلّد بالسيف والمنطقة (بدلاً من زنّار الذمّيّين!) وركب برذونا (فالفرس كان محظورًا على النصارى) وبين يديه أصحابه، فإذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته، وكان مسلمًا، يصلّي بالناس ويخطب باسم الخليفة ويخرج إليه». وإنّنا لنرى في هذه الفقرة الصغيرة مزيجًا مدروسًا من تخطي بعض الأصول واحترام بعضها الآخر ممّا لم يكن من احترامه بدّ. كان على كلّ واحد أن يعرف، في الوقت المناسب، إلى أين يستطيع أن يذهب من دون أن يستفزّ الآخرين.

على أيّة حال كان اهتمام الرأي العامّ في عصر المأمون يدور حول مسائل تختصّ بالجماعة الإسلاميّة نفسها.[٧٢] ففي حزيران ٨٢٧ انحاز الخليفة إلى المعتزلة وأعلن عن عقيدته بأن القرآن «وإن كان منزلاً فهو مخلوق وأنّ الحريّة الإنسانيّة لا تلغيها عقيدة القدر».[٧٣] ومن ثمّ كانت المحنة[٧٤] التي امتحن بها علماء الإسلام وأدّت إلى الحكم بالموت على مَن لم يقل منهم بخلق القرآن. إلاّ أنّ وفاة الخليفة حالت دون تنفيذ الأحكام. كان انحياز الخلافة إلى الاعتزال من نتائج دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلاميّ، وذلك بسبب حركة الترجمة التي كان النصارى مسؤولين إلى حدّ بعيد عمّا انجرّ عنها من آثار محمودة أو مذمومة. لذلك شملتهم ردّة فعل أهل السنّة والجماعة في جملة ضحاياها.[٧٥]

الحواشي

(١) لم يذكر اسم الخليفة في رسائل الجاثليق، Index dans PUTMAN p.154–157.

(٢) THEOPHANE, ad. an. 6305, p.499, cité dans DHGE, s.v. Antioche, col. 589 sq. حيث يتكلّم عن «اضطهاد عامّ بالشام».

(٣) الطبري، ج ٣، ص ٨٤٥، ٩٧٥، ١٠٤٣ - ١٠٤٦، ١٠٦٧ - ١٠٧٤.

(٤) السلمي؟ المذكور مع نصر في العام ١٩٦/٨١١ في المصدر السابق ص ٨٤٥.

(٥) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٢٢، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٠.

(٦) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٤٧ - ٤٨، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٢.

(٧) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٢٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٣ - ٢٤، ٣٧، ٥٢ - ٥٣، إلخ.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٦. هل كان هذا يحيى بن سعيد الذي رأيناه من قبل؟

(١٠) المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٦١.

(١١) لم يكن يلقّب بالمفريان بعد.

(١٢) بُلَيدة إلى الغرب من الموصل على طريق نصيبين، تسمّى اليوم أسكي موصل.

(١٣) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٢٨ - ٢٩، ٤٨ - ٤٩، ٦٠، إلخ. أنظر المراجع في DHGE, VI. col 1144–1145, s.v. Basile (no. 128) par ARN VAN LANTSCHOOT

(١٤) يقول صليبا، ص ٦٦، إنّ السدّة ظلّت شاغرة مدّة سنة وخمسة أشهر، والواقع أنّ إيشوع بر نون لم يُنتخب إلاّ في العام ٢٠٨/٨٢٣، أيّ بعد ذلك بأربع سنوات.

(١٥) وقد حضر المأمون، في تاريخ غير محدّد، عيد الشعانين بدير الأعلى بالموصل، الشابشتي، الديارات، ط ٢، ص ١٧٧ - ١٧٩.

(١٦) ماري، ص ٧٥ - ٧٦، صليبا، ص ٦٦ - ٦٨، ابن العبري، ج ٢، العمودين ١٨٢ - ١٨٤، إيليّا النصيبيني، الحاشية العربيّة ص ٧١.

(١٧) ماسويه بن يوحنا(؟)، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٦.

(١٨) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨، ابن أبي أصيبعة، ص ١٨٩ - ١٩٠، ١٩٨، إلخ.

(١٩) Vizirat, p. 215–218

(٢٠) M.ZAHNISER, Insights from the 'Uthmaniyya of al-Jahiz into the religious policy of al-Ma'mun, in **Muslim World**, 69, (1979) pp.8–17.

(٢١) إبن أبي أصيبعة، ص ١٩٠.

(٢٢) إبن أبي أصيبعة، ص ١٩٥.

(٢٣) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٠١ - ٢٠٩. يَصِفُ نظامي عروضي، ص ١٣٧ ، ١٣٨، بختيشوع

بالطبيب البارع، المخلص والرفيق» ويروي أنّه فيما كان يعالج رجلاً من أقارب الخليفة استعصى داؤه، اعتمد على «سعد أمير المؤمنين» ليجرّب دواء خطرًا لشفاء الداء العضال.

(٢٤) ولو أنّ لبرنون مكانة في الأدب السريانيّ، ولا سيّما في تفسير الكتاب المقدّس، انظر ERNEST G. CLARKE, **The Selected Questions of Isho' bar Nun on the Pentateuch,** Studia post-biblica, V, Brill 1962; The Rules of Iso'b. Nun, in A. **VÖÖBUS, Syriac and Arabic Documents,** ETSE, 11, Stockholm, 1960, p. 189-204. وغيرها من كتب الأدب السريانيّ.

(٢٥) صليبا، ص ٦٨ ـ ٦٩، ماري، ص ٧٦، ابن العبري، ج ٢، العمود ١٨٨، إيليّا النصيبيني، الحاشية العربيّة ص ٧١ ـ ٧٢، ميخائيل السريانيّ، ج ٣، الملحق الرابع، ص ٥٢٠ ـ ٥٢٤، ولدى GISMONDI قراءة «الصيّاح»(؟).

(٢٦) ماري، ص ٧٥ ـ ٥٦، صليبا، ص ٦٩ ـ ٧٠، ابن العبري، ج ٢، العمود ١٩٠، إيليّا النصّيبيني، الحاشية العربيّة، ص ٧٢.

(٢٧) الكامل، ج ٦، ص ٤١٨.

(٢٨) لم يكن يُعدُّ «عالمًا» بل كان يعدُّ «من غير فهم» مع أنّه كان «حافظًا للأخبار البيعيّة» عن ظهر قلب.

(٢٩) FARUK OMAR, **A General Sketch,** op. cit.

(٣٠) ينبغي لنا مع ذلك أنّ نحلّل فقرات القسم الرابع من تاريخ ديونيسيوس المزعوم وتلك التي ينسبها ميخائيل السريانيّ إلى ديونيسيوس الأصيل. يبدو لي الأوّل أكثر تبسيطًا للأمور وأكثر تظاهرًا بالتقوى مستشهدًا على مدى الصفحات بنبوءات قد تفسّر (وقد لا تفسّر) الأحداث التي يوردها. ويبقى السؤال مطروحًا: كيف كان ديونيسيوس الأصيل مؤرّخًا؟

(٣١) ص ٧٤.

(٣٢) ج ٣، ص ٧٥.

(٣٣) ص ١٠ ـ ١١، ١٧.

(٣٤) يدلّ لفظ «العرب» على أهل الشام الأمويّين سابقًا، بينما يدلّ لفظ «الفرس» على العبّاسيّين المرتبطين بخراسان.

(٣٥) ص ١١٦.

(٣٦) إنّه كلام على شيء من الغموض، ولكنّه ربّما أوحى بوجوب معرفة كيف يكسب رضا السلطة وكيف يجتنب «الاستفزاز»، أي بعبارة أخرى عدم تخطّي «عتبة التسامح»؟

(٣٧) كان هذا الرجل كريم الأصل: فالكلّ يعرف الوصيّة الرفيعة القيمة الأدبيّة والأخلاقيّة التي وصّاه بها أبوه طاهر عندما تقلّد عبدالله أمر الرقّة ومصر وما إليهما. ولّما اطلع المأمون على هذه الوصيّة أمر بنسخها وإرسالها إلى عمّال الولايات جميعًا. أنظر نصّها في مصادر شتّى كالطبري وابن خلدون، إلخ. وفي ابن الأزرق، ص ٦٨٨ ـ ٦٩٨. والرسالة لا تتطرّق

مباشرة إلى شؤون النصارى، بيد أنّ ابن الأزرق يوردها في فصل معاملة أهل الذمّة، ص ٦٨٤ - ٦٩٨.

(٣٨) **الزركلي**، ج ٤، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ وE.I.², I, p 54, par E. MARIN

(٣٩) **ميخائيل السريانيّ**، ج ٣، ص ٥٧ - ٥٨ عن أمر المأمون: «وتنصر [البطريرك] الحقّ في ما يصلح من الأمور ولا يتجاوز حدّ الإنصاف». **إبن العبري**، ج ١، العمود ٣٥٦ - ٣٥٨. وكان عبدالله يحبّ ديونيسيوس حبًّا جمًّا نلمسه في قول البطريرك: «وقد لامني على ركوب البحر إليه وأنا في هذه السنّ من الكبر وعلى هذا الشرف في الرتبة... قال: مَن حملك على القدوم إلى مصر؟ أما كان بوسعك أن تكتب لي لتعلمني بما تحبّ؟».

(٤٠) ج ٣، ص ٦٠ - ٦٤، **ابن العبري**، ج ١، العمود ٣٦٠.

(٤١) **ابن العبري**، ج ١، العمود ٣٦٦ - ٣٧٢.

(٤٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٥٣.

(٤٣) أنظر المراجع في كتاب PUTMAN ص ١٤٤ - ١٤٥، آدم متز، **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري**، ج١، ص ٩٠.

(٤٤) **ميخائيل السريانيّ**، ج ٣، ص ٦٥ - ٧٠.

(٤٥) نجده ثانية مع المأمون بدمشق سنة ٨٣٠، **ميخائيل السريانيّ**، ج ٣، ص ٧٦.

(٤٦) يذكر ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٦٧ (نقلاً عن ديونيسيوس) اسم قاضي القضاة يحيى بن أكثم. أمّا الطبري، ج ٣، ص ١٤١٠ فيشير إلى أنّ يحيى لم يتقلّد هذا اللقب إلاّ في خلافة المتوكّل سنة ٢٣٧.

(٤٧) ولا يدلّ هذا أبدًا على صحّة هذا العهد، فقد كانت عدّة عهود مزيّفة من هذا النوع قيد التداول، كذلك الكتاب الذي يعفي يهود خيبر من الجزية، الصفدي، **الوافي**، ج ١، ص ٤٤ - ٤٥، ابن الأبار، **أعتاب**، ص ٢٠٦.

(٤٨) **ميخائيل السريانيّ**، ج ٣، ص ٦٥ - ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٦، **ابن العبري**، ج ١، العمود ٣٦٦.

(٤٩) أنظر مقالتي: Coptes et Syriaques, p. 321-322 avec réf.

(٥٠) **إبن القيّم**، ص ٢١٨.

(٥١) عن هذا الرجل (ت ١٨٩/٨٠٥) انظر F. KRENKWO, **Tarikh Baghdad**,

(٥٢) **إبن القيّم**، ص ٢١٨ - ٢١٩، انظر أيضًا **غازي الواسطي**، ص ٣٩٦.

(٥٣) **إبن القيّم**، ص ٢١٩.

(٥٤) **التنبيه**، ص ٣٥١.

(٥٥) ربّما جاز لنا أن نربط بسورة الغضب هذه «حالات الإسلام» التي لم يقتنع المأمون أنّها كانت جديّة حقًّا، هذا إذا صدق الكلام الذي ينسبه إليه الكنديّ المزعوم في مخاطبة أهل حاشيته. فقد قال الخليفة، في ما روي: «والله إنّي لأعلم أنّ فلانًا وفلانًا حتّى عدد جملة من خواص

أصحابه ليظهرون الإسلام وهم أبرياء منه ويراؤونني ، وأعلم أنّ باطنهم لبخالف ما يظهرونه وذلك أنّهم قوم دخلوا في الإسلام لا رغبة في ديانتنا هذه بل أرادوا القرب منّا والتعزّز بسلطان دولتنا لا بصيرة لهم ولا رغبة في ما دخلوا فيه. . . وإنّي لأعلم أنّ فلانًا وفلانًا حتّى عدّد جماعة من أصحابه كانوا نصارى فأسلموا كرهًا فما هم بمسلمين ولا نصارى». رسالة الهاشميّ إلى الكنديّ ورسالة الهاشميّ إلى الكنديّ، تحقيق ANTON TIEN لندن، ١٨٨٠، ص ٦٦.

(٥٦) غازي الواسطي، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ وما يليها، يقدّم تفاصيل كثيرة عن موقف المأمون من القبط. ويستشهد بشاعر يقول:

لعنَ النصارى واليهودَ فكأنّهم بلغوا بنا من دهرنا الأمالا
خرجوا أطبّاء وكتّابًا لئن تناهبوا الأرواح والأموالا

والبيتان سقيما الوزن والمعنى، ولا يصحّان إلاّ إذا قرئا كما يلي:

لعنَ النصارى واليهودَ كأنّهم بلغوا بنا من دهرنا الآمالا
خرجوا أطبّاءً وكتّابًا لنا فتناهبوا الأرواحَ والأموالا (المترجم)

(٥٧) رسوم دار الخلافة، ص ٤٣ - ٤٤.

(٥٨) حسب مخطوطة لأحمد بن يحيى بن المرتضى (القرن الرابع عشر)، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. (انظر: G. MONNOT, dans **MIDEO, XI**, p.40-41) مذكور في ARNOLD, p.86

(٥٩) النديم، فهرست، ج ١، ص ٣٣٨.

(٦٠) أنظر الآن سليم طه، التاريخ وكبار المؤرّخين في الإسلام، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص ٣٣٩ - ٣٩٠.

(٦١) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٨٠.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢. يذهب دنلوب، ص ١٤٢، إلى أنّ يحيى قد أسلم، مستندًا في قوله إلى أنّ يحيى كان مولى للمأمون.

(٦٣) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٠١ - ٢٠٩.

(٦٤) أنظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٠٩، ج ٢، ص ١٠٣، ج ٤، ص ٩٤. . .

(٦٥) وهو أيضًا، على كونه شمّاسًا، اتّخذ عدّة جوار، فجرّ على نفسه تأنيب الجاثليق وملامة أخي زوجته الراهب الطبيب دانيال بن الطيفوري، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٤٨ - ٢٤٩. ويذكر أنّ إحداهن كانت روميّة وتدعى قراطيس.

(٦٦) سنصادفه من جديد في خلافة المعتصم.

(٦٧) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٦٨) ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٥٣ - ٤٥٩.

(٦٩) D. SOURDEL, **la deuxième partie du livre des Vizirs**, p. 286; M. 'AWWAD, **Lost**

استنادًا إلى كتاب الإرشاد **Fragments of kitab al-Wuzara'**, Beyrouth 1964, p. 51-52.
لياقوت، ج ٥، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٧٠) أنظر قول خالد بن صفوان في كتاب الأحكام لابن القيّم، ص ٢١٨:

فـاقتـل بسيفـك مَن تعـدّى طـوره   واجعـل فتـوح سيـوفـك الأقبـاطـا

(٧١) سعيد بن بطريق (المسمّى أفتيشيوس)، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، في C.S.C.O. (Louvain) 51,1909 تحقيق لويس شيخو، ب. كارادوفو، حبيب الزيّات، ص ٥٩. وهو الذي جدّد عمارة قبّة كنيسة القيامة بالقدس، المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٧٢) D. SOURDEL, **la politique religieuse du Calife al-Ma'mun** مع إشارة خاصّة إلى وصيّته، الطبري، ج ٣، ص ١١٣٥ ـ ١١٣٨.

(٧٣) LAOUST, **Schismes**, p. 107-109; PUTMAN, p. 143

(٧٤) أنظر مقالة A.J. WENSINCK في **E.I.**[1], III, p. 549-551

(٧٥) يشير الرهاوي المجهول (ص ٢٠) إلى حدوث اضطرابات لدى موت المأمون بنواحي دارا ونصيبين وآمد وماردين ورأس العين. وقد قُتل فيها بعض النصارى كما أنّ فرقة من الجيش الذي أرسله الخليفة الجديد قضت على المتمردين بدارا.

٨ - المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧/٨٣٣ - ٨٤٢)

بعد خلافة المأمون الحافلة بالأحداث الفكريّة والدينيّة، سادت خلافة المعتصم[١] أجواء مختلفة كلّ الاختلاف. كان من شأن السلم الذي فاز به الخليفة الجديد بعد انتصاره على العلويّة والزطّ، وبعد الهدنة التي عقدها مع توفيل ملك الروم أن يسهّل استمرار الحركة الفكريّة، ولكن ذلك لم يكن يعني الخليفة كثيرًا. فمن وجهة النظر الدينيّة، استمرّت الخلافة على مذهب الاعتزال، ولكن يبدو أنّ المحنة قد خفّت حدّتها لأنّ المعتصم لم يكن يولي المسائل الدينيّة مثل ما كان يوليها سلفه من الاهتمام، فضلاً عن قلّة بضاعته منها.

كانت أعظم إنجازات هذا العهد نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء،[٢] وسوف نرى من بعد بمَ كان ذلك يهمّ النصارى. من الوجهة السياسيّة كان هذا التدبير يعني تفضيل العنصر التركيّ[٣] على العنصر العربيّ وقد عجّل هذا، في المدى البعيد، على انحطاط دولة بني العبّاس.

إستنادًا إلى نصّ من الفهرست،[٤] ذهب بعض المؤلّفين[٥] إلى أنّ الفضل بن مروان، وزير المعتصم من سنة ٢١٨/٨٣٣ إلى سنة ٢٢١/٨٣٦، كان نصرانيًّا.[٦] على أنّني أقترح أن يقرأ نصّ النديم مع وضع بعض الفواصل كما يلي: «الفضل، بن مروان، بن ماسرجيس[٧] النصرانيّ»، مع تعليق النعت الأخير باسم الجدّ. إذا صحّت فرضيتي فربّما كان مروان، والد الوزير هو الذي أسلم، وربّما كان الفضل نفسه قد تلقّى في صغره تعليمًا نصرانيًّا[٨] أوليًّا؟ هذا ولا نعلم شيئًا عن علاقاته بالنصارى من حيث هو وزير.

أمّا رؤساء الكنيسة، فقد رأينا الشخصيّات ذات النفوذ في أواخر العهد السابق: كان ديونيسيوس التلمحري كالمسخوط عليه في نظر الخليفة. في العام ٨٣٤ قصد بغداد يلتمس الدخول على الخليفة الجديد[٩] للتسليم عليه، بيد أنّ المؤرّخ الذي يورد الخبر يسكت عن النتيجة السلبيّة لهذه المحاولة. ولا يعود هذا المؤرّخ إلى ذلك إلاّ بعد بضع صفحات[١٠] حيث يدع البطريرك يحكي عن «لقائه الأوّل» بالمعتصم بسامراء سنة ٨٣٦، وينسب إليه قوله: «لقد استقبلني بسلام». عند المشارقة من السريان نجد سبريشوع وقد مات في السنة الثانية لخلافة المعتصم، أي سنة ٨٣٥.

VIII كان انتخاب إبراهيم الثاني أسقف حديثة الموصل، خلفًا للجاثليق، تدبيرًا دبّره أعيان العلمانيّين. فقد اختاره الطبيب الراهب سلمويه بن بنان،[١١] تلميذ الكنديّ،[١٢] وأخوه إبراهيم صاحب ختم الخليفة وبيت المال، ومعه أهل الحيرة وكسكر، بينما مال بختيشوع الطبيب وأهل الأهواز إلى أبا مطران جنديسابور. وقد اختار آباء الكنيسة أبا. وكان الجاثليق المنتخب في طريقه إلى المدائن للسيامة إذ نبّه سلمويه الخليفة قائلاً[١٣]: «لم يصونوا شرف وقوفي بحضرتك ولا حرمة خدمتي لك منذ شبابي حتّى كبري».

فكتب المعتصم إلى الطاهري صاحب بغداد يأمره أن يحول دون سيامة أبا (فقيّد هذا بالأغلال) وأن يفرض إبراهيم «بأمر الملك»، فتمّ ما أراد. إنقسمت الرعيّة مدّة سنوات ثمّ مات أبا و«ثبتت جثلقة إبراهيم».

«كان إبراهيم طاهرًا عفيفًا إلاّ أنّه كان عاجزًا عن تدبير الكنيسة»،[١٤] وخلّى أصحابه وأقاربه ينهبون أموال الرعيّة[١٥]. وقد ظلّ إبراهيم على كرسي مار ماري حوالي ثلاث عشرة سنة، حتّى عهد المتوكّل، حيث سنلقاه من جديد.

رأينا للتوّ توسّط سلمويه المتطبّب لتزكية إبراهيم الجاثليق، ويجب أن يعدّ سلمويه هذا في عداد الأطبّاء الذين كان لهم أعظم سلطان على الخلفاء، والذين كانوا في موقع يمكّنهم من إعانة أبناء ملّتهم من النصارى. فقد كان الأمير، الذي اختاره منذ ٢١٨/٨٣٣، يسمّيه «أبي»، وكان يقرّبه إليه أكثر من مسرور الخادم.

وكان الخليفة يعلن على الملأ أن طبيبه كان أهمّ في نظره من قاضي القضاة، «لأنّه يعتني بشخصي، وشخصي أكرم عندي من جاهي ومن مملكتي». ولّما مات سلمويه بن بنان سنة ٢٢٦/٨٤١، شعر الخليفة الذي فُجع به بالضياع، ولم يطل به الوقت حتّى وافته المنيّة بعد سنة.

لم يظهر النصارى إلاّ قليلاً في عهد المعتصم، باستثناء سلمويه المتطبّب وزملائه يوسف بن صليبا وسليمان بن داود بن بابان ويوسف القصير البصريّ وبولس بن حنون الذين ربّما اختلفوا إلى مجلس الأمير التركيّ أبي دلف. وقد صادف المعتصم رهبانًا وابتاع منهم سنة ٢٢١/٨٣٧ ديرًا مع ضياعه في الموقع الذي بنى فيه قصره بسامراء.[١٦]

في هذه الأثناء هُدمت بعض الكنائس (السريانيّة الغربيّة في ما يبدو) صباح عيد الفصح من العام ٨٣٥، بحجّة أنّها قد أُحدِثت. ومن سوء التوفيق أنّ ابن العبري الذي يورد الخبر،[١٧] لا يذكر أين كانت هذه الكنائس ولا الظروف المحيطة بالحادث.

وفي العام ٢٢٣/٨٣٨، سعى أحد أبناء المعتصم، المكنّى بأبي داود والذي يعدّه ميخائيل السريانيّ «عدوّ النصارى»[١٨] باستصدار «أمر من أبيه يحظّر على النصارى أن يظهروا الصلبان خارج الكنائس، وأنّ يقرعوا النواقيس، وأن يجهروا بالصوت في الصلاة أو في الجنائز بالسبل، وأن يظهروا الخمر بأيّة مدينة أو على الطرق. فصار الناس منذئذٍ طعمة للعمّال الذين كانوا يتشدّدون أو يترفقون في تنفيذ هذا الأمر حسبما يشاؤون أو بقدر ما يأخذون».

تعبّر هذه الفقرة عن أهمّ أسباب الاحتكاك بين النصارى والمسلمين وأقدمها: إنّها الأمور التي لا يستطيع أولي الأمر «التسامح فيها» إلاّ إذا تملّقهم أحد بهدية... وتظهر بقيّة النصّ النتيجة المعتادة: هجر النصرانيّة إلى الإسلام، وعند هدوء الحال محاولات الارتداد إلى النصرانيّة. من ذلك أنّ رجلاً من المسلمين راح يطارد المرتدّين عن الإسلام ببلدة سروج، فقبض «على نفر منهم فتحمّلوا التعذيب بشجاعة».[١٩] بيد أنّ امرأة من قرية بشمان قاومت وأقنعت (كيف؟) قاضي الرقّة

«فطلب هذا الرجل وقبض عليه وضربه وألقاه في السجن. . . فكان بذلك خلاص» النصارى.

يلاحظ ديونيسيوس معزّيًا نفسه أنّه «بينما كانت الشؤون العامّة، أي شؤون الممالك على غير ما يرام، فإنّ كنيستنا كانت (في الداخل) تنعم بالاستقرار، لأنّ المؤمنين وسائر الناس كانوا مثقلين بهموم الخراج ومكوس العمّال، في خضمّ تجارب الملوك وتصارعهم». ولا تخلو المصيبة من نفع، فعلى الأقلّ «لم تكن ثمّة اضطرابات أو خلافات بين رؤساء الكنيسة»، و«كان المؤمنون ينعمون بالاستقرار». وفي السنة ذاتها، لمّا حاصر الخليفة أنقرة وعمورية، اصطحب أيّوب بطريرك أنطاكية للملكانيّة. فدعا أيّوب المحاصرين، بإيعاز من الخليفة، إلى التسليم ودفع الجزية لتحقن دماؤهم، فاستقبلوه بالشتائم ورشق الحجارة. فأخذت المدينتان عنوة وأعمل فيهما السيف والنار، وسيق الناجون سبايا.[٢٠]

وفي العام ٨٣٨/٢٢٣ أيضًا، وبينما كان الخليفة بعمورية دبّر العبّاس بن المأمون وعُجَيف بن عنبسة مكيدة لقتل المعتصم غيلة. إلاّ أنّ طبيبًا من النساطرة، لا نعرف اسمه، أنذر الخليفة.[٢١] ولك أن تحزر ما بعد ذلك.

«معجزة جديدة»

ثمّ فصل أقلّ مأساويّة، أنّه وصول جرجة، ابن ملك النوبة إلى بغداد. ولكن المعتصم لمّا قيل له إنّ هذا الشاب الذي لم تتجاوز سنّه الثالثة والعشرين كان دعيًا، أنزله في بعض قصور الخلافة ببغداد وأنظره من شباط إلى آب سنة ٨٣٦، لكي يتحرّى عن نسبه. فلمّا تثبّت منه استقبله بما يليق بمثله.

فرح نصارى بغداد بهذه «المعجزة الجديدة» فرحًا عظيمًا، ولا سيّما اليعاقبة منهم، أهل ملّة الأمير الضيف. والمعجزة أنّ الأمير كان يظهر كلّ ما كان النصارى يخفونه عادة: ففي قمّة تاجه صليب ذهب وعلى رأس مظلّته صليب آخر، كان يمسك صولجانًا بإحدى يديه ويمسك بالأخرى صليبًا. وقد سار عن يمينه وعن يساره فتيان نوبيّون يحملون الصلبان بأيديهم وتقدّمه أسقف يركب فرسًا (وهذا ما كان يحظّر على النصارى) وفي يده صليب. . . وكانت هذه الصلبان كلّها من ذهب![٢٢]

والأكثر من ذلك أنه لّما عرف الأمير بما طعن به على نسبه أحد رعاياه أمر بالمذنب،[٢٣] الذي كان أسلم، فقيّد من دون أن يعقب ذلك أيّة ردّة فعل. وهذا مّما لم يكن لنصرانيّ من بغداد أن يعقله قطّ.

أمّا ديونيسيوس البطريرك، فقد كان عليه ليلقى الأمير أن ينتظر حتّى يفرغ الخليفة من استقباله، وأن ينتقل، بصحبة الأساقفة والأعيان، وفيهم سليمان[٢٤] الطبيب، من بغداد إلى سامراء، تلك «المدينة الجديدة المبنيّة بين نهرين» (كذا). وقد وجد ديونيسيوس الشابّ «أرثوذكسيًا مخلصًا» وقدّم له القربان بيده. وقد تمّت فرحة البطريرك لما تلقّى (أخيرًا) من الخليفة عهد تنصيبه.

ويظهر أيضًا نصارى آخرون، سنة ٢٢٤/٨٣٩، إبّان ثورة المازيار آخر الأمراء القارينيّين بطبرستان.[٢٥] وقد اشترك عليّ بن ربَّن[٢٦] اليهوديّ الكاتب وإبراهيم بن مهران[٢٧] صاحب الشرطة في المفاوضات مع الخليفة الذي أسلم بين يديه عليّ بن ربَّن في ظروف نجهلها.[٢٨]

ونستبين أيضًا أحد كتّاب المعتصم، ألا وهو يحيى الجرمقاني، أي السريانيّ[٢٩] ولكن ليس بوسعنا أن نعرف الدور الذي قام به في علاقات جماعته بالسلطة.

هذه المعلومات المتفرّقة كلّها لا تكفي لتكوين فكرة عن حال النصارى (وغيرهم من المواطنين) في عهد المعتصم. إنّ ما نسبه ميخائيل السريانيّ (نقلاً عن ديونيسيوس) إلى المعتصم من أنه «كان يفرض مكوسًا على كلّ شيء، وحتّى على الموتى»[٣٠] ربّما استحقّ أن يصنّف في جملة «الأحكام المتهوّرة» لو أنّ الرهاوي المجهول، الذي يتميّز بالحياد عادة،[٣١] لم يكن هو أيضًا يقسو على هذا الخليفة: «كان أشدّ جشعًا من أسلافه... وكان يستعمل على الناس كلّ من زايد على غيره وضمن له شيئًا، وفي خلافته نزل بالناس حيف كثير على أيدي قضاة ظلمة وعمّال جشعين».[٣٢]

وقد كانت هذه الحال مناسبة لكي يختم ديونيسيوس تاريخه بنغمة متشائمة: «لقد تكاثرت المصائب التي جرّها طمع العمّال على الناس في هذا العهد، وفاقت كلّ ما عرف منها في ما خلا من عهود ملك العرب: فكلّ واحد من العمّال يأخذ

لنفسه ما كان يضيفه إلى المكوس، وكان يضيف ويزيد قدر ما يريد. وقد عيّنوا كتابًا مخصوصين لكلّ فئة ونصبّوهم بحيث كانوا يأكلون أموال المساكين ويفترسونهم بكلّ وجه»[٣٣] وهو يضرب على ذلك أمثلة من الرقّة ودمشق وقورس. وقد كانت هذه الحالة تتكرّر كلّما كان عامل الناحية بمنأى عن سلطة مركزيّة على قدر كاف من القوّة، ومن سوء التوفيق أن يتزايد تكرار هذه الحالة مع تقلّص سلطة الخلافة وتناقصها.

الحواشي

(١) الصفدي، ج ٥، ص ١٣٩ ـ ١٤١، رقم ٢١٥٠.

(٢) العميد، سامراء، ص ٥١ ـ ٥٨، ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٨٨، يشكّك في اختيار الموضع «الذي لم يكن على شيء من النزاهة ولا يمتاز بحسن الموقع ولا فيه من آلاء الله أثر» وهو يرى أنّ الخليفة «تخيّره من أجل الصيد».

(٣) AHMAD. the Role of the Turks, cit؛ يدرس كتابجي في كتابه الترك (ص ١١٨ ـ ١٢١) الأتراك في المجتمع العبّاسيّ حتّى نهاية عهد المأمون، ثمّ (ص ١٢٢ ـ ١٢٣) المعتصم والترك، و(ص ١٣٣ ـ ١٥٠) الترك في بغداد وسامراء. عن هذه المدينة «التي بنيت للترك»، انظر بخاصّة ص ١٣٨ ـ ١٤٢.

(٤) ج ١، ص ١٢٧، والحواشي III ٢، ص ٥٤.

(٥) مثلاً، هديّة العارفين، ج ١، ص ٨١٨.

(٦) يرى سورديل في كتابه Vizirat ، ص ٢٤٧، الحاشية رقم ٢، أن الفضل نفسه قد أسلم.

(٧) أصلح هنا، كما فعل الزركلي أيضًا، ج ٥، ص ٣٥٨، فاجعل النقطة من تحت بدلا من وضعها من فوق (فتقرأ ما سرخس) كما فعل صاحب الفهرست، ولا نستطيع أن نستنتج شيئًا عن انتمائه المليّ من اسم بلدته الأم: سَلى (أو: سُلى أو سِلى) بناحية نهر بوقَ (وهو قناة بجنوب بغداد، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٨). والاسم ماسرجيس مختصر من مار سرجيس.

(٨) ولد سنة ١٥٧هـ، أيّ في نهاية عهد المنصور.

(٩) مخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٨٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(١١) إبن أبي أصيبعة، ص ١٧٨، ٢٣٤ ـ ٢٤٠.

(١٢) الفهرست، ص ٢٦١.

(١٣) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٩٤، الذي يسمّي هذا الطبيب سليمان (؟).

(١٤) إبن العبري، العمود ١٩٠، ماري، ص ٧٧ ـ ٧٨، صليبا، ص ٧٠ ـ ٧١، إيليّا النصيبي، الحاشية العربيّة ص ٧٢، ميخائيل السريانيّ، ج ٣، الملحق ٦ يقول: «نصب بأمر الخليفة».

(١٥) نشير إلى أنّ أحد تلاميذه، المسمّى خنوخ، فرّ بصندوق المال واعتنق الإسلام.

(١٦) وهذا يذكّرنا بالمنصور عندما ابتنى مدينة السلام. المسعودي، مروج، الفقرة ٢٨٠٤، التنبيه، ص ٣٥٧، الطبري، ج٣، ص ١١٧٩، العميد، ص ٢٦، ٢٩، ٣٢، ٣٣. يذكر ابن أبي أصيبعة دير بني الصقر الذي صار حي إيتاخ (الإيتاخيّة) في خلافة المعتصم والواثق، ثمّ عرف بالمحمّديّة في خلافة المتوكّل. ونجد لديه أيضًا إشارة إلى كنيسة بالقادسيّة، أي بالقسم الجنوبي من سامراء، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

(١٧) تاريخ الزمان، ص ٢٩. الكنائس لمار أحودمه ومار جرجس.

(١٨) ج ٣، ص ٩٦ ـ ٩٧، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٨٤.

(١٩) ربّما كانت هذه هي المناسبة التي أحرق فيها غنّام المرتدّ (المذكور في الطبري، ج ٣، ص ٣٠٢) في العام ٢٢٥/٨٣٩ ـ ٨٤٠. وفي رسالة موجّهة إلى الجاحظ كتب الفتح بن خاقان: «وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنّام ولولا أنّي أزيد في مخيّلتك لعرّفتك ما يعتريني عند قراءتها»، ياقوت، إرشاد، ج ٦، ص ٧٢. ويلخّص الجاحظ هذه الرسالة في كتاب الحيوان (١/٩). أمّا نصّها فتجده في مختارات من رسائل الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ومنها نسخة في الخزانة التيموريّة، على ما ذكر طه الحاجري في كتابه الجاحظ حياته وآثاره، ص ٣٦٢، الحاشية ٣.

(٢٠) سعيد ابن بطريق، ص ٢٠، في C.S.C.O., 51

(٢١) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٤٠١، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٣، الطبري، ج ٣، ص ١٢٥٦ وما يليها.

(٢٢) ميخائيل السريانيّ، نقلاً عن ديونيسيوس، ج ٣، ص ٩٠، ٩٤، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٧٤. يلمّح ابن أبي أصيبعة إلى ذلك، ص ٢٥٠.

(٢٣) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٩٣، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٨٤.

(٢٤) إبن بابان أو ابن بانان؟

(٢٥) أنظر مقالة ف.مينورسكي عن المازيار في E.I.², III, p.498-499. عن النواحي الكلاميّة أنظر LAOUST, Schismes, p.96-97

(٢٦) الطبري، ج ٣، ص ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٩٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٧٦، ١٢٨٨ ـ ١٢٨٩، ١٢٩٣. في العام ٢٥١/٨٦٥ استقرّ ببغداد حيث لم ينهب الترك منزله، المصدر نفسه، ص ١٥٤٠.

(٢٨) يذكر الفهرست، ص ٣١٦، كتابه «في الأداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب». أنظر أيضًا ابن أبي أصيبعة، ص ٤١٤. ويذكره أيضًا ابن عبد ربّه في العقد الفريد (طبعة القاهرة، ١٩٥٢) ج ٤، ص ١٧٢ - ١٧٣. ويسمّيه هذان المؤلّفان الأخيران «الكاتب النصرانيّ».

(٢٩) الطبري، ج ٣، ص ١١٨٢.

(٣٠) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ١٠٤.

(٣١) ص ٢٥، وفي الصفحتين ٢٦ - ٢٧ أمثلة على تصرّفات العمّال. ربّما كان الخليفة نفسه لا يقرُّ هذه الأساليب، إذ يخبرنا عنه ابن الأزرق (ص ٤٥٠) خبرًا يدلّ على رأفته: ففي بعض الأيّام الماطرة أخرج من الطين، بالقرب من سامراء، حمارًا لرجل مسكين وأعاد الحمل الذي كان على ظهر الدابة غير مبال بتوسيخ ملابسه. وقد شكر الرجل (الذي نال مع ذلك ٤٠٠٠ درهم) باللسان «النبطيّ» الشاب الطيّب الذي لم يفصح عن نفسه. (تصحّح الطبعة التونسيّة التي تحمل «قبطيّ» في موضع نبطيّ). فالعجوز المسكين، وهو نصرانيّ في أغلب الظن، كان يتكلّم السريانيّة لا القبطيّة.

(٣٢) ج ٢، ص ٢٥.

(٣٣) سنة ٨٤٣، مذكور في ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ١٠٤، وأيضًا ص ١١٠: «الفظائع والويلات النازلة بأبناء الكنيسة... ولم تزل الشرور تتكاثر علينا!». مات ديونيسيوس في ٢٢ آب سنة ٨٤٥.

٩ ـ الواثق (٢٢٧ ـ ٨٤٢/٢٣٢ ـ ٨٤٧)

كان ارتقاء أبي جعفر هارون الواثق بالله سدّة الخلافة مبعث آمال لدى رعيّته من مسلمين ونصارى: «لّما خلف أباه فرح الناس واستبشروا بأنّه ربّما خفّف عنهم أعباء المكوس المرهقة التي رتّبها أبوه عليهم. إلاّ أنّه تهالك على الشرب والغناء والملاذ والمجون وترك الخلافة بين أيدي رجال ثلاثة.[١] لذلك لم يرَ الناس الفرج ممّا كانوا فيه من شدائد أثقلت كواهلهم، بل ألقي على أعناق الناس عبء نير لا يُطاق من الضرائب الباهظة، تجبى منهم بلا حلم ولا رأفة. وقد راح العمّال الذين أقامهم هارون هذا، الملقّب بالواثق، على تدبير شؤون المملكة يعتسفون بالشعوب الخاضعة لحكمه أيّما عسف، مدّة عهده. أمّا هو فلم يكن يبالي قطّ بما يجري، إذ كان مشتغلاً عن ذلك بالشرب واللهو والمجون ليله ونهاره».[٢]

بينما كان الكتّاب من المسلمين والنصارى يُحبسون وتصادر أموالهم لتغذية الخزينة،[٣] كانت تعقد في القصر مناظرات في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة يشارك فيها ابن بختيشوع، يوحنّا بن ماسويه[٤] وميخائيل ابنه،[٥] حنين بن إسحق وسلمويه.[٦] وفي باب العقيدة استؤنفت المحنة ضد المسلمين من أهل السنّة والجماعة الذين لم يقبلوا الاعتزال.[٧] فقد كان الخليفة «يذهب في كثير من أموره مذاهب المأمون، شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم وأوجدهم السبيل إلى الطعن عليه».[٨]

حتّى عندما كان الأمر يتعلّق بافتداء الأسرى المسلمين من البيزنطيّين، كانوا يسألون: «كلام الله مخلوق أم لا؟» فإن قالوا: «مخلوق» افتدوا وإن قالوا: «غير مخلوق» تركوا بين أيدي البيزنطيّين.[٩]

أدّت هذه السياسة إلى ثورات شعبيّة[10] محليّة قام بها المسلمون، ولا سيّما انتفاضة أحمد بن نصر الخزاعي، الذي قبض عليه وعذّب.[11] وكان ذلك سنة ٢٣١/٨٤٥ - ٨٤٦.

وفي السنة نفسها، أيّ في ٦ آذار سنة ٨٤٥، يذكر أنّ اثنين وأربعين «شهيدًا» من بين الثلاثين ألف أسير الذين أخذوا من عمورية في العام ٨٣٨، قتلوا بسامراء «على الفرات» (كذا).[12]

أُقصي بختيشوع المتطبّب إلى جنديسابور بعدما سخط عليه الخليفة، ثمّ استُدعي في مرض موت الأخير، إلاّ أنّه وصل بعد فوات الأوان.

وقد قُبض على بعض النصارى وبخاصّة الكتّاب الذين كان الوزير بن الزيّات يلاحقهم بعدواته، فالتقى النصارى والمسلمون معًا في الحبس وفيهم سليمان بن وهب وأحمد المدبّر وأحمد بن إسرائيل. وكان النصرانيّ أوّل مَن سمع في المنام صوتًا ينبئ بموت الخليفة. وقد تحقّقت النبوءة، وأطلق الكتّاب،[13] ثمّ أسلم سليمان بن وهب بعد مدّة.[14]

مات الواثق سنة ٢٣٢/٨٤٧، عن عمر يناهز الثلاثين عامًا.[15] وقد خصّه ابن العبري بترجمة ختاميّة لا أثر فيها للمديح[16] قال: «كان خلفاء العرب إلى هذا الحين لا يهمّهم إلاّ إحراز النصر والظفر لكنّهم بعد ذلك استسلموا للخلاعة وانهمكوا في السكر».[17]

وقد أثرت عن الواثق قصيدة ألهمته إيّاها تصاوير قصر المختار بسامراء، وهي تصاوير تمثّل «بيعة فيها الرهبان، وأحسنها صورة شهّار البيعة»[18] ونرى هنا أنّ الموضوعات النصرانيّة لم تزيّن حباب الخمر فحسب.

الحواشي

(١) الاثنان الأوّلان هما، من غير شكّ، ابن الزيّات الوزير، وقاضي القضاة ابن أبي دؤاد، الصفدي، ج ٧، ص ٢٨١ - ٢٨٥، رقم ٣٢٦٤. ربّما كان الثالث إسحق بن إبراهيم، صاحب شرطة بغداد؟ Vizirat, p.254-268.

(٢) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١١٣، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ٢٥ ـ ٢٨.

(٣) أنظر تحت السنة ٢٢٩/٨٤٣ ـ ٨٤٤، الطبري، ج ٣، ص ١٣٣١، الكامل، ج ٧، ص ١٠ وما بعد.

(٤) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٦) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٨٥٧. الصفدي، ج ١٥، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨، رقم ٤٣١، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٣٤ ـ ٢٤٠.

(٧) LAOUST, Schismes, p. 110–111

(٨) المسعودي، التنبيه، ص ٣٦١. نحو هذا التاريخ (سنة ٢٣١/٨٤٥؟) مات واحد من كبار فقهاء المعتزلة هو إبراهيم بن سيار النظّام (الصفدي، ج ٦، ص ١٤ ـ ١٩ رقم ٢٤٤٤) عدوّ أهل السنّة والجماعة، وأحد النوابغ الذين لا يولد مثلهم إلاّ في الألف سنة كما قال عنه الجاحظ (مذكور في الزركلي، ج ١، ص ٣٦). أمّا ابن قتيبة (كتاب التأويل، ص ١٥) فيعدّه على العكس من ذلك «شاطرًا من الشطّار يغدو على سكر ويروح على سكر ويبيت على جرائرها ويدخل في الأدناس ويرتكب الفواحش والشائنات». الرجل يهمّنا هنا لأنّه لم يتردّد في وضع كتاب في «تفضيل التثليث على التوحيد» BROCKELMANN, GAL, S1, p 339. إنّ هذه الحالة، على تطرّفها لذات دلالة على ذلك العصر. أنظر أيضًا القصيدة المحشوّة بالكلمات «النصرانيّة» وأسماء القدّيسين التي ألهمها حبّ مدرك بن محمّد (أو بن عليّ) الشيبانيّ (النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد) لعمرو بن يوحنّا أحد نزلاء دار الروم، التنوخي، نشوار المحاضرة، ج ٤، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٥، مع بعض المراجع. ثمّة مراجع أخرى في كتاب كوركيس عوّاد: كتاب الديارات للشابشتي، الطبعة الثانية، ص ٢٠٤ الحاشيتان ١ و٣. وقد كاد أبو نوّاس يصرّح بالارتداد إلى النصرانيّة ليستهوي غلاماً نصرانيًّا. BEN-CHEICH, dans BEO, XVIII (1963–64), p.72.

(٩) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٦ ـ ٣٧ يعرض هذه الأمور معكوسة. ثمّة عرض صحيح لها في LAOUST, Schismes p. 111 مع إحالة إلى ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٣٠٣ و٣٠٧.

(١٠) يرى كلود كاهن أنّه «في الأمصار الكبرى، حيث كان الحكم العبّاسيّ والتشيّع الأرستقراطيّ المعتدل يبدوان وكأنّهما مرتبطان، انتظمت صفوف المعارضة الشعبيّة تدريجيًا في صورة المذهب الحنبلي، أي التمسّك بظاهر السمع في وجه الحذلقات العقائدية» La changeante portée sociale, p21

(١١) الذهبيّ، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٠، يصفه «بشهيد السنّة». إبن كثير، البداية، ج ١، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٨.

(١٢) الترجمة الفرنسيّة لخبر EVODIOS مع مراجع في ADEL-THEODORE KHOURY. **Les théologiens Byzantins et l'Islam**, (Louvain– Paris 1969), p.163-179.

(١٣) D. SOURDEL, **La deuxième partie du livre des vizirs, p.** 294-295; **Vizirat p.**262-268.

(١٤) أنظر الشابجي، الحاشية رقم ٢ ص ٦٥، نشوار المحاضرة، ج ٨. وكان سليمان يعرف اللسان «النبطيّ» ص ٦٦.

(١٥) من بين الشعراء الذين مدحوه نذكر أبا تمام، المتوفى بالموصل سنة ٢٢٨/٨٤٢ - ٨٤٣ والذي يصنّفه لويس شيخو في عداد «شعراء النصرانيّة بعد الإسلام»، ص ٢٥٦ - ٢٦٠. والصحيح أنّه ولد نصرانيًا، وكان أبوه تدّاوس خمارًا بدمشق. ولّما أسلم أبو تمام سمّى أباه أوسًا ولفق نسبًا يرتفع إلى بني طيء، انظر ABDUL HAQ, Abu Tammam, his Life and Poetry, in **Islamic Culture,** XXVI, II (April 1952), p. 16. وانظر أيضًا للكاتب نفسه: Historical Poems in the Diwan of Abu Tammam, **Ibid,** XIV (1940), p.17-29.

(١٦) تاريخ الزمان، ص ٣٦ - ٣٧. وثمّة نص مماثل عن المقتدر، المصدر نفسه ص ٥٥.

(١٧) يروي ابن العبري عن الواثق أنّه كان ينوي شراء مغنّية بمئة ألف دينار وتقليد مالكها ولاية مصر، فضلاً عن المال. وقد منعه أصحاب خزانته لّما لم يجدوا المال الكافي. ثمّ آل الأمر إلى شراء الجارية بعشرة آلاف دينار.

(١٨) أبو الفرج الأصبهانيّ، أدب الغرباء، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٤ - ٢٥.

١٠ - المتوكل (٢٣٢ - ٨٤٧/٢٤٧ - ٨٦١)

قلب أبو الفضل جعفر المتوكّل على الله سياسة أسلافه الدينيّة رأسًا على عقب، فهجر الاعتزال ورفع المحنة.

إنّ ما سمّي بردّ أهل السنّة قد حصل على مراحل: في العام ٨٤٨، وضعت الخطوط العريضة لسياسة تعليميّة مناهضة للبدع:[1] في العام ٨٥٠، أمر بتهديم مشهد الحسين بكربلاء،[2] في العام ٨٥٢ عيّن قاضي قضاة من أهل السنّة والجماعة وفي العام نفسه أُعيد جسد أحمد بن نصر الخزاعي المشوّه إلى أقاربه، أخيرًا كتب إلى عمّال النواحي باتّباع القرآن والسنّة فحسب[3] وبحبس كلّ مَن جلس لدرس الكلام أو تدريسه. ويذهب المسعودي الذي راقه أنّ المتوكّل «أمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث» إلى حد اعتبار خلافته «أحسن أيّام وأنضرها، من استقامة الملك وشمل الناس بالأمن والعدل».[4] ولكنّ هذا الوصف لا يخلو من مسحة خياليّة، فالمسعودي يجد نفسه مضطرًّا إلى تقييد حماسته إذ يكتب: «وضعت له الدنيا فنال منها أعظم الحظ على إيثاره الهزل والمضاحك والأمور التي تشين الملوك» ولئن تساهل المؤرّخون المحدثون وقالوا «حياته الخاصّة لا تعنينا» فليس بوسعهم إلاّ أن يلاحظوا أنّه كان «فظًّا مسرفًا متقلّب المزاج».[5] ومن أكثر ما يلفت انتباهنا لدى قراءة الطبري قوله تكرارًا: «وغضب على... وغضب على...».[6]

غالبًا ما كان ندماؤه وحاشيته ضحايا نزواته. وإنّ هذه السمة من سمات طبعه لتفسّر، فضلاً عن تسنّنه الصارم (مبدئيًّا)، موقفه من النصارى. فموقفه هذا لا يصدر عن سياسة مدروسة وثابتة بقدر ما يصدر عن قرارات ودودة أو لدودة حسب

مزاج اللحظة الحاضرة أو تأثّره بفلان أو فلان. من ذلك أن تقلّباته في شأن ولاية عهده، وتفضيله أحد أبنائه تارة وتفضيله غيره تارة أخرى،[٧] جرّت العدواة في ما بينهم وأدّت في النهاية إلى قتله.

من المحال أن يجد المرء حبكة متواصلة الخيوط في خضمّ الأحداث التي عرفها عهد دام أكثر من خمس عشرة سنة كانت الاعتقالات والمصادرات من أهمّ معالمها. فقد «أهلك العلماء والكتّاب في زمانه، على قول صليبا،[٨] وحطّ مراتبهم وعادى العلم وأهله فاتّضعت العلوم في أيّامه، وقتل كثيرًا من الكتّاب واستصفى أموالهم وهدم منازلهم»، حتّى صارت المصادرة في هذا العهد سبيلاً مألوفًا للحصول على المال كلّما اشتكى بيت المال من القلّة.[٩]

ومن النصارى الذين ابتلوا بالمصادرة (وقد كان رهط من المسلمين عرضة لها أيضًا) نجد سليمان بن إبراهيم الجنيد[١٠] الكاتب، أخي أيّوب كاتب مسرور الخادم. فقد قبض على سليمان سنة ٨٤٧/٢٣٣ ـ ٨٤٨، وضرب حتّى أقرّ بسبعين ألف دينار، فسيق إلى بغداد ليخرج المبلغ من داره ثمّ أعيد إلى سامراء وحُبس. في السنة عينها، غضب الخليفة على نفر من موالي والد الوزير، وفيهم الهيثم بن خالد.[١١] وفي العام ٢٣٥/أواخر ٨٤٩، جاء دور أصحاب إيتاخ القائد الترّكيّ[١٢] في الحبس، وذلك من بعدما أُعدم سيّدهم، ومن بينهم قدامة بن زيد «النصرانيّ البغداديّ» كاتب ضياعه.[١٣] ويجب أن ننبّه هنا، مرّة أخرى، إلى أنّ نصارى ذلك الزمان لم يعدُّوا قدامة هذا شهيدًا. ففي العام ٨٥٠ كتب المفسّر إيشوع داد المروزي، أسقف الحديثة، تفسيره لآية من الإنجيل تتنبّأ بالاضطهادات، فلم يجد حتّى أيّامه أنّ النبوءة قد صحّت إلاّ في اضطهاد قديم اجتلبته على النصارى فعال بدعة متطرّفة.[١٤]

إجراءات تمييزيّة

ومع ذلك فقد أمر المتوكّل بتنفيذ إجراءات تمييزيّة تستهدف الذمّيّين بالذات من بين يهود ونصارى، وذلك في شوّال ٢٣٥/١٨ نيسان ـ ١٦ أيّار ٨٥٠. إلاّ أنّ المؤرّخين الذين يصفون هذه الإجراءات بإسهاب أو بإيجاز،[١٥] لا يوضحون

الظروف التي دعت الخليفة إلى هذا الأمر. النصّ نفسه لا يرشدنا إلى شيء، ولذلك نجدنا مضطّرين إلى الاستعانة بابن القيّم، الذي يعدّ متأخّرًا والذي ليس لديه إلاّ تفسير دائم واحد: لقد تكاثر الذمّيّون في الدواوين وزادوا على الحدّ، حتّى أزاحوا المسلمين وحلّوا محلّهم في خدمة شجاع، والدة الخليفة، وفي بطانة أهله وأقاربه. ويسمّي ابن القيّم منهم سلمة[١٦] بن سعيد الذي كان «[المتوكّل] يأنس به ويحاضره»[١٧] والذي افترى على قوم من المسلمين، فيما قيل ليهلكهم.

أمّا ما احتجّ به بين يدي الخليفة، على قول ابن القيّم، فهو أنّه يجب على المسلمين ألاّ يتّخذوا من المشركين أولياء لهم، بل يجب عليهم، على الضدّ من ذلك، أن يعاملوهم معاملة الأعداء وألاّ يستعينوا بهم في تدبير أمورهم لأن «[الله] جعل في المؤمنين... ما أغنى عن الاستعانة بالمشركين».

كان تكثُّر الكتّاب النصارى، في ما يبدو، هو الذي دفع المسلمين مرّة أخرى إلى الثورة عليهم. أمّا الذين كانوا يشتكون فهم كتّاب آخرون من المسلمين كانوا يشعرون أنّ النصارى يطمعون في إزاحتهم من أماكنهم، وهم أيضًا ناس من الشعب مظلومون كذلك الرجل الذي كان يلعن الخليفة في الطواف بالكعبة، والذي تجرّأ على أن يقول له عن الكتّاب النصارى: «خفتهم ولم تخف الله»، و«كان المتوكّل قد جعل في موكبه من يأخذ المتظلّمين ويحضرهم بين يديه على خلوة».

ولئن لم تكن الدواوين قادرة آنذاك على الاستغناء عن خدمات النصارى جميعهم، في مستقبل قريب، فقد كان المسلمون يحلمون بذلك منذ ما قبل ذلك بكثير، وقد كان من شأن إباء أهل السنّة والجماعة الذي استجاشته مناوءة الخليفة لأهل الكلام، أن يعزّز الحرص على إدارة المسلمين أمورهم بأنفسهم والتخلّص من الظلمة المكروهين.

يرى كاتب معاصر[١٨] في انصياع الخليفة لضغوط المسلمين واتّخاذه هذه الإجراءات التمييزيّة ضد النصارى «نتيجة [لسياسة] التخلّص السياسيّ». فهو يكتب (ما ترجمته): «كان [العبّاسيّون] مستعدّين لأن يستعينوا بأيّة جهة ليزيدوا شعبيّتهم. كان المتوكّل يحتاج إلى مساندة الشعب وعلماء أهل السنّة. ولذلك كان

عليه أن يعيد الاعتبار إلى بعض التدابير التمييزيّة ضد الذمّيّين ممّا عفا عليه الزمن، وهي تدابير سنّها أسلافه من الخلفاء حسبما كان يمليه نوع من الانتهازيّة لا أصل له في القرآن الكريم ولا في مبادئ الإسلام الأخلاقيّة».

أيًا كان نصيب أواخر هذه الجملة من الصحّة، هل يصحّ القول إنّ المتوكّل لم يكن يفعل سوى نبش بعض التنظيمات السابقة التي طواها النسيان؟

«الشروط العمريّة»

هنا يجب أن يعاد طرح مسألة ما سمّي «بالشروط العمريّة» ودرسها ثانية. نحن نعلم أنّ النقد التاريخيّ الذي أبطل نسبة القيود المفروضة على النصارى إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطّاب[١٩] لينسبها إلى عمر بن عبد العزيز، قد خطا الآن خطوة ثانية وصار يعدُّ «الشروط» وثيقة مزيّفة ترقى إلى القرن الرابع للهجرة. وقد لا نجدها للمرّة الأولى، وفي صيغة أقلّ تفصيلاً، إلاّ لدى ابن حزم الأندلسيّ.[٢٠] أليس من الممكن أن يكون النصّ قد خرج من بعض أروقة عصر المتوكّل، إن لم نقل بإيعازٍ منه؟ سنرى عن قليل كيف اهتمّ الخليفة (نفسه أو الفتح بن خاقان؟) بكتاب الجاحظ على النصارى...

لّما كانت هذه «الشروط العمريّة» مهمّة، ولم تصر إصالتها موضع شكّ إلاّ حديثًا (وكذلك، وبطريقة معكوسة، إصالة العهود التي منّ بها الخلفاء الراشدون، أو حتّى النبيّ نفسه، على النصارى)، ولّما كان هذا النصّ أصلاً لكلّ الإجراءات اللاحقة ضد النصارى فلنتفحّصه عن كثب.

صنّفت[٢١] الشروط[٢٢] على اختلاف الروايات، فئتين، في كلّ فئة ستّة شروط. الستّة الأولى تعدُّ مستحقّة لموافقتها روح الشريعة الإسلاميّة، وتهدف إلى حماية الإسلام ويؤدّي انتهاكها إلى نقض عهد الحماية المعقود للنصارى.[٢٣] هذه الشروط «المعطّلة» هي: الطعن على القرآن أو النبيّ، فتنة المسلم عن دينه أو التعرّض له في شخصه أو في ماله، إصابة امرأة مسلمة على سبيل النكاح أو الزنى،[٢٤] معاونة أعداء الإسلام.

الشروط الستّة الأخرى «مستحبّة» ولئن لم تنسب إلى عمر بن الخطّاب فلأنّها معترف بتأخّرها وبصدورها عن الفقهاء، كما أنّ خرقها لا يبطل العهد.

وهي[٢٥] مع بعض الفروق في التفاصيل:

- الشروط المتعلّقة بتغيير أزيائهم بلبس الغيار وشدّ الزنار.[٢٦]
- حظر دقّ النواقيس[٢٧] أو الجهر بالتراتيل.
- عدم تجاوز مباني المسلمين في العلوّ.[٢٨]
- إخفاء الخمر والخنزير و... الصلبان عن الأنظار.
- التستّر في الجنائز وعدم الجهر بالندب والنياحة.
- حظر ركوب الخيل، ويباح لهم ركوب الحمير والبغال فحسب[٢٩] ويجب أن تكون الركاب من خشب وأن تتّخذ البراذع بدلاً من السروج.

وفي وسعنا أن نضيف إلى الشروط المتعلّقة بالعلامات المميّزة عن المسلمين، حظر التسمّي بأسماء المسلمين أو التكنّي بكناهم أو التلقّب بألقابهم.[٣٠]

ولكن أيًا يكن الأمر بالنسبة إلى أصل «الشروط العمريّة»، فلا شكّ في أنّها كانت شديدة الوطأة على النصارى، ودفعت بالعديد منهم إلى اعتناق الإسلام. ربّما كان علينا، من وجهة نظر المؤرّخ الحديث، أن ننسبها إلى نفسية ذلك العصر، وأن نقارنها مثلاً بالقيود التي فرضها أمراء أوروبا النصرانيّة على اليهود في القرون الوسطى، بما فيها قيود الباباوات عليهم في «الغيتو» بروما، قبل أن نقدم على إدانتها.

IX الجاثليق تاذاسيس (٨٥٣ ـ ٨٥٨)

ولكن، لنعد إلى حبكة التاريخ. في التاسع من تشرين الثاني سنة ٨٥٠، مات الجاثليق إبراهيم الثاني عن جثلقة دامت ثلاثة عشر عامًا، أثر عنه فيها أنّه كان «عاقلا قليل العلم متواضعًا»، وكان مع ذلك «كثير الرحمة» للمستضعفين. و«في أيّامه عاني النصارى شدائد عظيمة»، على قول ابن العبري، فقد أدّت إجراءات

المتوكّل إلى تهديم خمس كنائس بالبصرة أيضًا. كما أنّ بعض المقابر قد «سوّيت بالأرض لكي لا تعلو قبور النصارى على قبور المسلمين».

لم يكن انتخاب خلف لإبراهيم أمرًا يسيرًا. فهذه المرّة أيضًا، قام العلمانيّون النصارى بدور حاسم. أُجريت دورتان أوّليّتان بتدبير من أطبّاء الخليفة: بختيشوع صاحب الحظوة الكبرى، يوحنّا بن ماسويه، الذي صادفناه من قبل، وطبيب ثالث هو ابن الطيفوري. كان هذا الثالث، واسمه إسرائيل بن زكريّا، طبيب الفتح بن خاقان.[٣١] وكان سليل أطبّاء من كسكر،[٣٢] صادفنا منهم رئيسهم عبد الله بن الطيفوري[٣٣] أيّام الهادي.

ولكن لّما مات الاثنان اللذان زكّاهما الأطبّاء، الواحد تلو الآخر قبل السيامة، قدّم الكتّاب مرشّحهم في الدورة الثالثة. هنا تدخّل إبراهيم بن نوح الأنباري وعثمان بن سعيد. لا نعرف عن عثمان هذا إلاّ أنّه كان صاحب بيت المال[٣٤] على ما يقوله عنه ماري. أمّا إبراهيم حفيد أبي نوح رفيق طيماثاوس وصديقه، فمعروف أنّه كان كاتب إبراهيم بن المهدي.[٣٥] وقد مات مرشّحهما أيضًا.

في الدورة الرابعة توافق الأعيان على القبول بما يراه إبراهيم بن نوح. إلاّ أنّ رأيه لم يعجب بختيشوع الذي كان له مرشّح آخر. فتنافس الكاتب والطبيب في السعي لدى الخليفة ليرجّح كلّ منهما كفّة صاحبه: فغلب بختيشوع وانتخب صاحبه تاذاسيس،[٣٦] مطران جنديسابور، مدينة آل بختيشوع. وقد وافق الخليفة على انتخابه «وسرُّ النصارى بانعطاف المتوكّل» (كذا!).

ما كاد تاذاسيس يسام جاثليقًا في السنة الخامسة لخلافة المتوكّل حتّى انبرى معارضوه، إبراهيم بن نوح وأصحابه، يشهّرون به لدى الخليفة ويتّهمون بختيشوع بالغشّ في صفته. ولم يزل المفترون يفتّنون في الكيد حتّى توصّلوا إلى حبس الجاثليق بعد شهر من سيامته (سنة ٨٥٣) ولم يكتفوا بذلك حتّى جرّوا سخط الخليفة على بختيشوع.

وداعًا يا بختيشوع

قبل أن نشهد أفول نجم من أكابر النصارى الذين نعموا بحظوة الخلفاء،

لنلق نظرة أخيرة على سليل هذه الأسرة الشهيرة، على بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس بن بختيشوع العيلامي، الذي تذكّرنا أسماء آبائه بعهود الأبّهة الباذخة. وقد غُمر بختيشوع نفسه، منذ عودته إلى خدمة المتوكّل، بالخلع التي خلعها عليه الخليفة، وبالجاه وكثرة الأموال والضياع والعبيد والإماء حتّى صار «يعادله».(٣٧) كان يجالس الخليفة على سدّة الملك. وقد كان قريبًا منه في بعض الأيّام «وكان عليه دراعة ديباج روميّ وقد انفتق ذيلها قليلاً فجعل المتوكّل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتّى بلغ إلى حدّ النيفق. ودار بينهما كلام اقتضى أن سأل المتوكّل بختيشوع: «بماذا تعلم أنّ المشوّش يحتاج إلى الشدّ والقيادة؟» لم يتردّد بختيشوع في الجواب: «إذا بلغ فتق دراعة طبيبه إلى حدّ النيفق شددناه». فضحك المتوكّل لما في رد طبيبه من سرعة البديهة، وأمر بأن يحمل إليه ثوب أجل قدرًا.(٣٨)

ولّما كان بختيشوع في ذروة الجاه كان ينتقل من داره إلى قصر الخلافة بعربة من خشب الأبنوس وكان في خدمته ما يقارب الألف شخص.

كان ينغمس في المجون من مغرب الشمس حتّى منتصف الليل، على زعم ابن العبري، الذي يقسو على النساطرة عادة لكونه من اليعاقبة. وكان، في ما قيل، يعدّ نفسه فوق قوانين الكنيسة، واتّخذ لنفسه امرأتين ولدت له إحداهما جبرائيل والأخرى يوحنّا الذي صار مطران الموصل في ما بعد.

ولكن طبيبنا كان ينهض عند منتصف الليل فيصلّي ومن حوله الخصيان السود. وبعد الصلاة كان يجلس على سريره ويقرأ الإنجيل حتّى الفجر. وكان ينفق كلّ ليلة خمس مئة دينار، في ما روي، ثمن شموع وزيت وطيوب. وفي الصباح كان يركب دابّته أو يرتقي عربته ويذهب إلى خدمة المتوكّل.

هل كانت نكبته عقوبة من الله على سوء مسلكه، كما يظنّ ابن العبري؟ أم على مكره في قضيّة اختيار الجاثليق كما يرى ماري؟ أم أنّه لم يقتصر على الكيد للموالي و«الأحرار» بل تعدّى ذلك إلى المؤامرة على الأمراء و«السادة الأقمار» كما جاء في رجز لأعرابيّ يذكره الطبري؟ على أيّة حال «غضب» الخليفة مرّة أخرى، وعلى بختيشوع هذه المرّة. ربّما كانت المناسبة وليمة أولمها الطبيب للخليفة وأثارت غيرته

لجلالتها؟ فقد كان بختيشوع «أمر طبّاخيه بأن يعملوا خمسة آلاف جونة، في كلّ جونة باب خبز سميد، دست رقاق وزن الجميع عشرون رطلاً، وحمل مشوى وجدي بارد، وفائقة ودجاجتان مصدّرتان، وفرخان ومصوّصان، وثلاثة ألوان، وجام حلواء».[٣٩] هذا عدا عن العطور والرياحين وشيء كثير من الثلج المجلوب لتبريد المشروبات، لأنّ الوقت كان صائفًا.

أخذ منه كلّ شيء بجريرة سخط الخليفة.[٤٠] حتّى الخشب والفحم والخمر التي كانت بداره اشتراها رجل من الأعيان اسمه حسين بن مقلد بستّة آلاف دينار، ثمّ باعها باثني عشر ألفًا، كما عاد ببيع ضياعه التي صودرت بعشرة ملايين درهم[٤١] على بيت المال.

ولّما افتقر بختيشوع هام على وجهه بالبلاد، حتّى مات سنة ٢٥٦/٨٧٠[٤٢] منفيًّا بالبحرين، وخلّف ولدين وثلاث بنات.

إضطهاد جديد (٢٣٩/٨٥٣)

وقد أمر المتوكّل، في فورة غضبه على طبيبه، بحبس تاذاسيس الجاثليق، وبإعادة تطبيق أحكام العام ٢٣٥/٨٥٠.[٤٣] كما أمر بتهديم دير يزدفنه بسامراء[٤٤] وأقطعه محمّدًا بن جميل صاحب الشرطة ليبني به دورًا للسكن. نبشت عظام إبراهيم الثاني الجاثليق (ت ٨٥٠) وطرحت في النهر الذي صار يرى عليه مدّة شيء كالسراج، في ما يروى. وطرد القساوسة والشمامسة من سامراء لكي لا يقوموا على دفن النصارى أو يصلّوا بهم، ولا يعلنوا اسم الجاثليق في سفر الأحياء. وقد هدمت أيضًا بضعة كنائس وأديرة، منها دير مار قرياقوس الذي كان يُحتفى فيه بعيد الشعانين، وكذلك هيكل مار يونان الأنباري (ربّما بسامراء؟ أو ربّما كان من بناء آل الأنباري؟)

وطبّقت التدابير التمييزيّة ثانية: مخالفة زيّ الثياب ولا سيّما الزنّار وحظر ركوب الفرس. وحرّم على النصارى أن يخرجوا إلى الأسواق يوم الجمعة، كما حرّم على أولادهم أن يدرسوا في كتاتيب المسلمين.[٤٥] وروعي أن لا تكون لدورهم

نوافذ على مسجد للمسلمين وفرض عليهم أن يسمّروا على أبوابهم صورة شيطان من خشب، إلخ.[٤٦] وعلى هذا يعلّق ماري بقوله: «وتفتّحت على النصارى المحن من كلّ وجه تأديبًا من الله وتمكّن الحسّاد منهم بتغيّر النيّة في بختيشوع».[٤٧]

ولعلّ فترة الاضطهاد هذه شهدت خروج أكبر عدد من النصارى من دينهم ودخولهم في الإسلام. إلى تلك الفترة يعود إسلام نفر من الكتّاب النساطرة الذين ترقّى بعضهم إلى رتبة الوزارة ومنهم عيسى بن فروخان شاه، أحمد بن إسرائيل الأنباريّ، وأخوين من بني مخلد الدورقنائي.[٤٨]

الهجوم النفسيّ

لم يكن يكفي المتوكّل أن يتملّق العلماء بالحطّ من موضع النصارى، بل كان لا بدّ له، لإنجاح[٤٩] الحملة المؤيّدة لأهل السنّة والجماعة، من أن يحارب ميل العامّة إلى النصارى وتعاطفها معهم. فقد «صارت النصارى أحبّ إلى العوام من المجوس وأسلم صدورًا عندهم من اليهود وأقرب مودّة وأقل غائلة وأصغر كفرًا وأهون عذابًا». وكانت العامّة تعاني من شعور بالنقص إزاء النصارى، فهي تنسب إلى البيزنطيّين العلوم والعبقريّة كلّها التي وجدها العلماء والحكماء في ما نقل من كتب اليونان، والعامّة تستعظم مناصب النصارى، وتقرّ بثرائهم العريض. يصدر هذا التحليل الوجيه، على ما فيه من تهكّم، عن كاتب جامع وناثر لامع هو الجاحظ الذي يعدُّه شارل بللا الموجِّه الخفيّ لسياسة المتوكّل،[٥٠] أو على الأقلّ مستشاره غير الرسميّ «المكلّف بإعلان القرارات الحكوميّة ونشرها، وتعميم الأفكار الدينيّة المستحسنة في فترة مخصوصة، والدفاع عن آل العبّاس والإسلام والعرب».[٥١]

وفي وسعنا أن نلاحظ أنّ الجاحظ لم يخدم الدعاية الرسميّة إلاّ متى لم يكن فيها مذهبه في الاعتزال عرضة للنقد.[٥٢] وربّما حقّ لنا أن نذهب إلى أبعد من هذا لنتساءل: ألم يحتل الجاحظ على حماته الذين كانوا يمدّونه بالمال لقاء الدعوة لهم؟ هل كان هذا العقل المستنير المولع بالفنون، الأميل إلى التكبّر منه إلى التعصّب «من أكذب الأمّة» كما اتّهمه ابن قتيبة[٥٣]؟ فمن علائم «ازدواجيّته» أنّ هذا الكاتب

الواسع الأفق تحوّل فجأة إلى داعية للمذهب الشافعيّ ليخطب ودّ المتوكّل الذي كان أوّل مَن اعتمده.[٥٤] وربّما كان قد تعمّد المبالغة في التعبير في رسالة «الردّ على النصارى». فقد أخذ عليه ابن قتيبة أنّه «يعمل كتابًا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوَّز في الحجّة كأنّه إنّما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين».[٥٥]

وهكذا يتبيّن لنا أنّ أعمال الجاحظ تحتاج إلى إعادة قراءة من هذه الزاوية، وكذلك التمييز بين ما هو أصيل منها في نسبته إلى أبي عثمان وبين ما هو منحول. وهنا لا بدّ من ملازمة جانب الحيطة القصوى في استنتاج النتائج والالتفات إلى تنبيه شارل بلّلا:[٥٦] «إنّ الميل إلى اعتبار الجاحظ ألعبانًا مقتدرًا على الدفاع عن القضيّة وضدّها بالبراعة والحميّة نفسيهما يقود نقّاد الأدب ومؤرّخيه إلى سوء تقويم مقدرته، وإلى القبول ببعض العناوين المتناقضة من دون فحص ولا تمحيص». فمن ذلك أنّه تنسب إلى الجاحظ رسالة في ذمّ أخلاق الكتّاب وأخرى في مدح الكتاب. والحقّ أنّ شارل بلّلا قد بيّن، في هذه الحالة المخصوصة، أنّ النصّ الأوّل ليس إلاّ «تلفيقًا جزئيًا» وتوليفًا متأخّرًا عن الجاحظ. أمّا الثاني فيُعتقد أنّه مفقود.

تبدو رسالة الردّ على النصارى وكأنّها تهدف إلى تغيير صورتهم في أذهان العامّة، مع أنّها، بعد التأمّل، أقرب إلى أن تكون هجومًا مضاداً منها إلى أن تكون تفنيدًا. فهي تتميّز عن سائر الكتب السجاليّة التي وضعها المسلمون في أنّها لا تستهدف النصرانيّة وعقائدها، بل تستهدف النصارى أنفسهم بطريقة أصيلة، وذلك في سعيها إلى أسقاط الهالة الأسطوريّة[٥٧] التي تحيط بهم، وإبطال المفعول المحلّل لهؤلاء النصارى، من فلاسفة وأطبّاء وكتّاب وفلكيّين، ممّن أوصلوا كتب البدع الخطرة إلى الأغنياء والظرفاء والمجّان الذين لولا ذلك «لما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم».[٥٨] ولئن كان بوسع المرء أن يشتمّ في هذه الجملة نفحة من لهجة المنافقين، فإنّها مع ذلك تعبّر بوضوح عن مشاعر ردّة الفعل السنيّة عند المتوكّل، تلك الردّة التي تشدّد على الجانب السلبيّ للترجمات، أي على ما جلبته من عناصر غريبة عزّزت تيّارات الشعوبيّة والزندقة.

لم يكتف الجاحظ بالردّ على النصارى في مساندته جهود الخليفة. فهو في كتاب

البخلاء[٥٩] يهاجم الأطبّاء النصارى بالسخرية، متهكّمًا على الطبيب المسلم المغلوب على أمره أسد بن جاني الذي لا يجد القبول من الناس، لأنه مسلم، لأنّ اسمه أسد لا صليبا أو جبرائيل أو بيرا، ولأنّه يكنّى بأبي الحارث لا بأبي عيسى أو بأبي إبراهيم، ولأنّ لهجته عربيّة لا كلهجة أهل جنديسابور.

أمّا الكتّاب فإن الجاحظ (أو بالأحرى، أحد المصنّفين المتأخرين، قبل ٨٦٩، حتمًا) لا يميّز فيهم بين المسلمين والنصارى (فكلّ الذين يذكرهم تقريبًا مسلمون)، وهو يذمّ إجمالاً أصحاب مهنة يعدُّها غير لائقة: «فإن [الخطّ] لو كان حظًّا ما حُرِمَه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم». إنّها مهنة كريهة لقوم تبّع أذلاّء. وقد كان أوّل من ارتدّ عن الإسلام، كاتب رسول الله «فأحكام [الكاتب] أحكام الأرقّاء، ومحلّه من الخدمة محلّ الأغبياء... ثمّ هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف والسنام الأعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسرف» والكتّاب يوحون للناس بالمهابة وفيهم كلّ النقائص بقطع النظر عن الأخلاق الذميمة التي تعيب الكثير منهم. ويشير الكاتب بخاصّة إلى الأثرة وقلّة التضامن في ما بينهم: «[فهم لأشكالهم] مذلون، ولأهل [صنائعهم] قالون» وهذا ممّا نصادفه كثيرًا جدًّا في صفوف الكتّاب النصارى.

لم يكتفِ المتوكّل بتكليف الجاحظ كتابة الردّ على النصارى، بل أراد مصنّفًا سجاليًّا أرصن وأبقى، فالتفت إلى يهوديّ أسلم منذ عهد المعتصم هو عليّ بن سهل الطبري[٦٠] كاتب المازيار. ففي كتاب «الدين والدولة» يذكّر عليّ بن سهل النصارى بالحال التي صاروا إليها لدى قبولهم بأن يكونوا من أهل «الذمّة».[٦١] وقد كتب أيضًا كتابًا في الردّ على النصارى لم يحفظ إلاّ بعضه.

وحوالي الحقبة عينها، أي في ٨٥١ وإبّان خلوّ كرسي الجثلقة جاءت إلى بغداد، على ما قيل،[٦٢] بعثة بيزنطيّة للمناظرة في الأمور الدينيّة. وكانت المسائل التي تناولتها المناظرة عدم التزام النصارى بتعاليم الإنجيل (كغفران الإساءة، والزهد في أعراض الدنيا، إلخ)[٦٣] وقد كان موضوع رفع الصوت عاليًا في الصلاة من الموضوعات التي كانت تناقش في تلك الحقبة.[٦٤]

إذا تفكّرنا في مَن توسّط لإيصال رسالة الجاحظ في الردّ على النصارى[٦٥] إلى الخليفة المتوكّل، جاز لنا أن نتساءل عمّا كان دور الفتح بن خاقان[٦٦] وبني خاقان جملة في ما اصطلح على تسميته «بردّ الفعل السنّيّ». هل اقتصر تأثير الترك ونفوذهم لدى الخلفاء، ولا سيّما منذ عهد المعتصم على ثقل سلاحهم؟ ألم يكن لهم تأثير فكريّ أيضًا؟[٦٧] أليس يجوز أن يكون انتصار المذهب السنّيّ (مذهبهم السنّيّ) انتصارًا لهم؟ ثمّ أليس يجوز لنا أن نرى فيه ردًأ تركيًا على الشعوبيّة التي غلب عليها النفوذ الإيرانيّ؟ من حقّنا أن نحلم في ما كان سيصير إليه (أو يبقى عليه) إسلام عربيّ نقيّ غير متأثّر بهذه المؤثّرات. في الحال التي بين أيدينا، لم يدرس بعد دور بني خاقان دراسة وافية من هذه الوجهة لنتمكّن من الجواب عن هذا السؤال.[٦٨]

صحيح أنّ المعتصم قد كان ترك بغداد، سنة ٨٣٥ ـ ٨٣٦، لأسباب سياسيّة، أهمّها التنافس بين العسكر التركيّ المجلوب ممّا وراء النهر وبين بورجوازيّة بغداد العربيّة المدعومة من قبل جند خراسان. بيد أنّه لم يكن للعقيدة أن تخرج سالمة من البوتقة التي تكوّن فيها مزيجها. وكما أعقبت أزقّة بغداد الضيّقة المتعرّجة (والشاعريّة) شوارعُ سامراء[٦٩] العملاقة الباردة الجافّة والمخطّطة بدقّة هندسيّة، كذلك كان إسلام عصر المتوكّل يؤذن بالإصلاح الذي سيأتي بعد قرنين من الزمان على يد السلاجقة (الأتراك أيضًا).

إنّ الإسلام العربيّ الذي تخلّص من تأثير البيزنطيّين عندما غادر دمشق، قد لاقى اليونان ثانيةً في ترجمات بيت الحكمة، وقد صار يتراوح، أسوةً بالخلافة، ومنذ بروز تحدّيات الفلسفة بين الكتلتين الإيرانيّة والتركيّة.

عودة تاذاسيس

ظلّ تاذاسيس الجاثليق محبوسًا[٧٠] ثلاث سنوات ونصف ببغداد أوّلاً، ثمّ بسامراء. وقد أُحضر يومًا بين يدي الخليفة لأنّ التهمة اشتدّت عليه وربّما صار يستحقّ القتل. وهاكم القصّة: كان بسامراء طبيب نسطوريّ اسمه سرجيس. واتّفق أن دبّ بينه وبين أطبّاء آخرين من جماعته نزاع، فغادرهم وانضمّ إلى أتباع أريوس.[٧١] وكما جرت العادة مع أمثاله من المارقين، قذف أهل ملّته القديمة واتّهم

الجاثليق بمكاتبة قيصر الروم، والدعاء له، واطلاعه على شؤون مملكة العرب إلخ.
فأمر المتوكّل بتاذاسيس فأُحضر بين يديه، فاستجوبه. ولّما أنكر الجاثليق التهم أراده الخليفة أن يقسم على قول الحقّ، «فأبى [الحبر] خوفًا لئلاّ يخالف كتاب الشريعة» التي تمنع من القسم. ربّما أعجب الخليفة بإباء الرجل فلم يلتفت إلى الاتّهام بعد ذلك وأمر بالجاثليق فأُعيد إلى الحبس.

في أثناء هذه السنوات المظلمة اضطرّ النصارى أن يصبروا على قهر الإجراءات التمييزيّة ومضضها وعلى أكثر من ذلك أحيانًا. ففي العام ٢٤١/٨٥٥، ظاهر نصارى حمص تمرّدًا محليًّا فاستحقّوا بذلك معاملة متميّزة جدًّا لدى قمع التمرّد: هدمت بعض الكنائس.(٧٢)

وفي العام ٢٤٢/شباط ٨٥٧، ارتدّ إلى النصرانيّة عطّار ببغداد فأُقيم عليه حدّ الشرع على المرتدّ، ثمّ أحرق جسده أمام باب العامّة بقصر الخلافة.(٧٣)

الفرج بعد الشدّة

في العام ٢٤٣/أيلول ٨٥٧ مات يوحنّا بن ماسويه(٧٤) الطبيب الجديد الأثير عند المتوكّل، فأمر الخليفة بأن تقام له جنازة لائقة، فَذُكِّر (وهل كان قد نسي؟) أنّ كل قساوسة النصارى قد طردوا من سامراء. عندئذٍ انقلب الخليفة المتقلّب على الفور: يفرج عن الجاثليق، يؤذن للقسوس والشمامسة بدخول المدينة وحتّى البقاء فيها، و. . . زالت الشدّة.

بعد الجنازة الفائقة التمس كتّاب الخليفة وأطبّاؤه (فقد كان بعضهم لا يزال بالقصر)(٧٥) الإذن بعودة الجاثليق إلى كرسيه ببغداد. فأمر المتوكّل أمير بغداد بإرسال الحرس لمواكبة الحبر، «فأدخل بغداد أحسن دخول بالإكرام العظيم».

وقد جرى أمر آخر عزّز مشاعر المتوكّل الطيبة (الجديدة) نحو النصارى. فلمّا قدم إلى دمشق سنة ٢٤٣/آذار ٨٥٨(٧٦) طرحت في طريقه الرياحين وعقدت القباب «فلمّا اجتاز المتوكّل تحتها استحسنها» وسأل الفتح بن خاقان عن اسم منظّم الحفل، فقيل له إنّه سرجيس، مطران نصيبين للمشارقة من السريان الذي اتّفق أن

كان بالمدينة. أمر له الخليفة على الفور بعشرة آلاف درهم واستفسر عن طريقة أفضل لمكافأته: أليس من الممكن عزل تاذاسيس وتعيين سرجيس جاثليقًا؟ فبيّن الفتح بن خاقان للخليفة أنّ ذلك لا يكون عند النصارى،[٧٧] فاقتنع وفي نفسه من ذلك شيء، وطلب إطلاعه على موت تاذاسيس متى مات.

في انتظار ذلك تحسّن حال النصارى، وصار الأكابر يقصدون نصيبين لزيارة المطران الذي يحبّه الخليفة. ولم يدع تاذاسيس سرجيس ينتظر الجثلقة طويلاً، فمات سنة ٢٤٤/٦ تشرين الثاني ٨٥٨ عن جثلقة دامت خمس سنوات وثلاثة أشهر، قضى منها ثلاث سنوات ونصف في السجن.

نحو هذا التاريخ، جاء دور اليعاقبة في الانقسام. فقد اختلف باسيليوس الثاني مطران تكريت مع بطريركه يوحنّا الخامس. وحسب أفضل التقاليد المتّبعة (أو أرذلها) تبادل الحبران التهم وحمل النزاع إلى الخليفة، فحكم لصالح البطريرك وأحلّ ملكي صادق[٧٨] محل باسيليوس.

X سرجيس الأوّل

تأخّر انتخاب سرجيس انتخابًا قانونيًا بالرغم من أمر الخليفة بتعيينه. وقد أثار بعض الأحبار الجدال القديم: هل يجوز لمطران نصيبين أن يصير جاثليقًا؟ ألم يحظر ذلك لأن صوما مطران نصيبين كان السبب في قتل بابي الجاثليق، ولأنّ يوحنّا الداسني، مطران نصيبين كان قد خلع الجاثليق حنان يشوع... مهما يكن من أمر الأساس القانونيّ لهذا الفيتو[٧٩] فقد جاء أمر الخليفة المتكرّر يجبر الآباء على تجاوز الحظر وجرت سيامة سرجيس سنة ٢٤٦/٢١ تموز ٨٦٠.

كان المتوكّل قد بدأ، منذ بضعة أشهر، ببناء قصره الجعفريّ في الموضع المسمّى بالماحوزة، وبناء المتوكليّة (سامراء الجديدة) إلى الشمال من المدينة الأصليّة.[٨٠] وكأنّما ليبعد عن بغداد أكثر.

في هذا الوقت برز من بين النصارى ذاك الذي ائتمنه الخليفة على نفقات بناء القصر الجديد: دُلَيل بن يعقوب كاتب الأمير التركيّ بُغا الصغير، الملقّب بالشرابي.[٨١] لنلاحظ عابرين وجود سرجويه[٨٢] الطبيب في بطانة الأمير التركيّ.

حنين ابن إسحق

في هذه الفترة، نجد جواب حنين بن إسحق (٨١٠ - ٨٧٣) على يحيى بن المنجم المسلم.[٨٣] فقد كان ابن المنجم قد أفرغ جهده في تقديم النصح لحنين ليدخل الإسلام. وعلى إثر عدّة لقاءات، ولا سيّما عند أبي الحسن البرمكيّ، كتب ابن المنجم كتاب البرهان[٨٤] الذي كان يعدُّه هو نفسه بيّنًا وقائمًا (في ما كان يعتقد) على معقوليّة العقل الذي كان النصارى أنفسهم قد أدخلوه إلى عالم الإسلام، لما نقلوا إليه كتب أرسطو.[٨٥] أمّا قسطا بن لوقا الملكاني الذي تلقّى نسخة من الكتاب أيضًا، فيثني على هذه المبادرة قائلاً: «[إنّك] قد رُمتَ سبيلاً والتمستَ طريقًا لم يَرُمها أحد قبلك ممّن تكلّم في الفنّ الذي تكلّمت فيه. فقد كان مع أمير المؤمنين (رضي) قوم من أهل الكلام والعلم بالمنطق جماعة... وما بلغنا أنّ أحدًا منهم رام أن يبيّن الحجّة في دينه ببرهان هندسيّ...». على أنّ قسطا يجد العيب الصوريّ في هذا البرهان ويبيّنه في صبر وأناة. أمّا حنين فإن جوابه القصير ينمّ عن ضيق صدره بإصرار[٨٦] صديقه المسلم على محاولة إقناعه بحقيقة الإسلام. وهو لا يتردّد (وهذا ما لا يقع إلاّ نادرًا في علم المنطق التقليديّ) في إنكار المقدّمة الكبرى:[٨٧] و«أنا لم أقرّ لك قطّ أنّ الكتاب الذي جاء به صاحبك حقّ». وقد استقوى حنين بصداقته وبمكانته الاجتماعيّة، فتجرّأ على سرد قائمة من ستّة أسباب ربّما قادت، من وجهة نظره، إلى ما يسمّيه «قبول الباطل»: «أوّلها أن يضطرّ القائل مخاطبه إلى أن يقبل منه ما يقوله من غير إرادته ولا اختياره. والثاني أن يكون الإنسان في ضيق وشدّة فينتقل منها إذا لم يقدر على احتمالها إلى ما يرجو منه السهولة والسعة. والثالث أن يؤثر العزّ على الذلّ والشرف على الضعة والقوّة على الضعف. والرابع أن يكون صاحب الكلام خبيثًا، محتالاً في القول فيموّه به ويطغي مَن يدعوه إليه. والخامس أن يكون بين قوم كثيري الجهل فيستعين بجهلهم وقلّة آدابهم، على ذلك. والسادس أن يكون بين المدعوّ وبين غيره نسب طبيعيّ. فلا يحبُّ قطع ذلك النسب في ما بينهما».[٨٨]

بإمكاننا أن نعجب بالحريّة التي يتمتّع بها حنين إزاء محاوره والتنويه في الوقت نفسه «بتسامح» ابن المنجم، مع أنّ الطبيب النصرانيّ يتحاشى «تطويلاً وتهجينًا

يغضب منها». ولكنّنا نشعر، مع ذلك، بسأم عقل متفوّق يرى النصرانيّة تتهافت من حوله للأسباب المذكورة كلّها. لذلك ربّما رأيناه يختم رسالته إلى ابن المنجم بقوله: «وما أشكّ، مع نبلك وفضلك أنّه تبيّن لك (بما قد ذكرتُه واختصرت فيه) وجه الأمر وجليّته. ويرشدك الإقناع وينهاك عن التعب والفحص وتعرف قصد مَن ينصح صديقه بعقل ومعرفة والله يرشد إلى الصلاح». لم يكن حنين يرجو دعوة محاوره ابن المنجّم إلى اعتناق النصرانيّة وإن كان يحاول على الأقلّ أن يقنعه بصرف النظر عن الإلحاح في دعوته إلى الإسلام.

ولكن الطبيب النصرانيّ كان يعاني بعض المشاكل داخل طائفته. فمن غير أن يعرف تاريخ الحادثة بالضبط، يذكر المؤرّخون قصّة الخلاف بين حنين وبين بختيشوع أو إسرائيل الطيفوري.[٨٩] فقد أبدى حنين مشاعر عداء للإيقونات ربّما تحصّلت لديه إبّان إقامته في بلاد الروم،[٩٠] فشكاه بختيشوع أو الطيفوري إلى الخليفة (وإذا سمّي في المصادر فهو المتوكّل) الذي ترك أمر البتّ في عقوبته إلى الجاثليق. وقد قيل أحيانًا إنّ هذا الجاثليق هو تاذاسيس وقيل إنّ تاريخ الحادثة هو سنة ٢٤٠/٨٥٤، والحقّ أنّ تاذاسيس كان بالسجن في هذا التاريخ.

وإنّني لأميل إلى رواية صليبا وابن العبري اللذين يجعلان القضيّة في جثلقة سرجيس (٨٦٠ ـ ٨٧٢). ولئن كان لا بدّ للقصّة من أن تجري في عهد المتوكّل، فالأغلب أن تكون في السنة الأخيرة من خلافته، وأن يكون المتّهم (بكسر الهاء) إسرائيل الطيفوري.

أمّا ما ينسبه ابن العبري إلى حنين من أنّه «قطع زنّاره» فليس لهذا إلاّ معنى واحدًا: إنّه قد أسلم.[٩١] ولكن الملاحظ أنّ المؤرّخين الأخرين، حتّى المسلمين منهم، لا يذكرون هذا الأمر. فقد مات حنين على النصرانيّة سنة ٢٦٠/٨٧٣.

النصارى واغتيال المتوكّل

عندما «انتقم الله من [المتوكّل] وأرسل عليه بعض جنده الواصلين إليه فقتله في فراشه وخلّص المؤمنين من شرّه»[٩٢] لم يكن للنصارى إلاّ دور ثانويّ في القضيّة.

في أوّل الأمر اشتمّت امرأة تركيّة رائحة المؤامرة وأرادت إبلاغ المتوكّل. ووقع الكتاب الموجّه إلى الفتح بن خاقان بين يدي كاتبه أبي نوح عيسى بن إبراهيم بن نوح بن أبي نوح الأنباري،(٩٣) فأطلع أبو نوح سيّده الذي وافقه على أن البلاغ ليس جديًا وقرّر ألاّ يُطلع المتوكّل عليه. والواقع أنّ الفتح قد قتل مع الخليفة.(٩٤)

في أواخر أيّام الخليفة نرى من حوله طبيبيه النصرانيّين ابن الأبرش(٩٥) وإسرائيل بن زكريّا الطيفوري.(٩٦) كان احترامهما المتملّق للمتوكّل بعيدًا جدًّا عن منادمات رجل مثل بختيشوع: كانا يوافقان مثلاً على الطبق الذي يروق الخليفة.

قُتل المتوكّل غيلة بيدي ابنه المنتصر وغيره من المتآمرين في ١١ كانون الأوّل من العام ٨٦١،(٩٧) وكانت مدّة خلافته حوالي خمس عشرة سنة.

الحواشي

(١) Cl. CAHEN, **La changente portée sociale**, p. 18-19

(٢) الطبري، ج ٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٠.

(٣) LAOUST, **Schismes**, p. 111-112

(٤) مروج، الفقرة ٢٨٧٤ و٣٤٥٦، التنبيه، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(٥) E.I.(1), III, col. 839-840 par K.V ZETTERSTEEN

(٦) يلاحظ كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ومعاصر المتوكّل (ص ٩٥): «ومن أخلاق الملك سرعة الغضب وليس من أخلاقه سرعة الرضى» و(ص ٧٣) «وليس في الأرض نفس تصبر على مضض الحقد، ومطاولة الأيّام صبر الملوك». من ذلك كانت هذه النصيحة (ص ٦٠) ومن أخلاق الملك السعيد أن لا يعاقب وهو غضبان، لأنّ هذه حال لا يسلم معها من التعدّي والتجاوز لحد العقوبة». ولكن هل كان المتوكّل يتعرّف نفسه في هذه الصورة، هذا إذا عرف بها؟

(٧) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٨، يوضح أنّ المتوكّل ساق ولاية العهد إلى المعتزّ بدلاً من المنتصر، حبًّا بقبيحة، أم ولده.

(٨) ص ٧١.

(٩) S. BOUSTANY, **Ibn al-Rumi**, P. 43-44

(١٠) الطبري، ج ٣، ص ١٣٧٨، الكامل، ج ٧، ص ٣٩.

(١١) الطبري، الموضع نفسه.

(١٢) Vizirat, p. 272-273

(١٣) الطبري، ج ٣، ص ١٣٨٦.

(١٤) Les Borboriens, **Cf. The Commentaries of Išo'dad of Merw**, ed. M.D. GIBSON(Cambridge 1911-1913) I, p. 270

(١٥) النصوص المفصّلة، الطبري، ج ٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٤ (مختصر في الكامل، ج ٦، ص ٥٢)، ابن القيّم، ص ٢١٩ - ٢٢٤، ماري، ص ٧٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٧، صليبا، ص ٧١، الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٤.

(١٦) وأصله من الأنبار، ونجد قصّة ارتقائه إلى هذه الرتبة في كتاب الفرج بعد الشدّة للتنوخي، ج ٣، ص ١٠٠ - ١٠٤. ولّما كان كاتبًا لدى شجاع أم المتوكّل قدّم للخليفة إفطارًا بقيمة ٣٠٠٠ دينار. الحكاية ٣٤ في كتاب الذخائر والتحف لابن الزبير، تحقيق محمّد حميد الله، الكويت، ١٩٥٩. وقد أذن له المتوكّل بركوب الحمار في القصر مثلاً.

(١٧) نجده في القصر قبيل الخليفة (الطبري، ج ٣، ص ١٤٦٣) ثمّ سنة ٨٦٢/٢٤٨ عند موت المنتصر (المصدر نفسه، ص ١٤٩٤ حيث يسمّى سعيد بن سلامة). وكان كاتب أم المستعين في العام ٨٦٣/٢٤٩ (المصدر نفسه، ص ١٥١٢) وقد حفظت داره من النهب سنة ٨٦٥/٢٥١ (المصدر نفسه، ١٥٤). أنظر أيضًا Vizirat, p. 304 et no. 4

(١٨) M. MIAH, **The Reign of al-Mutawakkil**, Ph. D. thesis S.A.O.S. London, 1962, in F. OMAR, **A General Sketch**, p. 35.

(١٩) يجب أن يحدّد التاريخ الذي بدأت منه هذه النسبة. وممّا يلفت النظر أنّ ابن القيّم الذي يورد صيغة مفصّلة لهذه «الشروط» (ص ٦٥٧ - ٨٧٣) يقول «وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها» (ص ٦٦٣). ولا يخفي محقّق الكتاب، الشيخ صبحي الصالح، دهشته من اكتفاء فقيه كبير كابن القيّم بهذه الملاحظة في شأن على هذا القدر من الأهمّيّة من الوجهتين التاريخيّة والفقهيّة. على أنّ بعض الروايات المختلفة تورد إسناداً مختلفًا، فيما ذكر ابن عساكر (CAETANI, **Annali dell'Islam**, III,p. 959, no. 1) والحق أنّ تعدّد روايات «الشروط» واختلافها يقومان دليلاً ضد نسبتها إلى عمر بن الخطّاب «ولو أنّ هذه الوثيقة، على قول دي خويه (**Mémoire sur la conquète de la Syrie**, p. 149) وضعت بأمر من عمر، ثمّ أقرّها، لكان تحفّظ الخلف كثيرًا في أن يحذفوا منها أو يضيفوا إليها أو يغيّروا فيها كلمة». وهذا ما يسمّيه دي خويه البرهان «الصوري».

(٢٠) هذا بحسب CAETANI ص ٩٥٧، الذي يعطي مراجع أخرى ولا سيّما بالروسيّة N.P. MIEDNIKOFF, I, p.538-613 (لم أطّلع عليه). أنظر أيضًا DE GOEJE, **Mémoire**, p. 143-149 وأيضًا MUIR, **The Caliphate** p. 149-150 الذي يكتب: «صحيح أنّهم قد ختم عليهم، منذ البداية، بالذلّة حسب ما تأمر به الآية ٢٩ من سورة التوبة، ولكن أسوأ

«الشروط» المتشدّدة لم تفرض إلاّ في فترة متأخّرة جدًّا، فلمّا عمل بها تدريجيًّا صارت بحكم العادة شرعة البلاد».

(٢١) مثلاً عند النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢٢) أنظر **Statut légal** A.S. TRITTON, **The Caliphs**; A. FATTAL,

(٢٣) قاسم، ص ٢٧.

(٢٤) وقد ضبط عدد من النصارى، وفيهم رهبان وحتّى أساقفة، بالجرم المشهود مع بعض النساء المسلمات، فما استطاعوا النجاة من حد الزنى إلاّ باعتناق الإسلام، مثال ذلك فيلوكسينوس أسقف آذربيجان للمغاربة من السريان، سنة ٩٦٢، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٤٨. هذا وقد عمّ ابن فضلان النصارى بالتهمة.

(٢٥) ومن المصادر التي نجدها فيها (فضلاً عن التي ذكرت من قبل): القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج ١، ص ٤١٥، ج ١٣، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤، الماوردي، **الأحكام السلطانيّة**، ص ١٢٧، ١٣٨، ابن الأخوة، **معالم القربى**، ص ٤١ ـ ٤٢، ابن الأزرق، **بدائع**، ص ٦٨٤ ـ ٦٨٨، حيث يقال إنّ ثمّة رواية «مبسّطة» في كتاب من عبد الرحمن بن غنم إلى عمر مع زيادات الأخير. نلاحظ عابرين منع النصارى واليهود من الدعوة إلى دينهم، وإظهار معتقدهم «في عُزَير والمسيح»، **صبح الأعشى**، ج ١٣، ص ٣٦٥. هذا الحظر الأخير يصدر عن الآية ٣٠ من سورة التوبة «وقالت اليهود عُزَير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله».

(٢٦) يضيف السيوطي، ص ٣٤٧، «الغلّ». إعتناق الإسلام يكون بأن «يقطع النصرانيّ زنّاره». و«إذا دخل (الذمّيّ) حمّامًا فيه مسلمون. جعل في عنقه خاتم حديد أو رصاص ونحوه» النووي، **منهاج الطالبين**، ص ١٤٠.

(٢٧) النووي، **رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين**، قدّم له وراجعه الشيخ حسن تميم منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٥٥٤ رقم ١٦٩٢ ـ ٩٣، يعزو أصل هذا الحظر إلى الحديث.

(٢٨) وفي هذا المجال، منع إحداث كنائس، أو تهديم ما أحدث منها. من حيث المبدأ يجب تهديم الكنائس المشيّدة في المدن التي أسّسها المسلمون (كالقاهرة وبغداد مثلاً) وذلك بإجماع فقهاء المذاهب الأربعة. هذا على الأقلّ ما يقول به الشيخ الدمنهوري سنة ١٧٣٩ (راجع MOSHE PERLMANN, **Shaykh Damanhuri on the Churches of Cairo**, U. of California Publ. Near East Studies 19, 1975) والحق أنّ هذا المبدأ لم يطبّق بدقّة أبدًا. وهذا يشير مرّة أخرى إلى الفرق بين القانون والممارسة. وفقهاء المشرق، في ما أعلم، أقلّ عنفًا من ابن عبدون الأندلسيّ (ت ٤٣٩/١١٠٠) الذي يحظّر على النساء المسلمات الدنوّ من الكنائس لأنّ القساوسة «فسقة زناة لوطة» ولكلّ واحد منهم عشيقتان أو أكثر من نساء النصارى. ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسيّة في أدب الحسبة والمحتسب، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص ٤٨.

(٢٩) يرتبط هذا الحظر بالمشاركة في الجهاد لا بكون بعض دواب الركوب أنبل من بعض. ففي باب دواب الركوب، يقول القلقشندي (ج ٢، ص ١٣ - ٣٣) إنّ البغل «مختار لركوب الرؤساء من العلماء والوزراء، والحكّام إلخ. . . .» وإنّ ركوب الحمار لا يعيب، فقد كان يركبه الرشيد (الأغاني ج ٥، ص ٢١٩) وأنّ النبيّ نفسه كان يركب الحمير والبغال. ويعزو الجاحظ هذا التميز بين المطايا إلى «جهل العامّة»، كتاب التاج ص ١٤٥ - ١٤٦. وقد كان رؤساء اليهود والنصارى يركبون حميرًا مصريّة فارهة «ومنها النفيس الغالي الثمن. . . وهي تنتهي في الأثمان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل». ويرى De Goeje, Mémoire, p. 149 أنّ البند المتعلّق بالمطايا قد أضيف إلى «الشروط» في زمن المتوكّل، ولدى مراجعتها ثانية سنة ٢٣٩، تحديدًا. أنظر تعليق عبود الشالجي على الحمير في تحقيقه كتاب الفرج بعد الشدّة للتنوخي، ج ٣، ص ١٠٧ - ١١٦.

(٣٠) يذكر حبيب الزيّات في الأسماء والكنى، ص ١، ابن تيميّة الذي ينسب، في رسالته في مسألة الكنائس، هذا البند إلى عمر بن الخطّاب. ويبيّن الزيّات أنّ هذا البند وإن وجد فإنّه لم يطبّق أبدًا، ويذكر نفرًا من النصارى تسمّوا بأحمد ومحمود. وانظر أيضًا SAID BOUSTANY, dans Ibn al Rûmi, I, Beyrouth, 1967, p.100, no.5.

(٣١) الفهرست، ص ١٤٤.

(٣٢) ينسبون إلى طيفور الذي كان مولى للخيزران والهادي والرشيد.

(٣٣) عن إسرائيل انظر ابن أبي أصيبعة، ص ٢٢٥، الطبري، ج ٣، ص ١٤٥٥، ١٤٩٦، الكامل، ج ٧، ص ١١٤، إلخ. عن أبيه زكريّا: ابن أبي أصيبعة، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣٤) يجب ألاّ يخلط بينه وبين سميّه الذي عرف في القرن التالي، Vizirat, p. 742-743

(٣٥) الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٣١٢، السطر الثاني.

(٣٦) ماري، ص ٧٨ - ٨٠، صليبا، ص ٧١ - ٧٢، ابن العبري، ج ٢، العمود ١٩٢ - ١٩٤، ١٩٨، ايليّا النصيبيني، الحاشية العربيّة، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣٧) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٩، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٠٢: «ومباراة الخلافة في الزيّ واللباس».

(٣٨) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٠٢. ثمّة مثال آخر على الفته بالخليفة في قصّة الهديّة التي أهداها إليه في عيد النوروز: «ملعقة كبيرة محرّقة من ياقوت أحمر» في «دواة من عود هنديّ لم يُرَ قطُّ مثله، كالأبنوس سوادًا، وعليه حيلة ذهب محرق»، أعطته إيّاها دنانير جارية يحيى البرمكيّ لمّا صحب والده جبرائيل الذي جاء يفصدها، نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

(٣٩) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٠٥.

(٤٠) يروي الصفدي، ج ١٠، ص ٨٧ - ٨٩ رقم ٤٥٣٢، أنّ القاضي أحمد بن أبي دؤاد والوزير ابن الزيّات هما اللذان دبّرا نكبته.

(٤١) الهمداني، تكملة، ص ٦٢.

(٤٢) الصفدي، سنة ٨٧٣/٢٦٠ ـ ٨٧٤.
(٤٣) الطبري، ج ٣، ص ١٤١٩، الكامل، ج ٦، ص ٧١.
(٤٤) تصحّح الصفحة ٧٩ من ماري.
(٤٥) يستند SOMOGYI, P.73 إلى المنتظم لابن الجوزي ليشير إلى أنّ أهل الذمّة ألزموا بتعليم أولادهم وتأديبهم بالعبريّة أو بالسريانيّة (في العام ٨٥٤/٢٤٠) وذلك لكي لا يقدروا على المحاجّة في الإسلام.
(٤٦) القلقشندي، ج ١، ص ٤١٥. يقدّم غولدزيهر في كتابه، **Zur Literatur**, P. 674–675 أمثلة مماثلة على حظر بناء كنائس جديدة.
(٤٧) بينما تربط المصادر النصرانيّة (يضاف إليها هنا: سعيد ابن بطريق، ص ٦٣ **Annales**, CSCO, 51) الاضطهاد بنكبة بختيشوع، يؤجل الطبري، ج ٣، ص ١٤٣٧ والكامل، ج ٧، ص ٨٥، هذه النكبة إلى سنة ٨٥٨/٢٤٤ (؟) ولا يفسّر حبس الجاثليق لمدّة طويلة إلاّ بسقوط بختيشوع، لأنّه كان صنيعة الطبيب.
(٤٨) MASSIGNON, **Scribes Nestoriens**, p. 251. بعد العام ٢٩١ كان عليّ بن عيسى، رئيس بني مخلد، يحمرّ خجلاً من نسبه النصرانيّ، ابن العبري، ج ١، العمود ٢٤٠.
(٤٩) جبر، ص ٢٥.
(٥٠) **E.I.²**, II, Djahiz, p.396
(٥١) PELLAT, **Ġahiz à Bagdad**, p. 54
(٥٢) المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٥٣) تأويل، ص ٤١ ـ ٤٢.
(٥٤) FINKEL, **a Risala**, p. 321. للمقارنة بتصريحات الجاحظ (وسكتاته) في كتاب الأخبار وكيف تصحّ، تحقيق شارل بللا في: **Journal Asiatique**, CCLV (1967), p. 102 «فصحّ أنّ دين الناس بالتقليد لا بالنظر، وليس التقليد إلى الحقّ بأسرع منه إلى الباطل».
(٥٥) تأويل، ص ٤١، مذكور أيضًا في الجاحظ للحاجري، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥.
(٥٦) PELLAT, **Une charge**, p. 29–30
(٥٧) ANTOINE TOHMÉ, **Intérêt pour l'histoire sociale de la réfutation des Chrétiens** رسالة ماجستير، بيروت ١٩٧٧، والطريقة المتّبعة في هذه الدراسة حدّدها المأسوف عليه الأب ميشال ألار في Histoire de la pensée arabe et socioligie, (analyse de la «Lettre sur les secrétaires»), dans **Etudes Philosophiques offertes au Dr. I. Madkour**, Le Caire, 1974, p.121–130. ولها تحليل مفصّل في G.C. ANWATI, Polémique, apologie et dialogue Islamo-chrétien, dans **Euntes docete** (U. Pontif. Urbaniana) 22 (1969) p. 396–399. وانظر مختارات من هذه الرسالة في كتاب الترك المذكور آنفًا، ص ٢٠٥ و٢٠٦.
(٥٨) الردّ، ثلاث رسائل للجاحظ، ص ٢٠.

(٥٩) تحقيق طه الحاجري، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٠٢. نلاحظ أنّ الجاحظ لم يكن حسن الاطّلاع على شؤون النصارى (أو سيّئ الطويّة؟) لما كتب: «وفي حكمهم أنّ مَن أعان المسلمين على الروم يقتل وإن كان ذا رأي سملوا عينيه ولم يقتلوه»، كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٨، وربّما كان ميّالاً إلى ازدراء «النبط»، لأنّه على كونه قبيح الوجه كان يجد أنّ للنبط (كما للمغاربة) سحنة أشبه بسحنة القرود (PELLAT, **Milieu basrien**, p.22) مستشهدًا بكتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٤. حيث يقول الجاحظ: «وربّما رأينا الملاح النبطيّ في بعض الجعفريّات على وجه شبه القرد».

(٦٠) فهو يشير في فردوس الحكمة ed. M.Z. SIDDIQI, **Gibb Memorial**, 1982, p.1 إلى أنّه سليل أسرة مروزيّة من الكتّاب. وقد كان أبوه مال إلى الطبّ واستحقّ لقب «ربّن»، أي معلّم. وفي كتاب الدين والدولة، ص ١٨٩، يذكر أنّ عمّه أبا زكّار يحيى بن نعمان المعروف في نواحي العراق وخراسان، قد ألّف كتابًا في الردّ على أهل الأديان. انظر ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٨٧.

(٦١) المراجع في **Islamochristiana**, I, p 144 (no. 11, 10), III, p. 256 أنظر أيضًا G. LE-COMTE, les citations de l'Ancien et du Nouveau Testament dans l'oeuvre d'Ibn Qu-tayba, dans **Arabica**, V (1958), p.34–46. يشير كاتب الدين والدولة، ص ١٩٧، إلى أنّ لاعتناق الإسلام مزايا ماديّة، فضلاً عن اعتقاد الدين الحقّ، يقول: «ومَن لم يُجِب إلى ذلك وأعطى الجزية عن يدٍ صاغرًا، حقن بها دمّه ووجبت له الذمّة والطاعة، وكان في ذلك رياضة للكفرة لطيفة، وتذليل لنخوتهم وخيلائهم وداعية لأهل الأنفة والحميّة منهم إلى الانتقال عن لؤم الذل والذمّة إلى شرف العزّ والحريّة فإن أبوا ذلك أيضًا كانت الحرب من ورائهم». ليس للنصارى «عزّ» ولا «حريّة»، فهم في حال «الذلّ» وقد قال حنين بن إسحق الشيء نفسه تقريبًا في ما بعد.

(٦٢) أمّا اشتراك فوتيوس وكيريلوس الذي صار من بعد قدّيسًا هو وأخوه ميثوديوس فهو أمر مشكوك فيه.

(٦٣) أنظر J. RUPP, Dialogue islamo–chrétien près de Bagdad au temps de St. Cyrille, dans **l'Osservatore Romano**, éd, hebdomadaire, 19 Septembre, 1978, p.11 بموجب الفصل السادس من حياة قسطنطين (كيريلوس) المنسوبة إلى أقليمنطوس الأوخريدي. وانظر ترجمتها بتصرّف إلى العربيّة في مجلّة بين النهرين، ج ٦، (١٩٧٨) ٢٤، ص ٤١٢ ـ ٤١٥. وقد عثر J.M. GAUDEUL, **Islamochristiana**, 10 (1984), p. 100–157. بهذا الانتقاد في رسالة عمر بن عبد العزيز المزعومة إلى لاوون الثالث. ولعلّها كانت من وضع رجل مسلم من حمص حوالى سنة ٨٨٥ — ٩٠٠. أمّا الكرّاس «Pamphlet anonyme» الذي ترجمه ونشره دومينيك سورديل في: R.E.I., 34 (1966), p 1–33 فقد يكون جزءاً من هذه الرسالة.

(٦٤) أنظر GAUDEUL، ص ٥١، الحاشية ١٠٤. وقد كان اليعاقبة، ومنهم ديونيسيوس

برصليبي، يوجهون هذا الانتقاد إلى الملكانيّين، راجع مقالتي: .Rum à l'est de l'Euphrate p.411.

(٦٥) يشير أبو حيّان التوحيديّ، إلى توسّط الفتح بن خاقان في إيصالها إلى الخليفة، ياقوت، إرشاد الأريب، ج ٦، ص ٦٩.

(٦٦) E.I.², II, p. 857, par O.PINTO . أنظر كتابي، ص ١٨٥ ـ ٢٩٨ : الجاحظ والترك وفيه (١٩٩ ـ ٢٢١): الجاحظ والفتح، عن الفتح نفسه انظر ص ٢٨٨ ـ ٢٩٨ بخاصّة. في المرجع نفسه ص ١٥١ ـ ١٧٠ : عصر النفوذ التركي في دولة بني العبّاس (حتّى المهتدي). قد تكون بعض تفاصيل الفصل عن أمّهات الخلفاء التركيّات، ص ١٧١ ـ ١٨٠، موضع نقاش، إلاّ أنّ المؤلّف لم يتساءل عن تأثير الترك في العقيدة. وربّما لم يميّز أيضًا ما في الثناء على الترك من مبالغة إذا خرج من فم متملّق كالجاحظ في هذه الحال. أليس يجوز لنا أن نقول ما قاله Ch.PELLAT (**Les nations civilisées, R67**) عن رسالته في تفضيل السودان على البيضان، أنّها «ليست أكثر من تمرين يليق به».

(٦٧) يلتقي محمّد أركون مع تساؤلاتي عندما يكتب في «مسكويه»، ص ١٦٣، الحاشية ٥: «لا نقدر على استبعاد علاقة تربط دخول الترك إلى المسرح وبداية التقليد».

(٦٨) لم يتساءل JULIUS GERMANUS أيضًا في كتابه **The Role of the Turks in Islam** ، عن التأثير الدينيّ الممكن لأتراك سامراء.

(٦٩) كما أنّ مدينة السلام صارت بغداد، كذلك هنا غلب أحد أسماء الموقع القديم على المدينة، وهو اسم غير عربي ولو اجتهد البعض في تأويله وذهب إلى أنّ أصله سرّ مَن رأى.

(٧٠) مع أخيه توما مطران باجرمي، ونونا رئيس شمامسة نصيبين للمغاربة من السريان. وقد دوّن توما مناظراته اللاهوتيّة مع نونا. أنظر A. VAN ROEY, dans Bibliothèque du Muséon, vol. 21, Louvain, 1948

(٧١) إنّها المرّة الوحيدة التي يذكر فيها أتباع أريوس ببغداد. والاسم مدوّن بوضوح عند ماري وعند ابن العبري.

(٧٢) الطبري، ج ٣، ص ١٤٢٢ ـ ١٤٢٤. هل ترك في تلك الحقبة نصارى بغداد دينهم جماعات ودخلوا الإسلام؟ ففي «المأثورات التي يغلب عليها الطابع الأسطوريّ» (.H. LAOUST dans E.I.², p. 281 مقالة عن أحمد ابن حنبل) والتي تحيط برواية موت الإمام أحمد ابن حنبل في ربيع الأوّل ٢٤١/تموز ٨٥٥، يذكر ابن خلّكان (ج١، ص ٦٥) أنّه في يوم وفاته أسلم عشرون ألفًا من النصارى واليهود والمجوس. وفي بعض المخطوطات: ستّون ألفًا.

(٧٣) الطبري، ص ١٤٣٤، وفي نسخة عطارد (؟).

(٧٤) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٥.

(٧٥) ثمّة مبالغة في التبسيط في القول (مثل الأبشيهيّ، المستطرف، ج ١، ص ٢٤٨، إن المتوكّل «أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلّهم وأبعدهم...»).

(٧٦) الطبري، ج ٣، ص ١٤٣٥.

(٧٧) وهذا يؤكّد أيضًا أنّ تاذاسيس كان قد خرج من السجن، وإلاّ لكان من السهل على الخليفة أن يعزله.

(٧٨) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ١٢٤، ابن العبري، ج ٢، العمود ١٩٥.

(٧٩) أنظر كتابي: **Nisibe**, p. 84

(٨٠) **Assyrie Chrétienne**, p. 115 مع مصادر.

(٨١) E.I.², I, p. 1327, par D. SOURDEL عن دُلَيل: الطبري، ج ٣، ص ١١٨٣ - ١١٨٤، ١٤٣٨، ١٥١٣، ١٥٣٦، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٦٥٩ **Vizirat Abbasside**, p. 256, 304, 322 no. 4

(٨٢) الطبري، ج ٣، ص ١٥٣٦. في العام ٨٥٢/٢٣٨ كان بغا قد أرسل إلى أهل أرمينيا أبا العبّاس الوارثي النصرانيّ، الكامل، ج ٧، ص ٦٧.

(٨٣) ربّما كان المحاور علياً بن يحيى المنجم. أنظر الملف **Islamochristiana, I**, No 12.12.p.138; no. 11.17.p.145; no.12.20, p.160; no. 12.18, p.159; no. 12.19p. 159-160; II, no. 11.17, p.191.

(٨٤) هل يجب أن نذكّر باستحالة قيام حوار حقيقيّ طالما أنّ كلاًّ من المتحاورين يريد أن يبرهن (ابن المنجم يسمّي كتابه: البرهان) أن الآخر مخطئ وأنّه هو على الحق (ويتكرّر ورود هذه الكلمة في كتابته). وقد عبّر حنين بن إسحق عن نفاد صبره إذ لم يتردّد في استعمال كلمة باطل مرارًا. أمّا قسطا فإنه يلتزم إراديًّا بإبقاء المناظرة على مستوى المنطق، ولكنّه مع ذلك يرسل هذه الكلمات: «مع معرفتك باختيال الكلام في الأديان وثقله عليّ».

(٨٥) PAUL NWYIA Actualité du concept de religion chez Hunayn Ibn Ishaq, dans **Arabica, XXI** (1974) p.313-317, et Un dialogue Islamo-Chrétien au IX siècle, dans **Axes**, IX.5, (1977), p.7-22 وقد نشر البرهان والردّان عليه تحت عنوان Une correspondance islamochrétienne, dans **Patrologia Orientalis** t.40 (1981), pp 521-723 أمّا جواب قسطا بن لوقا فمبعوث من أرمينيا إلى أبي عيسى أحمد بن المنجم وربّما كان متأخّرًا (٩٠٨ - ٩٢٠) عن الردّ السابق.

(٨٦) أنظر في نصّ ابن المنجم تكرّر عبارة «النصيحة».

(٨٧) عن «النظام المعرفيّ الإسلاميّ» انظر كتاب محمّد أركون **Pour un remembrement de la conscience islamique**

(٨٨) قارن: إبن كبر في: مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، القاهرة، ١٩٧١، ص ٢٧٥.

(٨٩) ملفّ يوسف حبّي، حنين بن إسحق مهرجان افرام - حنين، بغداد، ١٩٧٤، ص ٣١٧ - ٣١٩.

(٩٠) Sur le culte des saintes images dans l'Eglise syriaque orientale, V.E.K. DELLY, dans

Orient Syrien, I (1956) p. 291-296 et J. DAUVILLIER, ibid, p. 297-304.

(٩١) زيّات، سمات، ص ٤٥ - ٤٧.

(٩٢) صليبا، ص ٧١.

(٩٣) الطبري، ج ٣، ص ١٤٦٢. كان هذا الكاتب قد أسلم في خلافة المتوكّل نفسه. وقد كان إسلامه أسخط يوحنّا بنَ ماسويه المتطبّب الذي صاح بجماعة من الرهبان كانوا ببابه: «اخرجوا يا أولاد الزنا من داري واذهبوا أسلموا، فقد أسلم المسيح الساعة على يد المتوكّل». إبن أبي أصيبعة ص ٢٥٠. وفي هذا السياق يروى عن الطبيب نفسه خبر وقع له مع قسّ كان ممعوداً وكان يقول إنّه قد جرّب الأدوية المعروفة كلّها. فلمّا عيل صبر ابن ماسويه صاح به: إن أردت أن تبرأ فأسلم فإنّ الإسلام يصلح المعدة. إبن القفطي، ص ٢٥٣.

(٩٤) وقد زعم قتلتها أنّ الفتح قتل الخليفة وأنّهم لذلك قتلوه، ابن الطقطقي، ص ١٩٢.

(٩٥) وقد عالج إبراهيم بن أيّوب الأبرش إسماعيل ولد المعتزّ، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٤١، وقد عرف أيّوب الأبرش مترجمًا للمواد الطبيّة من اليونانيّة إلى السريانيّة والعربيّة، المصدر نفسه، ص ٢٤١، ٢٨٠.

(٩٦) إبن أبي أصيبعة، ص ٢٥٥. وسوف نلتقي به لاحقًا لدى موت المنتصر، الصفدي ج ٩، ص ١١ - ١٢، رقم ٣٩٢٩.

(٩٧) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٠. عن مغزى الاغتيال في السياسة الدينيّة لتلك الحقبة، انظر Dominique Sourdel, La politique des successeurs d'al-Mutawakkil, p. 5-9.

١١ ـ المنتصر (٢٤٧ ـ ٨٦١/٢٤٨ ـ ٨٦٢)

كان أبو جعفر محمّد المنتصر بالله في الخامسة والعشرين من العمر لّما خلف أباه. كان سرجيس الجاثليق في السدّة منذ تموز ٨٦٠، وكان قد انتقل إلى سامراء «لتقرب الأمور عليه».[١] وقد استفاد من تساهل الخليفة فأعاد بناء هيكل دير مار يونان الذي هدم في زمن سلفه.

كان الخليفة الجديد «ذا شهامة ومعرفة»[٢] ولكنّه لم يُتح له الوقت لمتابعة سياسته في الانفتاح على العلويّين.[٣] فقد مات عن خلافة دامت ستة أشهر. وقد اتّهم طبيبه النصرانيّ، إسرائيل الطيفوريّ بأنّه كان سبب وفاته العاجلة، إما لأنّه استعمل في فصده مبضعًا مسمومًا[٤] أو لأنّه قد قطر في أذنيه قطرات أدّت إلى انتفاخ رأسه.[٥]

الحواشي

(١) لا نعرف هل هو رسمه (أم رسم جاثليق آخر) أو رسم أسقف معاصر لمدينة سامراء (٨٣٦ ـ ٨٨٩) الذي نجده على جرار الخمر، انظر E. HERZFELD, Die Ausgraben von Samarra, Dritter Band, Die Malereien von Samarra, pl. LX-LXV, notamment (en couleur) pl. LXI; D.S. Rice Deacon or drink? dans **Arabica**, V (1958), p.15-33, pl I-II; et J. DAUVILLIER, l'ambon ou béma dans les textes de l'Eglise Chaldéenne et de l'Eglise Syrienne au moyen Âge, **Cahiers archéologiques**, VI (1952), p.19, fig 3.

(٢) المسعودي، التنبيه، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣، كانت أمّه أم ولد روميّة تُدعى حبشيّة.

(٣) SOURDEL, **Politique Religieuse**, p. 9

(٤) مروج الذهب، الفقرة ٢٩٩٠.

(٥) الكامل، ج ٧، ص ١١٤.

١٢ ـ المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥١ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦)

كانت لأبي العبّاس أحمد المستعين بالله، ابن محمّد أخي المتوكّل، سياسة دينيّة أعسر تحديدًا،[١] ولعلّه اضطرّ إلى التقرّب من الشيعة لّما فرّ من سامراء إلى بغداد أمام منافسه المعتزّ، سنة ٢٥١ / شباط ٨٦٥.

كان على النصارى، كغيرهم من رعايا الخلفاء في تلك الحقبة، أن يختاروا أحد المتنافسين وأن يدفعوا ثمن غلطهم في الاختيار. نجد في ذلك الزمن، سنة ٢٤٩/٨٦٣، سلمة بن سعيد الذي صار كاتب مخارق الصقلبيّة، أم المستعين[٢] التي كانت تصنع ما تشاء بابنها «ولم يكن يمنعها من شيء تريده». وعلى الرغم من هذه الشبهة، فإنّ دار سلمة ودار إبراهيم بن مهران «العسكريّ»، النصرانيّ أيضًا، حماهما حرّاسهما والمصارعون وغيرهم من الجيران[٣] فسلمتا من نهب الترك الذين نهبوا دار دُليل لّما غادر الخليفة سامراء.

كان أبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتب الفتح بن خاقان المغدور قد انتقل إلى خدمة موسى، ابن بغا الكبير، الذي «كان في ذلك الوقت الخليفة الحقيقيّ، وكان كاتبه بمثابة وزير، وكانت إليه الأعمال كلها»، وكان موسى فضلاً عن هذا «يطيع خصيّه الأثير في كلّ شيء». فمن ذلك أنّه لّما اختلف صاعد بن مخلد مع أبي نوح على قضيّة ماليّة، جاء عبدون أخو صاعد إلى الخصيّ ووعده بمال كثير إذا عزل أبا نوح وجعل صاعداً مكانه، فتمّ له ما أراد. في ما بعد تصالح صاعد وأبو نوح وزوّج الثاني ابنته من الأوّل. وكان هذا الزواج أوّل ما وضع صاعداً على طريق الوزارة[٤]. وكانت القصّة قد بدأت سنة ٢٥١/٨٦٥.

إنَّ سيرة دُليل بن يعقوب في تلك الحقبة حَريّة بالاهتمام أيضًا. فنحن نجده سنة ٨٦٣/٢٤٩ كاتب ضياع المستعين.[٥] وفي العام ٨٦٥/٢٥١، أراد باغر[٦] التركيّ أحد نوّاب الأمير بغا الكبير (وأحد الذين فتكوا بالمتوكّل أيضًا)، أراد أن ينال بالسّوء رجلاً مسلمًا من أصدقاء دُليل، اسمه أحمد بن مارمّة. فما كان من دُليل إلاّ أن حامى عن صديقه فأراد باغر أن يقتل دُليلاً أيضًا، لكنه لم يفعل لأنَّ الأمير بغا هدّأه قائلاً: «... أمري وأمر الخلافة في يديه، فتنتظر حتى أصيّر مكانه إنساناً وشأنك به».

وعلى الرّغم من مصالحتهما عاد باغر، على سكر، إلى توعّد دُليل بـالقتل. عندئذٍ تدخّل الخليفة نفسه لتهدئة ذلك الجلف.[٧] وهذا يبيّن لنا كيف أنَّ الكتّاب النصارى متى كانوا أوفياء ونزهاء، كانوا أهلاً لأن يمحضهم أسيادهم الودّ، ويخفّوا إلى حمايتهم. ونجد آخر ذكر لدُليل سنة ٨٦٦/٢٥٢. ويبدو أنّه لم يزل حتى ذلك التاريخ في خدمة بغا الشرابي.[٨] وقد قبض على هذا (وهو من قتلة المتوكّل أيضًا) وحبس، وحكم عليه المعتزّ بالقتل سنة ٨٦٨/٢٥٤.[٩]

توصّل بعض النصارى إلى مراكز مهمّة في خلافة المستعين أيضًا. نذكر منهم بِشر بن هارون، كاتب محمّد بن عبدالله الطاهريّ الذي كان آنئذٍ على خراسان وطبرستان والريّ وسائر المشرق، ومنهم أخو بِشر، جبر بن هارون الذي ناب عن العامل إبّان حملته على طبرستان لمحاربة الحسن بن زيد العلويّ[١٠] سنة ٨٦٤/٢٥٠. وكان لهذين الأخوين أخ ثالث، اسمه إبراهيم، وكان كاتبًا أيضًا.[١١] وقد تحسّنت حال الأخوة الثلاثة في الخلافة التالية (بعدما نهبت دورهم في الجانب الشرقيّ من بغداد سنة ٨٦٣/٢٤٩[١٢]) وذلك بفضل محمّد بن عبدالله الذي دبّر مع أبي أحمد الموفق خلع المستعين[١٣] لتولية المعتزّ، أخي نفسه.

خلّص الأتراك ابن المعتزّ، وغادر المستعين سامراء «وأدبرت الأمور عنه»[١٤] وانحازت بغداد إليه بينما بقيت سامراء بيد المعتزّ[١٥] الذي أمر سعيدًا الحاجب فقتل ابن عمّه المخلوع بحضور فضلان[١٦] الطبيب النصرانيّ، سنة ٢٥٢/ تشرين الأوّل ٨٦٦. وقد جيء برأسه إلى المعتزّ فلم ينظر إليه حتّى فرغ من لعب الشطرنج. وكان المستعين في الخامسة والثلاثين من عمره.

الحواشي

(١) SOURDEL, **Politique Religieuse**, p. 10-12 عن هذا الخليفة، انظر FORSTNER, MARTIN, MAINZ, 1966

(٢) الطبري، ج ٣، ص ١٥١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٤٠.

(٤) نشوار المحاضرة، ج ٨، رقم ٣٤، ص ٧٨ - ٨٢، وللتنوخي أيضًا، الفرج (تحقيق الشالجي) ج ٣، ص ٢٣ - ٢٧. الصفدي، الوافي، ج ١٦، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

(٥) الطبري، ج ٣، ص ١٥١٣.

(٦) الصفدي، ج ١٠، ص ٧١ - ٧٣، رقم ٤٥٠٩.

(٧) الطبري، ج ٣، ص ١٥٣٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٦٥٩. - ويذكر الصفدي عزل دُليل بدون الإشارة إلى تاريخ محدّد، ج ١٠، ص ٧٢.

(٩) D. SOURDEL, dans **E.I²**, I, p 1327. - الصفدي، ج ١٠، ص ١٧٣ - ١٧٥، الفقرة ٤٦٥٧.

(١٠) الطبري، ج ٣، ص ١٥٢٤ - ١٥٢٥، الكامل، ج ٧، ص ١٣٠ - ١٣١.

(١١) كان قهرمان محمد بن عبدالله بن ضاهر. ويظهر في كتاب الديارات، ط ٢، للشابشتي، ص ١٢٣، في قضية اختلاس ثياب نفيسة.

(١٢) الطبري، ج ٣، ص ١٥١١.

(١٣) مروج، الفقرة ٣٠٦٠.

(١٤) التنبيه، ص ٣٦٤.

(١٥) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٢.

(١٦) الطبري، ج ٣، ص ١٦٧١.

١٣ ـ المعتزّ (٢٥١ ـ ٢٥٥/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩)

إستمرّت أزمة الخلافة في عهد أبي عبدالله محمّد المعتزّ بالله[١] ابن عمّ سلفه المستعين. كان سرجيس لا يزال جاثليقًا (منذ ٨٦٠)، ولكنّه لا يفعل ما يذكر به. من وجهة السياسة الدينيّة شهدت خلافة المعتزّ إعادة الاعتبار إلى سياسة أبيه المتوكّل، من بعد التغيّر الذي طرأ في العهدين السابقين. إتّسم ارتقاء الخليفة الجديد عرش الخلافة بتغييرات في إدارات الدواوين وفي الجيش وفي القضاء.[٢] أمّا في الرتب الأدنى من هذه وهي التي نجد فيها النصارى بخاصّة فلم يكن الانحياز إلى صفّ المعتزّ موضع تساؤل. يذكر هنا من بين كتّاب بغداد يعقوب بن إسحق وإبراهيم بن نوح.[٣] وفي العام نفسه ٢٥١/٨٦٦، تقلّد ابن الأخير، أبو نوح عيسى الختم والتوقيع.[٤]

بيد أنّ سيرته انتهت كسيرة مولاه أحمد بن إسرائيل نهاية مأساويّة. إذ إنهما تجاسرا، بعد سكرة في ما يبدو، فدخلا على المعتزّ ليعذلاه على إسرافه في النفقات: لم يبقَ ببيت المال شيء، لا شيء لأرزاق الحرس التركيّ!

ذلك أنّ الخليفة الجديد كان «يؤثر اللذّات ويعدم الرأي»،[٥] وكان خاضعًا لأمّه قبيحة[٦] الروميّة، أمّ ولد المتوكّل، التي كانت ترفض مساعدة ابنها على دفع أرزاق الجند المتمرّدين مع أنّها كانت غنيّة جدًّا.

قُبض على ثنائي السّكارى المطالبين، وضُربا ليستخلص منهما المال. ومن بعدما دفعا المال عُذّبا أيضًا ليقرّا بجرائم ما ارتكباها، ولا سيّما أبو نوح الذي أناخوا عليه قائلين: «وأنت مع هذا مقيم على دينك النصرانيّة»، ثم نقل الاثنان إلى

بـاب العامّـة، الموضـع المعتاد لـلإعدام. هنـاك جُلد خمس مئة جلدة، ثم حمـلا منبطحين على بغلين من بغال السقّائين. فمات أبو نوح من يومه وكذلك مولاه أحمد بن إسرائيل.(٧)

رأينا سابقًا أنّنا نجد في أطبّاء هذه الحقبة إبراهيم بن أيّوب الأبرش الذي عالج إسماعيل ابن المعتزّ. وقد خلع المعتزّ في العام ٢٥٥/ تموز ٨٦٩. وحبس في حجرة حتّى مات جوعًا، وكان عمره ٢٤ سنة.

الحواشي

(١) عن هذا الخليفة انظر: FORSTNER, MARTIN, **AL-Mu'tazz billah,** Gemersheim, 1976.
كان أبو معشر الفلكي قد تنبّأ له بأنه سيصير خليفة بعد حرب أهليّة. وقد كافأه المعتزّ بهدايا كثيرة وعيّنه رئيس منجّمي الخلافة، نشوار، ج ٨، ص ٥٧.

(٢) SOURDEL, **Politique Religieuse,** pp. 12-13.

(٣) **الطبري،** ج ٣، ص ١٦١٥.

(٤) **المصدر نفسه،** ص ١٦٤٠، يشير سورديل (**Vizirat** p.297) إلى أن التنوخي يذكر أنه كاتب الضياع.

(٥) **التنبيه والاشراف،** ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٦) من باب التسمية بالضدّ، ذلك لأنها كانت أحسن نساء عصرها، الثعالبي، **لطائف،** ص ٤٦. عن قبيحة، أنظر: ابن الساعي، **نساء الخلفاء،** ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٧) **الطبري،** ج ٣، ص ١٧٠٦، ١٧٢٠ ـ ١٧٢٢. ـ ثمّة تفاصيل أخرى في **Vizirat,** p 317 no. 4، التنوخي، **الفرج،** ج ١، ص ٢١١ الحاشية رقم ٢٤.

١٤ ـ المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠)

«عادت الخلافة إلى بني الواثق» مع أبي إسحق محمّد المهتدي[١] بالله. ولكن بدلاً من ردّة الفعل المتساهلة التي كانت متوقّعة، «تميّز الخليفة الجديد بأصوليّته وحرصه على مباشرة أمور القضاء بنفسه لمّا صار يتولّى قضاء المظالم».[٢] ويُطنب المسعودي في الثناء عليه: «كاد أن يكون في بني العبّاس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أميّة هذبًا وفضلاً ودينًا، فصادف أقوامًا لا يجوز عندهم أخلاق الدين ولا يريدون إلاّ أمر الدنيا، فسفكوا دمّه وتشتّت أمورهم بعده».[٣]

بديهيّ أن يكون أوّل ما فعله رجل كهذا لدى وصوله إلى السلطة هو تحريم الشراب والنهي عن القيان.[٤] كان التدبير الأوّل يمسّ النصارى مباشرة. ربّما كانت الأديرة، حيث تسكب «بنت الدير»، مصادر إلهام للشعراء[٥] (مع أنّ كتب الديارات لم تزدهر إلاّ بعد حوالى قرن من ذلك الزمن) إلاّ أنّها كانت، في نظر المسلم الورع، من موارد التهلكة.

لقد كان الخمّارون الذميّون، «المرقّطو الثياب المختومو الأعناق»، عرضة لانتقادات الجاحظ[٦] سواء سمّوا «أذين أو شالوما، أو مازيار، أو ازدانقاذار، أو ميشا». ولذلك فقد درج الخلفاء المصلحون على إغلاق الحانات[٧] وطرد المغنّين والقيان وكسر آلات الملاهي.[٨] وقد «بذل المهتدي كل ما في وسعه من جهد لانتشال الخلافة من انحطاطها».[٩]

وذهبت به الحميّة إلى حدّ الأمر بأن تمحى الصور التي كانت تزيّن قاعات

القصور بسامراء[١٠] خاصّة. إلاّ أنّ زهده وتقشّفه ومسوحه وتهجّده وما كان يبذله من نصائح سرعان ما أتعبت الناس.

وقد اضطرّ إلى القضاء على عدد من الخارجين أو المنافسين ولكنّه أخفق أمام الأخير منهم: الأمير التركيّ موسى، ابن بغا الكبير، الذي دخل سامراء في ١٢ من المحرّم سنة ٢٥٦ (٣٠ كانون الأوّل ٨٦٨). قبل وصول موسى بن بغا[١١] كان بختيشوع في صحبة صالح بن وصيف الأمير التركيّ الذي اضطرّ إلى الاختباء، ولا نعلم كيف تخلّص بختيشوع.

لّما رفض الخليفة أن يخلع نفسه، من بعدما قبض عليه، أمر به فقتل، وروى بعضهم أنّه قد عصرت خصيتاه. ولم تبلغ مدّة خلافته سنة.[١٢]

لا نعرف شيئًا عن النصارى في خلافة المهتدي العابرة، ما خلا وجود بعض الأطبّاء وبعض «النكبات» التي ربّما نزلت بالخمّارين. في فوضى سامراء نجد أمراء الترك يرفعون الخلفاء والوزراء ويضعونهم، ولا يكاد المرء يجد الوقت للكلام عن الصغار حتّى يرى الكبار يختفون من المسرح.

الحواشي

(١) الصفدي، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٦، رقم ٢١٥٨.

(٢) SOURDEL, **Politique Religieuse**, p. 13.

(٣) التنبيه، ص ٣٦٦ - ٣٦٧، ثمّة مناقشة لشخصية هذا الخليفة الحقيقيّة بقلم BARTHOLD في **Islamic Quarterly**, London, XV (1971) p. 69-95

(٤) مروج، الفقرة ٣١١١، يضيف ابن الطقطقي، ص ١٩٩ أنه: «ومنع أصحابه من الظلم والتعدي».

(٥) عن فن الخمريات انظر: **E.I.²**, p 1030-1041 بقلم J.E. BENCHEIKH ومع ذلك تجدر الإشارة هنا إلى أن الأديرة كانت محلاً للملاهي الشعبيّة البريئة يرتادها الجميع ولا سيّما أيام الأعياد (هذا إذا غضضنا النظر عن دورها كمراكز روحيّة وفكريّة). انظر J.M. FIEY أعياد الأديرة، أعياد شعبيّة في مجلة التراث الشعبي، بغداد، (١٩٦٩) ٢، ص ١٢١ - ١٣٠. G. TROUPEAU, Les couvents chrétiens dans la littérature arabe, **Nouvelle revue du Caire**, I, (1975), p 265-279.

(٦) البيان، (ط. القاهرة. ١٩٦٠)، ج ١، ص ٩٤.

(٧) يمكن التعليق على حب الخمرة من حيث هو عائق في سبيل اعتناق الإسلام، مع اعتبار الأخطل نموذجًا.

(٨) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٩) K.V. ZETTERSTEEN, dans E.I.[1], III, p 750-751. كان وزيره أبو أيوب سليمان بن وهب بن سعيد يتحدّر من أسرة نصرانيّة ويصفه ابن الطقطقي ص ٢٠٠، بأنه «أحد عقلاء العالم». أنظر مصادر عنه في: SOURDEL, Vizirat, p. 300 no. 5.

(١٠) مروج، الفقرة ٣١٣٠.

(١١) الطبري، ج ٣، ص ١٧٩٠.

(١٢) يحاول الأب لويس شيخو في كتابه شعراء النصرانية ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦ أن يرصد سيرة أبي موسى عيسى بن فروخان شاه القنّائي فيجعل منه وزيرًا للمعتزّ. والحق أنه كان حديث عهد بالإسلام، ولم يكن، كنصرانيّ، يشغل في أوّل أمره إلاّ وظيفة قيّمٍ على الضياع في خلافة المتوكّل، سنة ٢٤٣، Vizirat, pp. 734-736 مع مصادر.

١٥ ـ المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢)

أخيرًا، نقع على خليفة حكم، اسميًا[١] على الأقلّ، أكثر من بضعة أشهر، فقد رأى سرجيس الجاثليق خلال اثني عشر عامًا ستة خلفاء يصعدون ويهبطون.

ولّما كان سرجيس قد توفّي نهار الأحد ٢١ أيلول ٨٧٢، فمن المرجّح أن يكون قد التقى المعتمد الذي استخلف سنة ٢٥٦/ حزيران ٨٧٠، مع أنّ التاريخ لم يحفظ ذكر هذا اللقاء.

قبل أن نغادر سرجيس الجاثليق لنذكر، وإن كنّا لا نملك تأريخًا للحادث، مكيدة جديدة دبّرها سميّه، الطبيب الأريوسيّ الذي كان قد سبّب المتاعب لتاذاسيس بين العامين ٨٥٣ و٨٥٦. ففي أيّام سرجيس، أي بعد ٨٦٠، استولى الطبيب المارق على إحدى كنائس رعيّته، ببغداد في ما يبدو. لم يرضَ خليفة ذلك الزمن (أحد الستّة الذين تقلّدوا الخلافة أيّام الجاثليق) أن يبتّ في القضيّة من غير مناظرة تجري في حضرته بين الطبيب والجاثليق. خاف النساطرة على قول ابن العبري،[٢] لأنّهم كانوا يعرفون أنّ رئيسهم قليل العلم والفصاحة. ولكنّه غلب خصمه، خلافًا لما كان يتوقّع، فحكم الخليفة على الطبيب بأن يدخل الإسلام. ولّما تردّد هذا، ولّما كان الخليفة يحبّه أمهله حتى يتفكّر في الأمر. وبعد فترة حزم الطبيب أمره: فكان أن «قطع نصرانيّ آخر زنّاره».

كان أبو العبّاس أحمد المعتمد على الله ابن المتوكّل، وكان ربّما اتّبع سياسة أبيه لولا أنّ أخاه الموفق، الذي كان من قبل قد ساند المعتزّ،[٣] أبعده عن مباشرة شؤون الحكم بنفسه. وينبغي ألاّ يفوتنا أيضًا أنّ بغداد كانت بين العامين ٨٧٣

و٩٢٩ تحت حكم الحرس البريتوري البيزنطيّ الأصل.(٤) أمّا الوزراء فكانوا يعيّنون ويعزلون عدّة مرّات.(٥) في العام ٨٧٣/٢٦٠، أي في أثناء خلوّ كرسيّ الجثلقة، مات الطبيب الكبير حنين بن إسحق الذي صادفناه في عهد المتوكّل.(٦)

XI تأخّر انتخاب أنوش،(٧) مطران الموصل، جاثليقًا حوالى خمس سنوات. كان كلّ من المرشّحين قد استعان بأصدقاء له من أصحاب النفوذ. وكان أحدهم، واسمه إسرائيل مطران كسكر، قد انتخب عمليًا، إلاّ أنّ أمير بغداد أمره بالتخلّي، ولّما تلكّأ في ذلك، هجم عليه أحد أنصار أنوش المتعصبّين وشدّه من على البيم وعصر خصيتيه، فمات إسرائيل بعد أربعين يومًا.(٨)

واستمرّت النزاعات العنيفة بين الأسر المتنافسة. فقد أوشك مرشّح آخر سامه يوحنا بن نرسي أن ينتخب (وقد انتُخب في ما بعد)، بيد أنّ أنوش المستند إلى الأطبّاء الملكيّين لم يرغب عن طموحه في بلوغ السدّة. وقد بلغها، وسيم جاثليقًا سنة ١٣/٢٦٣ كانون الثاني ٨٧٧.

مَنْ كان أولئك «الأطبّاء الملكيّون»؟ نعرف منهم واحدًا على الأقلّ، كان في خدمة الموفّق، إنّه يوحنا بن بختيشوع الذي كان مترجمًا أيضًا. ويروى أنّ الوصيّ العظيم النفوذ كان يثق فيه ثقة عظيمة «ويسمّيه مفرّج كَرَبي».(٩) وكان ابنه بختيشوع بن يوحنا طبيبًا(١٠) أيضًا، وسنصادفه لاحقًا.

سنة تحوُّل

إتّسمت السنة التي أعقبت انتخاب أنوش، أي ٨٧٨/٢٦٥، «بانعطاف في السياسة الداخليّة لدولة الخلافة»: ففيها ظهر بعض الموظّفين الشيعة. في السنة عينها اختفى الإمام الثاني عشر محمّد بن الحسن وهو بعد حدث، في ظروف غامضة، في سرداب بسامراء، على ما قيل. «وقد مال كثيرون إلى أن يروا في هذا الاختفاء أصابع شرطة الخلافة».(١١)

كانت تلك السنة مهمّة من وجهة نظر النصارى أيضًا. فقد أدّى دخول كثيرين من النصارى الإسلام حديثًا، إلى وصول عدد منهم (وبصورة غير متوقّعة)

إلى السلطة، مثال ذلك الكتّاب المتحدّرون من دور قنّي.[١٢] ولكنّ نفرًا من أفراد أسرهم ظلّوا على النصرانيّة، كالنساء منهم بخاصّة. كان من شأن هذا أن يحدث، في ظروف أخرى، قطيعة جذريّة، ولكن المسلمين الجدد في هذه الحالة لم يتنكّروا لأصولهم بل إنّ أقاربهم الذي ظلّوا على النصرانيّة قد تمكّنوا بوساطتهم من تحسين حالهم بعض الشيء. وهذا ما سمّاه لويس ماسينيون، في شيء من المبالغة، «السياسة الإسلاميّة ـ المسيحيّة» للكتّاب الذين كانوا نساطرة سابقًا.. «في بلاط بغداد».[١٣] ولعلّ المثل الساطع على هؤلاء الأخوة غير الأعداء هو مثل الوزير (المسلم) صاعد بن مَخلَد[١٤] وأخيه (النصرانيّ) عبدون.

وقد اتّفق في هذه السنة بالذات، ٨٧٨/٢٦٥، أنّ «حبيبًا (؟) الرّاهب الذي من بيت الحكمة ببغداد»[١٥] (أي أنّه مترجم رسميّ؟) وجد ببرمشا (؟) على ما روي، «نسخة عهد وسجّل» بالعربيّة «على جلد ثور» ادّعى أنّ فيه نصّ المعاهدة الشهيرة المعقودة سنة ٦٣١/١٠ بين النبيّ محمّد وبين نصارى نجران (باليمن) من بني الحارث[١٦] الذين زعم بنو مَخلَد الارتباء إليهم. ثمّة صيغة إسلاميّة لهذه المعاهدة[١٧] أقدم عهدًا (وربّما كانت أصليّة)، وأقصر نصًّا، بيد أنّ نصّ «حبيب الراهب» كان أصرح ويورد سلسلة من الإجراءات السياسيّة المحدّدة التي لم تكن لترد فيه إلاّ بعد قرون طويلة من التعايش: «لا تعزل الدولة الإسلاميّة الأساقفة ولا تهدم الكنائس بل تسمح بإعادة عمارتها، تكون الجزية ٤ دراهم على الرأس و١٢ على التجّار ويُضاف إليها الخراج، في حال الحرب يعفى النصارى من القتال والتجسّس على العدو، ومن تجهيز الجيش (ولا يطلب منهم إلاّ إيواء الجند ثلاثة أيّام وثلاث ليال)، تخفّف القوانين المتشدّدة، لا تخطف نساء النصارى ولا يكرهن على الإسلام».

إنّنا لنشعر أنّ هذا النصّ يردّ على «الشروط العمريّة» (المزيّفة)، إذ يجد في الوقت المناسب (أو يخترع) عهدًا أقدم (يناظرها في التزييف) ويناقضها تمامًا. كانت الأحوال السياسيّة، في عهد الوزراء من بني مخلد (النصارى سابقًا) مؤاتية لتطبيق بنود «العهد» وتحقيق شيء من الانفراج (المؤقّت) في أوضاع النصارى.

ولعلّ هذا الوضع الجديد هو الذي كان ببال ماري لمّا كتب هذه الجملة

الأخيرة في ترجمة أنوش: «وحسن رأي المعتمد[١٨] في النصارى». ومع ذلك يبدو أنّ النصّ يربط تغيّر الموقف هذا بهزيمة صاحب الزنج[١٩] وموته (٨٨٣/٢٧٠) من بعد ما دوّخ البلاد، ولا سيّما سواد البصرة منذ العام ٨٦٨/٢٥٥.[٢٠]

مات أنوش الجاثليق سنة ٢٣/٢٧٠ أيار ٨٨٤. ولم يبقَ كرسيّ الجثلقة شاغرًا إلاّ خمسة أشهر ونصف. أراد أعيان النصارى (عبدون بن مخلد وسلمة بن سعيد[٢١] المقيمان بسامراء) منذ البداية انتخاب يوحنا النرسي،[٢٢] أسقف الأنبار، من دون التفكير بفرضه على الرعيّة. ومن أجل صيانة قاعدة الانتخاب وإرضاء لعبدون في الوقت نفسه اختار نفر من الآباء راهبًا من أقارب عبدون مرشّحًا ثانيًا، علمًا بأنّ الثالث كان مطران الموصل.

XII وقعت القرعة على يوحنا. واضطرّ الناس إلى إجباره على القبول بالمنصب، ثمّ سيم جاثليقًا سنة ١٤/٢٧١ كانون الأوّل ٨٨٤. وقد اشتهر إثر آية حدثت إبّان صلاة سيامته إذ شفيت على الفور فخذ كسرت في الزحام. وبذلك صار له حظّ من احترام الناس. ولكن بعد بضعة أشهر من انتخابه،[٢٣] أي سنة ٨٨٥، استولى «شطّار بغداد» على دير كليليشوع، الواقع على نهر عيسى (إلى الجنوب من الجانب الغربيّ من بغداد) ومقرّ الجثلقة منذ أيّام طيماثاوس. نهبوا الأواني المقدّسة وكلّ ما وقعت عليه أيديهم من النفائس، خلعوا الأبواب ونقضوا بعض الجدران ونقبوا السقوف ليبيعوا الخشب وموادّ البناء. عَجّل محمّد بن طاهر بإرسال الحسين بن إسماعيل صاحب الشرطة الذي قاتل النهّاب ومنعهم من تهديم بقيّة الدير. وسمح للنصارى بإعادة بناء ما تهدّم[٢٤] بفضل نفوذ عبدون بن مخلد. في السنة التالية، ٨٨٦/٢٧٢، اجتمعت العامّة وهدّمت ما كان أعيد بناؤه.[٢٥] ويورد المؤرّخون لأعمال الشغب هذه أسبابًا شتّى. فإيليّا النصيبيني النسطوريّ ينسب ذلك إلى فورة غضب الشعب على تكبّر النصارى الذين لم يحترموا بنود التمايز والذين «كانوا يركبون الخيل»، ومعلوم أنّ هذا كان حكرًا على المسلمين. أمّا ابن العبري فيرى أنّ السبب المباشر كان بخل الجاثليق. فقد كانت العادة جرت ببذل شيء من المال لشيخ عربيّ هو إمام المسجد المجاور «لقلّية» الجاثليق. فلمّا منع الجاثليق ذلك المال، دبّر الشيخ وأصحابه مكيدة للجاثليق: رمى بعض المندسّين حجارة على

جنازة رجل مسلم، فادّعي بأنّ الحجارة جاءت من جهّة كليليشوع، فكان أن عادت العامّة بعد الدفن إلى الدير...

من المحتمل أن يكون السببان قد تكاملا، أي أنْ يكَون خيلاء النصارى الأثرياء قد أذكى نار السخط وأن يكون حادث الجنازة النقطة التي طفح بها الإناء (كانت الجنائز من أكثر نقاط الاحتكاك حراجة لأنّها كانت من الجانبين ذريعة لاحتلال الشارع).

عمل يوحنّا الجاثليق، يعاونه عبدون، على إعادة بناء دير كليليشوع(٢٦) ولكنّه لم يعد إلى الإقامة فيه قبل نهاية خلافة المعتمد، بل فضّل الاستقرار بواسط، بعيدًا عن عرش الخلافة، ومكث هناك خمس سنوات. ولّما عاد إلى بغداد في أواخر جثلقته، أقام بدار الروم، بالكنيسة التي بناها الأصبغ العباديّ.(٢٧) تركت الجثلقة إذن جانب دجلة الغربيّ، أي الكرخ، لتنتقل إلى الجانب الشرقيّ، وتستقرّ إلى حين في الشماسيّة شمالي بغداد. إستغلّ عبدون كونه أخًا للوزير «فتعدّى طوره» وصار يحكم في المسلمين كما نتبيّن من شعر(٢٨) يستهدفه، في ما يبدو:

ويحكم عبدون في المسلمين ومن مِثله تُؤخَذ الجاليَةْ
فهذي الخلافة قد ودِّعت وظلّت على عرشها خاويَةْ
فخلِّ الزمان لأوغاده إلى لعنة الله والهاويَةْ

وقد تجاسر الشاعر نفسه على هجاء صاعد(٢٩) الوزير، بقوله:

سَجَدنا للقرودِ رجاءَ دنيا حَوتها دوننا أيدي القُرودِ

هل كان سلوك عبدون سبب سقوط أخيه صاعد، كما أشار إليه لويس ماسينيون؟ على أيّة حال يجوز لنا أن نذهب مذهب سورديل(٣٠) في ما استنتجه من نصّ الشابشتي(٣١) إذ قال: «لدينا قناعة بأنّ الموفّق كان يبحث عن ذرائع للتخلّص من كاتبه». قبض على الأخوين صاعد وعبدون ابنيّ مخلد سنة ٢٧٢/ أواخر ٨٨٥. أمّا صاعد المسلم فقد مات سنة ٢٧٦/٨٨٩ من كثرة ما قاسى من عذاب. وأمّا عبدون النصرانيّ فقد ترهّب من بعدما أفرج عنه وأقام بدير قنى حتى العام ٩٢٢/٣١٠.

وقد لقي يوحنا بن نرسي نفسه بعض المتاعب في أواخر جثلقته. يروي ابن العبري أنَّ الوزير إسماعيل بن بلبل[٣٢] استولى على بعض ضياع الجثلقة. فلم يتردّد يوحنا في الذهاب لمقابلة ابن بلبل. لا نعرف هل استرجع الضياع أم لا، ولكن المحادثة انتهت بشهادة الجاثليق بإيمانه المسيحيّ.[٣٣]

مات الموفّق سنة ٢٧٨/ ٢ حزيران ٨٩١، ومات الخليفة المعتمد في السنة التالية/ تشرين الأول ٨٩٢، عن حوالى خمسين سنة، وربّما مات مسمومًا بسمّ دسّه له خلفه؟

لم يكن له شأن يذكر في سياسة عصره، إذ كان ينفق أيّامه في الملذّات والملاهي والغناء، وهذا ما يتيح للمسعودي[٣٤] فرصة الاستطراد في الكلام عن الغناء والخمور.. أمّا سعيد بن البطريق[٣٥] فيقدم خلاصة عن عهده، لا أثر فيها للثناء، إذ يكتب: «واتّصلت الحروب والفتن وزاد فساد البلدان والأمصار وكثر المتغلّبون في جميع الدنيا. وكانت أيام خلافته كلّها دائمة الفتن متّصلة الحرب».[٣٦]

لم يتأخّر أجل الجاثليق يوحنّا بن نرسي عن أجل الخليفة كثيرًا فمات في الفاتح من رمضان ٢٧٩/ ميلاد ٨٩٢. وقد انتهت جثلقته بمعجزة كما بدأت بمعجزة:[٣٧] عندما اجتازوا بنعشه في بعض الطرق (هذه المرّة أيضًا سبّبت الجنائز تفاقم السخط!) «بصق عليه رجل مسلم لهوًا فسقط من وقته» ثمّ برئ من بعدما طرحوه ملقى على التابوت.

الحواشي

(١) «كان المعتمد مستضعفًا»، **ابن الطقطقي**، ص ٢٠٢. - **الصفدي**، ج ٦، ص ٢٩٢ - ٢٩٣، رقم ٢٧٨٩.

(٢) ج ٢، العمود ١٩٨ - ٢٠٢.

(٣) SOURDEL, **Politique religieuse**, p. 13-15; **Vizirat**, p. 305-328.

(٤) L. MASSIGNON, Le mirage byzantin dans le miroir bagdadien d'il y a mille ans, reproduit dans **Opera Minora**, p 136; Rum à l'est de l'Euphrate, p.p. 403-420.

(٥) **ابن الطقطقي**، ص ٢٠٣.

(٦) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٣، .E.I.[2], II, s.v. p. 598-599, par G. STROHMAIER

(٧) ماري، ص ٨١ ـ ٨٢، صليبا، ص ٧٣ ـ ٧٤، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٠٦ ـ ٢٠٨، إيليا النصيبيني، الحاشية العربية، ص ٧٣ وتحت العام ٢٧٠ للهجرة.

(٨) يبدو أن طريقة القتل هذه كانت دارجة في تلك الحقبة، انظر حالة مماثلة في العام ٨٥٩/٢٤٥ في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٨٩.

(٩) ابن أبي أصيبعة، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

(١١) SOURDEL, **Politique religieuse**, p. 14.

(١٢) **Vizirat**, passim.

(١٣) **Opera minora**, I (1963), p. 250-257.

(١٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢١ تحت دير عبدون، يقول إنّه أسلم على يد الموفّق. عن دوره انظر: **Vizirat**, p. 318-322 . كان المسلمون الأقدم عهدًا بالإسلام يرتابون قليلاً من حميّة هؤلاء المتجدّدين في الإسلام. فمن ذلك التعليق اللاذع المنسوب إلى الناقد محمد بن القاسم أبي العيناء (ت ٨٩٢/٢٨٣) الذي لما اضطرّ إلى الانتظار حتى يفرغ الوزير الحديث الإسلام من صلاته، تنهّد قائلاً: «لكل جديد لذّة» D.S. MARGOLIOUTH, Wit and Humour, in **Arabic Authors**, p. 525.

(١٥) التاريخ السَغرْدي (P.O., XIII, p. 601 et Sq.) المصادر في مقال ماسينيون **Scribes Nestoriens**, p. 253, no. 1.

(١٦) شيخو، المشرق، ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦٠٩ ـ ٦١٨، ٦٧٤ ـ ٦٨٢.

(١٧) المصادر في مقال **Scribes Nestoriens**, p. 253, no. 2 Massignon, TIBAWI, p. 34, 42-43.

(١٨) يصحّح النصّ الذي يورد «المعتضد».

(١٩) الذي يسمّيه ماري (ص ٨١ و٨٢) «العلوي البصري». ويظهر هذا اللقب بخاصة في كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (ج ٤، القسم الأول، ص ١٤، طبعة عمر السعيدي)، دمشق، ١٩٧٢.

(٢٠) الطبري، ج ٣، ص ١٧٤٢ ـ ٢١٨٤.

(٢١) صادفناه منذ ٨٦٢/٢٤٨. وقد تقلّد، فيما تقلّد من مناصب على ما قيل، الكتابة لأم المستعين. وينتقده ابن القيّم، أحكام، ص ٢٢٠.

(٢٢) ماري، ص ٨٢ ـ ٨٣، صليبا، ص ٧٤ ـ ٨٠، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢١٠ ـ ٢١٤، إيليا النصيبيني، تحت الأعوام ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٩ والحاشية العربية ص ٧٤.

(٢٣) «سبعة» عند ابن العبري، ولكن في العام ٢٧١ (؟).

(٢٤) الطبري، ج٣، ص ٢١٠٧ ـ ٢١٠٨، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢٥) الطبري، ج ٣، ص ٢١٠٨، إيليا النصيبيني تحت العام ٢٧٢ للهجرة، تبعًا لمحمد بن يحيى.

(٢٦) يذهب صليبا إلى أن الدير قد هُدّم ثلاث مرّات؟

(٢٧) عن تاريخ هذه الكنيسة انظر مقالتي: Rum à l'Est de L'Euphrate, p. 377-385

(٢٨) ينسبه المسعودي (مروج، الفقرة ٣٤٠٨) إلى علي بن بسّام ويجعله في خلافة المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢). - وقد كان ابن بسّام (ت ٣٠٢/٩١٤) هذا يرى أنّ الحظوة التي تمتّع بها النصارى في وزارة بني الفرات شرط من أشراط الساعة يؤذن بقرب قيامها. وينسب فوات الوفيات (طبعة بيروت، ج ٣، ص ٩٢) إليه هذين البيتين:

إذا حَكَمَ النصارى في الفُروجِ وتاهوا بالبغالِ وبالسروجِ
فقُل للأعورِ الدجّالِ هذا أوانُك إن عَزَمتَ على الخُروجِ

(٢٩) مروج، الفقرة ٣٤١٤.

(٣٠) Vizirat, p. 322.

(٣١) الطبعة الثانية (١٩٦٦)، ص ٢٧٠ - ٢٧٣.

(٣٢) وزير الخليفة (٢٦٥ - ٨٧٨/٢٧٨ - ٨٩١) ثم كاتب الموفّق أيضًا بعد صاعد بن مخلد (٢٧٢/٨٨٥) Vizirat, p. 315-326 . - ونجد في نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٣١٩، أنّ أعرابيًا عائفًا قال لإسماعيل بن بلبل: «قتلت والله المزنّر» لما رأى غلامًا لإسماعيل يقتل زنبورًا «مزنّرًا». وفي قول الأعرابي إشارة إلى أصل صاعد في النصرانيّة.

(٣٣) في البداية حاول أن يتخلّص متذرّعًا بأنّه لم يكن بارعًا في المناظرة، فردّ عليه الوزير: «ولِمَ جَعلوك أسقفًا إذن؟» فأجابه يوحنا في تواضع: «لست أهلاً لذلك ولكنّهم لم يسمعوا لي». كان آخر ما قاله صحيحًا، ولكن هل كان جاهلاً إلى الحدّ الذي كان يدّعيه؟ يقول صليبا عنه إنه كان «رجلاً مشهورًا بالعلم» (هذا إذا لم يكن كلام صليبا روسيًا).

(٣٤) مروج، الفقرة ٣٢١٣ وما يليها.

(٣٥) التاريخ المجموع، (Annales CSCO, 51) ص ٦٨.

(٣٦) في خلافته مات (بعيدًا عن بغداد) اثنان من أكابر المحدّثين، البخاري (ت ٢٥٦/٨٧٠) ومسلم (ت ٢٦١/٨٧٥)، وقد حدّد «صحيحاهما» معالم الحديث والسنّة بشكل نهائي.

(٣٧) ثمّة معجزة طويلة، توسّطت بين الاثنتين (يرويها صليبا، ص ٧٨ - ٨٠) وهي ظهور الجاثليق لتاجر ليحميه من السُرّاق الخ. ويجري قسم من القصّة في مصر بين يدي ابن طولون (وكاتبه أبي يعقوب إسحق بن نصير) وتنتهي في ديار الروم بتنصّر اللصوص الذين أسلمهم التاجر، واسمه أبو نصر بن الصّلت.

١٦ ـ المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩/٨٩٢ ـ ٩٠٢)

خلف أباه الموفّق في الوصاية من سنة ٢٧٨/٨٩١ ثمّ بويع له بالخلافة سنة ٢٧٩/٨٩٢. كان المعتضد رجل دولة حقيقيًا، ورجل إدارة ممتازًا،[1] كان قويًا ذكيًا، وكان من أبرز خلفاء بني العبّاس.

يلاحظ دومينيك سورديل[2] أنّ إجماع المؤرّخين على كيل الثناء على المعتضد يعزى في أغلب الأحيان إلى أسباب متباينة جدًا، إذ إنّ ما سعى إليه قبل كلّ شيء كان تهدئة الخواطر بالنسبة إلى القضايا السياسيّة الدينيّة «التي أثارها، منذ البداية، وصول العبّاسيّين إلى السلطة، والتي هدفت إلى حلّها التدابير التي دبّرها المأمون فالمتوكّل» علمًا بأنّ تلك القضايا لم تكن قد فقدت شيئًا من حدّتها في ذلك العصر. وقد عكف المعتضد «إجمالاً على تحسين الحال العامّة لا على إزالة الإساءات الفرديّة فحسب». وتنقل إلينا المصادر النصرانيّة الشعور نفسه بالنسبة إلى علاقة إدارته بالنصارى: «وظهر من نعم الله على النصارى بحسن رأي المعتضد فيهم ما شكروه وحمدوه عليه».[3]

وقد حسد بعض المسلمين عبدالله بن سليمان[4] كاتب المعتضد على الثّقة التي أولاه إيّاها مولاه واستجرؤوا على التلميح بأنّ الخليفة «يميل إلى النصارى». فلمّا اطّلع المعتضد على الأمر قال: «ما ولّيت نصرانيًا سوى عمر ابن يوسف للأنبار، والجهابذة يهود ومجوس واعتهدت عليهم لثقتهم لا ميلاً إليهم لكن لثقتي بهم». وأضاف مخاطبًا كاتبه عبدالله بن سليمان: «إذا وجدت نصرانيًا يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأنّ اليهود يتوقّعون عودة الملك إليهم وآمن من المسلم لأنّه

بموافقته لك في الدين يروم الاحتيال على منزلتك وموضعك وآمن من المجوس لأنّ المملكة كانت فيهم». باختصار، كان النصارى خَدَمَة مثاليّين لأنّهم لم يلوا السلطة في البلاد ولن يتولّوها من بعد. وهذا ما غلط فيه المعتضد بالضبط، ظنّ أنّ النصارى لا يصبون إلى هذه السلطة التي لم يلوها قطّ. ولكن موقفهم من الصليبيّين ومن المغول في ما يلي من الأيّام سيكشف عن هذه الصبوة.

XIII في خلافة المعتضد، وبعد خلوّ السدّة حوالي سبعة أشهر قُلِّد الجثلقة يوانيس[٥] مطران الموصل، الذي سيم جاثليقًا في ٢٥ ربيع الآخر ٢٨٠/١٥ تموز ٨٩٣. وقد دعم ترشيحه الحسين بن عمرو[٦] الذي صار من بعد كاتب عليّ، وليّ عهد المعتضد، ثمّ كاتبه لمّا بويع بالخلافة باسم المكتفي.[٧] وسوف نلقاه من بعد.

كان الحسين بن عمرو، كغيره من الكتّاب من قبله ومن بعده، عرضة لهجاء الشعراء، وقد حفظ ابن الأثير[٨] فيه هذه الأبيات (للحسين بن الضحّاك الخليع) التي ترقى إلى العام ٢٨٦/٨٩٩:

حسينُ بن عمرو عَدوُّ القرآنِ يصنعُ في العربِ ما يصنعُ
يقومُ لهيبَتِهِ المسلمون صفوفًا لفردٍ إذا يطلعُ
فإن قيلَ قد أقبَلَ الجاثليقُ تحفّى له ومشى يَظْلَعُ

هل نتوقّف عند البيت الأوّل؟ كان الشاعر يعتبر هذا النصرانيّ (وكلّ النصارى؟) عدوًّا للقرآن.

ثمّة نصير آخر من أنصار الجاثليق أقام له استقبالاً بكنيسة الأصبغ بدار الروم، ثمّ استقبالاً ثانيًا بدير كليليشوع بالجانب الغربيّ من دجلة، إنّه فروخان شاه.

ومن أعمال يوانيس، يذكر أنّه وسّع محلّ الإقامة الذي اختاره، في كنيسة الأصبغ، بشراء دار الروم التي كانت قد نقلت إليها جالية سمالو، وباشر، بذلك، العملية التي حوّلت الكلّ إلى دير الروم، مقرّ الجثلقة السريانيّة الشرقيّة. وقد ساعده عمر بن يوسف، الذي صادفناه من قبل، (بالمال أو بالنفوذ؟) على تملّك عمارة «الروم».

مع أنّ صليبا يصف يوانيس بأنّه «تامّ الفضل جامعًا للفضايل» فإنه يضيف أنّ الجاثليق «كان شديد الحبّ للمال». ويوافق ابن العبري على أنّه كان طمّاعاً، ويزيد أنّه كان نهمًا أيضًا. ويذهب ماري (الذي كان نسطوريًا مثله) إلى أبعد من هذا ليقول: «وكان يأكل كثيرًا ويشرب مفرطًا، حتى إنّ البعض كانوا يحملونه على الشرب ليروا ما يصنع إذا ما سكر».

أصيب يوانيس بسكتة عُمُر بعدها سنة، ثم مات في غرّة شعبان ٢٨٦/٩ أيلول ٨٩٩.

نصارى قرب العرش

نجد في بطانة الخليفة المعتضد، كما في بطانة من قبله، أطبّاء نصارى. وكان أشهر هؤلاء غالب[٩] الذي طبّب الموفّق من قبل. كان في خدمة غالب المتطبّب سبعون غلامًا، كلّهم نصارى، بلا شكّ، لأنّه كان يحظّر على النصارى اتّخاذ الغلمان من المسلمين.

وقد اتُّهم أحد هؤلاء الغلمان بشتم النبيّ.[١٠] إلاّ أنّ مركز الطبيب كان من القوّة بحيث لم يتجرّأ أحد من المسؤولين المسلمين على إقامة الحدّ على المتّهم. فأحيل المدّعون من باب إلى باب حتى اجتمعوا على القاسم بن عبيدالله[١١] ثم على المعتضد. ويذهب ابن العبري إلى أنّ الخليفة قال: «العربُ كَذَبَة» وبعث بعض العسكر ليخلّصوا الغلام. أمّا ابن الأثير فيروي أنّ الخليفة بعث المدّعين إلى القاضي البارع أبي عمر[١٢] الذي «دخل بابًا وأغلقه ولم يكن بعد ذلك للخادم ذكر ولا للعامّة ذكر اجتماع في أمره».

ولّما مات غالب المتطبّب بآمد سنة ٢٨٧/٩٠٠، كان الخليفة بها مع مؤنس فشرّفاه بحضور دفنه.

كان ابن الميت، أبو عثمان سعيد،[١٣]، طبيبًا أيضًا وعاش ببغداد حتى جمادى الآخرة سنة ٣٠٧/ أواخر تشرين الثاني ٩١٩.

ويشير عريب بن سعد القرطبي، صاحب صلة تاريخ الطبري[١٤] إلى نفوذ

النصارى في هذه الحقبة أيضًا: للترقّي في المجتمع كان لا بدّ للمرء، في ما قال، من أن يذكّر بعلاقاته بالنصارى قائلاً: «إنّ أهلي منكم وأجدادي من كباركم» ويروي الكاتب خبرًا وقع لجدّ الحسين بن القاسم الوزير مفاده: «أنّ صليبًا وقع من يد عبيدالله بن سليمان[١٥] جدّه، في أيّام المعتضد فلمّا رآه الناس قال: هذا شيء تتبرّك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم». تؤكّد هذه الإشارة الأخيرة أنّ نساء هذه الأسرة لم يكنّ قد دخلن الإسلام بعد. وقد رأينا سابقًا أنّه كان يسمح لهنّ بممارسة شعائر دينهنّ بحريّة.

يجدر بنا أن نلتفت مع ذلك إلى وضع الكتّاب النصارى الحرج، في هذه الخلافة كما في التي قبلها، إذا مال الدهر على أسيادهم المنقسمين على بعضهم. لمّا كسر المعتضد حمدان بن حمدون في المحرّم من العام ٢٨٢/ أواخر آذار ٨٩٥، هرب حمدان مع كاتبه النصرانيّ زكريّا بن يحيى. عبر الاثنان دجلة معًا واختبآ في بعض الأديرة (كان وضع الأديرة حرجًا أيضًا!) ثم هربا ثانية في مركب حتّى قبض عليهما معًا.[١٦]

ويبيّن الخبر التالي أنّ النصارى في عهد المعتضد تسلّلوا حتى إلى صفوف الأشباح: فقد كان في جملة الأشباح التي كانت تتراءى للخليفة راهب أبيض اللحية.[١٧]

XIV يوحنّا بن الأعرج

كان المعتضد لا يزال على عرش الخلافة لمّا مات الجاثليق يوانيس، في شعبان ٢٨٦/ الأحد ٩ أيلول ٨٩٩. ظلّ كرسيّ الجثلقة خاليًا مدّة سنة إثر مكيدة لا تكاد تصدّق ولا كانت لتعنينا مباشرة هنا لولا أنّ الجاثليق المنتخب قانونيًّا يوحنّا بن عيسى (أو بن مرتا)[١٨] لم يلقَ معارضة عنيفة من قبل مطران الموصل يوحنا بن بختيشوع المتطبّب، ولولا أنّ الفريقين لم يحشدا كلّ أعوانهما في الدواوين من بين نصارى ومسلمين.

أهمّ الشخصيّات هم الخليفة المعتضد وبدر الأمير النافد الأمر الذي ولي النظر

في المظالم[١٩] في ذلك الوقت. أمّا عبيدالله بن سليمان فكان لا يزال في الوزارة (٢٧٩ ـ ٢٨٨/ تشرين الأول ٨٩٢ ـ نيسان ٩٠١)، والواقع أنّ ابنه القاسم كان ينوب عنه في غالب الأحيان (قبل أن يخلفه) «وكان يُكلّف عادة بعرض الطلبات على الخليفة والعمل كاتبًا في خدمة بدر»[٢٠].

أجرى بدر التحقيق في إنصاف تامّ. أمّا أعيان النصارى الذين استجوبهم فلم يُسمّوا كلّهم. ومع ذلك نجد أسماء:

- كاتبه، مالك بن الوليد[٢١].
- أخوين طبيبين من بني أسلم، كانا يسكنان بالزعفرانيّة على بعد ١٨ كلم إلى الجنوب من بغداد وفي منتصف الطريق إلى المدائن.
- داود بن سلم، غير معروف، إلاّ أن يكون أحد الاثنين السابقين أو أن يكون الطبيب داود بن ديلم[٢٢] الذي يذكره ابن العبري.

بعد المشاورات الفرديّة، عقد بدر جلسة عامّة ضمّت الجاثليق المنتخب ومنافسه والأساقفة والكتّاب والأطبّاء. وقد كان من شأن غموض القانون الكنسيّ السريانيّ الشرقيّ في ما يتعلّق بانتخاب الجاثليق، ولا سيّما افتقاره إلى تحديد واضح لدور العلمانيّين، أن دفع بعض الأطبّاء إلى تدخّل حاسم: «إلينا نحن البغداديّين يعود انتخاب مَنْ نريد وما الأساقفة إلاّ أدوات يتمّ بهم الأمر».

يبدو أنّ الأحبار توصّلوا إلى إقناع الأمير بأنّ دورهم لم يكن يقتصر على التنفيذ. ثم تبيَّن أيضًا أنّ يوحنا بن بختيشوع قد حبس زميله مطران جنديسابور، الذي كان يعتبر السايوم الأوّل شرعًا، ليمنعه من الانتخاب. على أيّة حال كانت نتيجة الانتخاب مؤكّدة قانونيًّا: فاز يوحنّا بن عيسى.

ولّما طالت المناقشة إلى ما بعد صلاة المغرب قُدِّم طعام الإفطار للمجتمعين (لأنّ ذلك كان في صوم رمضان) واستمرّت المناقشة. وقد أصرّ بدر على السؤال: الا يجوز القبول بيوحنّا بن بختيشوع؟ ثم تساءل القاسم بن عبيدالله عن المزايا المطلوبة في المرشّح ليصير جاثليقًا. فأجابه ابن بختيشوع: العلم أوّلاً. وقد أتاح هذا الجواب الفرصة لمالك وداود ليقولا له: «فهو أعلم منك...» أخيرًا اقترب الجمع

من الأسباب الحقيقيّة المانعة من اختيار ابن بختيشوع، فقال أحد الأساقفة: «لا يصلح لنا جاثليق يلعب بالكلاب والقرود» (وفي ذلك تعريض بسيرة مطران الموصل الدنياويّة). ولكن كان ثمّة أمر آخر. ولّما حشر الأساقفة في آخر معاقلهم أقرّوا بالمانع القانونيّ: كان ابن بختيشوع ابن سِفاح مولودًا من سريّة لأبيه ولذلك لم يكن أهلاً للمناصب الكنسيّة. عندها ردَّ عليهم القاسم: «فلِمَ جعلتموه على الموصل مطرانًا؟» فوجدوا لذلك مخرجًا وقالوا: «اختاره أهل الموصل وهم لا يعلمون ولّما علموا ذلك تندَّموا». تظاهر المحقّقون بالقناعة وعذل بدر ابن بختيشوع على جراءته.

ولّما كان من غد ذلك اليوم وافق الخليفة على حكم الأمير، وصار من الممكن سيامة يوحنّا بر أبجر. حرد ابن بختيشوع مدّة عند أصحابه الأطبّاء بالزعفرانيّة. إلاّ أنّه حضر السيامة في ١٣ رمضان ٢٨٧/ الخميس ١١ أيلول ٩٠٠.(٢٣)

إنّ العهد الذي قطعه الجاثليق الجديد على نفسه أمام الرعيّة يختصّ بسياسة الأمور الداخليّة للكنيسة وربّما خرج عن نطاق موضوعنا، لولا أنّه يفضح آفة ذلك الزمن: الرشوة والفساد العام، وفي الكنيسة الاتّجار بالدين.

مات المعتضد سنة ٢٨٩/٩٠٢ ومُدَّ في أجل يوحنا بن الأعرج ثلاث سنوات أخَر.

الحواشي

(١) ابن الطقطقي، ص ٢٠٧.

(٢) Politique religieuse, p. 15-21

(٣) ماري، ص ٨٤.

(٤) نجد فيما بعد، ص ٩٣، أنه حرّر قرار الخليفة في شأن ميراث الذمّيين. هل هو ابن الطبري الذي ختم حياته كمؤدِّب للمعتضد، على ما يرويه التنُوخي؟ الفرج (طبعة الشالجي)، ج ٣، ص ١١٧ - ١١٨.

(٥) ماري، ص ٨٣ - ٨٥، صليبا، ص ٨٠ - ٨١. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢١٨ - ٢٢٢، إيليا النصيبيني، تحت العام ٢٨٠، ٢٨٦ والحاشية العربية ص ٧٤.

(٦) ماري، الحسن بن عمر، SOURDEL, **Vizirat abbaside**: الحسين بن عمرو، ص ٣٣١، الحاشية رقم ٦، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤، ٧٣٧.

(٧) الطبري، ج ٣، ٢١٤١، ٢١٨٨، ٢٢٠٧، ٢٢٢٤، ٢٢٣٠.

(٨) الكامل، ج ٧، ص ٤٩٥.

(٩) ابن أبي أصيبعة، ص ٣١١ ـ ٣١٢.

(١٠) الكامل، ج ٧، ص ٤٨٤، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٧.

(١١) إذا كان الحادث قد وقع سنة ٨٩٧/٢٨٤، فإن القاسم لم يكن قد صار بعد وزيرًا، **Vizi-rat**, p.373

(١٢) محمد بن يوسف بن يعقوب الحمادي. انظر: MASSIGNON, **Passion**[2], p. 482-485

(١٣) أنظر مراجع عنه في الأعلام للزركلي، ج ٣، ص ١٥٢. يضاف إليها ابن أبي أصيبعة، ص ٣١٢.

(١٤) ص ١٤٢.

(١٥) وزّر من ٢٧٩ إلى ٢٨٨، انظر أيضًا: BOWEN p. 302

(١٦) الطبري، ج ٣، ص ٢١٤٥.

(١٧) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٣١٩، في العام ٨٩٦/٢٨٣.

(١٨) ماري، ص ٨٥ ـ ٨٩، صليبا، ص ٨١ ـ ٨٤. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٢٢ ـ ٢٣٠، إيليا النصيبيني، تحت العام ٢٨٧، ٢٩٢ والحاشية العربية ص ٧٤.

(١٩) **Vizirat**, p. 341

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٣٣٢.

(٢١) راجع **Vizirat**, p. 395, 437 no. 4, 440 . كان في خدمة عبدالله، نائبًا عن أبيه، الخاقاني (٩١٢ ـ ٩١٣) وفي القصر سنة ٩٢٤ ويفرز البريد لأحمد الخصيبي ٩٢٥ ـ ٩٢٧.

(٢٢) الصفدي، ج ١٣، ص ٤٦٩ الفقرة ٥٧٠، (ت ٣٢٩ هـ)، ودبلم، المصدر نفسه ج ١٤، ص ٣٤، الفقرة ٢٩.

(٢٣) يصحّح نصّ صليبا العربي ص ٨٣ س ٤، حيث يجب أن يكون اسم الخليفة المعتضد بدلاً من المعتمد. وقد صحّحت أنا أسماء عدّة حسب المصادر الإسلامية منها القاسم بدلاً من قسم، مالك بدلاً من ملك، الخ.

١٧ ـ المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥/٩٠٢ ـ ٩٠٨)

كان أبو محمد عليّ المكتفي بالله بن المعتضد مقيمًا بالرقّة مع كاتبه الحسين بن عمرو النصرانيّ لّما وصله الخبر بوفاة أبيه ببغداد.[١]

سار الخليفة الجديد في سياسته الدينيّة «مقتفيًا فعال أبيه»[٢] حتى في شؤون النصارى. وقد ورث عن أبيه أيضًا القاسم بن عبيدالله الوزير الذي غلب عليه كليًّا.[٣] وكان المكتفي على وجه الإجمال سمحًا: فقد «أمر بهدم المطامير التي كان المعتضد اتّخذها لعذاب الناس».

ويبدو أنّ النصارى استمرّوا في القيام بوظائفهم في مختلف الدواوين.[٤] وقد ساق ذلك الأميرَ الشاعر ابن المعتزّ (ت ٢٩٦/٩٠٨) إلى القول، وقد سئم من صدود الوزراء والكتّاب عنه، بعد ما كاتبهم في حوائجه نظمًا ونثرًا:

أفما ترى بلدًا أقمتُ بِهَ ... أعلى مَساكنِ اهلِهِ خُصُّ
وولاتُه نَبَط زَنادِقَة ... مَلأى البُطونِ، وأهلُه خُمصُ[٥]

أمّا الذي كثُر الحديث عنه من بين الكتّاب النصارى فهو الحسين بن عمرو كاتب الخليفة ونديمه.[٦] كان قهرمان المكتفي، وقتها كان وليّ العهد، بالريّ سنة ٢٨١/٨٩٤. ثم قلّده المعتضد سنة ٢٨٦/٨٩٩ النظر في أعمال آمد. وقد لازم المكتفي منذ تولّيه الخلافة سنة ٢٨٩/٩٠٢.

كان كاتب ضياع الولد والحريم والنفقات، وكاتب ابن الخليفة، حتى كاد أن يصير وزيرًا فعليًّا، تحت ستار كاتبه المسلم إبراهيم بن حمدان الشيرازي، لّما سعى

القاسم بن عبيدالله لدى الخليفة في نكبته، سنة ٢٩٠/٩٠٣، على اختلاف الرواية في ما آل إليه آمره. إذ تذهب رواية الطبري المخفّفة إلى أنّه حُبس ثم نُفي، أمّا رواية التنّوخيّ فتذهب إلى أنّه نُفي إلى الأهواز ثم أُعدم.

بين حرب وحرب (ضد القرامطة، الروم، الطولونيّين الذين دالت دولتهم. . .) كانت الحياة تجري ببغداد ناعمة مترفة. وقد سجّل ابن العبري الملعوب الذي لعبه بعضهم سنة ٩٠٢ على ابن الخليفة، جعفر، الذي كان مولعًا بالتنجيم. فقد طلب إليه فأل «مولود»، وُلِدَ في ذلك اليوم، وبعدما تبحّر الأمير في التنبّؤ بمستقبله قيل له إنّ «المولود» لم يكن إلاّ. . هرير.

إستمرّ الأطبّاء النقلة في أعمالهم. وكان من أشهرهم في تلك الحقبة يوسف القسّ الملقّب بالساهر، وقد فسّر البعض قلّة نومه بورم في دماغه.(٧)

على أنّ شخصيّات الدرجة الأولى اختفت قبل موت الجاثليق يوحنّا بن الأعرج. بعد نكبة الحسين بن عمرو الكاتب، فقَدَ الطبيب أبو يعقوب إسحق بن حنين العظيم، في تشرين الثاني ٩٠٤، نصيره القاسم بن عبيدالله الوزير الذي كان «يفشي إليه أسراره» ويكاتبه نظمًا.(٨)

وقبل سنة من وفاة الوزير عقدت في ديوانه مناظرة في: «أيّ الأطبّاء كان الأقدم والمقدَّم؟» جمعت أبا العبّاس بن فراس (؟) وأبا العباس عبدالله بن شمعون الذي «كان متضلّعًا من علوم الأقدمين». وقد كانت مناسبة ليكتب إسحق بن حنين كتابه في تاريخ الأطبّاء،(٩) المستلهم من يحيى النحويّ، ويكتب أيضًا لعبدالله بن شمعون «مقالة في الأشياء التي تفيد الصحّة والحفظ وتمنع النسيان».(١٠)

مات يوحنّا بن الأبجر الجاثليق في ٨ رجب ٢٩٢/١٦ أيار ٩٠٥. وكان قد ظلّ وفيًا للعهد الذي أخذه على نفسه ولم يمس، عُمرَه كلّه دينارًا ولا درهمًا، بل كان يفرّق واردات القلّية على ذوي الفاقة والمحتاجين.

لم يعد على المسرح أحد من كبار منظّمي المعارك الانتخابيّة، ولا يبدو أنّ الحكّام كانوا يبالون باختيار خلف له. أمّا الذي انتُخب بعد خلوّ السدّة لفترة عشرة أشهر فكان

XV أسقف المرج، إبراهيم أبرازا.[١١] وقد سيم في ١١ ربيع الأوّل ٢٩٣/ ١٠ كانون الثاني ٩٠٦.

كان إبراهيم على الضدّ من سلفه، إذ لم ينتخب إلاّ بعدما فرّق رشى سخيّة في الأساقفة المنتخبين (من مال صرّة صارت إليه بصورة غير متوقّعة) وإثر تدخّل عبدالله بن شمعون الكاتب الذي رأيناه من قبل نصيرًا لإسحق بن حنين.

إنّ جثلقة إبراهيم الطويلة (٣٢ سنة) التي بدأت في خلافة المكتفي قد طوت خلافتَيْ المقتدر والقاهر لتنتهي في حزيران ٩٣٧، تحت خلافة الراضي. وكما يقول ماري «تقلّبت على أيّامه الدول»، وسوف نرى في ما يلي كيف كان ذلك.

النصير المُبعَد

في خلافة المكتفي، على ما قيل، تخلّص إبراهيم من وصاية عبدالله بن شمعون الكاتب الذي كان رجّح انتخابه.

وكان هذا الكاتب قد اشترط عليه شروطًا ثلاثة ليمنحه التأييد:

- أن لا يعيد الجاثليقُ تادوروس، مطران باجرمي المعزول إلى كرسيه.
- أن يرفع مجلس عبدالله بن شمعون إذا حضر.
- أن يشاوره في ما يعقده ويحلّه.

ظلّ الشرطان الأخيران حبرًا على ورق، أمّا الشرط الأوّل فقد خرق بشكل فاضح: ذلك أنّه بعدما أقصى إبراهيم المطران فترة إلى دير الأنبار، أعاده إلى كرسيّ باجرمي (داقوق - كركوك).

بدأ الكاتب بالإعراب عن سخطه بأن كفّ عن تناول القربان من يد الجاثليق مع استمراره في حضور الصلوات بالكنيسة. ولّما لامه الجاثليق قال إنّ ذلك يستحيل عليه ما ذكر اسم إبراهيم في سفر الأحياء.

بعد مدّة، ذهب إلى أبعد من هذا وانتقل إلى مذهب الملكانيّة، ووصلهم جهرًا بالهبات الكثيرة وأسدى إليهم خدمات شتّى.

ويجب أن ننتظر حتّى العام ٩٢٠ لنسمع شيئًا جديدًا عن عبدالله بن شمعون الكاتب، وذلك لّما نهبت داره[١٢] ببغداد إبّان شغب العامّة في خلافة المقتدر.

قضية تادوروس

إنتهت قضيّـة تادوروس، المطران الذي أعـاده إبراهيم عسفًـا إلى كـرسيّ باجرمي، نهاية تعسة. ربّما لم يُرِد الجاثليق الطيِّب القلب أن يصدِّق ما كان رُميَ به المطران من تهم ولكنّه اضطرّ إلى تصديق ذلك لّما ذهب إلى داره واستقبلته عشيقة المطران ولم تكتم عنه علاقتها بتـادوروس. حاول المـذنب الاستغاثـة بالحسن بن وهب، أخي الوزير القاسم بن عبيدالله، ليتملّص من الإدانة. ولّما أعلن حرمانه في كنائس بغداد وكنائس رعيّته «قطع زنّاره».

لم يكن في وسع السلطات المدنيّة إلاّ أن تعلن رضاهـا رسميًا عن إسـلام المطران. إلاّ أنّ عليًّا بن عيسى[١٣] أمر بالحطّ من الرزق الذي يُجرى على المسلم المتجدّد، قال: «هذا كان في الكفر زاهدًا (؟) وفي دين الإسلام يجب أن يكون أعظم زهادة». فلمّا عصى أهل شهرزور كتب تادوروس رقعة تضمن فتحها، ولّما وقف على الرقعة عليّ بن الحسين (؟)، أحضره وقرّره أنّها رقعته، فلّما أقرّ قال له: «يا ملعون، ما أردتَ قبّحك الله بالإسلام التديّن به، لكن كيما تُخرج ما في نفسك على المسلمين، وإلاّ فأنت من قوّاد الجيوش وأهل الحرب»، ومُنع ممّا كان يُجـرى عليه من الرزق. فعاش من التطبُّب بباب النوبي ومن صدقات إبراهيم الجاثليق، ثمّ مات في بعض السُّبُل.[١٤]

الحواشي

(١) الطبري، ج ٣، ص ٢٢٠٧.
(٢) المسعودي، التنبيه، ص ٣٧١.
(٣) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٣٥٨.
(٤) ولم يَحُل هذا دون استمرار النصارى في دخول الإسلام على عهده، ومنهم مثال البلاغة قدامة بن جعفر، الفهرست، ص ١٣٠.

(٥) ديوانه، بيروت، د.ت.، ص ٢٨٥، مذكور في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز، ج ١، ص ١٦٢.

(٦) الطبري، ج ٣، ص ٢١٤٠، ٢١٨٨، ٢٢٠٧، ٢٢٢٤، ٢٢٣١، Vizirat, p. 331 no. 6, 353-354، مع مصادر؛ BOWEN, Ali b. 'Isa, p. 59

(٧) ابن أبي أصيبعة، ص ٢٧٨، ابن القفطي، ص ٢٥٦.

(٨) انظر المصادر في شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، لشيخو، ص ٢٤٨ - ٢٥٠، توفي سنة ٢٩٨ - ٢٩٩/٩١١، الكامل، ج ٨، ص ١٧، ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٥٧.

(٩) تجد النصّ مع ترجمته الانكليزية بقلم فرانز روزنتال في: Oriens, VII (1954), p. 55-80

(١٠) ابن أبي أصيبعة، ص ٢٧٥.

(١١) ماري، ص ٨٩ - ٩٤، صليبا، ص ٨٣ - ٨٤، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٢٩ - ٢٤٥، إيليا النصيبيني، تحت العام ٣١٠ للهجرة والحاشية العربية ص ٧٤ - ٧٥. - اقتبس في هذا الفصل بعض المعطيات من سيرة حياة إبراهيم الثالث في: O.C.P. XLIV (1978) p. 420-441

(١٢) تاريخ الزمان، ص ٥٣.

(١٣) لئن كان وقتئذٍ وزيرًا فهذا يعني أن القضيّة تمادت حتى عهد المقتدر بين ٣٠١ و٩١٣/٣٠٤ - ٩١٧.

(١٤) التفاصيل في سيرة إبراهيم الثالث.

١٨ ـ المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠/٩٠٨ ـ ٩٣٢)

كان أبو الفضل جعفر المقتدر بالله[١] بن المعتضد في الثالثة عشرة من عمره لّما أُخذت له البيعة بالخلافة. وقد تقاسمت السلطة النساء، كما هو متوقّع، ولا سيّما أمّه شَغَب[٢] الروميّة، والقهرمانات أم موسى[٣] أو ثُمل الدُلفيّة، والخصيان الذين صار بعضهم قادة عسكر، كمؤنس، وغيرهم من الشخصيّات، وبخاصّة الوزراء، الذي نرى منهم خمسة عشر وزيرًا يتعاقبون في عهده.[٤] من وجهة النظر الدينيّة، كانت حياته الشخصيّة «دنياويّة جدًّا». ويرى ماسينيون أنّ «نفسيّة المقتدر بقيت نفسيّة ولدٍ أريبٍ ناضج قبل أوانه، صاحب نزوات نهم، لا صبرَ له على العمل ولا صبرَ له عن اللذائذ، واضح الاهتمام برسوم دار الخلافة وآداب المعاشرة، قادر على البتّ في أمور الدولة إذا كان صاحيًا، متضجّر متقلّب المزاج، لا همَّ له ولا همّة عظيمة...».

إنّ أوّل ما يطالعنا من الشؤون المتعلّقة بالنصارى في خلافة المقتدر، هو شأن علميّ: في حوالي هذه الفترة قدم إلى بغداد من مرو يوحنّا بن حيلان الفيلسوف النسطوريّ المعروف بأنّه كان معلّم الفارابي.[٥]

مع ذلك شهدت بداية هذا العهد هبّة رسميّة ضد النصارى في العام ٢٩٥/٩٠٨ على قول ابن القيّم،[٦] أو في العام ٢٩٦/٩٠٩ على قول عريب القرطبيّ[٧] وابن تغري بردي[٨] وابن كثير،[٩] إلخ. فقد نصّ أمر من الخليفة بإبعاد النصارى واليهود عن كتابة الدواوين وحصرهم في الصيرفة والطبّ وفرض عليهم لبس الغيار وغيره من العلامات المميّزة في زيّ الثياب وقد أعدم أبو ياسر النصرانيّ كاتب مؤنس[١٠] الخادم، في ما قيل.

ما كانت دواعي هذا الأمر؟ يقول لنا عريب: «وكان النصارى في آخر أيّام العبّاس بن الحسن قد علا أمرهم وغلب عليهم الكتّاب منهم، فرُفِعَ في أمرهم إلى المقتدر، فعهد فيهم بنحو ما كان عهد به المتوكّل من رفضهم واطّراحهم وإسقاطهم عن الخدمة، ثمّ لم يدم ذلك فيهم».

والحق أنّ ابن الفرات الوزير الجديد نفسه، كان له أربعة ندماء من النصارى[١١] هم: أبو بشير عبدالله بن الفروخان[١٢]، أبو الحسين سعيد بن إبراهيم التستري، أبو منصور عبدالله بن جبير وأبو عمرو سعيد بن الفروخان، هذا عدا عن النصارى الذين كانوا في خدمته.

بديهيّ أن يشاطر هؤلاء الموالي مولاهم في السّراء والضراء. من ذلك ما يرويه التنوخيّ[١٣] من نكبة أبي منصور عبدالله بن جبير لدى عزل ابن الفرات عن وزارته الأولى سنة ٢٩٩/ تموز ٩١٢. فمن بعدما حبس أبو منصور طلب منه مال. وإذ أبى جيء بحلاّق وكلّف بأن ينتف بالمنقاش ربع شعر رأسه. ولّما لم يتنازل أمر الحلاّق بنتف الربع الثاني. ولكن الكاتب توصّل إلى رشو الحلاّق حتى يكتفي بحلق هذا القسم من رأسه. فسُكب القير على الجرح ولكن القير لم يكن مفرط الحرارة (هل دفع رشوة أخرى؟). عندئذٍ أقرّ بدفع سبعين ألف دينار. ثم عالجه الحلاّق بالزيت، إلاّ أنّ القسم المنتوف بقي «إلى الآن»، على قول التنُوخي.

لنعد إلى العام ٩٠٨ـ ٩٠٩، والأمر القاضي بمنع استخدام النصارى في الدواوين. ما كانت نتائجه؟ ربّما عاد إلى هذه المناسبة إسلام أبي زكريا سعيد السوسي، المسمّى بخلف. و«كان نصرانيًا في حداثته، على قول التنوخي،[١٤] ولكنه أسلم وحسن إسلامه». وهو يذكر في العام ٩٢٠/٣٠٨ كرجل مسموع الكلمة عند السلطان، ويذكر أنّه جمع ثروة عظيمة ولم يفقد شيئًا من مزاياه، ويؤثر عنه أنّه كان تقيًا.

ومع ذلك نستمر في رؤية الكتّاب النصارى. ففي جمادى الآخرة ٢٩٦/ منتصف شباط ٩٠٩ خلعت خلعة على ابن دُليل الذي كان آنئذٍ كاتب محمد بن أبي الساج.[١٥]

ويضع ابن العبري هنا،[١٦] في العام ٢٩٩/٩١١ - ٩١٢، خبرًا عن المقتدر الذي فرّق ألف دينار ذهبًا على جواريه المغنيات. وإذ طالب الترك بأرزاقهم فلم يجدوها انهالوا على الكتّاب والأغنياء بالتعذيب ليستخلصوا منهم الأموال. ولّما كان ابن العبري قد ارتكب ههنا مفارقة تاريخيّة بالنسبة إلى هذه السنوات،[١٧] سنكتفي بالنظر إلى الحادث من دون الالتفات إلى تأريخه. لئن كان الحادث قد وقع بعد عشر سنوات من الفقرة السابقة التي تصف البيعة للمقتدر بالخلافة، فلا بدّ أن يكون الخليفة في الثالثة والعشرين من عمره وبذلك نكون في العام ٣٠٥/٩١٧ (؟) وعلى أيّة حال ليس ثمّة من ذكر لكون الكتّاب الذين عذّبوا من النصارى تحديدًا.

لا محل إلاّ لخبر واحد ببغداد

إن نفوذ الجاثليق إبراهيم في قصر المقتدر يقاس بالقرار الذي استحصل عليه سنة ٣٠١/٩١٣، ضدّ بطريرك الروم الملكانيين الياس الأوّل الذي قدم إلى بغداد لسيامة أسقف لإيرينوبوليس (مدينة السلام).[١٨] وما المكائد التي سبقت ظفر الجاثليق إلاّ المكائد المعروفة بين ملتين متحاربتين: اتّهامات متبادلة بالتجسّس، ملاحظات الوزير علي بن عيسى الضجرة: «أنتم النصارى كلّكم سواء في الحقد الذي تضمرونه لنا، ولا تحبّوننا إلاّ مراءاة»، أو ردود الكاتب النصرانيّ اصطفن بن يعقوب (صاحب بيت مال الخاصّة عند مؤنس الخادم) الذي قال للوزير: «أنت لا تفرّق بيننا عندما تشتهي سفك دمائنا». رشا (من جهة النساطرة فحسب) وصلت حتى الثلاثين ألف دينار، وربّما رعاية السيدة والدة المقتدر بفضل أقارب غالب المتطبّب، وفيهم المرضعات. . . لعبت هذه العناصر المتضاربة كلّها حتى غلب إبراهيم: فرض الوزير غرامة على الياس وأخذ توقيعه بأنّه لا يحقّ له أبدًا التلقّب بلقب الجاثليق ببغداد ولا بتسمية مطران مقيم بها. وقد شكّل عهد المقتدر لإبراهيم اعترافًا بتفضيل جاثليق النساطرة على غيره من الرؤساء الدينيين النصارى من يعاقبة وملكانيّة. وسوف ننظر من بعد في هل نستطيع اعتبار هذا العهد «اعترافًا» حقيقيًا بشرعيّة الكنيسة النسطوريّة، وفي ما كان يعنيه هذا العهد بالنسبة إلى موقف السلطة الإسلاميّة في ذلك الزمن.

... تعاقب الوزراء يولون ويخلعون بمكائد الحريم والحرس البريتوري الرومي: وفي وزارة الخاقاني[19] (299 - 301/912 - 913) نصادف مرّة ثانية الكاتب النصرانيّ مالك بن الوليد، في عداد الذين يعوّل عليهم في المهمّات عبدالله أخو الوزير[20] ونائبه.

لن أتكلّم هنا عن العزائين النفسيّ والجسديّ (من حيث الافراج عن المساجين) اللذين جاءت بهما للملكانيّة بخاصّة سفارات الروم إلى المقتدر، وذلك لأنني استفضت في الكلام عنهما في مقالتي Rum à l'est de l'Euphrate. إن البذخ الذي استقبلت به سفارة العام 917 نموذج لصفة تلك الأعياد.[21]

مع ذلك، فقد تولّى الوزارة رجل يتحدّر من آباء نصارى هو علي بن عيسى الجرّاح الذي تقلّد الوزارة من 913 حتى 917، ثم من 927 حتى 928. ويذهب ابن العبري إلى أنّ هذا الوزير كان يضمر حقدًا حقيقيًا على الجاثليق إبراهيم. وأنّه عمل كلّ ما استطاع عمله ليجرّده من امتيازاته.[22]

ربّما كان الجاثليق قد أساء التصرّف مع الوزير إذ سأله الوزير: «مَنْ هم النصارى الذين يتناولون القربان بالملعقة؟» أجاب إبراهيم «قد تعلم أنهم غير النساطرة»، ملمحًا بذلك إلى نسب بني الجرّاح[23] في النصارى. يقال إنّ هذا الجواب الذي اعتبره الوزير جارحًا كان في أصل العداوة بين الوزير والجاثليق. وقد «صار النصارى يكرهون الجاثليق لأن الوزير كان يكرههم بسببه» على قول ابن العبري.

ويروي ابن القفطي[24] في هذا الشأن قصّة ذات مغزى. لما كان الطاعون بالسواد، وكان الأطبّاء لا يكفون للقيام بالعمل، طلب سنان بن ثابت بعض التعليمات من الوزير: هل يجب أن يعالج الذمّيّون والدواب فضلاً عن المسلمين. فأجاب الوزير: «الناس قبل البهائم والمسلمون قبل أهل الذمّة». ومع ذلك يجوز لنا أن نخمّن أن الأطباء النصارى قد استفادوا من رعاية السيدة أمّ المقتدر التي أنشأت أربعة بيمارستانات ببغداد.[25]

في خضم الصراعات على النفوذ في تلك الحقبة كان النصارى ينعمون تارة

بالمال والجاه وتارة يحرمون من كل شيء أو حتى يُقتلون تبعًا لمصير مولاهم. فمن ذلك أنّ نديمًا نصرانيًا آخر من ندماء ابن الفرات، هو أبو الحسن سعيد بن إبراهيم التستري (وربّما غيره من الندماء أيضًا) قبض للمرة الأولى مع مولاه سنة ٩١٨/٣٠٦. وعاد إلى السلطة سنة ٩٢١/٣١١. ثم قبض على التستري مرّة ثانية مع ابن الفرات سنة ٣١٢/ ٢٢/، وأعدم الوزير. ولا نعلم هل لقي كاتبه المصير نفسه.[٢٦]

في العام ٩٢٠/٣٠٨، إذا صحّ تأريخ ابن العبري (؟) وقع شغب ببغداد (بسبب ارتفاع الأسعار فيما يبدو) فخُلعت أبواب السجون وأطلق اللصوص والمجرمون، فاعتدوا على النصارى (وحدهم؟) ونهبت بعض دور الكتّاب، ومنها دار عبدالله بن شمعون. فواقعهم صاحب بغداد، فقُطعت أيدي المجرمين.[٢٧]

لنذكر في هذا التاريخ ٩٢٢/٣٠٩، مأساة الحلاّج. من بين المصادر النصرانيّة يذكر ابن العبري في تاريخ الزمان[٢٨] أنه: «ألقي القبض على زاهد عربيّ في بغداد يُقال له الحلاّج ادّعى أنّه إلّه متجسّد وصار يتظاهر بأنّه يجترح المعجزات. فأمر الخليفة بجلده ألف جلدة ثم قطعوا يديه ورجليه وأحرقوا جثّته ورفعوا رأسه على رمح وطافوا به بغداد وفارس».

في العام ٩٢٣/٣١١ هدمت كنائس للمكانيين بفلسطين (الرملة، عسقلون، قيصرية) وكذلك في تنّيس بمصر من دون أن يؤتى على ذكر السبب.[٢٩] ولّما اشتكى النصارى إلى المقتدر، أمر الخليفة بإعادة عمارة ما تهدّم. ثم هدّمت هذه الكنائس في الشغب ثانية، فأعيد بناؤها مرّة أخرى.

ولا يصدر هذا كلّه عن سياسة للسلطة محدّدة، إنّما نجد أنفسنا أمام تقلّبات أمزجة العمّال المحلّيين (وهذا يدلّ على ضعف السلطة المركزيّة) أو فورات العامّة يهيّجها خطيب، أحدُ كلامًا من المألوف، استثارته قلّة تبصّر النصارى حينًا أو عجرفة كتّابهم أحيانًا.

كانت الحال العامّة في المملكة مؤاتية لمثل أعمال العنف هذه. فقد أطلق المسلمون والنصارى على العام ٩٢٤/٣١٢ اسم «سنة الهلاك»[٣٠] بسبب فظاظة

المحسِّن ابن الوزير ابن الفرات وقسوة تدابيره. وكان الوزير نفسه[٣١] في السنة الأخيرة من وزارته التي انتهت بإعدامه.

الكتّاب في كل مكان

على أنّ هذا لم يَحُل دون احتفاظ الكتّاب النصارى بوظائفهم. يذكر عريب[٣٢] أيضًا أربعة نصارى في العام ٩٢٥/٣١٣: بنان (؟)، مالك بن الوليد، الذي كان آنئذٍ بديوان الدار وابن القنائي الذي كان وأخوه بديوان الخاصّة وبيت المال. ويظهر الثاني، أي مالك، أيضًا في السنة التالية مشرفًا على فرز بريد أحمد الخصيبي.[٣٣]

ونلمح أيضًا في العام ٩٢٨/٣١٦ كاتبًا نصرانيًا هو إبراهيم بن أيوب[٣٤] الذي كانت إليه الجهبذة وأرزاق المصافيّة[٣٥] في وزارة محمد بن علي بن مقلة. وقد كان تولّى النظر في أحوال بيت المال يومًا بيوم في وزارة علي بن عيسى الثانية للمقتدر.

ونجد في هذه الفترة (قبل ٩٣٣/٣٢١) وفي خدمة مؤنس القائد دانيال ابن العباس الكاتب، صهر غالب المتطبّب الذي رأيناه إلى جانب المعتضد. أمّا صهره الآخر سعدون فهو كاتب يانيس، وهو أمير من أصل رومي كان صهرًا لبدر.

وقد أعطت هذه العائلة داية للمقتدر ابن شغب «حسب القاعدة التي وضعتها السيدة شجاع في خلافة المتوكّل»، وكان اسم الداية نظم وتوفيت ٢٩٨ ـ ٩١٠ ـ ٩١١.[٣٦]

لا نعجب، متى رأينا كثافة حضور النصارى في محيط الأمير، من قول القائل آنئذٍ[٣٧] أن من أراد الوزارة فعليه برضا إبراهيم [٣٨] كاتب الأمير ورضا اصطفن بن يعقوب كاتب مؤنس القائد.[٣٩] وكما جرى العرف نجد النصارى في كل مكان وبالتالي مع جميع الفرقاء والأحزاب، حسبما تمليه صدف الوظيفة. من ذلك أنّ أبي صالح مفلح رئيس الخصيان السود، وعدو مؤنس القائد، كان له كاتب نصرانيّ خصيّ أيضًا.[٤٠]

أمّا موقف الجاثليق إبراهيم من هؤلاء الكتّاب النافذين، فلدينا خبر يدلّ على أنّه كان يتعالى عليهم. يروى أنّ علون كاتب يونس (أو مؤنس) لّما عاد من دمشق قصد مقرّ الجاثليق، فمنعه الحبر من الدخول يومه كلّه. وقد تكفّل اثنان من أصدقاء الكاتب النصارى، هما أبو عمر والد متى، وأبو الفرج إسرائيل بن عيسى كاتب الياقطاني[41] بإيصال قول الجاثليق: «تخرج إلى بلاد مصر والشام وتبتاع لبيع الملكانيّة أملاكًا بخمسة عشر ألف دينار ولبيع النسطور بعشرة آلاف دينار والله لا وصلت إليّ إلاّ بعد أن تحمل عشرة آلاف دينار ليكون لي الفضل على الملكانيّة». وقد سوي الأمر بخمسة ألاف دينار[42] وأدخل المذنب إلى حضرة الجاثليق النزق.

إبراهيم يتّجر بالدين؟

إن رنين الدنانير حول كرسيّ الجثلقة يؤكّد ظنّنا بأنّه كان على المرء أن يكون قديسًا مثل يوحنا بن عيسى لكي يفلت من حمى المال التي سيطرت على تلك الحقبة. الكلّ كان للبيع أو للشّراء.

لم تزل الأمور، حتى الكنسيّة منها، تسير بشكل أفضل عندما يسمَع (بضم الياء) أصحاب النفوذ «صلوات رنّانة راجحة يفهمونها جيدًا» كما كان يقول ايشوع يهب الثالث. نشير على سبيل المقارنة إلى أنّ الوزير الخاقاني، معاصر إبراهيم عيّن سبعة عمّال في المركز نفسه وعزلهم عنه في مدّة عشرين يومًا.[43]

وقد رأينا أنّ إبراهيم نفسه قد انتُخب بعدما سخا في توزيع المال، وكان لا بدّ له من أن يملأ خزائنه. وممّا أخذ عليه من باب المتاجرة بالمراتب الدينيّة أنّه عيّن ثلاثة مطارنة على نصيبين بعد أنّ أخذ مالاً من كل منهم. ولكننا نذكر إنصافاً له أنه لم يعزل الاثنين بل وافاهما الأجل.

ومع ذلك يبدو من الصعب علينا أن نبرّئ ساحة إبراهيم من تهمة الجشع. إذ يروى أنّ رجلاً يدعى الاسكافي[44] قد فاجأ الجاثليق وهو يعد مقدارًا كبيرًا من الزوزي (الدراهم هنا؟) والدنانير فصاح به: «زيُّ شمعون وفعل سيمون لا أعرفك جاثليقًا». وبعد أن كفّر كلّ منهما الآخر، انجرّ عن ذلك خصام لم يكن في مصلحة

الجاثليق أن يطول. فطلب من أصدقائه الكتّاب أن يحاولوا ثني الاسكافي، ولكنّهم لم يفلحوا.

أما المقتدر فقد زعزع عرشه مرّات. عزل في بداية عهده إبّان فتنة ابن المعتز، ثم خُلع أيضًا إبّان الشغب ببغداد سنة ٣١٧/ شباط ٩٢٩، ونهب العسكر قصره، فأعاده مؤنس، ولكن المقتدر انقلب عليه وعاداه سنة ٩٣٢/٣٢٠، ثم قتل الخليفة على رأس عسكره لّما خرج لمواقعة مؤنس في ٣١ تشرين الأول، بالقرب من باب الشماسيّة، حيّ الجثلقة بشمال شرق بغداد.

الحواشي

(١) MASSIGNON, **Hallag²**, I, p. 441-446

(٢) مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ٩١ ـ ٩٥، MASSIGNON, **Hallag²**, I, p. 446-453

(٣) وكانت إحدى نسائها الثقات نصرانيّة اسمها فرج، وحملت مرّة ختم الخليفة إلى أحد الوزراء، كتاب الوزراء، ص ٢٩٣، وحاشية الشالجي على الفرج بعد الشدّة، ج ٤، ص ٣٧٠.

(٤) المسعودي، التنبيه، ص ٣٧٦ ـ ٣٨٧، E.I¹, III, p. 768-769, par K.V. ZETTERSTEEN (Xs.A.D.). ينتهي تاريخ الطبري سنة ٣٠٢ للهجرة ويكمله عريب. **Vizirat**, p. 387, 469 وانظر **Bagdad au IV s. H.** بقلم M. CANARD في: **Arabica**, IX (1962) p. 267-288 مختصر المصادر عن خلافة المقتدر في: H.F. AMEDROZ, The Tağarib al-umam, **Der Islam** V (1964) p. 354-357.

(٥) انظر يوسف حبي، في مقالته «يوحنا بن حيلان معلّم الفارابي في المنطق» مجلة بين النهرين (١٩٧٥) العدد ١١ ص ١٢٥ ـ ١٥٤. وأيضًا: E.I.², II, p. 797, par Walzer, avec références.

(٦) ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٧) ص ٣٠ ـ ٣٣، انظر: مراجع أخرى في: BOWEN, p.101

(٨) النجوم، ج ٣، ص ١٦٥.

(٩) البداية، ج ١١، ص ١٠٨، لا شيء عند الطبري ولا عند ابن الأثير.

(١٠) ابن القيّم، أحكام، ص ٢٢٤. القلقشندي، ج ١٣، ص ٣٦٨: «ابن ياسر».

(١١) **Vizirat**, p. 513 ـ يبدو نصّ كتاب الوزراء لهلال الصابي (ط. بيروت ١٩٠٤، ص ٩٥ وط. الحلبي بالقاهرة ص ١٠٩) مضطربًا عندما يذكر أن ابن الفرات اضطرّ إلى الدفاع عن

نفسه، أمام علي بن عيسى، الذي اتّهمه بتعيين غير المسلمين في بعض المناصب. وفي هذه الرواية أنّه ردّ عليه بأن الناصر لدين الله (المتأخر عنه كثيرًا) كان قد جعل إسرائيل النصرانيّ على الجند (؟) ويذهب BOWEN، ص ١٧٠، إلى أنّ السوابق المنوّه بها تقع في عصري الموفّق والمعتضد.

(١٢) هل هو من بني ذلك الرجل من الأعيان الذي استقبل يوانيس في كنيسة الأصبغ سنة ٨٩٣؟

(١٣) نشوار، ج ٨، ص ٩٣ - ٩٤، مع مراجع في الكتاب نفسه ج ٣، ص ٢٥ الحاشية رقم ٣.

(١٤) نشوار، ج٨، ص١٠٨، وانظر المراجع في الحاشية رقم ١.

(١٥) عريب، ص ٣١. بديهي أن يجد ابن دُليل متسعاً من الوقت ليدخل الاسلام؟

(١٦) تاريخ الزمان، ص ٥١.

(١٧) فهو يجعل موت المكتفي في العام ٢٨٩ بينما هذا هو تاريخ موت سلفه المعتضد. - بالنسبة إلى المقتدر، (ص ٥٥)، يكرّر ابن العبري جملته عن تغيّر حياة العرب، تلك الجملة التي ذكرها سابقًا لدى الكلام عن الواثق ص ٣٦ - ٣٧.

(١٨) انظر التفاصيل عن هذه القضية في **Rum à l'est de l'Euphrate**, p. 387-389 وفي سيرة إبراهيم الثالث.

(١٩) يذكر حبيب الزيّات في الخزانة، ج ١، ص ٣، كاتبًا نصرانيًا آخر للوزير نفسه، هو علي بن عيسى الدنداني.

(٢٠) **Vizirat**, p. 395.

(٢١) يذكر ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥١ - ٥٢، أن السفيرين انتظرا شهرين بتكريت. ولا يذكر شيئًا عن العلاقات التي قامت، بلا شكّ، بينهم وبين النصارى.

(٢٢) لما بعثه الوزير عبدالله بن خاقان إلى مصر سنة ٩٢٤/٣١٢- ٩٢٥، أراد علي أن يفرض الجزية على الرّهبان والضعفاء والمساكين والأديرة والأساقفة. . . فبعثوا بعثة إلى بغداد حيث ثُبّتت امتيازاتهم، سعيد بن البطريق، تاريخ، ص ٧٤٨.

(٢٣) انظر مشجّر نسبه في: **Vizirat**, p. 748

(٢٤) ابن القفطي، ص ١٣٢ - ١٣٣، آدم متز، ج ١، ص ٩٢.

(٢٥) آدم متز، ج ٢، ص ٢٠٧. في الترجمة العربية سوق يحيى، والأغلب أن المقصود يحيى بن خالد البرمكي.

(٢٦) عن شعر سعيد التستري أنظر شعراء النصرانيّة لشيخو، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ مع مراجع، يضاف إليها الصفدي ج ١٥، ص ١٩٥ - ١٩٧، الرقم ٢٧١.

(٢٧) تاريخ الزمان، ص ٥٢ - ٥٣. يجعل ابن العبري من عبدالله طبيبًا (؟)، وغير ممتنع أن يجمع الفنّين. فصاحب الرسالة العذراء التي يذكرها عبدالله البغدادي، ص ١٢٠، يجعل الطب في جملة المعارف المطلوبة من الكاتب الجيّد.

(٢٨) ص ٥٣.

(٢٩) سعيد بن البطريق، ص ٨٢، **Annales** .

(٣٠) **Vizirat**, p. 421, 425 ؛ يسرد هلال الصابي، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧ الغرامات التي فرضها المحسِّن بن الفرات.

(٣١) وقد أقيمت في وزارة وزير آخر من بني الفرات، هو أبو الفتح الفضل بن جعفر المعروف بابن خنزابه، (في العام ٣٢٠/٩٣٢ أو ٣٢٦/٩٣٨) المناظرة الفلسفية الشهيرة بين أبي سعيد السيرافي وبين أبي بشر متى بن يونس المنطقي الدور قنائي. وقد كان الأخير يزعم أن منطق أرسطو لا بدّ منه لتمييز الصواب من الخطأ. ونصّ هذه المناظرة مثبت في مقابسات التوحيدي (تحقيق حسن السندوبي، القاهرة، ١٩٢٩) ص ٦٨ ـ ٨٧، ١٦٩ ـ ١٧٢، الامتاع والمؤانسة ج ١، ص ١٠٨ ـ ١٢٨، وكذلك إرشاد الأريب لياقوت، ج ٦، ٣، ص ١٠٥ ـ ١٢٥.

(٣٢) صلة تاريخ الطبري، ص ١٢٥.

(٣٣) **Vizirat**, p. 440

(٣٤) صلة، ص ١٣٥.

(٣٥) **Vizirat**, p. 443, 449, 543, no. 5 ؛ المصافيّة هم «الرجّالة الملازمون لدار الخلافة»، عريب، ص ١١٨.

(٣٦) Massignon, **Hallag**,[2] I. p. 447 .

(٣٧) يشير ابن الأثير في الكامل، ج ٨، ص ٢٣٦، إلى أن ضحايا فيضان تكريت سنة ٣١٩/٩٣١، من مسلمين ونصارى قد دفنوا معًا.

(٣٨) يروي الصابي، الوزراء (ط. الحلبي، ١٩٥٨)، ص ١٥٨، أن هؤلاء الكتّاب كانوا قد أثروا ثراء عظيمًا: مليون دينار لاصطفن ودانيال، بينما لم يكن الأوّل يتقاضى إلاّ عشرة دنانير راتبًا له لما كان نائبًا لدانيال في خدمة مؤنس ثم ٤٠ دينارًا في وزارة ابن الفرات الثانية (٣٠٤ ـ ٣٠٦). من هذا نفهم لماذا كانوا يثيرون الحسد.

(٤٠) صلة، ص ١١٢.

(٤١) نجد رجلاً اسمه محمد بن علي اليقطيني (ت ٣٦٧/٩٧٧) **Hallag**[2], I, p. 138, n. 2

(٤٢) لا يبدو أن الجاثليق غرّمه غرامة كما كان يحق له ولرأس الجالوت (على قول الجاحظ في كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٧ ـ ٢٨) على رعيّتهم، وإن لم يكن لهما الحق في حبس أفراد الرعيّة أو ضربهم في دار الإسلام.

(٤٣) **Vizirat**, p. 397

(٤٤) ربما كان هذا الاسكافي هو إبراهيم بن عون الذي يذكره أبو البركات (مصباح الظلمة، ص ٣٠١) وينسب إليه كتاب حال الشكوك. ونقرأ في تاريخ ابن العبري الذي يسمّيه ابن أوان (؟): «الكرسي كرسي شمعون والفعل فعل سيمون». والمقصود بشمعون القديس بطرس وبسيمون، سيمون الساحر.

١٩ - القاهر (٣٢٠ - ٩٣٢/٣٢٢ - ٩٣٤)

كان أبو منصور محمد القاهر بالله، أخو سلفيه المكتفي والمقتدر، موضع نقد شديد من المسعودي: «شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج. . غير مفكّر في عواقب أموره». [١]

كانت خلافته[٢] التي دامت سنة وستة أشهر، أقصر من أن تسع الوقت الكافي للكلام عن الأقليّة النصرانيّة. وربّما خفنا عليهم من بعض القرارات المتشدّدة التقليديّة (كمنع الخمر، وطرد المغنّين والقيان) التي قرّرها الخليفة لولا أنّ حياته الخاصّة لم تكذّب قراراته فقد كان يحبّ الخمرة، وكان يسكر معظم وقته ويطرب للغناء ويتخيّر من بين القيان تلك التي يميل إليها. [٣]

نجد إلى جانب الخليفة الجديد رئيس أطبّاء بغداد الثمان مئة والستين سنان بن ثابت الصابىء الذي حمله الخليفة على الإسلام. [٤] إلاّ أنّ القاهر لم يضغط، فيما يبدو، على طبيبه النصرانيّ الأثير عيسى بن يوسف المعروف بابن العطّارة، وكان «يركن إليه ويفضي إليه بأسراره» [٥] نأمل ألاّ يكون هذا الطبيب النصرانيّ هو الذي ألهم أنواع الفظائع ولا سيّما ما أنزل منها بشغب أم المقتدر، التي كانت مع ذلك قد أحسنت معاملة القاهر لّما كان محبوسًا. [٦] وقد نفي ابن العطارة، المولود سنة ٢٧١/ ٨٨٤ - ٨٨٥، إلى الموصل فيما بعد وصودرت أمواله. ثم استُدعي إلى بغداد ليستشار في اختيار الوزير سنة ٣٢٠ - ٩٣٢/٣٢١ - ٩٣٣، ثم مات ببغداد سنة ٣٥٨/ ٩٦٨ - ٩٦٩، وكان قد عمي قبل ذلك بعامين.

ثمّة نصرانيّ آخر هو إسحق بن علي القنائي الذي كان كاتب الضياع وبيت

المال في وزارة الخاقاني للمقتدر سنة ٣١٢ ـ ٣١٣/٩٢٤ ـ ٩٢٥. وقد اعتبر إسحق هذا خطرًا من قبل أحمد الخصيبي الذي لم يقبل بالوزارة سنة ٣٢١/ تشرين ٩٣٣، إلاّ إذا قبض على إسحق وبضعة أشخاص آخرين. ومن أجل استدراجه إلى القصر، أبلغه القاهر أنّه يريد تقليده مهمّات الوزارة على أن يخلع لقب الوزير على رجل مسلم. إن كون الحيلة قد انطلت على إسحق يثبت أنّ فكرة تولية نصرانيّ مهمّات الوزارة في تلك الحقبة كان أمرًا غير مستبعد. ولا نعرف ما حلّ بإسحق بعدما قُبض عليه.[٧]

ومثلما جرت العادة من قبل نجد النصارى خارج قصر الخلافة أيضًا: من ذلك أن بشرًا النصرانيّ كاتب أبي سليمان داود الحمداني هو الذي حمل سنة ٣٢٠/٩٣٢ كتابًا من مولاه بشأن مؤنس.[٨] ومعلوم أنّ الخليفة توصّل إلى القبض على القائد وإعدامه.

بيد أنّ فظائع ذلك العهد لم تقف عند هذا الحدّ، إذ سقط الخليفة نفسه فريسة بعضها. نجد عند ابن العبري رواية، ربّما استندت إلى كتاب تاريخ ثابت بن سنان بن ثابت المفقود (والذي يغطّي الأحداث من سنة ٢٩٠/٩٠٢ إلى ٣٦٣/٩٧٣)،[٩] تصف كيف تدبّر الأشراف أمر تحييد حرس القصر. لما كان هؤلاء المرتزقة كلّهم يصدّقون المنجّمين، رشا الأشراف المنجّمين ليلقوا في روع الجند أنّ الخليفة يتهيّأ للقضاء عليهم.[١٠] وهكذا تمكّن رجال الوزير ابن مقلة من دخول القصر، فاضطرّ الخليفة المخمور إلى الاستسلام. ولّما رفض أن يخلع نفسه أمر الراضي، ابن أخيه وخلفه، بأن تُسمل عيناه. وتذهب بعض روايات هذه المأساة إلى أن بختيشوع بن يحيى طبيب الراضي هو الذي دعا برجل ليقوم بهذه المهمّة.[١١]

حبس الخليفة الأعمى ولم يفرج عنه إلاّ بعد إحدى عشرة سنة، فكان يستعطي الناس على باب المسجد الجامع حتى وفاته سنة ٣٣٩/٩٥٠.

الحواشي

(١) التنبيه، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٢) E.I.[2], IV, p. 442, par SOURDEL.

(٣) ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٦٩ الفقرة ٤٧٣. السيوطي، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠. كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٤٣، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٠٤.

(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٤ ـ ٥٦.

(٥) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢٠، ابن القفطي، ص ١٦٦، الكامل، ج ٨، ص ٦٠٢، Vizirat, p. 474-475 et 477. كانت أخبار بختيشوع بن يحيى قد عادت إلى الصدارة: فقد التجأ إليه رجل اسمه أبي القراقر كان يدّعي أنّ اللاهوت قد حلّ فيه، وقد قتل على ما رواه الهمداني في التكملة، ص ٨٦.

(٦) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٥.

(٧) Vizirat, p. 437 no. 4, 478, 700, 741

(٨) صلة، ص ١٦٩.

(٩) تاريخ الزمان، ص ٦٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(١١) مسكويه، ج ١، ص ٢٩٢، مذكور في تحقيق ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٧٧ حيث نجد رواية أخرى.

٢٠ - الراضي (٣٢٢ - ٩٣٤/٣٢٩ - ٩٤٠)

إن خلافة أبي العبّاس أحمد الراضي بالله بن المقتدر معروفة جيدًا بفضل كتاب محمد بن يحيى الصولي[١] الذي كان مؤدِّبه ثم صار نديمه من بعد.

رأينا من قبل أنّ الجاثليق إبراهيم اضطرّ سنة ٩١٣، في خلافة المقتدر، إلى إثبات لقب حبر بغداد الأوحد لنفسه. وها هو يضطرّ بعد عشرين عامًا إلى الدفاع عن «حقوقه». إنّها قضيّة تركة أبي بشر عبدالله بن فرجويه.[٢]

كان هذا الرجل النسطوري، من رجال ابن الفرات الثقات،[٣] قد أوصى بدفع سبعة آلاف دينار من تركته إلى الجاثليق لينفقها في وجوه الإحسان. وإذ تنكّرت أرملة الرجل للوصيّة ردّ الجاثليق بتحريم إقامة المراسم الدينيّة للفقيد. خاف رجال الكنيسة ولم يجرؤ أيّ منهم على مخالفة أمر الجاثليق والتعرض لغضبه باستثناء شمّاس اسمه موسى وجد نفسه متنازعًا بين ولائين (نظرًا إلى انتمائه إلى بيت الفقيد) ثم رضي أخيرًا بالصلاة على الميت. ولكن ساء ما فعل، إذ أنّ الجاثليق الغضوب أبلغه سخطه وتركه هزأة يهزأ بها طلاّب الأسكول. أمام هذا الهيجان المجنون لجأت أرملة ابن فرجويه إلى أمّ الوزير (والطبيب؟) أبي الحسن بن المقلّد.[٤] لم يأبه الجاثليق لهذه الحماية العالية بل جمع، من ثقته بنفسه، رهبان بغداد وطلاّبها وقساوستها وجاء بهم حتى قعدوا على باب الوزير. فما لبث أن انضمّ إلى جمعهم كلّ من كان هناك من كتّاب النساطرة وأطبائهم حتى عملوا مظاهرة صاخبة. أخيرًا وصل ذاك الذي كان يقدر على إيصال الجاثليق إلى الوزير، إنّه الكاتب النافذ القول ابن سنجلا الذي سنلتقي به بعد حين. فأدخل الجاثليق إذن إلى خطّة المظالم التي كان الخليفة قد فوّض أمرها آنئذٍ إلى الوزير.[٥]

واستجيب في الحال لشكوى إبراهيم وطُرِدَت الأرملة من ملاذها، «وسُلِّمت إلى الجاثليق ليستوفي منها الدين».

ابن سنجلا

مَن كان إذن هذا الرجل القادر على الدخول كما دخل على الوزير، بين العامين ٩٣٤ - ٩٣٦،[٦] واقناعه باستقبال الجاثليق فورًا؟ إن «أخبار الراضي والمتقي» تعرّفنا به[٧] جيدًا وتطلعنا على أي سند كان يستند إبراهيم، في أواخر جثلقته على الأقلّ.

كان أبو الحسن سعيد بن عمرو (أو عمرون) بن سنجلا (أو سنكلا) كاتب الراضي قبل أن يبايع بالخلافة. وفي العام ٩٣٥ عُيِّن كاتبًا خاصًا بابني الخليفة، ثم قُلِّد زمام ديوان النفقات. وقد كان بارعاً في «اتّخاذ الأصدقاء من مال الظلم» (لوقا: ١٦ : ٩) مختصًا نفسه بأنواع المكاسب والمزايا ولا سيّما الماليّة منها، ومتشفّعًا في الوقت نفسه في تخفيف ما يصادر عليه الآخرون من أمثال ابن عبدوس أو أحمد بن علي. وكان يحتاط بذلك لنفسه ويكفل لها الشفعاء عند انقلاب الأحوال، مثلما حصل لّما أعيد أحمد بن علي إلى الوزارة سنة ٩٤١.

ولما كان الراضي لا يفعل إلاّ ما يريده ابن سنجلا[٨] استطاع هذا الكاتب أن يسدي خدمات جلّى إلى النصارى وإلى الجاثليق إبراهيم. وقد شغل صهر ابن سنجلا (زوج أخته) أبو القاسم علي بن يعقوب مناصب مهمّة أيضًا.

بالإضافة إلى قضيّة حقوق الجاثليق حوالي سنة ٩٣٣، نجد ابن سنجلا، في ٧ كانون الأول سنة ٩٣٧، وإبّان خلوّ كرسيّ الجثلقة بموت إبراهيم، يلتمس من الخليفة أمرًا بعقوبة رجل مسلم (يدعى الحواجبي) تحامل على نصرانيّ «مشهود له بالفضل» هو أبو عمرو بن شريح خال الكاتب، ثمّ يستصدر هذا الأمر على الرّغم من شغب العامّة بالطرق. لقد كان ابن سنجلا، على قول M. CANARD، زعيم الطائفة النسطوريّة الحقيقيّ في أثناء فترة خلوّ الكرسيّ هذه.

أحكام المواريث

لم تزل الدولة (أي موظفوها) تحاول أن تقتنص حقوق الورثة من النصارى (وهي حقوق لم ينصّ عليها الشرع القرآنيّ) ولا سيّما مواريث الكتّاب المسخوط عليهم، ذلك لأنّ أموالهم كانت مطمعًا لأصحاب السلطان.[٩] وقد كان النصارى أنفسهم يتلاعبون بالفروق بين قانونهم العرفيّ في هذه المسألة وبين أحكام الشرع الإسلاميّ، إذا ما كان الأخير لصالحهم. ومن أجل تحاشي هذا الاغراء عمل يوحنا بن الأعرج سَلَف إبراهيم على التشريع لهذه المسألة، مقرّبًا أحكام القانون الكنسيّ من أحكام الشرع الإسلامي.[١٠] ومع ذلك كان خطر الموظّفين الطمّاعين يظلّ قائمًا. ويفهم من نصّ غامض لماري[١١] أنّه كان للجاثليق نصيب معلوم من تركات النصارى، وأنّ هذا الحق قد سُلِبَ منه في تاريخ غير محدّد، وأنّ إبراهيم الجاثليق قد وقف متظلّمًا بباب وزير غير مسمّى وأظهر توقيع المعتضد بيَدِ عبيدالله بن سليمان[١٢] «بأنّ ذلك لأهل الذمّة» فأخرج له الوزير (غير المسمّى) توقيعًا يقرّه على ما كان له.[١٣]

هل وقعت في خلافة الراضي حملة هجاء للذمّيين من الكتّاب؟ يذهب ابن القيّم[١٤] إلى أن الشكاوى منهم كانت كثيرة، ويورد أبياتًا لمسعود بن الحسين الشريف منها:

قُلّدت أمرَ المسلمين عَدُوَّهم[١٥]	ما هكذا فَعَلَت بنو العباسِ
لا تَذكُرَن احصاءَهُم ما وَفَّروا	ظُلمًا، وتنسى مُحصِي الأنفاسِ
لا تعتَذِر عن صَرفِهِم بتَعذُّرِ الـ	ـمُتَصَرِّفين الحُذَّقِ الأكياسِ

يبدو أنّ البيت الأخير يعبّر عن رأي الخليفة في الكتّاب الذمّيين، ولا شيء يدلّ على أنّه طردهم من خدمته. بل إنه لما صرف ابن فضلان اليهودي بابن مالك[١٦] النصرانيّ نظم الشاعر نفسه أبياتًا متوعّدة أخرى:

خَفِ اللّهَ وانظُر في صَحيفَتِكَ التي	حَوَت كلَّ ما قدَّمته مِن فِعالكا
وقد خطَّ فيها الكاتِبون فأكثَروا	ولم يبقَ إلاّ أن يقولوا: فَذلِكَ

ومع هذا ظلّت العلاقات الطيّبة بين ذوي الأدب والكياسة من نصارى

ومسلمين مستمرّة، فمن ذلك ما يذكره المسعودي عن مناظرات جرت بينه وبين أبي زكريا دنحا اليعقوبيّ المذهب، «المتفلسف الجَدِل النظّار»[١٧] لما قابله ببغداد وبتكريت «في الكنيسة المعروفة بالخضراء» قبل العام ٣١٣/٩٢٥.

أمّا من ناحية العلاقات الرسميّة فقد جاء أسقف عسقلون الملكاني إلى بغداد في أواخر خلافة الراضي (٣٢٨/٩٤٠) يلتمس الإذن بإعادة عمارة كنيسة السيدة العذراء التي خرّبها المسلمون واليهود وأحرقوها، فما حصل على شيء.[١٨]

إن المرء ليتساءل إلى مَ يُعزى إخفاق هذا الأسقف؟ أكان ذلك لأنه من الملكانيّة[١٩] بينما كان معظم الكتّاب، الذين تمرُّ الشكاوى تحت أيديهم، من النساطرة؟ أم كان ذلك لأن المسؤولين كانوا منشغلين بأمور أخرى أهم؟ على أيّة حال كان النصارى يعملون في مختلف وظائف الدولة وهم يظهرون في بعض الأحداث، المؤرّخة أو غير المؤرّخة، من خلافة الراضي:

- في السنة الأولى من عهده، في رمضان ٣٢٣/ آب ٩٣٥، نرى الكاتب الملكاني اصطفن الذي كان يعمل في خدمة مؤنس يصير بطريركًا لأنطاكية باسم ثاودوسيوس.[٢٠]
- في السنة عينها مات اصطفن الآخر، صاحب بيت مال الخاصّة.[٢١]
- من جهة الأطبّاء، واجه بختيشوع بعض المتاعب. فقد أعطى هارون أخا الخليفة شربة قويّة مات فيها هارون في ١٥ ربيع الأول ١١/٣٢٤ شباط ٩٣٦. وكان الخليفة يحب أخاه هذا على الرّغم من ميله إلى المكايد، فحزن عليه حزنًا عظيمًا. ولكنه أبى أن ينتقم لأخيه من الطبيب قائلاً: «وإن كان المشؤوم ما تعمّد ذلك، ولكنه أعمى القلب قصير العلم بليد الفكر مرزوق في أيامه محظوظ»[٢٢]. واكتفى الخليفة إذن بنفيه إلى الأنبار، ثم اضطرّ إلى إعادته نزولاً عند طلب السيدة أمّه.[٢٣] ومات بختيشوع سنة ٣٢٩/ أيلول ٩٤١.[٢٤]

وقد عرف طبيبان آخران في ذلك العهد ماتا كلاهما في سنة موت الخليفة:
- داود بن ديلم، مات ببغداد في الخامس من المحرّم ١٠/٣٢٩ تشرين الأول ٩٤٠.[٢٥]

- وأبو بشر متى بن يونان الدور قنائي الطبيب والمترجم والمنطقيّ الذي مات ببغداد في ١١ رمضان ٣٢٨/ ٢٠ حزيران ٩٤٠.[٢٦]

لّما دخل أبو عبدالله أحمد بن علي الكوفي،[٢٧] كاتب الأمير بجكم[٢٨] التركيّ، إلى بغداد في أواخر عهد الراضي، قبض على موظّفي ابن شيرزاد كلِّهم وصادرهم. إلاّ أن ابن سنجلا وصهره أبا القاسم علي بن يعقوب[٢٩] عملا على إطلاق أبي الحسن طازاذ بن عيسى[٣٠] أحد الكتّاب النساطرة وتكفّلا بدفع ما صودر عليه.

نهاية مُلك

اشتدّ المرض على الراضي في أواخر العام ٩٤٠، وعالجه سنان فلم يفلح في شفائه، ولّما كان الخصيّ التركيّ زيرك، نديمه الأثير ومدبِّر القصر، قد مات في تشرين الثاني، انتقل الراضي إلى داره،[٣١] وأمر بأن تُطرح في دجلة،[٣٢] كأضحية تكفير أخيرة، ٤٠٠ دنٍ من الخمر المطبوخ المعتّق من عهد المعتضد.[٣٣] ثم ما لبث أن مات هو في كانون الأول، عن اثنتين وثلاثين سنة، ولم تكد خلافته تدوم سبع سنوات.

وهاك تأبينه بقلم ابن الطقطقي:[٣٤] «كان شاعرًا فصيحًا لبيًا، ختم الخلفاء في أشياء منها: أنّه آخر خليفة دوّن له شعر، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء[٣٥] وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدّمين».

وحقيق بالمؤرّخ الذي يبتغي تحاشي النظر إلى الأمور من زاوية ضيّقة (زاوية مصير الجماعة المسيحيّة فحسب) ألاّ ينسى أنّ الحضارة الإسلامية كانت تمرُّ في تلك الحقبة بهزّات عنيفة. ففي العام ٣٢٣/ ٩٣٥، وفي خضم حال من الارتباك السياسي الشديد، ثارت ببغداد اضطرابات خطيرة. عدا الحنابلة على الدكاكين ونهبوها، وتدخّلوا في المعاملات التجاريّة لفرض احترام الشريعة، هجموا على

الخمّارين (النصارى، والمجوس) وعلى القيان وكسروا آلات الملاهي وانتهكوا، من حميتهم، حرمات المنازل وبلّغوا صاحب الشرطة عن كل رجل يجدونه في السبيل مع امرأة من غير محارمه. فخرج توقيع الراضي بنهيهم عما هم عليه وتوعّدهم بالضرب والقتل وحرق المنازل.[٣٦]

كانت الأوضاع ناضجة لقيام ديكتاتوريّة عسكريّة: إنّه دخول ابن رائق الذي تلقّب بلقب جديد هو أمير الأمراء. وفي ذلك يجيد يحيى[٣٧] بقوله: «ونظر فيما كان الوزراء ينظرون فيه وبطل مذ ذلك الوقت أمر الوزراء فلم يكن للوزير نظر في شيء من الأشياء ولا كان له غير اسم الوزارة وكذلك سائر من تقلّد الإمارة لخلفاء بني العباس بعد ابن رائق وإلى هذه الغاية».[٣٨] ويضيف ابن كثير[٣٩] أن الخليفة لم يبقَ له سلطان على شيء وأنّ ابن رائق نزّله بمنزلة الأجير. وبهذا بدأت مع ابن رائق واحدة من أعتى الفترات في تاريخ الخلافة العباسية لم يبقَ فيها من الخلافة إلاّ اسمها.

ولكن الخليفة حظي بعد قليل «بحماة» آخرين، إذ أنّ سلالة البويهيين الشيعة كانت قد بدأت تذر قرنها بإيران، حوالي ٣٢٢/٩٣٤. ولن يطول بها الوقت حتى تسيطر على بغداد وتشهد معها الخلافة فترة جديدة من الازدهار في ظلّ النفوذ الشيعي.

خلافة إبراهيم

في هذه الظروف كان لا بدّ من اختيار خلف لإبراهيم الثالث أبرازا، الذي مات في شعبان ٣٢٥/ حزيران ٩٣٧.

جرى الانتخاب بصورة قانونيّة، ولا ذكر لتدخل السلطة المدنيّة ولا لتطفل العلمانيين من النصارى. فاختير إيليا أسقف الأنبار لعلمه وفضائله. فحرّر المجمع وثيقة الانتخاب (شلموث) وحصل ابن سنجلا، الذي كان كاتبًا بديوان الزمام، على إذن الخليفة بتهيئة سيامة الجاثليق بالمدائن. عندئذٍ وقع أمر غير مألوف: ذهب الجاثليق المنتخب إيليا لزيارة ابن سنجلا زيارة شكر بروتوكولية وخاطبه بكلام غير

متوقّع قائلاً: «بعد جلوسي على كرسيّ الفطركة يكون لي من مقدرة الحلّ والعقد أن أجيز لك أن تضيف إلى فلانة زوجتك، جارية نرجو من الله أنّ يرزقك منها ولدًا» فأنكر الكاتب هذا الكلام، وانتزع الشلموث من يدي إيليا، ومزّقه مغضبًا صائحًا: «كأنّك تتقرّب إليّ بحلّ شريعة المسيح» ولم يعد يطيق ذكر الجاثليق أو ذكر انتخابه. وإذ تردّد الآباء فيما يعملون، حكى لهم ابن سنجلا خبر معجزة وقعت لرجل كان في مثل حالته، بفضل صلوات راهب تقيّ. فقرّ رأيهم على انتخاب جديد، إلاّ أنّ ابن سنجلا صار يشمئز من الأساقفة. عندئذٍ أنقذ الوضع ابن سنان الطبيب الصابيء الأصل، الذي أخبرهم أنّه قد صادف هو أيضًا راهبًا قديسًا في دير آبا يوسف ببلد بالقرب من الموصل. فقبل ابن سنجلا بالفكرة وأجبر الأساقفة على القبول بها. فاستُدعي الراهب[40] ولكنه تمنّع مع أنه كان قد أنبىء بذلك في رؤيا رآها. فأُنفذ كتاب من بغداد إلى ناصر الدولة الحمداني يأمره أن يجيء بالرّاهب طوعًا أو كرهًا. فلم يستجب الرّاهب حتى ساقوه مكرهًا إلى أن وصل إلى حديثة الموصل فرأى علامات جديدة أقنعته بأنّ الربّ قد اختاره. عندئذٍ قبل عمانوئيل[41].

وعندما وصل إلى بغداد أُدخل على الراضي «حسب العادة». فاستفسر منه الخليفة عن بضعة أمور من ديانة النصارى ولا سيّما عن محبة الأعداء.[42] ولّما استحسن الراضي أجوبة عمانوئيل أذن بتعيينه ووصله بهدايا وأنفذه في موكب مشرّف إلى مقرّ الجثلقة بدار الروم.

XVI جرت رسامة عمانوئيل نهار الجمعة في ٢٢ شباط ١٦/٩٣٨ ربيع الآخر ٣٢٦، بعد أن ظلّ الكرسيّ شاغرًا أكثر من ثمانية أشهر. ولا نسمع بعد ذلك عن الجاثليق شيئًا في أواخر أيام الراضي. رأينا أنّ الكتّاب النصارى كانوا ينالون حظّهم مما يلمّ بمواليهم من صروف الدهر. لذلك رأى ابن سنجلا أنّه من الأوفق أن يختبىء عند صهره علي بن يعقوب[43] لدى موت الراضي.

الحواشي

(١) انظر تقويم ماسينيون للصولي في: Hallag,[2] II, p. 130-133

(٢) لقد صحّح ماسينيون في المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٦٥، ٤٩٠، ٤٩١، الاسم الذي جعله جيسموندي محقق ماري، أبو فرجونا أو ابن فرجونا، أنظر أيضًا: Vizirat, p. 407, 509. 510.

(٣) «وكان الغالب على الدواوين والأعمال في وزارة ابن الفرات هذه، أبو بشر عبدالله بن فرجويه»، كتاب العيون والحدائق، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٩٨٤.

(٤) ربما وجب أن نقرأ هنا ابن مقلة؟ راجع مقالة سورديل عنه في E.I.[2] III. p. 910 et 911، وقد وزّر ابن مقلة للراضي من ٢٧ أيار ٩٣٤ إلى ١١ نيسان ٩٣٦، Vizirat, p. 483-490 يقترح ماسينيون في Hallag[2], I, p. 491، أن يُقرأ الاسم سليمان بن الحسين بن مخلد؟ - على أيّة حال هناك ابن مخلد ظلّ على النصرانيّة وهو أبو الحسن (عبدون) ولكنه لم يتقلّد الوزارة قطّ MASSIGNON, Scribes Nestoriens, dans Opera minora I, p. 252.

(٥) Vizirat, II, p. 640-649

(٦) وقد كان له دور في قضية أسقف الروم الملكانيين سنة ٩١٣.

(٧) انظر اسم سعيد بن عمرو في فهرست أخبار الراضي ص ٢٩٣. ويختصر سيرته BUSSE في الصفحة ٢٤٨ الحاشية رقم ٥، وفي الصفحة ٤٦٣. DONOHUE, p. 343.

(٨) كان يدخل على الخليفة ويخرج مكلفًا بمهمّات سريّة، انظر مثلاً كتاب العيون، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، ولابن سنجلا كتاب يذكره البيروني في الآثار الباقية، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٩) لما مات عبيدالله بن بختيشوع، كاتب الأموال في خلافة المقتدر، صودرت ثروته، ابن أبي أصيبعة، ص ٢١٤.

(١٠) ماري، ص ٨٨. - عن موقف القانون السرياني الشرقي من المسألة، انظر: W. SELB et H. KAUFHOLD

(١١) ماري، ص ٩٣.

(١٢) وزر من ٨٩٢ - ٩٠١.

(١٣) يذهب لويس ماسينيون، في Opera Minora، ج ١ ص ٢٥٤، إلى أنّ حقّ النصارى في الميراث قد أبطلَ في خلافة المعتمد (٨٦٩ - ٨٩٢) ثم أعيد في خلافة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢) ثم أبطل في وزارة ابن الفرات الأولى (٢٩٦/٩٠٩) ثم أعيد في صورة جزئيّة في وزارة ابن الفرات الثانية. وإن المرء ليستريب من صحّة هذه المعلومات التي لا تذكر مصادرها.

(١٤) ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(١٥) يجب أن يدرس موضوع «أعداء الإسلام». ربّما كانت اللوحة الجدارية (البيزنطية) بقُصير

غمرة المصوّرة في E.I.², I, Pl. X b بعد الصفحة ٦٤٠ من أوائل الشواهد على هذا الموضوع. وقد درست في مقالة رشيد بوروييه Les représentations figurées dans l'art des Umayyades en Syrie في مجلة التاريخ، الجزائر، عدد ٦ تموز ١٩٧٨، ص ٣١ والشكل ٩. ونجد فيها قيصر ورذريق، آخر ملوك القوط، وكسرى والنجاشي يمدُّون أيديهم علامة على أدائهم الطاعة. وهذا هو موضوع «ملوك الأرض» الذي كان يوجد في الفن الإيراني الساساني.

(١٦) أهو ابن مالك بن الوليد الذي صادفناه للمرّة الأخيرة سنة ٣١٣ ـ ٣١٤/٩٢٥ ـ ٩٢٧.

(١٧) التنبيه، ص ١٥٥.

(١٨) يحيى بن سعيد، P.O. XVIII, p. 711

(١٩) ربّما كان المسلمون أيضًا ينقمون على الروم لأجل ما فعلوه من حمل المسلمين على النصرانيّة بعد صلح ملطية سنة ٣٢٢/٩٣٤، في بداية خلافة الراضي. فقد كان على المسلمين الراغبين في أن تسلّم لهم أموالهم أن ينحازوا إلى خيمة نُصب عليها الصليب، الكامل، ج ٨، ص ٢٩٦. أنظر أمثلة أخرى في مقالتي Rûm, p. 406-407 et notes

(٢٠) سعيد بن البطريق، ص ٨٧، Annales (CSCO. 51)

(٢١) الصولي، أوراق، ص ٧١، يسمّيه ما اصطفا.

(٢٢) الصولي، أخبار الراضي، ص ٧٥ ـ ٧٦، أما ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٥٧، فيظنّ أن الطبيب تعمّد قتل هارون.

(٢٣) الهمداني، تكملة، ص ٩٣.

(٢٤) الكامل، ج ٨، ص ٣٧٨، الصفدي، ج ١٠، ص ٨٩، الرقم ٤٥٣٤.

(٢٥) ابن أبي أصيبعة، ص ٣١٥ ـ ٣١٦، الصفدي، ج ١٣، ص ٤٦٩ الفقرة ٥٧٠.

(٢٦) ابن أبي أصيبعة، ص ٣١٧.

(٢٧) تعليق M. CANARD عليه في ترجمة الصولي، ج ١، ص ١٥٣ الحاشية رقم ٥.

(٢٨) E.I.², I, p. 890-891, par M. CANARD

(٢٩) كاتب سابق لذكي الحاجب وكذلك كاتب محمد بن اينال الترجمان، ووكيل بجكم في مفاوضاته مع البريديين، M. CANARD في ترجمة الصولي، ج١، ص ٢٣٠ الحاشية رقم ٣.

(٣٠) DONOHUE, p.261

(٣١) كانت هذه الدار بباب الشماسيّة، وكانت لربق مولى إبراهيم ابن المهدي. وقد اشتراها اصطفن ثم ابتاعها ابن سنجلا من ورثة اصطفن. ثم سكنها أخيرًا زَيرَك القهري الخادم. الصولي، أوراق، ج ١ ص ١٤٦، كتاب العيون (مجهول المؤلف) ص ٣٤١.

(٣٢) الصولي، أوراق، ج ١، ص ١٤٦، تاريخ الزمان، ص ٥٦.

(٣٣) كتاب العيون، ص ٣٤١. ـ ولم يكن الراضي يشرب غير المطبوخ.

(٣٤) في كتاب الفخري، ص ٢٢٦، أنظر أيضًا: E.I.[1], III, p. 1168-1169 s.v par K.V. ZETTERSTEEN

(٣٥) يقول المسعودي في التنبيه، ص ٣٨٨ - ٣٩٧: «وكان جوادًا محبًا للأدب حسن الشعر»، وفي المروج، الفقرة ٣٤٦٨: «أديبًا شاعرًا».

(٣٦) الكامل، ج ٨، ص ٣٠٧ - ٣٠٩. - يلاحظ هنري لاوست في مقدمة كتابه عن ابن بطة ص XXXIX أن كتاب البداية ج ٩، ص ١٨١ - ١٨٢، أكثر تحفظًا في رواية الأحداث بينما لا يشير إليها كتاب دول الإسلام بأدنى ذكر.

(٣٧) P.O. XVIII, p. 711-712

(٣٨) كتب يحيى حوالي سنة ١٠١٣.

(٣٩) بداية، ج ١١، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٤٠) تذكر المصادر هنا للمرّة الأولى رجلاً من أعيان النصارى هو أبو عيسى المنذر بن النعمان العبادي الذي أدرك لوقا، مطران الموصل، على جسر دجلة هاربًا متنكّرًا في زيّ غير زيّه ليتحاشى رسامة الجاثليق الجديد.

(٤١) ماري، ص ٩٤ - ٩٨، صليبا، ص ٨٤ - ٩١، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٤٦ - ٢٤٨، إيليا النصيبيني، تحت العام ٣٢٦، ٣٤٩ والحاشية العربية ص ٧٥.

(٤٢) انظر جوابه في المخطوط: B.N. ar. 190, catalogue TROUPEAU, I, p. 161

(٤٣) تجارب الأمم، ج ١، ص ٤١٧.

٢١ - المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣/ ٩٤٠ - ٩٤٤)

لم يبايع لأبي إسحق إبراهيم المتقي بالله،[١] أخي الراضي، إلاّ بعد خمسة أيام من وفاة سلفه، وذلك لكثرة ما هان على الناس أمر وجود الخليفة أو عدم وجوده. ويصف المسعودي ذلك فيجيد إذ يقول:[٢] «ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي[٣] والمستكفي والمطيع ومذاهبهم إذ كانوا كالمولّى عليهم لا أمر ينفذ لهم». ذلك أن أمراء الترك والديلم وغيرهم كانوا يتعاقبون في بسط صولتهم على بغداد، وأضحت الولايات كأن كلٌ واحدة منها مستقلة بذاتها «فصار الخلفاء مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة». ومن سوء الطّالع أن بغداد شهدت، سنة تولّي المتّقي، مجاعة ووباء وفيضانًا.[٤]

من الناحية السياسية، نجد سعيدًا بن عمرو بن سنجلا يظهر بعد وفاة بجكم (٣٢٩ قبل ٩٤١)، فيصادره أحمد بن علي الكوفيّ على خمسين ألف دينار دفعها ابن سنجلا من دون أن يضرب أو يُهان، وذلك لأنه كان قد ترفّق في معاملة أحمد لما كان في مثل حاله من قبل. وقد ظهر أيضًا علي بن يعقوب صهره من مكمنه فصودر على ٧٠٠٠٠ دينار.[٥]

أمّا من الناحية الدينيّة، فنجد وفاة بجكم تطلق تحركًا حنبليًا. فقد نزل الحنابلة إلى السُبُل يصيحون «طهرت السنة»، وحاولوا تهديم مسجد للشيعة والتعدّي على الضرّابين إلاّ أنهم هدأوا من بعدما أُلقي القبض على بعضهم وضُرب بعضهم الآخر بالعصي.[٦]

في خضمّ الصراع بين فريقيّ الجيش من الديلم والتّرك تنقّلت بغداد في تلك

الأيام من يد هؤلاء إلى يد أولئك وبالعكس، ثم وزر أبو إسحق محمد بن إبراهيم الاسكافي المعروف بالقراريطي وتقلّد أمارة الأمراء كورتكين الديلمي، المكنّى بأبي الفوارس، في أول تموز ٩٤١.[٧] أمّا ابن سنجلا الذي كان قد دفع إلى القراريطي مبلغ ٥٠٠٠ دينار، فقد ظنّ أنه أمن غائلته بذلك فذهب لزيارته بصحبة سِلفه. فلمّا حصلا بداره قبض عليهما وأمر بهما فضُربا، ثم اضطرّا إلى أن يدفعا[٨] مالاً لكي يفرج عنهما.[٩]

لا أحسبنا نجانب الصواب إذا قدّرنا أن أدنى الكتّاب النصارى مرتبة في تلك الفترة قد تأثّر بتقلُّبات السياسة، مثلما كان الشعب يعاني من انعدام الأمن الناتج عن تحرّكات الفرق العسكريّة على اختلافها. . . ويُذكر هنا أيضًا رجل انتهازيّ[١٠] ببغداد «فتح على الناس أبواب المصائب على مصاريعها»، فثار به فتيان الحيّ (المسلمون» وقتلوه. وقد كاد الديلم أن يضعوا النار في الحيّ لو لم يتوصّل الأمير كورتكين إلى منعهم من ذلك «فشهد له أهل الستر والرشاد برجاحة العقل وسداد الرأي».

في ٢١ أيلول ٩٤١ عُيِّن محمد بن رائق أميرًا للأمراء للمرّة الثانية من بعدما فتك بالديلم.

عمانوئيل وابن رائق

إن موهبة الجاثليق في الرؤى قد أتاحت له إقامة علاقات مع أمير الأمراء. لم يلتقِ الرجلان من قبل في ولاية ابن رائق الأولى (٣٢٤ - ٣٢٦/٩٣٦ - ٩٣٨)،[١١] لأنّ عمانوئيل لم يكن قد نصِّب جاثليقًا بعد. لكن قبل عودة الأمير إلى السلطة، أي قبل ٣٢٩/ أيلول ٩٤١، وقع للكاتب النصرانيّ أبي سعيد بن يشفور الداقوقي المولد (والنسطوريّ، إذن) خبر عجيب، يرويه ماري ويذكر إسناده.[١٢]

كان للكاتب النصرانيّ صديق مسلم هو ابن آدم التاجر، الذي يحدّد ماري بدقّة موضع داره. وقد أسرَّ التاجر يومًا إلى صاحبه بأن يذهب في حيطة إلى تلك الدار، للقاء رجل تبيّن أنه ابن رائق. بادر الأمير إلى الكلام فقال: «ألست

نصرانيًا؟» فلمّا أجابه الكاتب بالإيجاب قال له ابن رائق: «صِف لي الجاثليق» ويبدو أن الصفة كانت مقنعة لأنّ الأمير قال للكاتب هذه الجملة الغامضة: «اذهب وخُصّه بسلامي وقل له أنا على العهد». وانتهى الحديث عند هذا الحدّ وافترق الثلاثة تحت جنح الليل.

ولّما أدّى الكاتب الرسالة إلى الحبر، حاول أن يستفهم منه عن حقيقة الأمر. ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهيِّن مع عمانوئيل لأنه كان «شرس الأخلاق». ومع ذلك فقد رضي الجاثليق بأن يروي القصّة في آخر الأمر.

كان ابن سنجلا الكاتب قد نمي إليه أن ابن رائق الأمير قد سمع به قول الوشاة وأنه يسعى في هلاكه وهلاك جماعة من النصارى معه. فقصد الكاتب الجاثليق يلتمس منه العون. وقد أعانه الجاثليق بأن ظهر هو والمسيح وشخص ثالث غير مسمّى، في الحلم لابن رائق. فقال الشخص الثالث للأمير: «المسيح يقول لك: لِمَ تعتقد القبيح بأبي الحسن بن سنجلا وأهل ملّته، فأعدل عن هذا ليفرج عنك». ثم طمأن الجاثليق (في المنام أيضًا) ابن رائق إلى أنه سيفلح فيما يعزم عليه من أمور إذا وعد باحترام النصارى.

فلمّا استعاد ابن رائق لقب أمير الأمراء واحتفظ به حتى اغتياله سنة ٣٣٠/ نيسان ٩٤٢، «وفى بالعهد وعامل النصارى بالجميل وتأكّد ما بينه وبين الجاثليق».

بعد أحداث أخرى كثيرة وقعت وبلايا عميمة حلّت ببغداد، اشتدّ خطر البريديين على العاصمة، فاستنهض ابن رائق العامّة ضدّهم، حتى إنّه فتح أبواب السجون وأخرج منها اللصوص وقطّاع الطرق لدرايتهم بمعالجة السلاح. إلاّ أنّ هؤلاء انقلبوا على التجّار والأثرياء... وانتهت الوقعة بفرار ابن رائق والخليفة في ٢٣ جمادى الأولى ٣٣٠/ آذار ٩٤٢.

حكم أبو الحسين البريدي بغداد لأخيه مدّة أربعة أشهر فحسب. وافتتح الخراج والجزية في آذار ٩٤٢/٣٣٠ في وقت يكون الدفع أصعب ما يكون. وقد كانت التحرّيات لهذا الغرض فرصة سانحة للنهب.[١٣]

لم يطل الوقت حتى قُتل ابن رائق ورجع الخليفة إلى بغداد في حماية أبي محمد

الحسن ناصر الدولة[١٤] الحمداني الشيعيّ صاحب الموصل. وقد كان له هو أيضًا وزير نصرانيّ (نسطوريّ) اسمه دنحا، كان يثق به ويوليّه المهمّات، من ذلك أنه هو الذي جاء لمولاه بالجيش والمال ليأخذ حلب سنة ٩٤٤/٣٣٣.[١٥]

نلاحظ عابرين أنّه لما اشتدّت المجاعة ببغداد سنة ٩٤٢/٣٣١ وانهدّ جسر السفن الوحيد على دجلة تحت وطأة الفيضان، اجتاح الروم قيليقية واستأسروا من المسلمين خلقًا كثيرًا وكتبوا إلى الخليفة أنّهم لا يطلقون الأسارى إلاّ إذا دفع إليهم منديلاً بكنيسة بالرُّها، عليه صورة وجه المسيح، وكانت الرُّها في أيدي المسلمين.[١٦] فاستحضر علي بن عيسى والفقهاء والقضاة واستشيروا، فأشار علي بن عيسى على الخليفة بتخليص المسلمين من الأسر، فسُلِّم المنديل ونُقل إلى القسطنطينيّة[١٧] سنة ٩٤٤.

إلاّ أنّ ملك الحمدانيين لبغداد لم يلبث أن ثقلت وطأته على الناس حتى «تمنّى الناس بني البريدي وغيرهم مع ما نالهم من الضرّ والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم. وشكى مع ذلك أن أمر الرفض قد أعلن في بغداد».[١٨]

ولما خاف الخليفة نفسه أن يُقبَض، رأى أن يغادر بغداد مرّة ثانية ويحلّ بالموصل في كنف بني حمدان وحمايتهم. ويصف المسعودي، الذي شهد الحادث، بلبلة الناس وارتباكهم لدى رؤية الخليفة يرحل.[١٩] «وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم في هذا الوقت... من خروج أبي إسحق المتّقي لله عنهم وما كان قبل هذا الوقت من البريديين وابن رائق وتوزون التركيّ وما دفعوا إليه من الوحشة بخروج أبي محمد الحسن... الملقّب بناصر الدولة»... الخ.

في النصارى نجد طازاذ ممّثل ابن شيرزاد ببغداد يعفى من مهمّاته[٢٠] ويلحظ الصولي[٢١]: «أن الجوالي لسنة اثنتين [وثلاثين وثلاثمئة] قد فتحت في شهر ربيع الأول (٢ تشرين الثاني/ أوّل كانون الأول ٩٤٣) فلحق أهل الذمّة خبط عظيم وظلم قبيح».[٢٢]

فضلاً عن هذا نجد لعبة الترقيات والنكبات تُظهر الكتّاب النصارى على مسرح الأحداث ثم تغمرهم وتفعل مثل ذلك بنظرائهم المسلمين. ففي الفاتح من

شوّال ٨/٣٣٢ حزيران ٩٤٣، قُبض أبو علي سعيد بن داود المسيحيّ، طبيب توزون الشخصيّ وأخوه أبو عمرو فهد وابن خالته، وضربوا ضربًا مبرحًا ليقرّوا بمال يبذلوه. وفي المحرم ٢٤/٣٣٣ آب - ٢٢ أيلول ٩٤٤ عادوا إلى مناصبهم وكأنّ شيئًا لم يكن.(٢٣)

وفي أواخر أيلول وأوائل تشرين الأوّل من السنة عينها يظهر الجاثليق عمانوئيل في صورة غير مشرّفة في نصّ الصولي:(٢٤) «ووجّه الأمير بقوم من أصحابه، فأمرهم أن يكبسوا أهل الريف من النبّاذين(٢٥) والقوّادين، وتعطيل ما يجري من أمر النبّاذين بدار الروم بالجانب الشرقيّ، ونسب ذلك إلى الجاثليق، وأنّ له عليهم قائمًا، وأنّه يرسل أهل نحلته فيعوز بهم [كذا!] وصادره على خمسين ألف درهم بوساطة طازاذ وابن سنجلا، وعطف بعد ذلك على النبّاذين والقوّادين، فحبس منهما وعاقب، وسكن أمر البلاء قليلاً».

انتهت خلافة المتّقي بصورة مأساويّة. فقد ألقى عليه القبض الأمير توزون التركيّ. وبعد أخذ البيعة لأبي القاسم عبدالله بن المكتفي، أكره توزون المتّقي على خلع نفسه، ثم أمر به فسملت عليناه، «فصاح، فأمر أصحاب الدبادب فضربوا بها، فصاح فلم يُسمع صياحه».(٢٦) كانت سنّ الخليفة المخلوع ٣٦ سنة، ولم يمت إلاّ سنة ٩٦٨/٣٥٧،(٢٧) أي بعد ٢٤ سنة.

الحواشي

(١) الصفدي، ج ٥، ص ٣٤١ - ٣٤٢، الرقم ٢٤١١.

(٢) التنبيه، ص ٤٠٠.

(٣) يقول ابن الطقطقي، ص ٢٢٩، أنه «لم يكن له من السيرة ما يؤثر».

(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٧، E. ASHTOR, dans Un mouvement migratoire au Moyen Age, migration de l'Irak vers les pays méditerranéens, Annales 27 (1972), p. 185-214 (reproduit dans the Medieval Near East, Variorum Reprints, 1978). يلحظ المقال هجرات التجار على مدى هذا العهد (ص ١٨٦)، وكذلك هجرة كتّاب كبار إلى مصر، من

أمثال أبي يعقوب إسحق بن نصير البغدادي (ت ٩١٠) الذي رأس ديوان الإنشاء لأحمد بن طولون (ص ١٩٠، إحالة إلى إرشاد الأريب لياقوت، ج ٦، ص ٢٣٧ - ٢٣٨).

(٥) الصولي، ج ٢، ص ١٩٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

(٧) المصدر نفسه.، ص ٢٠٤. ويسمّيه ابن مسكويه كورنكيج، تجارب، ج ٢، ص ١٩.

(٨) الصولي، الأوراق، ج ١، ص ٢٠٥: ١٣٠٠٠ دينار، ويذكر ابن مسكويه، ج ٢، ص ١٩: ١٥٠٠٠٠ دينار!

(٩) الهمداني، تكملة، ص ١٢٤، ابن مسكويه، ج ٢، ص ٢٥.

(١٠) الصولي، الأوراق، ج ١، ص ٢٠٦.

(١١) E.I.², II, p. 926-927, par D. SOURDEL. وقد اختبأ أوّل أمره عند بعض النصارى ببغداد من بني حسان، كتاب العيون، ص ٣١٦.

(١٢) أبو علي الحسن بن سليمان بن الجمال.

(١٣) BOWEN, p. 374

(١٤) الصولي، ج ١، ص ٢٢٧ - ٢٢٩، الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٤٩، ابن كثير، ج ١١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(١٥) نشوار، ج ٣، ص ٢٤ - ٢٥. كان معسكر انطلاق سيف الدولة بدير الأعلى بالموصل.

(١٦) تاريخ الزمان لابن العبري، ص ٥٧. يحيى، ص ٧٣٠ - ٧٣٢، P.O. XVIII يقول يحيى بن جرير في كتاب المرشد إنه رأى المنديل بكنيسة القديسة صوفيا سنة ٤٥٠/١٠٥٨ - ١٠٥٩، ولكنه يخطىء إذ يقول إنّ المنديل ظلّ بالرُّها حتى العام ٤٢٩/١٠٢٩، كتاب المرشد، الفصل ٣٥، في سمير خليل في Islamochristiana, 2 (1976), p. 217.

(١٧) BOWEN p. 380-382. - خلافًا لرأي IAN WILSON في كتابه The Turin Shroud (London, 1978) أعتقد أنني قد بيّنت في La revue d'histoire ecclésiastique (Louvain), 1987 p271-277 أنه يجب التمييز بين المنديل وبين كفن تورينو.

(١٨) الصولي، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(١٩) مروج، الفقرة ٢٦٦٢.

(٢٠) الصولي، ج ١، ص ٢٤٥.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٢٢) في السنة ذاتها فرض لصّ اسمه حمدي، بالتواطؤ مع ابن شيرزاد فيما قيل، إتاوة على أهل بغداد يفتدون أنفسهم منه بها. ثم ظفر به اسكرج الديلمي صاحب الشرطة وقتله، السيوطي، ص ٣٩٦، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤١٦.

(٢٣) الصولي، ج ١، ص ٢٧٧.

(٢٤) الصولي، ج ١، ص ٢٨٠.

(٢٥) عن أحكام الشرع في شأن الخمر انظر مقالة A.J. WENSINCK عن الخمر في E.I,[2] IV, p. 1027-1029.

(٢٦) الصولي، ج ١، ص ٢٨٢.

(٢٧) يحيى، ص ٧٣٧، P.O. XVIII

٢٢ - المستكفي (٣٣٣ - ٩٤٤/٣٣٤ - ٩٤٦)

كان أبو القاسم عبدالله المستكفي بالله، ابن المكتفي وابن عمّ المتّقي في «سائر أوقاته فازعًا وجلاً» كما وصفه بعض خدمه النصارى.[١] وليس لنا أن ننكر عليه هذا لأن ذكرى سَلفه (المخلوع والمسمول) كانت ماثلة أمام ناظريه.

بعدما مات توزون في المحرّم من العام ٣٣٤/ آب - أيلول ٩٤٥ ولّى الأتراك الأمر لكاتبه ابن شيرزاد،[٢] وفي إثره لا نزال نجد كاتبه طازاذ[٣] النصرانيّ.

معزّ الدولة

بيد أنّ السلطة سرعان ما انتقلت من أيدي الترك (السنّة) إلى أيدي البويهيين[٤] (الشيعة). كانت أخبارهم قد بدأت تتوارد منذ مدّة من الزمن، وكانوا يقتربون من العاصمة، في كانون الأول ٩٤٥ دخل أحمد بن بويه «الديلمي الأقطع»،[٥] إلى بغداد، بعد أن كان قد بسط سيطرته على البصرة وواسط والأهواز، فخلع عليه المستكفي لقب معزّ الدولة. وهكذا «ضاعت دولة» بني العبّاس، كما لاحظ البيروني،[٦] منذ أن أفرطوا في خلع الألقاب المنسوبة إلى الدولة على أعوانهم.

بعد شهر أو أكثر من الشهر بقليل، على دخول معزّ الدولة بغداد، خلع الأمير الخليفة وسمل عينيه (في كانون الثاني ٩٤٦). وكان المستكفي قد ساد (إذا جاز القول) سنة وأربعة أشهر.[٧] لم تكن هناك مناسبة للكلام عن النصارى خلال هذا العهد القصير الذي ابتليت فيه بغداد بالمجاعة المستمرّة.

كان وصول البويهيين إلى بغداد، بالنسبة إلى المسلمين، فاتحة عصر جديد من عصور الخلافة: عصر السيادة الشيعيّة. كانت ردُة فعل المتوكّل السنيّة على الخلافة المعتزليّة قد تورُطت في الرّمال الخاسفة لأزمة الخلافة التي استمرّت منذ العام ٨٦١/٢٤٧.

لم تكن الحقبة البويهيّة أصعب من سابقاتها بالنسبة إلى النصارى. فقد وقعت بعض فورات العنف والقرارات التمييزيّة، بيد أن الكتّاب والأطباء النصارى كانوا دائمًا في المواقع المناسبة على مقربة من أصحاب الصولة. وقد كان نفوذهم بارزًا أحيانًا ومغمورًا في أغلب الأحيان. ولئن ذابوا واختفوا من بعض المناطق فذلك بسبب التآكل، بسبب التّعب، بسبب السأم من كونهم «مختلفين» لا بسبب الاضطهادات العنيفة.

الحواشي

(١) أبو إسحق إبراهيم بن الوكيل، أنظر مروج الذهب، الفقرة ٣٥٥٣. كان أبوه إسحق الوكيل متصرّفًا في خزانة الشراب والكسوة بدار الخلافة، مروج، الفقرة ٣٥٤٣.

(٢) يحيى، ص ٧٤١ ـ ٧٤٢ (P.O. XVIII)

(٣) تجارب الأمم، ج ٢، ص ٨٧. ويقتفي الأب DONOHUE أثره حتى العامين ٩٤٧/٣٣٦ ـ ٩٤٨ و٩٥٢/٣٤١ ـ ٩٥٣.

(٤) انظر مراجع بيبلوغرافية عن البويهيين تحت اسم: فاروق عمر.

(٥) يحيى، ص ٧٤٢.

(٦) الآثار الباقية، ص ١٣٢.

(٧) مروج، الفقرة ٣٥٣٥.

٢٣ - المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣/٩٤٦ - ٩٧٤)

هل أراد معزّ الدولة إلغاء الخلافة نهائيًا، على ما اتّهمه به ابن كثير؟[١] المهم أنه نصب خيال خليفة في شخص أبي القاسم الفضل الذي تلقّب بالمطيع لله والذي ربّما كان أليق به أن يتلقّب بالمطيع للبويهيين.[٢]

وقد أدرك المسعودي ذلك إذ ختم مروجه بهذه الجملة المعبّرة عن الاشمئزاز: «وغلب على الأمر ابن بويه الديلمي والمطيع في يده لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر».[٣]

وهذا لا يعني أنّ السّلام ساد من أوّل ما دخل ابن بويه إلى بغداد. فقد كان على معزّ الدولة محاربة ناصر الدولة صاحب الموصل[٤] في السنة الأولى لخلافة المطيع أي سنة ٩٤٥/٣٣٤. كان كلّ واحد منهما يملك على أحد شطريّ بغداد: البويهي على الجانب الغربيّ والحمداني على الجانب الشرقيّ. ولما هرب هذا من حملة المعزّ عليه هرب كثير من سكان ذلك الجانب معه فمات عشرة آلاف على الطرق، ودخل الديلم ووضعوا السيف فيمن بقي ونهبوا الدور واستباحوا النساء.[٥] ومن الصعب أن نعرف هل هرب النصارى أيضًا أم لا. فالمعروف أنهم كانت لهم كنائس ومحال في الجانب الغربيّ وفي الجانب الشرقيّ، وبخاصة في أحياء الشماسيّة إلى الشمال حيث كان مقرّ الجثلقة وأحياء سوق الثلاثاء إلى الجنوب.

ونقرأ أن المجاعة أصابت بغداد في العام ٩٤٥/٣٣٤ أيضًا.[٦] وليس في الأمر ما يستغرب نظرًا إلى الظروف. ويذكر ابن العبري أنّ بعض المنجّمين قد كان تنبّأ بها. وينبغي لنا الانتظار حتى العام ٩٥٠/٣٣٩ لنجد المؤرّخ نفسه يذكر[٧] «حدوث رخص وافر» وهو قليلاً ما يفعل هذا.

بعد عامين من ذلك التاريخ شبّ حريق في الأحياء الجنوبيّة الشرقيّة من بغداد، بسوق الثلاثاء حيث كان يسكن بعض النصارى، كما تقدّم، فمات به خلق كثير.(٨) وفي العام التالي اندرأ الجراد على نواحي بغداد والموصل فغلت الأسعار.(٩)

ولا يدهشنا أن تقل الأخبار عن النصارى في أثناء تلك السنين الطوال العجاف، فعندما يشتغل المرء بسدّ الرمق، لا يفكّر في كتابة التاريخ.

ها بعض الأمارات على تحسُّن الأحوال: الجاثليق عمانوئيل يظهر ويهتمّ بإعادة البناء. نحن الآن في العام ٣٤٣/٩٥٣ - ٩٥٤، ولا بدَّ من ترميم كنيسة دار الروم بالشماسيّة إلى الشمال الشرقيّ من العاصمة وكنيسة الدير الذي بمحلّة العتيقة، ترميمًا مهمًا.(١٠) أمّا الأولى فقد طالب بذلك أبناء الرعيّة، وأما الثانية فبأمر الجاثليق، وأمّا الحصول على الإذن الرسميّ فبوساطة الطبيب أبي علي سعيد بن داود المسيحيّ.

واتّفق أن اشترى رجل من أعيان النصارى، هو أبو عيسى المنذر بن النعمان العبادي الذي صادفناه من قبل، أبوابًا للهيكل ثمنها مئة دينار. وكانت الأبواب جاهزة في سوق النجّارين تنتظر من ينقلها لما أمر الجاثليق فجأة بأن تجلب على الفور. في اليوم التالي فهم المقرّبون من الجاثليق استعجاله الأمر، لما اتّصل بهم الخبر بأن سوق النجّارين بباب الطّاق احترق كله ليلاً. لم يكن عمانوئيل قد فقد موهبة الرؤيا الصادقة بعد خيبة العام ٩٤٤.

وقد التزم بنفقات الترميم (للكنيستين؟) أبو علي بن غسان النصرانيّ كاتب ركن الدولة بن بويه.

الشيرازيون ببغداد

يدلّ الاسم الأخير المذكور على أنَّ النصارى انخرطوا في خدمة الأسياد الجدد، وقد كان البعض منهم مع أولئك الأسياد منذ أن كانوا في الأعمال الإيرانيّة من الخلافة حيث بدأ البويهيون بالتوسّع. إذ نجد في خدمة عماد الدولة علي، وهو من أوائل بني بويه، الذي حكم فارس من شيراز (من قِبَل الخليفة الراضي مبدئيًا) من ٣٢٣ إلى ٣٢٥/٩٣٥ - ٩٣٧، وزيره النصرانيّ الرازي أبا سعد إسماعيل بن

موسى.[١١] وقد صحب هؤلاء النصارى مواليهم إلى بغداد حيث صار في طائفة النصارى هناك جماعة ضاغطة جديدة، هي جماعة الشيرازيين،[١٢] إلى جانب جماعات أهل المدائن وأهل الحيرة وأهل كسكر، أصحاب النفوذ التقليدي.

منذ العام ٩٤٨/٣٣٧ يظهر أيضًا في خدمة البويهيين واحد من معارفنا القدامى، إنه ابن سنجلا الذي عمل آنئذٍ كاتبًا على الضياع بسواد بغداد، للأمير روزبهان بن ونداد خورشيد الديلمي، أحد قوّاد معزّ الدولة.[١٣]

ولّما خالف هذا القائد على معزّ الدولة سنة ٩٥٦، قلق الأمير البويهي: هل يطيعه جنده من الديلم في محاربة رجل من جنسهم؟ هل يقدر الترك وحدهم على كسره؟ ثم ألن يغتنم الحمداني، صاحب الموصل، الفرصة لينقضّ عليه من الشمال؟ لذلك أوعز معزّ الدولة إلى خازنه النصرانيّ أبي علي الحسن بن إبراهيم الشيرازي[١٤] بأن يعدّ الزوارق ليجلي ولده وحرمه وأمواله إلى البصرة. قبل أن يرسلهم بعث الخازن أبا الحسن عليًا بن عون المسيحيّ ليستشير الجاثليق المعروف بصدق رؤاه: عمّ ستنجلي المعركة بين المعزّ وبين روزبهان؟ فأجاب عمانوئيل: «بأنّ الخبر يأتيه في مستهلّ الشهر بما يسرّ وبالظفر».[١٥]

وهذا يفسّر لنا لِمَ تمتّع الجاثليق ببعض المكانة لدى البويهيين. وقد قلق الخازن يومًا (بتاريخ غير محدّد) على صحّة مولاه (وعلى مستقبله هو أيضًا؟)، وكان الأمير يعاني من حصى في المثانة فأرسل الخازن ابن أخته إلى عمانوئيل يسأله: هل حياة الأمير في خطر؟ فأجابه الحبر: «قل له ليس يتأذّى بموت معزّ الدولة وكان ذلك رمزًا على أن يموت قبله».

عدد النصارى

لم نتكلّم حتى الآن عن عدد النصارى. إن تقدير هذا العدد يفترض القدرة على تكوين فكرة، على شيء من الوضوح، عن تطور عدد السكان في مدينة معيّنة (بغداد مثلاً) أو ناحية معيّنة، ومقارنة هذا العدد بالمبالغ المجموعة من جزية الرؤوس.

ولئن جرُبت دراسات كهذه على بعض المدن[١٦] فأنّها ستصطدم، إذا ما طبّقت على بغداد، بتناقض شهادات المؤرّخين. نقرأ عند التنّوخي،[١٧] مثلاً، أنّ سكان المدينة في الفترة التي وصلنا إليها، أي سنة ٩٥٦/٣٤٥ في خلافة المطيع، صاروا إلى عُشر ما كانوا عليه في خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٩٠٨/٣٢٠ - ٩٣٢). فكيف يجوز لِـ: A. ABEL أن يكتب[١٨] أنَّ سكان بغداد كانوا يزيدون على المليون نسمة في أيام المقدسي[١٩] (٩٥٦/٣٥٥)، أي في خلافة خلف المطيع؟ هل كان عدد سكّانها عشرة ملايين نسمة إذن قبل خمسين سنة؟

أمّا الجزية في بداية القرن الثالث/ التاسع، فقد كان ارتفاعها من بغداد ١٣٠٠٠٠ درهم وفي بداية القرن الرابع/ العاشر، ١٦٠٠٠ دينار.[٢٠] ويرى متز[٢١] «أنّ هذين الرقمين يدلاّن على أنّه كان ببغداد نحو من خمسة عشر ألفًا من أهل الذمّة يدفعون الجزية، ويجب أن نسقط منهم ألف يهودي. ونستطيع أن نقول بشيء من اليقين إنّه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصرانيّ». لا بدَّ من إعادة درس هذه الأرقام، ولكن هل تفي الوثائق بمثل هذه الدراسة؟ يذهب ياسين العمري في كتاب الدرّ المكنون في المآثر الماضية من القرون، وهو مؤلّف موصلي من القرن الثامن عشر، إلى أنّه كان ببغداد في زمن الغزو المغولي ٥٦ كنيسة وأن ٤٣٠٠٠ رجل كانوا يدفعون الجزية فيها. ويعلّق الأب بطرس حداد الذي يورد النصّ في مقالة بمجلّة بين النهرين[٢٢] قائلاً: «ونحن نرى أنّ في قوله عن عدد الكنائس مبالغة كبيرة». ويبدو أنّ ثمّة مبالغة أيضًا في عدد النصارى، إذ لو حسبنا متوسط الأسرة خمسة أشخاص لوجب أن يكون عدد النصارى أكثر من مئتي ألف؟

لقد حفلت أواخر جثلقة عمانوئيل الطويلة بجملة بلايا: وباء في العام ٩٥٧/٣٤٦،[٢٣] حروب بين أحياء بغداد وحرائق متبادلة سنة ٩٥٩/٣٤٨، وفي السنة عينها جفاف وجراد.[٢٤]

مات الجاثليق في صفر ٣٤٩/ نيسان ٩٦٠ عن جثلقة دامت أكثر من ٢٢ سنة. «كان شيخًا بهيًا قديسًا ولم يكن له إلاّ عيب واحد، وهو محبّة المال وشدّة الشحّ عليه». وقد ترك سبعة آلاف مثقال ذهبًا وست مئة ألف درهم. «وكان قد أعدّ لنفسه تابوتًا من خشب الجوز على مثال الذوات بغير مسمار ولا حديد». وكان

من آخر كراماته أو (علائم طمعه؟) أن يده الميّتة قبضت على «العكاز» عندما وضع على جثته. وقد أوشك أبو عيسى أن ينشر الخبر إلاّ أنّ شابا الكاتب منعه: كان لا بدّ من إكمال مراسم الدفن التي شهدت تنازعًا على شرف قراءة فصل من رسائل القديسين بين أهل المدائن وأهل الحيرة...

بالنسبة إلى المجاعة في الموصل سنة ٣٥٠/٩٦١، يطلعنا ابن العبري[٢٥] على إحدى نتائج هذه الكوارث المستوطنة: هجرة السكان، ولا سيّما النصارى منهم، بحيث تحوّلوا تدريجيًا إلى أقلّية بدار الإسلام. في تلك السنة ذهب اليعاقبة حتى ساحل البحر المتوسط. وهكذا بنيت بطرابلس الشام كنيسة باسم «الشهيد المجيد مار بهنام» الذي لا يزال موضع استشهاده معظمًا بالقرب من الموصل. أمّا الكنيسة التي بطرابلس فنجهل حتى موقعها.

وفي هذه السنة ذاتها، ومع استمرار الغلاء واتصال الفتن في شطريّ بغداد،[٢٦] مات أبو إسحق بن ثوابة النصرانيّ كاتب الخليفة ومعزّ الدولة. وقد أنيط الانشاء من بعده بإبراهيم بن هلال الصابىء المعروف. ويشير H. BUSSE، في هذا الشأن، إلى أنّ خدمات الخليفة وأمير الأمراء كانت توكّل آنئذٍ إلى نفس الكتّاب. وفي هذه الحالة المخصوصة كان لبني ثوّابة عدد من الرّجال، بعضهم نصارى وبعضهم مسلمون في دواوين الخلفاء منذ أيام المعتضد.[٢٧]

وفي العام ٣٥٠/٩٦١ - ٩٦٢، وصل أبو الحسن سعيد بن عمرو بن سنجلا إلى قمّة مراتبه. فصار كاتب الخليفة الخاص، ويذهب H. BUSSE إلى حدّ اعتباره بمثابة وزير.[٢٨]

خلَف عمانوئيل

كانت الاستعدادات جارية لانتخاب خلَف لعمانوئيل. وكانت القضيّة في يد العلمانيين: اتّفق أوّل الأمر كلٌّ من أبي عمر بن عديّ كاتب سبكتكين الحاجب[٢٩] وأبي علي الخازن على انتخاب مطران جنديسابور، وكان الآباء المسيمون على نيّة الموافقة لمّا غيَّر أبو علي رأيه

XVII واختار إسرائيل أسقف كسكر، العجوز الذي طوى تسعين حولاً. رفض الآباء وأبو عمر بن عديّ هذا الحلّ. ولما تظاهر أبو علي بفرضه من قبل الخليفة ومعزّ الدولة لاذ بعض الأساقفة بالفرار لكي لا ينتخبوا إسرائيل.[٣٠]

لماذا تمسّك الخازن بهذا المرشّح؟ ذلك لأنّ إسرائيل أيضًا كان «يخبر بالغيب»... ففي العام ٩٤٧/٣٣٦، لما خرج الخليفة وأمير الأمراء لمحاربة أبي الحسين البريدي[٣١] بالبصرة، توقفا بواسط (كسكر) حيث كان إسرائيل أسقفًا. ففتح إسرائيل للخليفة (لا للأمير!) باب المذبح، حيث لا يجوز الدخول إلاّ للقسّ الصائم.[٣٢] فسأله أبو علي الخازن الذي كان في صحبة الخليفة: «هل يظفران؟»، فتنبّأ الأسقف بأنّهما يطردان البريدي من البصرة.

والآن بعد أربع عشرة سنة من تلك النبوءة أراد الخازن مكافأة صاحب الرؤى. أمّا أبو الحسن بن سنجلا فلم يشترك في عمليّة الانتخاب لأنه رأى ما جرى في غيرها من قبل، بل إنّه لما رأى جيورجيس مطران الموصل الشاب يطمع في الكرسيّ، قال له ببساطة: «الدور الآخر».

دبّر الخازن كلّ شيء الرسّامة والمراكب لنقل الجاثليق الجديد إلى بغداد، الخ. وكان ذلك يوم الخميس ١١ ربيع الأخر ٣٠/٣٥٠ أيار ١٩٦١. وقد بقي إسرائيل في السدّة مئة وعشرة أيام، ومات يوم الثلاثاء الثالث من شعبان/ ١٧ أيلول. ثم تبعه الخازن إلى القبر بعد ستّة أيام: فرأى الناس في موته عقابًا من الله. عندئذٍ خرج الأساقفة الهاربون من مخابئهم، فقد صار في وسعهم اجراء انتخابات جديدة من دون الخازن.

انتخاب عبد ايشوع الأول

XVIII كان انتخاب عبد ايشوع[٣٣] من أكثر الانتخابات تعقيدًا (وقد رأينا شيئًا من غرائب ذلك) في سلسلة خلفاء مار ماري على كرسيّ المدائن. كان عبد ايشوع ابن بعض اللاجئين من كرخ جُذّان بالموصل، وقد تعلّم المنطق على ابن نصيحة الذي أخذ عن موسى بن كيفا. كان عبد ايشوع أسقفًا على مَعَلثا وبانوهدرا

إلى الشمال من الموصل لما اتفق «الآباء والمؤمنون» على اسمه. كان أهل بغداد قد بدأوا باستئجار المراكب لينحدروا بها إلى المدائن ويحضروا رسامة الجاثليق بكنيسة كوخي، وكان هارون بن حنّون كاتب سبكتكين الحاجب قد اشترى كلّ ما يلزم للرسامة وإذا بالجميع يُصدَمون باعتراض المطيع[٣٤] من قِبَل معزّ الدولة. ذلك لأنّ طبيبًا قسًا من دار الروم، اسمه فثيون، كان قد اشترى المنصب[٣٥] في تلك الأثناء. فقد دفع هـذا القسّ «الذي كـان حسن الحال» مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم ليكسب الأصدقاء، ومنهم اسكورج الديلمي.

حاول «المرشح» أن يضع يده على الكنائس إلاّ أنّ الأساقفة تهاربوا منه: عاد مطران الموصل إلى بلده مع «العرب» (الحمدانيين) واختبأ الآخرون. وسارع الوزير المهلّبي[٣٦] إلى وضع القلّية تحت الحراسة.

بعد بضع محاولات لحلّ الأزمة دعا الوزير بأعيان النصـارى وقال لهم بـلا مواربة: إذا أردتم غير فثيون فاعطوني عوض ما بذله فثيون، وبعث الأمير معـزّ الدولة أبا مخلد عبدالله بن يحيى، نائب ركن الدولة، إلى القلّية ليفتّشها. كان أبو مخلد هذا نصرانيًا من قبل وكان يترفّق في معاملة أبناء ملّته الأولى. فاتّفق معهم على أن «يضبط» هناك مبلغًا زهيدًا (١٢٠٠٠ درهم) ويوقف التفتيش. ولما قدّم المبلغ إلى معزّ الدولة تلطّف في إظهاره وكأنّه «من صدقات النصارى على الضعفاء والأيتام». فتحرّج الأمير من قبض المال وأمر برفع الحـراسة عن مقـرّ الجثلقة، ومنعهم من التعرُّض لرجال الكنيسة بها.

كانت تسعة عشر شهرًا قد انقضت في تدبّر القضيّة لما دعا الوزير بالأعيان مجدّدًا من أجل مصالحة تتيح الانتخاب. عنـدها وقعت مشـادّة بين المهلّبي وابن سنجلا، حامية إلى حدّ أن قلب الكاتب العجوز لم يحتملها، فمات، وكان ذلك سنة ٩٦٣.

أخيرًا تُوصل إلى حلّ وسط: يدفع النصارى مئة ألف درهم، وثلاثين ألفًا للوزير. ومن أجل جمع المبلغ، بيعت الأواني النفيسة التي بالكنائس، وأكمل المبلغ من تركة عمانوئيل، وبذلك جاءت أموال العجوز البخيل في محلّها.

أعيدت عندئذٍ الانتخابات. نلاحظ عابرين اعتراض بعضهم على أحد المرشّحين: لأنّ أخاه كان قد أسلم. أخذ بالاعتراض وسحب اسم المرشّح. وذكر المعجمي المعروف أبو الحسن بن البهلول اسم أسقف مَعَلثا الذي نسيه القوم. فخرج هذا الاسم بالذات ثلاث مرّات عندما ألقيت القرعة(٣٧) على الأسماء.

وكما جرى مع عمانوئيل اضطرّ الآباء إلى مطاردة الجاثليق المنتخب الذي لم يكن حاضرًا. ولما كانت أبرشيّته تلحق بالموصل كتب معزّ الدولة إلى ناصر الدولة الحمداني، وكتب المهلّبي إلى دنحا الوزير النصرانيّ عند الحمداني، وكتب رؤساء النصارى إلى مطران الموصل بإرسال المنتخب في أقرب وقت. وطلب الكاتب النصرانيّ أبو العلاء صاعد(٣٨) إلى ابن بهلول أن ينشىء الرسائل.

سار البريد وأسرع، وقطع ما يقارب ٤٠٠ كلم في أربعة أيام. وكان لا بدّ من إكراه عبد ايشوع على الركوب إلى بغداد، لأنه كان قد استقال لتوّه، حتى من أعبائه الأسقفيّة. ولما حصل ببغداد نزل هو وصحبه الموصليون في ضيافة أعيان البلد. ومن هؤلاء الأعيان يذكر ابن زهمان،(٣٩) الذي كانت داره بحيّ العتيقة بضاحية بغداد الغربيّة. ثم انتقل الجاثليق المنتخب إلى منزل طازاذ بالجانب الشرقي من بغداد، ومنه إلى منزل أبي العلاء صاعد. ومن هناك هرب الجاثليق المرغم فأدركوه، وكانت رسامته في ٢٤ ربيع الأول سنة ٢٢/٣٥٢ نيسان ٩٦٣.

كان سيّء التدبير إلى الغاية، فترك أموال الكنيسة نهبًا لتلاميذه وصحبه حتى ثارت عليه رعيّته. فهرب عندئذٍ من دار الروم إلى دير مار فثيون بالجانب الآخر من دجلة، فلمّا لحق به المتمرّدون اعتذروا منه وغفروا له ما فعل من أجل تقواه.

ما كانت حال النصارى خلال سني جثلقته الثلاث والعشرين؟

الخبر الأوّل الذي نصادفه سنة ٩٦٣/٣٥٢ حادث عابر يلفت انتباهنا إلى الأدوار المتنوّعة التي ربّما قام بها النصارى لدى الأمراء... جرى الحادث بحلب عند الحمدانيين: فقد طعن هبة الله ابن ناصر الدولة بحربته كاتبًا نصرانيًا يدعى أبو الحسين بن دنحا،(٤٠) الذي «كان خصيصًا بسيف الدولة». وكان الكاتب «يتعرّض» لأحد غلمان هبة الله، «فغار لذلك».(٤١)

صادفنا من قبل مرارًا أبا العلاء صاعدًا بن ثابت الكاتب النصرانيّ، لدى انتخاب الجثالقة. فبعدما كان رجل المهلّبي الثقة، وحتى نائبه، وحُبسَ ثم أُطلق عدّة مرّات، نراه في العام ٩٦٤/٣٥٣ يرافق معزّ الدولة في رحلته الثالثة إلى الموصل. وقد صار أبو العلاء أيضًا وزيرًا بلا لقب وذلك في تموز/ آب ٩٧٧، لّما خرج من الحبس بعد سقوط ابن بقيّة.(٤٢)

كان الجوّ العام ببغداد آنئذٍ جوّ توتّر بين السنّة وبين الشيعة يدعمهم الأمير. وفي العاشر من المحرّم سنة ٢٩/٣٥٣ كانون الثاني ٩٦٤، وقعت فتنة بين الفريقين سقط من جرّائها الجرحى ونُهبت الدور.(٤٣)

ونشير أيضًا، قبل غياب معزّ الدولة إلى طبيب نصرانيّ من أطبّائه، اسمه دانيال، ضربه الأمير فمات منها.(٤٤) في الوقت ذاته اتّخذ المطيع أطباء من صابئة حرّان وكان له طبيب نصرانيّ معروف هو إسحق بن شليطا، الذي سبق مولاه إلى القبر.(٤٥)

في العام ٣٥٦/ نيسان ٩٦٧، مات أخيرًا أوّل من دخل بغداد من البويهيين، أمير الأمراء معزّ الدولة.(٤٦) ويخصّه ماري بتعليق موجز بليغ: «كان يحبّ النصارى»، ويذكر الخبر التالي دليلاً على هذه المحبّة: لما أراد الأمير، في العام ٩٦١/٣٥٠ - ٩٦٢(٤٧) بناء قصره المطلّ على دجلة بالدور، إلى الغرب من الشماسيّة، احتاج إلى تهديم بعض مصلّيات المسلمين بتلك المحلّة، إلاّ أنّه لم يتعرّض لكنيسة مار اصطفانوس التي كانت تعرف أيضًا ببيعة الدور. ويجب أن نشير إلى أنّ شبح مار اصطفانوس قد تراءى للأمير وتوعّده، ولا أحد يمزح مع الأشباح. ولئن تذكّرنا مواهب الجاثليقين عمانوئيل وإسرائيل في التنبّؤ، فهمنا لمَ كان معزّ الدولة «يحب» النصارى.(٤٨)

على أيّة حال يجب أن توضع قضيّة النصارى في الإطار العام لذلك العهد. فكما يكتب هنري لاوست:(٤٩) «لقد انفجرت ببغداد، منذ أيام معزّ الدولة، فتن خطيرة الشأن كان من جرّائها تصادم السنّة والشيعة تصادمًا دمويًا أحيانًا كثيرة من بعد، وذلك لدى إقامة شعائر عاشوراء في العاشر من المحرّم، ويوم غدير خُم في الثامن من ذي الحجة... يوم ولّى النبي محمد الإمام عليًا خلفًا شرعيًا له».

عزّ الدولة

خلف معزّ الدولة ابنه عزّ الدولة بختيار، الذي يطنب ابن الأثير في ذكر سوء سيرته[٥٠] يبدو أنّ طبيبه فنّون[٥١] كان نصرانيًا وقيل إنّه كان يشتغل في السفارة بين الأمير والخليفة، ولا يُعرف له دور سياسي آخر.

في العام ٩٦٨/٣٥٧ وُجدت في حوزة أحد صيارفة بغداد ٣٥٠٠٠٠ زوزي و١٢٠٠٠ دن خمر (؟)، لأبي العلاء سليمان بن وهب النصرانيّ فصودر الصيرفي على ١٤٠٠٠٠ زوزي وترك وشأنه...

ويطلعنا خبر آخر على حال أهل الذمّة المعرّضين لشتّى ألوان الضرائب غير الشرعيّة حيثما كانوا بلا سند ولا ظهير من أبناء ملّتهم من ذوي المناصب: وجدت جثّتان لاثنين من الأعراب على مقربة من دير بظاهر الموصل. فاغتنم أبو تغلب، ابن ناصر الدولة الفرصة ليفرض على النصارى ١٢٠٠٠٠ زوزي.[٥٢] وقد قدّم، في أثناء المحاكمة التي آلت إلى هذه العقوبة، كل من رئيس الدير ماري بن طوبا (الذي صار جاثليقًا من بعد) ورجل يدعى ابن سلامة (الكاتب؟) نفسيهما رهينتين وصبرا على «ضرب السياط والقيد والأغلال».[٥٣]

ولكن يجب أن نذكر أيضًا أنّ الذمّيين كانوا ينتحلون «حقوقًا» لم يكن إلاّ المسلمون (ولا سيّما أصحاب النفوذ منهم) يجرؤون على ممارستها من دون مخاطرة جسيمة، ومن ذلك الهجاء، فقد ذكر أنّ كاتبًا بغداديًا من اليعاقبة يدعى بشر بن هارون بن جملا أنشد التنوخي[٥٤] في شعبان ٣٥٩/ حزيران ـ تموز ٩٧٠ أبياتًا يهجو فيها وزيرين تعاقبا في تلك الفترة[٥٥] (هما الشيرازي ثم أبو الفرج):

مضى مَن كان يعطينا قليلاً	ووافى مَن يَشحُّ على القليلِ
وأحسَبُ أن سيملكنا مُكِدٌّ	متى اطَّرَدَ القياسُ على الدليلِ[٥٦]

وقد كان على الذمّيين أن يدفعوا ثمن هذه السّفاهة لما عاد أبو الفضل العباس الشيرازي[٥٧] إلى الوزارة في ٢٦ أيار ٩٧١، ففرض مكوسًا على النصارى، ولا سيّما على الجاثليق الذي اضطرّ إلى أن يدفع مئتي ألف درهم في المرّة الأولى ثم مئة ألف في المرّة الثانية.[٥٨] ويؤكّد هذا الخبر ابن مسكويه[٥٩] الذي يقول إنّ أبا الفضل

وزير البويهيين تفنّن في ضرب الضرائب على الناس فبدأ بأهل الذمّة سنة ٣٦١/٩٧١ - ٩٧٢، «ثم ترقّى إلى أهل الملّة.. وكَثُر الدُّعاء عليه في المساجد الجامعة وفي الكنائس والبيع....».

وكان من أعظم مخاوف النصارى ببغداد ورود الخبر إليها عن توغُّل قيصر الروم، يوحنا بن الشمشقيق، في بلاد الشام. وقد أدّى دخوله نصيبين، في المحرّم من العام ٣٦٢/ تشرين الأول ٩٧٢، إلى فتنة عظيمة ببغداد، فاحتلّت العامّة قصر السلطان عزّ الدولة بختيار، ثم انتهى هياجها إلى تقاتل السنّة والشيعة بالعاصمة. أمّا النصارى فلم يتعرّض لهم أحد بشكل خاصّ لأنه «من لطف الله (وهذا قول ماري) أنّ الروم نهبوا الأعمار والبيع» بنصيبين مثلما نهبوا المساجد وعاملوا نصارى المدينة معاملة الأعداء لا لأنهم عرب (فهم آراميون سريان) بل لأنهم من أصحاب البدع (هراطقة)، نساطرة ويعاقبة، في نظر «أصحاب السنّة القويمة» (الأرثوذكس) الروم. وقد فاوض الأمير الحمداني أبو تغلب (فضل الله الغضنفر، الملقَّب بعدّة الدولة) بن ناصر الدولة الروم على الانسحاب من الشام.[٦٠]

وقد نُهبت في غيابه دار السلطان ولذلك نفهم لِمَ سخط السلطان على نائبه الذي يمثّله بالمدينة. ولذلك نرى عزّ الدولة يردّ في عنف بعد بضعة أشهر، عندما انفجرت الفتن في الجانب الغربيّ من دجلة وقُتِل أحد معاوني صاحب الشرطة. فقد وضع الوزير الشيرازي النار بالشطر الغربي من المدينة، «من النحّاسين إلى السمّاكين»[٦١] (رمضان ٣٦٢/ تموز ٩٧٣) فهلك خلق كثير، وهرب الناس إلى الجانب الشرقي من دجلة.[٦٢] ويبدو أنّ أحياء النصارى بالشّطر الغربي، كاليعاقبة بباب المحوّل (إلى الجنوب الغربي) والنساطرة بحيّ العتيقة (إلى الجنوب الشرقي)، لم تتصل بها النيران.

كان من شأن هذه الاضطرابات كلّها أن تؤدّي إلى اختلال ماليّة المملكة، فراح عزّ الدولة يبحث عن المال. ولما لم يعد في حوزة الخليفة أيضًا ما يكفي من المال[٦٣] فُرضت فرائض باهظة على الكتّاب والأشراف والصيارفة، الخ.، وعلى النصارى واليهود من حيث هم كذلك، هذا إذا لم يدخلوا في أيّة من الفئات المذكورة.[٦٤] لا نملك تأريخًا لهذا التدبير إلاّ أنّ عليه بصمات أبي الفضل الشيرازي

الوزير، ويأتي ذكره في تاريخ يحيى قبيل ذكر تعيين أبي طاهر محمد بن بقّية وزيرًا، خلفًا للشيرازي،[٦٥] في ذي الحجّة ٣٦٢/ أيلول ٩٧٣. وقد خلع على الوزير في هذه المناسبة لقب الناصح، ثم لقّب فيما بعد، سنة ٩٧٥/٣٦٤، بنصر الدولة.[٦٦]

كان العام ٩٧٤/٣٦٣ عام شؤم على الخليفة المطيع الذي نسيناه بعض الشيء.[٦٧] فقد اندلعت الحرب ببغداد مرّة أخرى بين الشيعة المدعومين بحميّة عزّ الدولة[٦٨] وبين السنّة المستندين إلى الترك، أصحاب سبكتكين الحاجب. ولما غلب هؤلاء نهبوا حيّ الكرخ الغربي وأحرقوه مرّة أخرى،[٦٩]، ثم أكرهوا الخليفة الهرم الضعيف على التنازل وتولية ابنه الذي تلقّب بالطائع (في ١٣ ذي القعدة ٣٦٣/٥ آب ٩٧٤). ولم يلبث الخليفة المخلوع أن مات بعدها بدير العاقول.

الحواشي

(١) البداية، ج ١١، ص ٢٦٢ - ٢٦٣، أو الاستعاضة عن العباسيين بالزيديين. Miskawayh, p. 172

(٢) ابتداءً من هنا يُرجع إلى دراستَي DONOHUE وBUSSE العامتين، وإلى المراجع عند فاروق عمر.

(٣) مروج، الفقرة ٣٥٧٢، وقد نبّه محمد أركون إلى ما تنطوي عليه هذه الألقاب من «التباس فظيع» في MISKAWAYH, p. 172

(٤) يحيى، ص ٧٦٤، تاريخ الزمان، ص ٥٨.

(٥) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٥٣.

(٦) الكامل، ج ٨، ص ٤٦٥، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٩. فتن من العام ٣٣٨ إلى ٣٨٧، الحاشية رقم ٢١٣، ص XCI في كتاب LAOUST عن ابن بطّة.

(٧) تاريخ الزمان، ص ٥٩.

(٨) الكامل، ج ٨، ص ٤٩٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٠٥.

(١٠) وهذا ضروري في شمال العراق الحالي كلّ مئة سنة. أمّا في الجنوب وبغداد حيث لا حجارة وحيث الأرض أقرب إلى المشاشة فالآجر أقلّ مقاومة والمباني أقصر عمرًا.

(١١) مسكويه، ج ١، ص ٢٩٩، كتاب العيون، ص ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٨، المنتظم، ج ٦، ص ٣٦٥، الخ.

(١٢) لم يكن الذين قدموا على بغداد من شيراز نساطرة فحسب، فقد كان فيهم قوم من الملكانية منهم نظيف بن يمن الطبيب والمترجم واللاهوتي الذي عمل في البيمارستان العضدي، راجع J. NASRALLAH, Nazif, op. cit.

(١٣) الكامل، ج ٨، ص ٤٨٩ - ٤٩٠. تجارب، ج ٢، ص ١١٤، BUSSE, p. 35, 143, 334, 340, 373

(١٤) يذكر ماري في سيرة أنوش (٨٧٧ - ٨٨٤) مجمعًا عُقِدَ «في أيامه». إن هذه الإشارة إلى بعض العلمانيين لا إلى الجاثليق تستحقّ الالتفات. وقد مات هذا الخازن، بعد حياة ملأى بالأحداث (الحاشية رقم ١، من تحقيق الشالجي، الفرج بعد الشدّة، ج ١، ص ٩٦)، في الحبس بعد أن لدغته حيّة سنة ٩٦١/٣٥٠. ويروى أن المهلّبي الوزير، الذي أراد أن يصادر أمواله، وجد في تركته أكثر من مئتي ألف دينار. وقد عُرِفَ ابن أخته عبدوس أيضًا (التنوخي، المصدر نفسه).

(١٥) يكرّر ماري الخبر مرّتين ص ٩٦ و٩٨. عن وظيفة الخازن أنظر: e.I.², IV, p. 1214-1215, par C.E. BOSWORTH

(١٦) استنادًا إلى عدد الحمامات مثلاً.

(١٧) نشوار، ج ١، ص ١١٨.

(١٨) **Les marchés de Bagdad**, p. 149

(١٩) المقدسي، ص ١٢٠: «يخشى (هذا المؤرّخ) أن تعود بغداد كسامراء مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان».

(٢٠) يرى E. ASHTOR في Essai sur les prix et les salaires de l'empire califien, R.S.O, XXXVI, p. 19-69 أنّ الدرهم (العملة الفضّية) قد فقد من قيمته بالقياس إلى الدينار (العملة الذهبيّة). إذ بينما كان يساوي ١/١٠ أو ١/١٢ في منتصف القرن الثامن للميلاد لم يعد يساوي أكثر من ١/٢٥ من الدينار في منتصف القرن التاسع للميلاد.

(٢١) ص ٨٤، ويستشهد بابن خرداذبه، ص ١٢٠، وقدامة بن جعفر، ص ٢٥١. ويقول الأخير إنّ جزية أهل الذمّة بلغت مئتيّ ألف درهم سنة ٨١٩/٢٠٤. لم يجد حبيب الزيّات في «الجزية»، ص ٦٣ - ٦٤، إحصائيات، والأمثلة التي يوردها تتعلّق بأماكن بعيدة عن مجال دراستنا.

(٢٢) ٨، ٣١ (١٩٨٠)، ص ٢١١.

(٢٣) الكامل، ج ٨، ص ٥٢٠.

(٢٤) الكامل، ج ٨، ص ٥٢٧ - ٥٢٨، في هذه الحقبة يكتب المقدسي(B.G.A. III, p. 119-120) في الثناء على بغداد: «بغداد مصر الإسلام، وبها مدينة السلام ولهم الخصائص والظرافة والقرائح واللطافة هواء رقيق وعلم دقيق، كلّ جيِّد بها وكلّ حسن فيها، وكل حاذق منها وكل ظرف لها» ثم يضيف في شيء من الكآبة، «وكل قلب إليها وكلّ حرب عليها».

(٢٥) تاريخ الزمان، ص ٦١.
(٢٦) الكامل، ج ٨، ص ٥٣٣.
(٢٧) دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٩٣ - ٣٩٦، BUSSE, p. 302 et no. 3
(٢٨) BUSSE, p. 248, no. 5 et p. 463 avec réf. ويعتقد الكاتب أنه قد ظلّ في هذا المنصب حتى العام ٣٦٣/٩٧٤. والحقيقة أنّه مات قبل رسامة عبد ايشوع الأول، أي قبل نيسان ٩٦٣، ماري، ص ١٠٠.
(٢٩) إشارات مختلفة في الكامل، ج ٨، ابتداءً من ٣٣٧/٩٤٨، ص ٤٧٩. نرى مثلاً في الصفحة ٥١٤ أن معزّ الدولة «كان يثق به».
(٣٠) ماري، ص ٩٨ - ٩٩، صليبا، ص ٩١ - ٩٣. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٤٨ - ٢٥٠. إيليا النصيبيني، تحت العام ٣٥٠، والحاشية العربية ص ٧٥.
(٣١) يستعمل ماري هنا اسم «اليزيدي» بدلاً من البريدي، أسوة بغيره من المؤرّخين العرب.
(٣٢) ولما سئل إسرائيل عن هذا الامتياز، قال: «هذا مالك الأرض والإمام».
(٣٣) ماري، ص ٩٤ - ١٠٤. صليبا، ص ٩٣ - ٩٤. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٥٠ - ٢٥٦. إيليا النصيبيني، تحت العام ٣٥٢ و٣٧٦ والحاشية العربية ص ٧٥ - ٧٦ (حيث سقطت ٧٠ من التاريخ ١٢٧٤).
(٣٤) يصحّح تحقيق جيسموندي لماري، ص ١٠٠، س ٢، حيث نجد «المهدي».
(٣٥) هل هو نفس فثيون بن أيوب اللاهوتي والمترجم المذكور في الفهرست ص ١٨٠؟ أنظر GRAF, GCAL, II, p. 120-121 et BUSSE, p. 442, no. 5
(٣٦) أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون، راجع BUSSE, p. 238, no. 3، حبيب الزيّات رقص القضاة والوزراء والأمراء ولهوهم في مجالسهم وخلواتهم، الخزانة الشرقيّة، ج ١، ص ٦٥ - ٧٣ مستل من مجلة المشرق، ج ٤٢ (١٩٤٨)، ص ٥٠٣ - ٥١١. يحكم محمد أركون في كتابه عن مسكويه، ص ٦٢ - ٦٥، حكمًا قاسيًا على هذا الوزير الذي أحسن إلى مسكويه ويتحدّث عن «الوجه النهاري» و«الوجه الليلي» لهؤلاء المترفين. إلاّ أن التّنوخي يروي في نشوار، ج ١، ص ٦٩ - ٧١ (و ج ٧، ص ١٢٢، والحاشية رقم ١) خبرًا عن «مشهد سخاء أليق ما يكون ببعض البرامكة» إذ غمر بانعامه أبناء أبي الحسين عبد العزيز بن إبراهيم (ابن حاجب النعمان) بعدما وقع هذا من الشرفة فمات في رمضان ٣٥١/ تشرين الأول ٩٦٢.
(٣٧) Vie de Rabban Yusif Busnaya, R.O.C., III (1898), p. 84-85
(٣٨) ابن ثابت، وقد صار وزيرًا بلا لقب في العام ٣٦٦/٩٧٧، DONOHUE, p. 349, BUSSE, p. 239, no. 8
(٣٩) نجد في العام ٣٨٩/٩٩٨، أي بعد خمس وعشرين سنة، رجلاً يدعى زهمان بن هندي،

أخذ غيلة وقتل مع أبنائه الثلاثة على يد محمد بن عناز، هلال، ذيل تجارب الأمم، ج ٤، ص ٣٣٨.

(٤٠) ابن وزير ناصر الدولة؟

(٤١) الكامل، ج ٨، ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨، CANARD, **Hamdanides**, I, p. 637-638. ـ كان الولع بالغلمان باديًا في أغلب الأحيان بالقصور، فمن ذلك أن الثعالبي يورد من بين ما يورد من قوائم، في لطائف المعارف، قائمة بأشهر من اشتهر من اللواطيين والمأبونين، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٤٢) BUSSE, p. 239, no. 8, p. 463-464 مع مراجع. يتابع M.S. KHAN سيرته العملية (وإن لم يطلق عليه لقب الوزير) منذ أن كان جهبذًا بالبصرة سنة ٩٣٦/٣٢٥ حتى ربطته الصداقة الحميمة بالمهلّبي. وهو أحد شهود العيان الذين يستند إليهم مسكويه المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨. التنُوخي، الفرج، ج ٤، ص ٣٠٩ ـ ٣١٥، والحاشية رقم ١.

(٤٣) الكامل، ج ٨، ص ٥٥٨. في السنة التالية، ٣٥٤/ أيلول ٩٦٥ هجم قطّاع الطرق على المتنبي بالقرب من دير قنى وقتلوه، الكامل ج ٨، ص ٥٥٨ .**Assyrie chrétienne**, III, p 192. وقد نظم كاتب (سنلتقي به من بعد) يدعى أبو نصر ثابت بن هارون الرقّي، قصيدة في رثاء أبي الطيّب، شيخو، شعراء، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢، استنادًا إلى كتاب الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج ٢، الشاعر الرابع. وتجد النصّ في أطروحة مطبوعة على الآلة الكاتبة لمحمد التونجي (جامعة القديس يوسف، بيروت)، ج ١، ص ٧٥ ـ ٧٧.

(٤٤) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢٠.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(٤٦) الكامل، ج ٨، ص ٥٧٥، BUSSE, p. 38-39

(٤٧) السيوطي، ص ٤١٩.

(٤٨) في حالات ابتزاز الأموال، حتى التي كانت ترتكب باسمه، لا يذكر أنّه نال حصّته منها وقد رأيناه يتحرّج من مسّ أموال «الضعفاء والأيتام».

(٤٩) الماوردي، ص ٤٤.

(٥٠) الكامل، ج ٨، ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

(٥١) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢١، ولعلّه اسمه فثيون (؟).

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٦٧، سنة ٩٧٠/٣٦٠ ـ ٩٧١.

(٥٣) ماري، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٥٤) نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٥٥) في ذلك العهد لم تكن الوزارة تدوم على الوزراء طويلاً ولم يكن المنصب ممّا يحسد عليه المرء. ويروي التنوخي (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٢) خبر القرد الذي كان بشارع الخلد

ببغداد، والذي يومىء موافقًا كلّما عرض عليه القرّاد ممارسة مهنة من المهن، حتى إذا صار إلى مهنة الوزارة، رفض وهرب صائحًا من ذعره.

(٥٦) وقد هجا قاضيًا بقوله:

قضى شِعري على القاضي بحكمٍ ... أجابَ إليه مصفوعًا مُذالا
ولو لم يستجب لنتفتُ منه ... سِبالا إن وجدتُ له سِبالا
ونتفُ سِبالِه شيء محالٌ ... لأن الخَلقَ صيَّره مُحالا

(٥٧) BUSSE, p. 238 (no. 4 et 6) مع المصادر.

(٥٨) ماري، ص ١٠٢، س ١٥، اقترح قراءة «دفعة» بدلاً من «رفعة».

(٥٩) تجارب الأمم، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٦٠) مصادر في CANARD, **Hamdanides**, p. 841; **Nisibe**, p. 90. أخذ الروم معهم جثمان مار يعقوب النصيبيني وكان الناس يعتقدون في ذلك الوقت أنهم كلّما حازوا ذخائر مقدّسة كان مذهبهم أقرب إلى الصراط المستقيم.

(٦١) السيوطي، ص ٤٠٢.

(٦٢) يحيى، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ (P.O. XXIII)

(٦٣) وقد أرجف بأن الخليفة نفسه قد صودر على أربع مئة ألف درهم، طلبها منه عزّ الدولة، فاحتاج إلى بيع ثيابه وبعض أنقاض داره، الكامل، ج ٨، ص ٦٢٠.

(٦٤) يحيى، ص ٣٥٧، (P.O. XXIII)

(٦٥) BUSSE, p. 238, 239, 250.

(٦٦) يحيى، المصدر المذكور، ص ٣٦٧. وهو يُسمّى الناصح تارة وتارة أخرى المناصح ويظهر في المصادر النصرانية، في العام ١٠١٢ - ١٠١٣، رجل آخر يلقّب باللقب نفسه.

(٦٧) تبيّن رسالة من الطائع إلى عضد الدولة مؤرّخة في العام ٩٧٧/٣٦٦ (رسوم دار الخلافة لهلال، ص ١١٣ - ١٢١) أن الخليفة المطيع تنازل لعزّ الدولة تمامًا عن مهمات الدولة من بعدما كبر وعجز. ويوضّح الذهبي في دول الإسلام، ج ١، ص ١٦٣، أن الخليفة كان قد بطل نصفه بالفالج منذ العام ٩٧٠/٣٦٠ - ٩٧١.

(٦٨) البداية، ج ١١، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٦٩) يحيى، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

٢٤ ـ الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١/٩٧٤ ـ ٩٩١)

لم يكن لأبي الفضل عبد الكريم الطائع لله «من السلطان ما يكفي لكي يرتبط اسمه بمهمّة ذات خطر وشأن».[١] ولم يكن له شيء، طوال خلافة دامت ثماني عشرة سنة، إلاّ دور صوريّ، كالخطبة باسمه في المساجد، بينما ظلّ زمام السلطة في يد البويهيّين. بَيد أنّ سيادة هؤلاء وحلفائهم الشيعة المحلّيون والديلم قد اهتزّت، في أوائل خلافته على الأقلّ، على أيدي سنّة بغداد[٢] والترك أصحاب سبكتكين الحاجب، الذي أخذ قصر الخلافة وغيّر الخليفة. فلمّا جاء بالطائع، خلع عليه الخليفة الجديد لقب ناصر الدولة عرفانًا بفضله، وجعله أميرًا للأمراء.

ولّما مات سبكتكين بدير العاقول أيضًا بعيد موت المطيع، حلّ محلّه قائد من الترك اسمه أفتكين الشرابي. إلاّ أنّ هذا سرعان ما اضطرّ إلى مواجهة بويهيّ آخر هو عضد الدولة فناخسرو، الذي كان حتّى الآن يحكم فارس وكرمان والذي دخل بغداد في ٣٠ كانون الثاني ٩٧٥. لا تدخل وقائع القتال بين عزّ الدولة بختيار وعضد الدولة البويهيّين في إطار الدراسة الحاضرة، ويكفي أن نذكر أنّ الأوّل أسلم، خلال النزاع، وزيره ابن بقية بعد أن سمل عينيه. فطُرح الوزير بين أرجل الفيلة ثم صُلب على ضفّة دجلة، ولم يأسف عليه أحد ببغداد. فلمّا تمّ الظفر لعضد الدولة دخل بغداد مجدّدًا[٣] فخلع عليه الخليفة لقب تاج الملّة. ولم ينتهِ صراع الأشقّاء حقًّا إلاّ في شوّال ٣٦٧/ أيار ٩٧٨، لّما قُتل بختيار في موقعة أخيرة بالقرب من قصر الجصّ بسامراء، عن ستّة وثلاثين عامًا. وكانت مدّة حكمة، على تقلّباته، أكثر من أحد عشر عامًا، في ما ذكره ابن الأثير.

وبهذا ترامت مملكة عضد الدولة البويهيّ من فارس إلى العراق فالموصل فديار بكر.[٤]

ماذا حلّ بالنصارى إبّان معارك الترك والإيرانيّين، ثم تقاتل البويهيّين في ما بينهم؟ من الصعب معرفة ذلك، لأنّه لا وقت للحديث عن عامّة الناس أو حتّى عن الموظّفين عندما يتقاتل الأمراء.

ومع ذلك نجد أنّ الخليفة الطائع عهد، سنة ٣٦٦/ كانون الثاني ٩٧٧، إلى فخر الدولة بن ركن الدولة البويهيّ بجباية الضرائب ومنها جزية الجوالي[٥] في المحرّم من العام ٣٦٧.

أمّا في الأعمال التي تلي ما يعرف بالعراق اليوم، وفي نواحي العماديّة، فتلحظ سيرة حياة راهب تقيّ، هو ربّن يوسف بوسنايا[٦] أنّه «لّما قدم الملك (فناخسرو) إلى هذه البلاد في آخر سنة ٣٦٧ للعرب (أي ٩٧٨) اندرأت العواصف والمصائب على الناس». وقد كان الناسك التقيّ يتنبّأ منذ أربع سنوات «وكان ينوح ويصرخ قائلاً: المجد لله! ماذا سيحلّ بالناس والأديرة والقرى والمدن؟» لم تقع الكارثة إلاّ بعد موت صاحب الرؤى، في ٢٩ تموز ٩٧٩: عندئذٍ كانت السلطة المركزيّة قد ضعُفت حتى انعدمت «فاستولى الأكراد الكرتوية والتعالية على هذه النواحي واجتاحوا الأديرة والأعمار والقرى».

على درب هذه السنين يبرز قبر كان في كنيسة القدّيس توما بقطيعة الدقيق ببغداد، للفيلسوف اليعقوبيّ المعروف يحيى بن عديّ.[٧] إنّ صفاء البيتين اللذين جعلهما على شاهد قبره بتاريخ ١٣ آب ٩٧٤، يوحي لنا بأزمنة أقلّ اضطرابًا، يقول:[٨]

رُبَّ ميتٍ قد صار بالعلم حيًّا ... ومُبقًّى قد مات جهلاً وعيًّا
فاقتنوا العلمَ كي تنالوا خلودًا ... لا تعدُّوا الحياةَ في الجهلِ شيًّا

عضد الدولة

قدم رهط عديد من النصارى بقدوم عضد الدولة إلى بغداد. وأوّلهم أبو

منصور نصر بن هارون[٩] الذي تلقّب بالوزير في ما قبل. وربّما لم يكن له إلاّ لقب وزارة التنفيذ[١٠] مع إبقاء اللقب الفخريّ الأرفع لرجل مسلم يذكر معه، إلاّ أنّه من المؤكّد أن أبا منصور كان موضع ثقة عضد الدولة،[١١] الذي جعله نائبه بشيراز، لّما رجع إلى بغداد بنفسه للمرّة الثانية. وقد حصل «الوزير» من مولاه، سنة ٩٧٨/٣٦٨، على الإذن بإعادة عمارة ما تهدّم من البيع.[١٢]

في هذه الظروف شغر كرسيّ مطرانيّة فارس للمشارقة من السريان.[١٣] فاختار نصر بن هارون للمنصب ماري بن طوبا، الذي صار جاثليقًا من بعد وكان حينئذٍ رئيس دير مار ميخائيل بالموصل، ورسمه الجاثليق عبد ايشوع ببغداد. وفي هذه المناسبة أولم الشيرازيّون ببغداد وليمة لنصارى المدينة تكريمًا لمطرانهم الجديد، وأخرج كاتب نسطوريّ يدعى أبو علي ابن مكيخا من خزانة عضد الدولة، وبإذنه، «خلعة بيرون ومغفرًا وثياب صوف مصريّة».[١٤]

ومن بين النصارى الذين كانوا في خدمة عضد الدولة نصادف أيضًا الطبيب الشاعر أبا الحسن (أو الحسين) بن غسان البصريّ[١٥] الذي غرّق نفسه في كرداب كلواذى «لأسباب اجتمعت عليه من صفر اليد وسوء الحال... وعشق حرّق قلبه على غلام الأمدي الحلاوي بباب الطاق».[١٦]

ولا ننسى أنّ كثيرًا من الأطبّاء النصارى كانوا يعملون، في زمن عضد الدولة أو من بعده، في البيمارستان الذي بناه ببغداد سنة ٩٨٠/٣٧٠[١٧] وسمّاه بالعضديّ[١٨] ولكن لّما كنّا نفتقر إلى تأريخ دقيق لهؤلاء الأطبّاء نجد أنفسنا مضطرّين إلى سرد أسمائهم، مع الإشارة إلى أنّ تمثيل النصارى في هذه المهنة لم يزل جيّدًا:

- أبو الحسين بن كشكرايا، نسطوريّ من كسكر انتقل من خدمة سيف الدولة الحمدانيّ إلى خدمة عضد الدولة البويهيّ.[١٩] كان من تلامذة سنان بن ثابت،[٢٠] وله كتب في الطبّ وأخ راهب. «وكان كثير الكلام»...
- أبو يعقوب الأهوازيّ، فارسيّ، صنّف في الطبّ.[٢١]
- إبراهيم بن بكس، مؤلّف ومترجم، كُفّ بصره في أواخر عمره.[٢٢]

- عليّ بن إبراهيم بن بكس (ابن الذي قبله) طبيب ومترجم.[٢٣]
- عليّ بن عبّاس الذي صنّف كتاب «الملكي».[٢٤]
- وفي خراسان، أبو سهل عيسى المسيحيّ بن يحيى الجرجاني، الطبيب الممتاز، صاحب التصانيف الكثيرة.[٢٥]
- وجبرائيل (بن عبدالله) بن بختيشوع[٢٦] تتلمذ على هرمزد وابن يوسف الواسطيّ وألّف كتبًا جمّة، وألحقه عضد الدولة أيضًا بالبيمارستان الذي أنشأه ببغداد.

نشير، في شأن هذا الطبيب، إلى عادة درجت كثيرًا في تلك الأيّام: كان الأمراء الذين يودّون مجاملة غيرهم من الأمراء يتبادلون أطبّاءهم المقدّمين. فمن ذلك أنّ جبرائيل هذا بعثه عضد الدولة إلى وزير الريّ الصاحب بن عبّاد، ثم إلى أمير الديلم خسروشاه وإلى العزيز بالله، الخليفة الفاطميّ بمصر (إذن قبل سنة ٩٩٦). وبعدما بلغ الثمانين من عمره وقام بعدّة رحلات أخرى، طلبه ممهّد الدولة سعيد بن مروان أمير الدولة الدستكية بميافارقين، فمات هناك بعد سنتين (١٠٠٢/٣٩٣).[٢٧] ولا حاجة بنا إلى القول إنّ هؤلاء الأمراء كلّهم لم يبخلوا عليه بالمال ولا بالتكريم.

سنلتقي بأطبّاء نصارى آخرين حتى نهاية دراستنا على الأقلّ.[٢٨] كان تركّز النصارى بكثافة في ميدان الطبّ من عوامل بقاء جماعاتهم، بالرغم من شتّى الضغوط الاجتماعيّة الدينيّة التي تعرّضت لها هذه الجماعات. وإنّ المتأمّل ليجد نصارى البلاد الإسلاميّة في العصور الحديثة يلتمسون في المهن الحرّة الاستقلال الذي ما زالوا قادرين على التمتّع به. ولذلك تراهم يجتهدون في استغلال الحال التي يجدون أنفسهم فيها منذ أن فقدوا كلّ مساهمة حقيقيّة، مباشرة أو غير مباشرة، في ممارسة صناعة القرار في المجتمع.[٢٩]

ونجد في الحقبة التي بلغناها من إمارة عضد الدولة، قبسًا من جوّ الانفتاح الفكريّ الذي عرفته بغداد في عهود البعض من أوائل خلفاء بني العبّاس.[٣٠] كان الأمير نفسه لا يفارق كتاب الأغاني[٣١] إذا سافر. وكانت النخبة المترفة تعرف كيف

تخصّص وقتًا لجلسات المناظرة العلميّة فضلاً عما تنفقه في ليالي الخلاعة والمجون.(٣٢)

كان روّاد هذه «المجالس» كمجلس ابن العارض بن سعدان وزير صمصام الدولة من ٩٨٣ إلى ٩٨٥، يتناظرون، على ما رواه أبو حيّان التوحيديّ(٣٣) في فضل الفلاسفة. ونجد في هؤلاء عددًا من النصارى: أبو الخير الحسن بن سوار، المعروف بابن الخمّار، يحيى بن عديّ، عيسى بن زرعة، نظيف بن يمن، إلخ.(٣٤)

في العام ٩٨٣/٣٧٢ مات عضد الدولة، أكبر «ملك ملوك» في البويهيّين.(٣٥) لم يستبق مسكويه(٣٦) إلاّ اسمه واسم ابن العميد، اسمين بارزين من بين الأمراء والوزراء الذين توالوا إلى زمنه، حتى إنّ سياسته المتشيّعة، لم تكن موضع نقد المؤرّخين.(٣٧) وربّما كانت أيّامه آخر عهد النصارى بالمشاركة في السلطة عن كثب. فالسنوات التي أعقبته شهدت انحطاط دور البويهيّين السياسيّ(٣٨) وتزايد الاضطرابات.

عندما مات عبد يشوع الأوّل عن جثلقة طويلة (أكثر من ٢٣ عامًا) كان أولاد عضد الدولة يتنازعون الملك. فقد قاتل البكر منهم، وهو شرف الدولة (أبو الفوارس، شيردل، زين الملك، الخ.) أخاه صمصام الدولة وقبض بشيراز على «الوزير» النصرانيّ أبي منصور نصر بن هارون(٣٩) الذي، لّما لم يعلم بموت سيّده عضد الدولة، حاول منع شرف الدولة من دخول شيراز.

عندئذٍ وقعت في شيراز أحداث كثيرة «أدّت إلى قتل نصر بن هارون بعد نهب الديلم دور جميع النصارى وقبض الأوقاف. فتجرّد المطران (ماري بن طوبا) في ارتجاع المأخوذ من البيع والوقوف واستأذن عبد يشوع (الجاثليق) في العودة إلى بلده (الموصل)» على قول ماري.(٤٠)

وتروي الرسالة التي بعثها المطران إلى الجاثليق أحداث شيراز المأساويّة وتصف قلق النصارى وارتباكهم بعد فقدان حاميهم نصر بن هارون وكيف «قتل الضعيفُ القويَّ والصبيُّ الرجلَ». ولّما لم يقبل الجاثليق طلب الاستقالة، قرّر المطران الذي كان، في ما يبدو، على صلة طيّبة بشرف الدولة، الذهاب بنفسه إلى بغداد ليدافع

عن قضيّته، فالتحق بطلائع الجيش السائر لمحاربة صمصام الدولة.

مرَّ بأرجان وصولاً إلى خوزستان (الأهواز). هناك كان المطران ديلم أيضًا في الغاية من القلق: فقد نُهبت كنيسته بجنديسابور. مكث ماري بن طوبا مدّة في المدينة يعاون المطران الذي توصّل إلى استرداد قسم ممّا انتهب، لأنّ المدينة كانت قد انحازت إلى شرف الدولة قبل وصوله إليها.

عندئذٍ استأذن المطران في ركوب السفينة إلى البصرة (التي كانت قد دخلت في طاعة شرف الدولة) وذلك حتّى يصعد منها إلى بغداد عندما تقع العاصمة في قبضة الأمير، واصطحب ماري سرًّا ديلم مطران جنديسابور وحجبه عن أنظار «المستخرج». كان مطران شيراز بالبصرة لّما كتب الجواسيس، من بغداد، إلى شرف الدولة بموت مار عبد يشوع[٤١] الجاثليق. ولم يكن أحد قد علم بالنبأ لأنّ الاتّصالات كانت مقطوعة.

«لِمَ لا يجلس المطران الذي معنا؟»

فدعا الأمير شرف الدولة بنديميْه النصرانيَّيْن، أبي الفرج المسيحيّ وعبدالله أخي طازاد، وسألهما: «لِمَ لا يجلس المطران الذي معنا جاثليقًا؟» فقبّل الرجلان النصرانيّان الأرض

XIX وكتبا (باسم مَنْ؟) عهد الجثلقة لماري بن طوبا.[٤٢] فأصعد الجاثليق إلى بغداد «مع الخزائن في الماء».

بعد معركة قتل فيها خمسة آلاف من الديلم انتصر شرف الدولة على صمصام الدولة ودخل بغداد، وعقد الصلح بين الأخوين، احتفظ صمصام الدولة ببغداد وصار يجلس عن يمين عرش الخليفة، «ثمّ أقبل الشعراء وجعلوا يمدحون صمصام الدولة بقصائدهم ويفضّلونه على الأقطاب». أمّا شرف الدولة فكان يخطب له أوّلاً في المساجد وصكّ اسمه على النقود.[٤٣] ولكن سرعان ما أزاح شرف الدولة أخاه الأصغر وسمل عينيه.[٤٤]

يبقى انتخاب الجاثليق، ذلك الانتخاب الذي تخرج وقائعه الكنسيّة البحث

عن إطار بحثنا. إنتقل ماري من دير مار فثيون حيث كان قد نزل، إلى دار الروم حيث كان أربعة وعشرون أسقفًا ومطرانًا يعقدون مجمعهم.

والواقع أنّ الآباء جعلوا قرارهم إلى شرف الدولة فأشعرهم برضاه الذي جاء موافقًا لرغبة الأكثرين منهم، رغبة خلّفها فيهم «ضرب العصي» على قول ابن العبري. كُلِّف أبو بكر البازيار بأخذ خطوط المجتمعين والموافقين ورسم ماري بن طوبا جاثليقًا في ٨ ذي الحجّة ٣٧٦/١٠ نيسان ٩٨٧.

لنذكّر بأصل ماري الجاثليق قبل متابعة مراحل جثلقته: كان ماري كاتبًا لفاطمة الكرديّة بنت أحمد، زوجة ناصر الدولة الحمدانيّ وأمّ أبي تغلب. «وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فاتّفقت مع ابنها أبي تغلب، وقبضوا على ناصر الدولة» وحبسوه.[٤٥] ويبدو أنّ ماري لمّا رأى ضعة هذا العالم وأحزانه ترهّب.

ماري بن طوبا الجاثليق

بعد الرسامة والزيارات التقليديّة للأديرة والكنائس، استُقبل الجاثليق المنتخب في حضرة الخليفة الطائع. وفي هذه المناسبة يذكر ابن العبري[٤٦] أنّه «لم يبقَ للخلفاء في تلك الآونة سوى الاسم والمناداة بخلافتهم. وأصبحت جميع الأوامر والجنود والخزائن بقبضة الأعاجم».

كُتب له منشور لتثبيت جثلقته. وسنطّلع في ما بعد على نصوص «عهود» من شأنها أن تعيننا على تحديد مكانة الجثالقة النسطوريّين في دولة بني العبّاس. ولا يمكننا القول هل ثمّة فرق بين المنشور والعهد اللذين كانا يكتبان للجثالقة.[٤٧] وبعد صفة أخلاق الجاثليق الجديد (حيث نلحظ حبّه للمال والأثاث)، ينتقل ماري إلى قول، غير مؤرِّخ، لسوء الحظّ، كالكثير من الإشارات الصغيرة في تاريخه: «وفي أيّامه...».

«وفي أيّامه»، إذن، لحقت بالبيعة جملة مصائب والحق أنّ هذه المصائب قد وقعت في النصف الثاني من جثلقة ماري بن طوبا في خلافة القادر، وسنراها في حينه.

في السنة التي أعقبت رسامة ماري بن طوبا، ٩٨٨/٣٧٧، كتب النديم كتاب الفهرست. وهو يذكر فيه(٤٨) أبا الخير الحسن بن سوّار بن بابا بن بهرام المنطقيّ النصرانيّ،(٤٩) المعروف بابن الخمّار، «وكان في نهاية الذكاء والفطنة والاضطلاع بعلوم أصحابه»، وصنّف التصانيف التي ترجم بعضها من السريانيّة إلى العربيّة. وكان النديم قد التقاه(٥٠) عند أبي القاسم بن عيسى بن علي وزير بني الجرّاح.(٥١)

وكان ممّن عاصر النديم أبو الحسين إسحق بن يحيى بن سريح النصرانيّ «وله من الكتب كتاب الخراج، كتاب تحويل سني المواليد، كتاب جمل التاريخ»، الخ.(٥٢)

ومات قبل أشهر قليلة من تصنيف الفهرست الطبيب الكاتب الفيلسوف النصرانيّ، أبو الحسن علي بن نصر بن علي (أو بن بشر) الملقّب بابن الطبيب. كان جدّه علي طبيبًا أيضًا وقد شفى أبا عبدالله الزنجي بأن جعل في فيه اهليلجة من ذهب.(٥٣)

وكان شرف الدولة راعيًا للعلماء، ففي العام ٩٨٨/٣٧٨ جمع «الفلاسفة» الذين ببلاد العرب وبنى مرصدًا فيه آلات كتلك التي كانت في مرصد المأمون. وكان رئيسه أبو سهل يحيى بن رستم الطورياني.(٥٤)

ولكن ممّا يؤسف له أن الأحوال التي كانت سيّئة منذ وفاة عضد الدولة، قد ساءت أكثر بعد موت شرف الدولة سنة ٩٨٩/٣٧٩، فقد استولى أخوه بهاء الدولة على الحكم.

بهاء الدولة (٣٧٩ - ٩٨٩/٤٠٣ - ١٠١٢ - ١٠١٣)

لم يَطُل الوقت بالحُكم الجديد حتى بَدَت آثاره على الناس. فمنذ العام ٩٩٠/٣٨٠، اضطرّ الأثرياء من سكان تكريت (اليعاقبة) إلى النزوح.(٥٥) هل كان ذلك بسبب الضرائب التي فرضها عمّال ظَلَمة، على قول ميخائيل السرياني، أم كان بسبب تغيّرات ملكيّة الأراضي التي وقعت في تلك الحقبة؟(٥٦) لا نعلم. إنّ ما يشير إليه المؤرخون، على أيّة حال، هو ثراء هؤلاء المهاجرين، ذلك الثّراء العريض الذي

أتاح لهم بناء الكنائس وتجميل الهياكل في أماكن إقامتهم الجديدة. ومثال ذلك ما فعله أولاد أبي عمران الذين نزلوا ملطية[٥٧] والذين توصّلوا إلى أن يصيروا صيارفة قيصر الروم. وقد أخذ التّرك أخاهم الأكبر أبا سليم القادم من الدّيرا. فافتدى نفسه وصحبه كلّهم من الأسر، وعددهم خمسة عشر ألفًا، ودفع خمسة دنانير عن كلّ رأس.

إلاّ أنّ ما يلفت انتباهنا هو اختلاف رؤية هذه الأحداث من قبل مؤرّخين من مغاربة السريان هما ميخائيل السرياني وابن العبري. يقول الأوّل، وكان يكتب في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد: «وقد سُقنا طرفًا ممّا يذكر عنهم من الأشياء الكثيرة لكيما يمجّد الله الذي أنعم عليهم كلّ مَن يقرأ هذه السطور»، بينما يذكر ذلك ابن العبري، الذي كتب بعد أقلّ من مئة عام، «ليُعرف مبلغ ما كان عليه شعبنا من رغد العيش» وذلك ليلقي مزيدًا من الضوء على حال النصارى في عصره: «وما آل إليه أمرهم من شظف العيش».

كان ابن العبري، الذي لا ينظر هنا إلاّ إلى الازدهار الماديّ للنصارى، يعدُّ زمن البويهيين الأوائل زمن البقرات السمان، ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الحريّة الروحيّة الازدهار الثقافي.

ونجد الحنين إلى الماضي الذهبيّ (نهاية القرن العاشر) بعد صفحات قلائل في تاريخ الزمان لابن العبري،[٥٨] أي عندما يتناول الوزراء النصارى بمصر،[٥٩] حوالي العام ٣٨٦/٩٩٦، فيكتب: «وكان المسيحيون يومئذٍ متولّين شؤون الوزارة في الدولة العربية المصريّة دون أن يضطرّهم أحد إلى جحود دينهم بخلاف ما يجري في عصرنا (القرن ١٣ ميلادي) إذ أن العرب لا ينيطون الوزارة إلاّ بمَنْ ينضمّ إلى الإسلام».

جاء مع بهاء الدولة أشخاص تصوّرهم التواريخ النصرانيّة بطريقة قاسية. ومنهم رجل يدعى الكوكبي،[٦٠] كان مؤدّبًا لبهاء الدولة، وقد تولّى هذا الرجل أمر الجزية وكان حريصًا على أن يستوفي من النصارى ما هو مستحق عليهم. وقد اتّفق أن نشب خلاف بينه وبين الجاثليق فحبسه، ثم بثّ شُرَطه في البلاد فتفرّق

المكلّفون، فأخذ الأساقفة والمطارنة. . . «وعاد الناس إلى الله» على قول ماري، أي أنهم ابتهلوا إلى الله ليخلّصهم منه. وقد حاول الترك أيضًا القضاء على الكوكبي، وكانوا ساخطين عليه، إلاّ أنّ بهاء الدولة حماه منهم. ولكن الأمير اضطرّ إلى التخلّي عن الرجل لما تفاقمت الأحوال. فسقي الكوكبي السمّ فلم يعمل فيه، ثم حاولوا خنقه فلم يمت حتى ضُربت هامته بالسيف. «وكُفي النصارى شرّه بتفضُّل الله وحول مار ماري السليح».

وقد أُلقي القبض أيضًا على ابن البقال، وكان من المتعصِّبين للكوكبي وممّن اضطهدوا رهبان دير قنّى، فقتل وطرحت جثّته في دجلة. وقد نَسب النصارى خلاصهم إلى تدخُّل مار ماري شخصيًا ليحمي بيته، وذلك إثر حلم رآه أبو بِشر ماري بن جابر، كاتب الحسن بن نصر صاحب البريد. والأغلب أنّ مار ماري قد استعان ببعض الوسطاء على الأرض.

ولكن كان على الجاثليق أن يواجه من النوائب[٦١] ما اضطرّه، على الرغم من كراماته[٦٢] إلى أن يترك مقرّ الجثلقة، مرّتين خلال أربعة عشر عامًا، وينتقل إلى دير الأنبار البعيد عن بغداد، ليدبِّر شؤون الرعيّة من هناك.

إنّ الوثائق الجزئية التي وصلتنا تتيح لنا مع ذلك أن نلمح آثار هزائم الحرب مع البيزنطيين في حياة النصارى المقيمين حتى في النواحي الهامشية القصيّة. من ذلك أن مرو، بخراسان، قد شهدت أعمال شغب ضدّ النصارى لما اتّصل بالمسلمين هناك نبأ دخول الروم أرض الإسلام. فأخرج تابوت مار إيليا المطران النسطوري، من ضريحه وحاولت العامّة إحراقه أو كسره فما أفلحوا، وأُعيد التابوت إلى مكانه، وظلُّ أحد أعمدة الكنيسة مدّة يقطر مادة زكيّة الرائحة.

قلنا من قبل إن تأريخ هذه السنوات عسير على التحديد. ففي العام ٣٨١/ تشرين الأول ٩١٩، أكره بهاء الدولة الخليفة الطائع على أن يخلع نفسه، وأحلّ مكانه القادر، وذلك امّا لأنه «مدّ عينه إلى مال جمعه» الخليفة[٦٣] وأمّا لأنه وجد، بعد مشاورة الديلم، أنّ الخليفة قد شاخ.[٦٤] والأرجح أن كثيرًا من الأخبار التي مررنا بها في الصفحات السابقة قد وقعت في خلافة القادر. ولكن ما يهمّ هنا ليس هو الخليفة بل الأمير البويهيّ المتملِّك في ذلك الوقت، وهو بهاء الدولة.

الحواشي

(١) K.V. ZETTERSTEEN, dans E.I.[1], IV, p. 651, S.V.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٦٣.

(٣) وكان من نتائج ذلك حبس إبراهيم بن هلال الصابيء الكاتب مدّة أربع سنوات وبضعة أشهر لأنه كتب سنة ٣٦٦/٩٧٧ رسالة الطائع في تفضيل عزّ الدولة بختيار على عضد الدولة، هلال، رسوم، ص ١٢١.

(٤) يحيى، ص ٣٦٢ ـ ٤٠٨، (P.O., XXIII) : الكامل، ج ٨، ص ٦٦٩ ـ ٦٩١. ونلمح في سيرة ربّن يوسف بوسنايا (R.O.C., III, 1898) بعض الكتّاب النصارى كأبي زكريا «الكاتب الكبير المشهور في عصره» الذي مات قبل ربّن يوسف وأخيه عبد المسيح الكاتب أيضًا الذي شفى القديسُ يده اليابسة (١١٧ ـ ١١٨)، كما نلمح كاتبًا نصرانيًا آخر في مدينة بَلَد بالقرب من الموصل، لا نعرف اسمه (ص ٣١١).

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٨. والكلمة توازي أهل الذمّة. كان لفخر الدولة (أخي عضد الدولة) كاتب (نصراني؟) اسمه أبو عمرو، التوحيدي، مثالب، ص ١٤٢. ـ وكان لأخيه الآخر، أبي المنصور مؤيِّد الدولة، نديم نصرانيّ هو أبو الطيِّب، الذي يستجوبه أبو حيّان التوحيدي (ص ٧٨ ـ ٨٠) عن الصاحب بن عباد الوزير، ويذكر المؤلّف نفسه الكاتب النصرانيّ أبا عبيد، ويمتدح (ص ٩٣) مزاياه الأدبية.

(٦) p. 83 في معركة سامراء في ٢٤ أيار ٩٧٨، كان أحد أخوة المؤلّف يوحنا بن كلدون «بين يديّ ملك الموصل» أبي تغلب الحمداني الذي خرج مهزومًا. وقد رأى الربّن يوسف رؤيا سمحت له أن يطمئن يوحنا على مصير أخيه الذي جُرح وترك على أنه ميّت، المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٧) راجع: GERHARD ENDRESS, The Works of Yahya ibn 'Adi, WIESBADEN, 1977 وسمير خليل في مجلة المسرّة، ٦٥ (١٩٧٩)، ص ٤٠٣ ـ ٤١٩.

(٨) حسب الرواية التي ينقلها ابن أبي أصيبعة عن تلميذه المفضَّل أبي علي بن إسحق بن زرعة، وتجد البيتين في شعراء النصرانية لشيخو، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

(٩) يحيى، ص ٤٠٩ (P.O. XXIII); BUSSE, p. 239, no 10; DONOHUE, p. 350;

(١٠) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٠٨.

(١١) والجدير بالإشارة هنا أن الأمير كان يرتاب من الأشخاص الذين تقوى دالّتهم عليه. وكانت هذه حال إحدى سراريه معه فطرحها في دجلة ليغرقها، ابن الطقطقي، ص ٣٤.

(١٢) روضة الصفا، ص IV (المجلد الأول من طبعة طهران غير المرقّمة، ١٢٧٢ هـ.) مذكور في R. LEVY, Baghdad Chronicle, p. 163

(١٣) يجعل DONOHUE, p. 350 الحادث حوالي سنة ٣٥٠/٩٨٠ ـ ٩٨١.

(١٤) ماري، ص ١٠٥. ـ يقسو التوحيدي كثيرًا على الخازن عندما يذكر صفته في الامتاع ج ١، ص ٤٤ ـ ٤٥ «وأما ابن مكيخا، فرجل نصرانيّ أرعن خسيس، ما جاء يومًا بخير قط لا في رأي ولا في عمل ولا في توسّط، وأصحابنا يلقّبونه بقفا وهو منهمك بين اللذائذ همّه أن يتحسّى دنّ الشراب في نفس أو نفسين ثم يسقط كالجذع اليابس لا لسان ولا إنسان».

(١٥) ابن القفطي، ص ٢٦٣، شيخو، شعراء، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ يعتبر أنّه نفس أبو علي بن غسان كاتب ركن الدولة الذي صادفناه في تاريخ ماري لسنة ٣٤٣/٩٥٣ في مسألة إعادة عمارة الكنائس.

(١٦) محمد بن أحمد أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز، هيدلبرج، ١٩٠٢، ص ٨٣.

(١٧) INAYATULLAH, p.7

(١٨) بني هذا البيمارستان المشهور محلّ قصر الخلد الذي بناه الرشيد سنة ١٧٠/٧٨٦، والذي كان على دجلة، إلى الشرق من المدينة المدوّرة. ويروي المقدسي (ص ١١٩ ـ ١٢١) أنه كان على مقربة من الجسر، الوحيد آنذاك. ـ وقد أحصى أحمد عيسى في Histoire des bimaris-tans, p. 90-93، تسعة عشر طبيبًا كانوا يعملون في هذا البيمارستان.

(١٩) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢٠) المتوفى في ٧ تموز ٩٤٣، الصولي، ص ٨١، BUSSE, p. 518

(٢١) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢٢.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٩. وقد كان لأبي إسحق إبراهيم بن بكس مناظرة فلسفية مع أبي زكريا يحيى بن عدي يوردها ابن الخمّار. السندوبي، في الحاشية ١٦٠ على طبعته للمقابسات. ـ مات سنة ٣٩٣/١٠٠٣.

(٢٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٦٩.

(٢٥) دائرة المعارف، ج ٤، ص ٣٧٢.

(٢٦) عبد الرقيب يوسف، مستشفيات وأطباء في عهد الدولة الدوستكية، في مجلة بين النهرين، ٢١ (١٩٧٨) ص ٩ ـ ١١.

(٢٧) يجعل دومينيك سوردبل موته في ٨ رمضان ٣٩٦/٨ حزيران ١٠٠٦، E.I.², Bukhtishu'

(٢٨) ثمّة جدول عام للطب في العصر العباسي في الفصول ٣ إلى ٥ (ص ٥٨ ـ ٣٠١) في CY-RIL ELGOOD, **A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate** ومقال عام جدًا عن الطب في العصر العباسي بقلم سهيل قاشا، المسرّة، ٦٠ (١٩٧٤) ص ٧٥٤ ـ ٧٦٣، ٨١٨ ـ ٨٢٣، الخ.

(٢٩) يميز GELLARD (٨٢) أنواعًا عدّة من المشاركة يستبعد منها الهامشيون: المشاركة السلبيّة وهي الامتثال بالنماذج السائدة، والمشاركة النشطة. ولئن أُقصي النصارى عن الأولى في

المجتمع الإسلامي، فقد ظلّوا طويلاً مدينين لكفاءاتهم التي مهّدت لهم سبل ممارسة الثانية، في المهن الحرّة على الأقل.

(٣٠) يعقد محمد أركون مقارنة بين ما اعتمده عضد الدولة من «وجهة نظر الحكمة المتسامحة الواسعة الأفق المتغلّبة على الخيار الديني الضيّق الأفق» وبين الخيار المتشدّد الذي اعتمده المأمون من قبل.

(٣١) M. Kabir, p. 31

(٣٢) يصف محمد أركون MISKAWAYH,p. 63 ليلة من ليالي الوزير المهلّبي استنادًا إلى التنوخي (الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦) ويبيّن (ص ١٧٥) استنادًا إلى التوحيدي أن فساد الأخلاق كان قد تفشّى حتى أصاب العامّة (التجار) والخاصة: العسكر والكتّاب، والثّناء وحتى أهل الخبر والعلم (الامتاع والمؤانسة ج ٣، ص ٦٢ ـ ٦٣).

(٣٣) في الامتاع والمؤانسة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص ٣٢، BUSSE, p. 510. أركون MISKAWAYH ص ٣٩. وفي مجلس آخر عن الأخلاق، عند الوزير عينه، نجد من حول عيسى بن ثقيف الرومي، المعروف بأبي السّمح «غير هؤلاء من مشايخ النصارى» المتبحّرين بالفلسفة، المقابسات، ص ١٣٩ ـ ١٤١. التنوخي، نشوار، ج ٣، ص ١٧٢، يذكر في جملة معاصريه الكاتب النصرانيّ إبراهيم بن عيسى بن نصر السوسي، أي أنّه جاء مع الأسياد الجدد؟

(٣٤) يصف التوحيدي في الامتاع والمؤانسة، ج ١، ص ٣٣ ـ ٣٤، ابن زرعه وبن الخمار بقوله: «أما ابن زرعة فهو حسن الترجمة، صحيح النقل كثير الرجوع إلى الكتب. محمود النقل إلى العربية، جيّد الوفاء بكل ما جلّ من الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولولا توزّع فكره في التجارة، ومحبّته في الربح، وحرصه على الجمع، وشدّته إلى المنع لكانت قريحته تستجيب له وغائمته تدرّ عليه، ولكنه مبدّد منّد، وحبُّ الدنيا يعمي ويصمّ. وأما ابن الخمّار ففصيح، سبط الكلام مديد النفس، طويل العنان مرضيُّ النقل، كثير التدقيق، لكنه يخلط الدرّة بالبعرة ويفسد السمين بالغثّ، ويرقع الجديد بالرثّ، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف، ويزيد في الرقم والسوم فيما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص، وما يعطيه باللطف يستردّه بالعنف، وما يصفيه بالصواب يكدّره بالاعجاب. ومع هذا يُصرع في كلّ شهر مرّة أو مرّتين».

(٣٥) أنظر مدحه في الكامل، ج ٩، ص ١٨ ـ ٢٢. يلاحظ السيوطي، ص ٤٢٨، أن الخليفة لم يكن يومًا أضعف ممّا كان في عهده.

(٣٦) يذكره محمد أركون في الصفحة ١٧٣.

(٣٧) البداية، ج ١١، ص ٢٩٥، ٢٩٩ ـ ٣٠١.

(٣٨) الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٦٨.

(٣٩) يحيى، ج ٢٣، ص ٤١٠، DONOHUE, P. 350; BUSSE. p. 239, no. 10 يرى محمد

التونجي (في أطروحته، ج ١، ص ١٨٩، الحاشية رقم ٤) أنّ هذا هو نفس أبو نصر بن هارون «الكاتب النصرانيّ» المذكور في دمية القصر، ج ٣، الشاعر رقم ٢٨؟

(٤٠) ماري، ص ١٠٥.

(٤١) لعلّ اسم الجاثليق سقط سهوًا من آخر الصفحة ١٠٥ من طبعة ماري العربية.

(٤٢) ماري، ص ١٠٤ - ١١٠، صليبا، ص ٩٤ - ٩٥، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٥٦، ٢٦٢. إيليا النصيبيني، تحت العام ٣٩١ والحاشية العربية، ص ٧٦.

(٤٣) يحيى، ص ٤١٠ - ٤١١، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٦٩ - ٧٠.

(٤٤) يحيى، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٤٥) الكامل، ج ٨، ص ٥٩٣، CANARD, **Hamdanides**, I, p. 537-538 كانت فاطمة هذه أم جميلة ذات المصير المأساوي.

(٤٦) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٠.

(٤٧) يقول ابن فضل الله العمري (القرن الرابع عشر) في كتاب التعريف إنّ «العهد» كان يكتبه الخلفاء للملوك (ص ٨٤)، و«المنشور» يعيّن إقطاعات الأمراء وأصحاب الجند (ص ٨٠). أمّا الأخرون، وفيهم البطاركة الملكانيون (ص ١٤٤ - ١٤٥) واليعقوبيون (ص ١٤٦) فكانوا يتسلّمون «وصية»، ولكن ربّما كانت دلالات الألفاظ قد تغيّرت على مرّ العهود.

(٤٨) ص ٢٦٥ و٢٤٥.

(٤٩) إذا جاز لنا أن نقرأ الاسم الأخير «بهنام» كما نجده في مقابسات التوحيدي، ص ٦٠، فقد يكون الرجل من مغاربة السريان، وربّما من أسرة برخورو التي أعطت كنيستها بطريركًا. هل أسلم ابن الخمار؟ **Islamochristiana**, I, 1975, p. 169 ؛ تعليق السندوبي، ص ١٥٠، من تحقيقه المقابسات. مع مصادر في: **BEO**, XVIII (1963-1964) p. 165, note 1 et 2، الصفدي، الوافي، ج ١٢، ص ٤١ - ٤٢، رقم ٣٥.

(٥٠) وكان قد صادف بدار الروم أيضًا راهبًا من نجران (العراق) مرسلاً إلى الصين، فهرست، ص ٣٤٩. - وهل يكفي هذا لأن يرى فيه Le Strange, **Baghdad**, p. 213 «دليلاً يظهر أنّ النصارى كانوا يعيشون مع المسلمين على مستوى واحد من التساوي في ظلّ الخلافة العباسية؟».

(٥١) BUSSE, p. 462.

(٥٢) الفهرست، ص ١٣٦، إرشاد، ج ٢، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ BUSSE, p. 462 ؛ الصفدي، ج ٨، ص ٤٣٨.

(٥٣) التنوخي، الفرج، ج ١، ص ١٦١، ١٦٣، ج ٣، ص ٩٨، ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٣٢. الفهرست، ص ١٣١.

(٥٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٠. أنظر: في SULAYMAN NADVI, Muslim observatories, **Islamic Culture**, XX (1946), p. 267-281. ولكن نحو السنة نفسها

(٣٧٨/٩٨٨)، يكتب المقدسي في أحسن التقاسيم، ص ١٧٣: «واعلم أنّ بغداد كانت جليلة في القديم وقد تداعت الان إلى الخراب واختلّت وذهب بهاؤها ولم أستطبها ولا أعجبت بها، وإن مدحناها فللتعارف».

(٥٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٠.

(٥٦) يتكلم مسكويه كثيرًا عن الآثار المدمّرة التي خلّفها اقطاع رؤساء الجند قطائع من الأرض يجبون خراجها لأنفسهم انظر ARKOUN, Miskawayh, p. 347

(٥٧) G. DAGRON, Minorités ethniques et religieuses de l'Orient byzantin à la fin du Xème et au XIème siècle: l'immigration syrienne (Jacobite): dans Travaux et mémoires, 6 (1976), p. 177-216, ici p. 197 بين العامين ١١٠١ و١١٣٠ استقرّ تاجر تكريتي بمصر. إنّه جدّ عبدالله المكين ابن العميد، الصفدي، ج ١٧، ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧، الرقم ٥٦٤.

(٥٨) ص ٧٣.

(٥٩) عيسى بن نسطورس وأبو العلاء فهد بن إبراهيم. يروي ابن الأثير في الكامل، ج ٩، ص ١١٧، أبياتًا في هجاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي (ت ٣٨٦/٩٩٦):

تنصَّر فالتنصُّرُ دينُ حقٍّ ... عليه زمانُنا هذا يدلُّ
وقُل بثلاثة عَزُّوا وجَلُّوا ... وعَطِّل ما سواهُم فهو عُطلُ
فيعقوبُ الوزيرُ أب وهذا ... العزيزُ ابن، وروحُ القدس فضلُ

إلاّ أنّ الزركلي يقول، ج ٩، ص ٢٦٧، إنّ هذا الوزير كان يهوديًا وأسلم سنة ٣٥٦/٩٦٧؟

(٦٠) ربّما كان من أقرباء نقيب العلويين الذي يذكره BUSSE, p. 295 قبل بضع سنوات.

(٦١) يلمّح ماري وابن العبري إليها من دون تعيين.

(٦٢) فقد شفى أبا الحسن بن مالك بوساطة غسل طقسي. وأدان راهبًا سارقًا فشُلّت يده لساعته...

(٦٣) يحيى، ص ٤٣٦، (P.O. XXIII).

(٦٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧١.

٢٥ - القادر (٣٨١ - ٩٩١/٤٢٢ - ١٠٣١)

استمرّ تفكّك المملكة على مدى خلافة أبي العبّاس أحمد القادر بالله الطويلة. فقد راح الأمراء المحلّيون في كل مكان، المروانيون بديار بكر، العقيليون بالموصل، المرداسيون بحلب، الخ، يؤسّسون أسرًا حاكمة جديدة قيِّض لها أن تبقى حتى وصول السلاجقة. من جهة ثانية، انهارت بعض الإمارات الأخرى ومنها إمارة الحمدانيين بالموصل والسامانيين في الثغر الشمالي الشرقيّ المواجه للأتراك.

ظلّ القادر الخليفة الأصولي، على عرش الخلافة حتى الثمانين ثم مات من الكِبَر. ولكنه «لم يُقدم على الاستقلال برأيه إلاّ مرّة واحدة»[١] وذلك لّما أصرّ على أن يظلّ قاضي القضاة ببغداد سنيًّا. ولنا عودة إلى هذا الشأن عندما نقف على أوائل علامات الصحوة السنّية ضد تشيُّع البويهيين.

حتى هذا الوقت كان بهاء الدولة لا يزال يحكم قبضته على الخلافة. وليس من المستغرب أن نشهد قيام دار العلم،[٢] سنة ٩٩٣/٣٨٣، بالكرخ في الجانب الغربي من بغداد، وهي مدرسة لدعاة الشيعة، وقد بناها الوزير سابور بن أردشير[٣] وجهّزها بمكتبة.[٤]

في العام ٩٩٥/٣٨٥، على قول ابن تغري بردي،[٥] أو في العام ١٠٠٩/٤٠٠ على قول ابن العبري[٦] مات الكاتب اليعقوبي الهجّاء أبو نصر بشر بن هارون بن جملا صاحب الأبيات المعروفة في هجاء سابور بن أردشير، والمهلّبي وإبراهيم الصابي وأبي رفاعة بن كامل أحد نوّاب قاضي بغداد على السواد. وقد رأينا من قبل إحدى قطعه المؤرّخة بسنة ٩٧٠/٣٥٩.

نلحظ في هذه الحقبة تزايد مشاعر العداء للنصارى في صفوف سكان بغداد. لا شكّ أنّ لكلِّ حادثة أسبابها المباشرة القريبة، ولكن قابليّة الاشتعال كانت قد ازدادت أيضًا.

الخبر الأوّل مذكور في المصادر كلّها،[٧] ومؤرِّخ بدقّة في سنة ٣٨٧/ آذار - نيسان ٩٩٧. كان كاتبان نصرانيان من بني باطا[٨] يتحكّمان ببلدة داقوق التي كانت آنئذٍ قصبة شهرزور - باجرمي. وكانا يظلمان الناس، من نصارى ومسلمين، «أكثر من الروم لو احتلوا البلد». واتّفق أن اجتاز بالبلدة «جبرائيل بن محمد في عسكره يريد غزو الروم» فاجتمع إليه جماعة من أهل البلد واشتكوا ودعوه لأن يملك عليهم. فقبض القائد على الظالمين وأمر بهما فقتلا. وملك البلدة وأخذ (أو اتّخذ) لقب دبُوس الدولة.

يبدو أنّ ماري يعزو تهديم بعض الكنائس خلال هذه السنوات إلى سخط مسلمي بغداد واستنكارهم لما أنزله هذان الكاتبان الظالمان من حيف بالمسلمين في بلدة الداقوق. أمّا ابن العبري فيربط هذه الأحداث غير المؤرّخة بخبر السّمات المميّزة التي فرضها «رجلان مجرمان من العرب (؟)». فقد قُبض، فيما روي، على منجم نصرانيّ وضُرب وأهين لأنه لم يكن يلبس الغيار. فاشتكى المنجم إلى سيّده (المسلم) الذي أمر «بالرجلين» فطرحا في السجن. ألهب النبأ عامة بغداد فاندرأوا على كنيستين للنساطرة هما: كنيسة السيدة في سوق الثلاثاء ودير مار سبريشوع الجاثليق (أي دير كليليشوع)، فنهبوهما. وقد كادوا أن يفعلوا الشيء نفسه بدير الروم، مقرّ الجاثليق، وبغيره من الكنائس لولا أن هدّأهم مار ماري الجاثليق بشيء من المال بَذَله لهم. ولم يعد النصارى يجرؤون بعد هذه الفورة، على الظهور نهارًا ببغداد.[٩]

وفي زمن ماري بن طوبا نسمع عن الداقوق أيضًا. فقد رمى أحد المغرضين رأس خنزير في بعض المساجد، فاتّهم النصارى بذلك كما هو متوقّع. ولكن بدلاً من تحريض العامّة رُفعت هذه المرّة ظلامة رسميّة إلى بغداد. وكان من حسن حظّ النصارى أن عامل الداقوق أُدين بالخروج على الطّاعة فقبض عليه وطُرح في السجن حتى مات جوعًا هناك، ونُسي أمر النصارى.

نصل الآن إلى العام ٣٨٩/٩٩٩. يذكر إيليا النصيبيني[١٠] في هذا التاريخ قتل أبي سعيد الكاتب من غير ذكر ظروف القتل ولا مكانه. يُضاف إلى هذا أنّ التسلسل التاريخي لهذه السنوات يكتنفه الغموض بحيث يستعصي علينا ربط هذا الحادث، في صورة يقينيّة، بهذه الفورة أو تلك من الفورات التي رأيناها أعلاه.

ثمّة خبر آخر، غير مؤرّخ أيضًا، وهو رفض الشمامسة المتحدّرين من المدائن (والنازلين ببغداد) رئيسهم أبا الفرج بن يعقوب. إن هذا الخبر لم يكن ليستحق منّا التوقُّف عنده لو لم تستعن أسرة الرئيس المرفوض بنقيب الهاشميين،[١١] وهذا أمر له دلالته. كان اللجوء إلى السلطة الزمنية، لحلّ المشكلات التي لا تعني إلاّ المراجع الكنسيّة، من أهم أسباب ضعف طوائف النصارى على مرّ العصور. وفي الحالة التي بين أيدينا، انحاز الجاثليق إلى صفّ رئيس الشمامسة أي أنّه وافق النقيب.[١٢]

في العام ٣٨٩/٩٩٩، كاد ماري بن طوبا الجاثليق أن يقع في مصاعب جديدة. فقد أحضر إلى دار الخلافة «بعد الشعانين»، وعُذِل على عدّة «أبواب كبيرة (كذا) منها: علوّ أصوات النصارى في الصلوات، وجلوس أصحاب الطوف والملح والملاّحين والطوّافين على أبواب البيع» الخ... ومن حسن التوفيق أنّ الجاثليق استطاع التبرّوء من التّهم كلّها. ولّما كان الوقت ليلاً عندما أطلقوه رافقه حَمَلَة المشاعل من قِبَل «الخليفة». وقد اصطفّ النصارى على جانبيّ الطريق، وانفرج الكرب الذي نزل بهم لّما سمعوا نبأ القبض على رئيسهم.

مَن كان وراء هذا الكيد؟ الأشبه أن يكون الوزير أبو نصر سابور بن أردشير، الذي كان الكلّ يتشكّى منه، والذي أُعيد إلى الوزارة، مع ذلك، خمس مرّات من قِبَل السلطان. ويروي ماري أنّ هذا الوزير فرض على الناس العشر في البيع والشراء، حتى صارت بغداد منه في غليان. ولّما كان عيد الشعانين (الذي كان عيدًا شعبيًا عظيًا للكلّ) لم يجرؤ الموكب التقليديّ على الخروج من الكنيسة البطريركية. فقد «اجتمع الناس تحت دار الخليفة المسلمون بالقرآن وألزموا النصارى إحضار الإنجيل وأخرج الإنجيل على صدر القسّ والنصارى خَلْفَه يَسَبِّحون وحصلوا في جامع الرصافة والشارع الأعظم الى تحت التاج والمسلمون يَذِبُّون عنهم... وأُحرقت دار الجانب الغربي لأنها كانت معدن البلايا والمصادرات».[١٣]

ويبدو أن هذه الأحداث توافق وزارة سابور الرابعة، سنة ٩٩٦/٣٨٦ ـ ٩٩٧،[١٤] والتي لم تدم إلاّ شهرين اضطرّ في آخرها الوزير إلى الهرب.

كان المناخ يميل إلى الفتن، بسبب سابور أيضًا، عندما توفّي الجاثليق. وقد ثار الترك مرّة أخرى. وفي يوم وفاة ماري، هرب الوزير من الترك الذين عبروا جميعهم (بتدبير العناية الإلهية، على حدّ قول ماري المؤرّخ) إلى الجانب الغربي في طلبه. وقد قاوم أهل الكرخ (ومعظمهم من الشيعة) الأتراك، ولذلك خفّ السُنّة من شرقي بغداد لنجدة الترك.[١٥] وفي هذه الأثناء أُقيمت الصلوات القانونيّة بعد جنازة الجاثليق، ولكنها اختُصرت نظرًا إلى الظروف. ثم اتّفق أعيان السنّة والشيعة على تهدئة الناس، وكان ذلك في المحرّم من العام ٣٩١/ آخر كانون الأول سنة ١٠٠٠.

مات في جثلقة ماري (٩٨٧ ـ ١٠٠٠) الطبيب والكاتب المشهور أبو سهل عيسى المسيحي المتحدِّر من أسرة خراسانيّة الأصل، وقد صادفناه في خدمة عضد الدولة[١٦] من قبل.

شهد العام ١٠٠٠/٣٩٠، الذي سبق موت الجاثليق، بداية تكوّن حركة تحرّر السنّة الذين أُحبطوا منذ أكثر من خمسين عامًا،[١٧] أي منذ وصول البويهيين سنة ٩٤٥. على أنّ هذه الحركة لم تفلح بمفردها، بل احتاجت لذلك إلى نجدة السلاجقة، الذين تولّوا السلطة سنة ١٠٥٥/٤٤٧. ولكن الانتفاضة السنّية الأولى التي تُرجمت إلى إنجاز عمليّ كانت رفض الخليفة (ولم يعد هذا الأمر مألوفًا) تعيين قاضي قضاة شيعيًا بدلاً من القاضي السنّي. وفي الوقت نفسه وضع الفقهاء من أمثال الماوردي[١٨] وابن الفرّاء[١٩] أقلامهم في خدمة الخلافة السنّية[٢٠] عندما ألّف كلّ منهما كتابًا في الأحكام السلطانيّة.

يوانيس بن عيسى

XX بدا الجاثليق الجديد يوانيس، من أوّل أمره، صنيعة من صنائع السلطة. ويتحدّث ماري عن تنافس ما نسمّيه «مجموعات الضغط» البغدادية والشيرازيّة وعن

خيارات تمليها الرغبة في رفض مرشّح الآخرين أكثر ممّا تمليها الرّغبة في تأييد مرشّح آخر. لم يعد أحد يتكلّم عن انتخابات: فالقصر هو صاحب القرار. وإنّ ابن العبري ليقولها بفجاجة: ذهب يوانيس إلى شيراز قاصدًا بهاء الدولة[٢١] الذي أمر بتصييره جاثليقًا. أمّا رؤساء الطائفة ببغداد[٢٢] (لا كلام حتى عن أساقفة) فقد وجدوا القرار مرًّا، ولكنهم ما استطاعوا إلاّ الانحناء أمامه.[٢٣] هرب بعض الآباء ولكن رسامة يوانيس جرت في ٥ ذي الحجّة/٢٦ تشرين الأول سنة ١٠٠١. وإذ وصل مطران الموصل (إراديًا؟) بعد الرسامة فقد حكم عليه بالبقاء على باب القلّية لابسًا المسوح جالسًا في الرّماد. ولّما رضي الجاثليق باستقباله، أخضعه لمزيد من الإذلال وغرّمه مئة دينار... وقد كانت جثلقته ملأى بأعمال من هذا القبيل.

كان من البديهيّ أن يُستقبل الجاثليق المنتخب بما يستحق من تكريم في قصر الخلافة وأن يكتب له العهد المألوف.

ولكن الرياح لم تعد مؤاتية للنصارى. فقد تحمّس السنّة لدى سماعهم الأنباء عن أوائل فتوح السلطان محمود بن سبكتكين في الهند، تلك الفتوح التي اعتُبرت انتصارات للسنّة. وفي انتظار التمكُّن من البويهيين حُماة الشيعة، كانت العامّة تنتظر فرصة للإيقاع بالمستفيدين من النظام، من بين نصارى ويهود.

إلى هذا السبب العام انضافت الدوافع الشخصية كتلك التي كانت تحرّك رجلاً من الحنابلة كان يشتهي الاستيلاء على أرضٍ بالقرب من كنيسة مار توما لليعاقبة بقطيعة الدقيق، من دون أن يتوصّل إلى ذلك، بسبب الحماية القويّة التي كان يبسطها عليها نصرانيّ اسمه باسيليوس بزّازا ابن طاهر.

ولما كان هدف الهجوم محدّدًا بوضوح، سنحت الفرصة المنتظرة سنة ١٠٠٢/٣٩٢، عندما زنا كاتب نصرانيّ يدعى أبو منصور الدرّاجي بامرأة خبّاز عربي، ثم وُجِدَ الخبّاز مقتولاً بعد ذلك بمدّة يسيرة. ما همّ أن يكون الكاتب نسطوريًا؟ لقد اغتنم الحنبلي الحادثة ليتّهم يعاقبة الحيّ بما جرى، وكان ذلك كافيًا لأن ينقضّ العامّة على كنيسة مار توما. انتزعت الزخارف وأعمدة الخشب النفيسة. وبينما النهّاب مشتغلون بالنّهب إذ اتّصلت النار من مكنسة مشتعلة كان يهوّل بها

بعضهم على النهّاب فالتهب المبنى كلّه وتهافت سقفه فوقع عليهم، فهلك في الحادث خمسون شخصًا من بين رجل وامرأة وولد، منهم بعض النصارى القلائل. وكان من أمر بعض فرسان البدو (من بني معدان) الذين اجتذبهم النّهب أن هربوا من الحريق فداست سنابكهم ثلاث نساء عربيّات أيضًا. وفي الوقت نفسه نهبت كنائس أخرى: منها كنيسة للنساطرة بالقرب من الدور (كنيسة مار اصطفانوس) وكنيسة أهل كسكر النسطوريّة ودير الرواهب اليعقوبيات. وقد صان تدخُّل السلطة الحازم بقيّة أماكن العبادة.

ولكن أغرب ما في الأمر أن قد وجد في كنيسة اليعاقبة المحروقة إنجيل سالم من النار إلاّ جلدته. أمام هذه «المعجزة» اتّخذ كل فريق موقفًا حسب معتقده. بالنسبة إلى اليعاقبة، أصحاب الكنيسة (وابن العبري، الذي يروي الخبر، منهم) كانت المعجزة برهانًا قاطعًا على أن عقيدتهم وحدها هي الحق. أمّا النساطرة فانقسموا: فقسم زُعزع إيمانهم ولم يبعدوا كثيرًا عن الاعتراف بأنّ عقيدة اليعاقبة هي الأصحّ، وقسم قال: «نعم. ولكن النار ما مسّت كنائسنا» وأمّا علماء المسلمين فكان تفسيرهم للناس أنّ ما حدث لم يحدث لأنّ النصارى على الدين الحقّ، بل بفضل العهد الذي كتبه الرسول بألاّ يتعرّض أحد للنصارى بشر. على أيّة حال يختم المؤرّخ قائلاً: «ولكن العرب حاولوا، كالنساطرة، وضع السراج تحت المكيال». (٢٤)

وقد استفتي، من جرّاء الحادث، ثلاثة فقهاء مسلمين في جواز هدم الكنائس. وأمّا الثلاثة العلماء فهم: أبو أحمد عبد الرحيم بن علي المرزبان الأصفهاني (ت ٣٩٦/١٠٠٥ ـ ١٠٠٦)،(٢٥) وأبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٤٠٣/١٠١٢) من أعيان الحنفيّة،(٢٦) والبيضاوي (؟). (٢٧) وقد أفتى الثلاثة بتحريم هدم الكنائس.

من المهمّ أن نعرف هل صدرت الفتوى قبل وصول الأمر من قصر الخلافة باستنكار ما حدث وتحريم التعرّض لأهل الذمّة. وإنّ المرء ليطمع أيضًا في معرفة من استحصل على هذا الأمر، عدا عن البواعيث والمسوح ورماد الجاثليق والنصارى.

في مقابل هذا التسامح الإسلامي نتبيّن في تلك السنوات شخصًا، «كاتبًا»، اسمه أبو الحسن بن إسحق، (٢٨) يرجُح أنّه نصرانيّ وأنّه كان ذا نفوذ، إذ أنّه ما اكتفى بانتزاع الغرامات من التجّار حتى أساء معاملة جاثليقه. ثم بلغ بعد ذلك من الظلم والعسف في سلوكه ببغداد، ما استحقّ به أن يُنفِذَ الوزير فخر الملك من الزطّ من يغتاله على طريق كرمان.

مناوشات بين النساطرة واليعاقبة

بعد عامين من حادثة الكنائس، في العام ٣٩٤/١٠٠٣ ـ ١٠٠٤، جاء رئيس أساقفة اليعاقبة بتكريت، (٢٩) اغناطيوس برقيقي، إلى بغداد ليعيد عمارة الكنيسة المحترقة. وقد لقي استقبالاً حسنًا من قِبل الجميع مسلمين ونساطرة، وحُملت إليه هدايا كثيرة وذلك «لأجل المعجزة [الانجيل الذي سلم من النار] وعقيدة الحبر وعلمه، ولأجل عمّه توما بزّازا ابن بطرس برقيقي الكاتب «بين يدي الملك»، (٣٠) على حدّ قول ميخائيل السرياني الذي ينظر إلى الأمور نظرة واقعيّة. إلاّ أنّ جاثليق النساطرة يوانيس انزعج من ذلك، ولا سيّما إذ رأى الكتّاب النساطرة أنفسهم يذهبون لزيارة برقيقي ويصلونه بالهدايا، فمنعهم الجاثليق من ذلك، «وقد ظهر في يوانيس كبَر وعُجب. . وتجوّز بأخذ الرشى» على حدّ قول ماري المؤرّخ النسطوري.

بدأت لعبة شدّ الحبال إذن، بين الطائفتين السريانيتين النساطرة واليعاقبة. أرسل اليعاقبة الأعيان منهم لمقابلة وزير الخليفة القادر، أبي الحسن علي بن عبد العزيز، ابن حاجب النعمان. (٣١) فذهب هؤلاء إلى حدّ مطالبة الوزير بمنشور يأمر الجاثليق باستقبال «المفريان».

كانت «عراضة» الجاثليق (بتوسيط الكتّاب النساطرة) كلاسيكية: «المفريان» نائب بطريرك ينزل في بلاد الروم، أعداء العرب، وهو لا يصلّي إلاّ من أجل نصرة الروم وذلّة العرب، الخ. . . كان الخليفة قد اعتاد هذه المعزوفة فلم يلتفت إليها أكثر ممّا فعل أسلافه. ثم أُحيل الخلاف إلى الفقهاء فانقسمت آراؤهم. ولا عجب في ذلك لأننا نعلم أنّ مذاهب الفقه السنّية كانت تختلف في شأن معاملة أهل الذمّة. كانت الوثيقة القانونيّة الوحيدة، المنظّمة لعلاقات الطوائف النصرانيّة فيما

بينها، هي العهد الذي كتبه المقتدر سنة ٩١٣ للجاثليق إبراهيم الثالث، عندما أراد الملكانيون إقامة أسقفية لهم ببغداد. كان الجواب واضحًا: لا يحقّ إلاّ لجاثليق النساطرة بالإقامة الدائمة في بغداد. فأُفهم «المفريان»، إذن، أنّ له الحقّ في التردُّد إلى العاصمة كلّما استلزمت ذلك مسؤولياته الكنسيّة، ولكن لا يجوز له الإقامة الدائمة فيها. وقد أوضح أيضًا في المنشور نفسه أنّه لا يجوز للمفريان «إظهار شعائر رياسة الكهنوت» خارج كنائسه.(٣٢)

ووقعت بين يوانيس وبين اليعاقبة مناوشة أخرى في تاريخ غير محدّد. فقد حاول الجاثليق أن يضع يده على كنيستهم بالكرخ (مار توما؟) ولكنه لم يفلح، ونجهل بقيّة التفاصيل.

ويذكر أنّ طائفة يوانيس نفسها صارت تتذمّر أكثر فأكثر من قسوته ومن «انهماك تلاميذه في القبايح وارتكاب المحظورات» حتى أنّ الرعيّة اتّهمته «بصبي كان يقيم معه في القلّية». وباختصار، ثارت به الطائفة فاضطرّ إلى الهرب من دار الروم إلى الجانب الغربي من دجلة. ولم يمكنه أن يعود إلى مقرّه إلاّ من بعدما قطع على نفسه عهودًا للرعيّة بالرجوع عما كانوا ينقمون عليه. ولكن ذلك لم يمنع بعض هؤلاء من ترك الطائفة النسطوريّة والانضمام إلى غيرها من الطوائف النصرانيّة: ويذكر هنا الطبيب علي بن عيسى(٣٣) تلميذ ابن الطيّب «أشهر كحّالي العرب» وصاحب الرسالة في طبّ العيون. اشمأز هذا الطبيب من تصرّفات جاثليقه فانضمّ إلى الملكانيّة وظلّ ينتقد يوانيس في رقاع كان يبعثها مع صبيان الملكانيّة ليطرحوها في كنائس النساطرة. ويُقال إنّ الجاثليق بكى من ذلك أمام الناس.

مررنا الآن باسم أبي الفرج عبدالله بن الطيّب الطبيب، الفيلسوف، اللاهوتي، المفسّر، الخ،(٣٤) الذي نجده من بعد كاتبًا للجاثليق يوحنا بن نازوك. ويذكر ابن العبري في هذه الفترة أبا علي حسن بن سهل صاحب بعض التعليقات على كتب كنسيّة ومنطقيّة.(٣٥) وفي الفترة ذاتها كان يعيش أبو علي عيسى بن زرعة(٣٦) تلميذ يحيى بن عدي وخليفته. وكان أبو علي مترجمًا وفيلسوفًا وجدليًا(٣٧) ومات سنة ١٠٠٧/٣٩٨.

هذه الأسماء كلّها تذكّرنا بأنّ الجدال الإسلامي النصرانيّ كان مستمرًّا كسابق

عهده في القرون التي مضت.[٣٨] وربّما تمكّن المرء من أن يلمس فيه شيئًا من التصلُّب في المواقف، كما يتبيَّن بوضوح من الموقف الشعبيّ، ولكن هذا الموضوع يخرج عن إطار بحثنا. وقد سبق لنا أن قلنا إنّ تراخي الدعاوة الشيعيّة في ظلّ البويهيين والصحوة السنّية مع الآمال التي ولّدتها الانتصارات التركيّة في الشرق تُفسِّر تنامي ذلك التصلُّب والعدوانيّة. ويجب أن نأخذ في الحسبان أيضًا تزايد الاحباطات الناتجة عن النكبات المزمنة: الغلاء، المجاعات، الخ.[٣٩] على أيّة حال لم يكن المأخذ على النصارى وحدهم، إذ أنّ الفتن بين السنّة والشيعة قد تكرّرت، ببغداد مثلاً، سنة ٣٩٨/١٠٠٧ ـ ١٠٠٨.[٤٠]

ويبيّن لنا الخبر التالي عن التناحر على السلطة بين أمراء المسلمين نفوذ الكتّاب النصارى وهشاشة وضعهم في الوقت نفسه: في العام ٤٠٢/١٠١١، وفي أمارة فخر الدولة كان الوزير أبو غالب الحسن بن منصور الملقّب بذي السعادتين على خلاف مع بني خفاجة. فأشار كاتب نصرانيّ من دقوقا (نسطوري إذن) على سيّده سلطان بن الحسين بن ثمال الخفاجي بالقبض على ذي السعادتين فنُمي الخبر إلى الوزير، فأفسد تدبير الخفاجي وقبض عليه وعلى كاتبه النصرانيّ.[٤١]

في الثامن من كانون الثاني ١٠١٢/١٠ جمادى الآخرة ٤٠٢ مات يوانيس الجاثليق عن جثلقة دامت عشر سنوات ونيف. لا تذكر المصادر أنّه قد أسف عليه أحد. ويكتب ابن العبري أنّ «الكثيرين شمتوا بموته». فممّا كان يُؤخذ عليه تعجرفه وتسرُّعه في إلقاء الحرم على من خالفوه في الرأي (وأن كان يعفو عنهم بعيد ذلك بقليل ويحلّهم من الحرم)، وكان أكثر شيء يؤخذ عليه الفضائح التي ارتكبها تلاميذه. ويكتفي المؤرّخ النسطوريّ ماري بالقول وبعد موته «اعتقل سابور تلميذه»، أمّا ابن العبري اليعقوبي فيضع النقاط على الحروف: كان سابور هذا يرتكب الفواحش في العلن وكان الجاثليق يغضّ الطُّرف عنه بينما عَزَل أسقفين للسبب نفسه. ولأجل هذا كان يوانيس «ممقوتًا من الجميع»...

ومع ذلك تنسب إليه معجزات في العقوبة هي ممّا ينسبه العامّة إلى الأساقفة عادةً، فبعد مشاجرة معه رفض سبعة أشخاص مصالحته: فكُسرت ساق أحدهم وفُلج آخر، «فقيل هذا بدعائه».

وبعد حوالي عام من وفاة يوانيس مات بهاء الدولة[٤٢] في الخامس من جمادى الأخرة سنة ٢٢/٤٠٣ كانون الأول ١٠١٢. وقد ملك ٢٤ سنة مع أنّه مات في الثانية والأربعين من عمره. وقد خلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع.

يوحنا بن نازوك

XXI جرى انتخاب خلف[٤٣] ليوانيس الجاثليق قبل حوالي شهر. وهذه المرّة لم يكن تدخُّل العلمانيين ظاهرًا. فقد أُجريت جولة أولى ثم أُلغيت بعد مراجعة أبي علي الدورقي (؟) لأنّ البعض ارتاب من حصول تزوير. ولكن لما سحب من الكأس اسم أبي عيسى يوحنا بن إبراهيم بن نازوك، على يد أسقف هرم أعشى، رضي الجميع بذلك. فذهب الجاثليق المنتخب إلى القصر وأخذ عهد[٤٤] تولية يسمح بسيامته، ثم سيم جاثليقًا يوم الأربعاء في الثاني من جمادى الأولى ١٩/٤٠٣ تشرين الثاني ١٠١٢.

جنازة أخرى

كان سبب واحدة من كبرى المشكلات في جثلقة ابن نازوك، جنازة. ويصعب تأريخ الحدث: فهو في العام ١٠١٢/٤٠٣ على قول جورج مقدسي،[٤٥] أو في العام ١٠١٣/٤٠٤ على قول حبيب الزيّات،[٤٦] أو في العام ١٠١٧/٤٠٨ على قول تاريخ الزمان لابن العبري.[٤٧]

أمّا الشخصيّة الرئيسيّة في المأساة فهي الفقيدة، وهي بنت أبي نوح الأهوازي من أعيان النساطرة، وزوجة أبي نصر بن إسرائيل كاتب الناصح[٤٨] أبي الهيجاء الجرجاني. وقد سارت الجنازة نهارًا من بيت المأتم الكائن بالرّصافة على الأرجح، (في الجنوب الغربي من حيّ الشماسيّة بالجانب الشرقي من دجلة) متّجهة صوب دار الروم. وقد أحاط بموكب الجنازة غلمان الناصح من الترك، وضمّت فيها ضمّت جوقة صاخبة تُقرع فيها الطبول وتُنفخ الزمور، ويرتّل فيها (إن لم نقل يزعق فيها) رهبان يرحمون بالشموع والصلبان، وكلّها أشياء قبح في أعين المسلمين ويكرهونها. ولّما مرَّ الموكب بالقرب من مشهد أبي حنيفة لم يتمالك صاحب دكّان هناك نفسه،

فبصق على النعش. ثم انضمّت إليه العامّة، فرموا الموكب بالحجارة والشتائم، وتعرَّضوا بالأذى لغلمان الناصح. فهرب النصارى بالميتة إلى كنيسة دار الروم، فلحقت بهم العامّة إلى الكنيسة والقلّية وأُعمل السّلب والنّهب فيهما وفي المنازل المجاورة.

أمّا الأرمل فقد تمكّن من إدراك داره عدوًا ثم لحق بقصر حاميه، فتبعه جمع العامّة ونشب قتال بينهم وبين الحرّاس. وأُرجف بأن بعض النصارى قتل رجلاً مسلمًا، فحملت جثّة المسلم وطيف بها في أحياء بغداد. وأُغلقت الأسواق والمساجد ولم تُقَم صلاة الجمعة ورفعت العامّة المصاحف على رؤوس القنا وحملت «شهيدها» إلى دار الخلافة مطالبة بالقصاص. وفي هذه الأثناء نُهبت كنائس عدّة.

ومن أجل تهدئة الخواطر طلب الخليفة تسليمه الأرمل المسكين الذي صار معتديًا رغمًا منه. فحبسه ليضعه في مأمن من الأذى ثم أطلقه من بعدما هدأت الفتنة. وقد عرض عليه أن يسلم قيامًا بواجب النصيحة، فرفض.

وكان من أسباب عودة الهدوء أنّ الخليفة أعلن إعادة تطبيق «الشروط العمرية»: لبس الغيار وحظر ركوب الخيل وصرف الخدم والإماء من منازل النصارى... فاستدعي الجاثليق إلى القصر وتعهّد، نيابة عن رعيّته، باحترام الأوامر، وقرئت التعليمات في هذا الشأن من على «البيم» بالكنائس.

فخر الملك

كان فخر الملك،(٤٩) أبو غالب محمد بن علي بن خَلَف، وزير سلطان الدولة، ممّن عملوا على إعادة فرض «الشروط العمريّة». ويذهب ماري إلى أنّ ميول الوزير لمعاداة الذمّة كانت أشدّ، نظرًا إلى تحدّره من أسرة جهابذة يهود، وإلى أنّه تربّى، قبل اعتناقه الإسلام، بواسط «بلدة الحجاج ومدينة النبط».(٥٠)

وقد اجتاز فخر الملك هذا بدير مار ماري بدور قُنّى سنة ١٠١٢/٤٠٢. واتّفق أن كان الناس صيام في رمضان فقدم له أفطار فاخر. «وأغراه الشيطان

بعض الناس المتألهين النصارى وحسدهم لحسن وجوههم وبشرتهم فتعصب في المطالبة بلبس الغيار».

وكان ابن جابر، من أقارب[٥١] فخر الملك، قد عُيّن عاملاً على ناحية النهروانات، التي يقع الدير في نطاقها. فقصد هذا العامل «الأسكول والأسقف وادّعى عليه مالاً جزيلاً وديعة لفخر الملك، فصادر الناس وكبس الاسكول».

قاسى النصارى أيامًا عسيرة. وتعرّض الرّهبان والقساوسة للرّجم والإهانات وشتّى أعمال الكيد، ومُنِعَت الجنائز من الخروج نهارًا، ونُهب أهل سوق الثلاثاء، «وأسلم مَن لا دين له» على قول ماري.

الصحوة السنّية

كانت الحال العامّة، فضلاً عن هذا، مضطربة أيضًا. وكانت السنوات ما بين ٤٠٦ و١٠١٥/٤٠٨ و١٠١٧، سنوات عودة السنّة إلى السيطرة على بغداد. بدأ السنّة بأن منعوا الشيعة من احياء ذكرى عاشوراء،[٥٢] وثنّوا بحرائق أشعلوها ببغداد وكربلاء وسامراء.[٥٣] وبلغ التحرُّك المناوىء للشيعة ذروته سنة ١٠١٧/٤٠٨. يطلق المؤرّخون السنّة على هذا العام اسم عام الفتنة، وهذا يُقابل تقدُّم محمود بن سبكتكين الذي فتح خوارزم[٥٤] في ذلك العام.

كان من الطبيعي أن يولِّد الغليان العام تيارات هامشية تذهب ضحيّتها الأقلّيات. وفي هذه المياه العكرة، كانت تسبح شتّى أنواع الحيتان التي كانت تجد في النصارى فرائس سهلة المنال.

لم تكن السلطات الرسميّة تقبل بهذه التعدّيات أو تُقرُّها. من ذلك أنّه لّما شبَّ حريق خلف مسجد الرصافة وأُرجف بأنّ النصارى وراء الحادث تدخّل الخليفة القادر وأمر بتكذيب النبأ وحال بذلك دون سحق النصارى نهائيًا.

وقد ساءت الأحوال أكثر في مصر والشام: هناك لم تهدم الكنائس فحسب، بل فرض على النصارى أن يجعلوا في أعناقهم صلبانًا من خشب زنة الواحد منها خمسة أرطال، وعلى اليهود أن يجعلوا في أعناقهم رأس عجل «عظيم المقدار» هناك أيضًا ترك الكثيرون أديانهم وأسلموا.

كان من الطبيعيّ أن تطرح هذه النكبات (كما طرحت سرعة الفتح العربي من قبل) أسئلة على نصارى ذلك العصر، ولا سيّما على المنافحين عن العقيدة الذين رأوا في تلك النوائب عقوبة إلّهية. لذلك يقول ماري: «وكان أصل ذلك تجوُّز الناس في أديانهم وقبح سيرة الكهنة في المذبح والبيع والبيوت المقدّسة». وقد يمكنه أن يضيف: وحتى في مقرّ الجثلقة الذي كان نُهبة لأقارب الجاثليق. فمن ذلك أن أسقف مصر لما جاء إلى الجاثليق ليشكو إليه تخريب حوالي أربعين ألف كنيسة ودير بالمغرب وأن لم يبقَ إلاّ عدد ضئيل من المؤمنين، أحاله الجاثليق إلى مطرانية فارس، ولكن من بعد ما أخذ منه رشوة.

وقد حصل الانفراج سنة ٤٠٧/ كانون الثاني ١٠١٧.[٥٥] عندما قبض على فخر الملك وأعدم بشيراز بعد وزارة دامت أكثر من خمس سنوات. ويذهب ماري إلى حدّ القول إنّ «الوحوش والطير أكلت جثّته» أمّا ابن الأثير، الذي يثني على الوزير، فيعترف بأنّه جمع بالنّهب ألف ألف دينار.

وقد خلفه أبو محمد الحسن بن الفضل بن سهلان الذي لقّب بعميد أصحاب الجيوش[٥٦] والذي «استقبله الجاثليق وخدمه وسُرَّ به وأنكر التبسّط على أهل الذمّة والغيار».

برقيقي ثانية

وفي أثناء سنوات الاضطراب هذه عاد إلى بغداد، قبل العام ٣٩٨/١٠٠٧[٥٧] أغناطيوس مرقص برقيقي «مفريان» تكريت لليعاقبة وصاحب المكائد. وقد ثارت به رعيّته لما رأته يستولي على أموال كنائس تكريت وبغداد وما والاهما من القرى، وينتزع كلّ ما فيها من نفائس. «واستعان عليه» أحد أعيان اليعاقبة (وهو ابن زرعة الفيلسوف) بالناصح، فمضى برقيقي إلى دار السعيد (؟) وأسلم على يديه، «وأكل اللحم» (وهذا ما لم يكن يفعله الأساقفة الذين كانوا رهبانًا). ثم مثل بين يدي الخليفة «وقطع زنّاره» علامة على خروجه من حال الذمّة، وتكنّى بأبي مسلم «واتّخذ عدّة نساء» على قول إيليا النصيبيني. ولا شكّ في أنّه تعرّض لأبناء ملّته السابقة من اليعاقبة «وادّعى عليهم كل دعوى».

وكما كانت الحال غالبًا مع أمثاله من مسلمي المصلحة، لم يطل به الوقت حتى انكشف وجهه الحقيقي «وافتضح عند المسلمين والنصارى».

وقد وقعت ليوحنا الجاثليق يومًا مفاجأة مزعجة لما التقى ببرقيقي هذا في دار أبي الحسن بن عبد العزيز، ابن حاجب النعمان.(٥٨) فبدا «لأبي مسلم» الجديد أن من واجبه أن يدعو الجاثليق إلى الإسلام قيامًا بواجب النصيحة. فأنكر الحاضرون من فقهاء ومتكلّمين فعلته الممضّة كما أنكرها سيّد الدار الذي شيّع الجاثليق الضيف بما يليق من تكريم.

ويروي ميخائيل السرياني أيضًا(٥٩) أنّ الخليفة استقبل برقيقي كما يستقبل أي مسلم آخر، من غير أن يبدي له نفس الاعتبار الذي كان يبديه له لما كان مطرانًا. ويضيف ميخائيل السرياني أنّ «النصارى رفعوا رأسهم»(٦٠) ويذهب هذا المؤرّخ إلى أنّ المطران السابق عاش فقيرًا يستعطي الناس. وقيل إنّه تاب من بعد ذلك، وقد بقيت منه أشعار في هذا المعنى.(٦١) أمّا يوحنا بن نازوك فقد توفي في ٢٨ ربيع الأول ٤١١/٢١ تموز ١٠٢٠ عن جثلقة دامت حوالي ثمان سنوات وشهدت واحدة من أقسى النكبات التي مررنا بها حتى الآن. وقد نبّهنا في حينه إلى ما انجرَّ عنها من ترك رهط غير قليل من النصارى دينهم ودخولهم الإسلام.

نسوق فيما يلي هذا الحادث العابر، الذي وقع خارج بغداد في العام ٤١٥/١٠٢٤ أو في ٤١٦/١٠٢٥، لدلالته على ذهنيّة ذلك العصر.(٦٢) ذلك أنّ الترك لما سخطوا على صاحب حلب وثاروا به، لم يكتفوا بلعن الظاهر الخليفة الفاطمي والدُّعاء لقيصر الروم، بل رفعوا الصُّلبان على أسوار المدينة وأمروا بالنواقيس فدُقّت. يبيِّن لنا هذا إلى أيّ مدى صارت رموز النصرانيّة مثل شعار يتعارفه كلّ أولئك الخارجين، لا على الإسلام، بل على شطط بعض ممثليه الرسميين. وسوف تتاح لنا فرص أخرى للوقوف على هذه المعادلة المفرطة في التبسيط؛ نصارى = أعداء الإسلام.

ايشوع يهب بن حزقيال

XXII انتُخب ايشوع يهب بن حزقيال،(٦٣) أسقف القصر والنهروانات،

خلفًا ليوحنا بن نازوك بعد سبعة أشهر من وفاة الجاثليق. إنّ اسم أبرشيّة ايشوع يهب يذكّرنا بمصاعب الجثلقة السابقة. والأرجح أن يكون هو قد هرب إبّان اضطهاد فخر الملك وابن جابر للنصارى، وأن يكون قاسى المصادرة.

ولّما اقترب الانتخاب فرّق ايشوع يهب رشاوى (بلغت خمسة آلاف دينار، على قول ابن العبري) على أصحاب النفوذ، وخصوصًا أبي غالب الحسن بن منصور، ذي السعادتين.(٦٤) وقيل إنّ ذا السعادتين أمر بإغراق كلّ من لا يؤيّده. وهكذا إذن «انتخب» ايشوع يهب، إلاّ أن عددًا من الأساقفة فضّلوا الهرب ولم يقرأوا اسمه في سفر الأحياء.(٦٥) وقد اتّسمت جثلقته التي لم تدم أكثر من أربع سنوات ونصف «بما يقبح ذكره ولا يحسن شرحه» على قول ماري، والأغلب أنه كان يشير إلى المنافسات الداخلية في الكنيسة.

أمّا بالنسبة إلى الأمور الخارجية، فيبدو أنّ الحال ظلّت متوتّرة لأن ايشوع يهب لما مات في ١٣ ربيع الأول سنة ١٤/٤١٦ أيار ١٠٢٥، احتيج إلى إخراج جنازته ليلاً. وفي تلك السنة بالذات «ظهر أمر العيّارين ببغداد، وعظم شرُّهم»، حتى إنهم أحرقوا الكرخ،(٦٦) أي الجانب الغربي من العاصمة.

ظلّ كرسيّ الجثلقة شاغرًا مدّة ثلاث سنوات، من ١٠٢٥ إلى ١٢٠٨، بسبب الخلافات والفتن المتّصلة بالبلاد. «في تلك الأيام» نهبت قليّة دار الروم،(٦٧) ولا يستبعد الوقوع على ذكر الفتن وأعمال النهب في هذه السنوات. والخبر الذي ينفرد بذكره صليبا يقع في فترة أعمال الشغب والنُّهب العامة التي وقعت ببغداد سنة ١٠٢٦/٤١٧،(٦٨) عندما وقعت الفتن بين التّرك وبين العامّة في أحياء بغداد ودروبها.

وقد انصلحت الحال قليلاً لدى دخول جلال الدولة(٦٩) أبي طاهر، ابن بهاء الدولة(٧٠) إلى بغداد في ٣ رمضان ٧/٤١٨ تشرين الأول ١٠٢٧.

عندئذٍ استطاع الآباء المسيمون أن يجتمعوا. وللمرّة الأولى منذ مدّة طويلة جرى الانتخاب، فيما يبدو، حسب القواعد القانونية: «وكانت لهم اجتماعات كثيرة مع المؤمنين» بلا ضغوط مفرطة من هذه الجماعة أو تلك وإن كان الجاثليق الذي

انتخب من موالي بني الجمل الذين صادفناهم من قبل. وقع الاتفاق إذن على قائمة من ثلاثة أسماء، وأقيمت صلوات بالباعوث ثلاثة أيام، ثم ألقيت القرعة على ما جرى به العرف، فخرج اسم إيليا، أسقف الطيرهان من الكأس.

إيليا الأول

XXIII كان الجاثليق الجديد، الذي سيم في ١٦ حزيران ١٠٢٨[٧١] معروفًا بعلمه مشهورًا بفضله وسداده، باجماع جميع المصادر.[٧٢] وقد اتسمت جثلقته المديدة بالتصانيف التي صنّفها،[٧٣] وبإصلاحه الطقوس، وبالمجمع الذي عقده وأقرّ فيه بعض القوانين الكنسيّة. كان إيليا الأول موضع ثقة الجميع وعمل من أجل المصالحة.

ولكن بغداد ظلّت فريسة الفتن والاضطرابات في العام ١٠٢٩/٤٢٠،[٧٤] على الرغم من وجود جلال الدولة بها. فاللصوص ما عادوا يستترون بل صاروا يفرضون الاتاوات على الناس علانيّة. وفي هذه السنة مات أبو سهل سعيد بن عبد العزيز النيلي، الطبيب الأديب الشاعر، المختلف في أصل نسبه: أإلى أسرة تتجر بالنيل[٧٥] أم إلى مدينة النيل بالعراق،[٧٦] والثاني هو الأرجح.

في السنة التالية، ١٠٣٠/٤٢١، ظلّ اللصوص يعيثون، حتى إنّ الأكراد «كانوا يسرقون دوابّ الأتراك، فنقل الأتراك خيلهم إلى دورهم، ونقل جلال الدولة دوابّه إلى بيت في دار المملكة».[٧٧] وفي العام ١٠٣٠/٤٢٢، مات الخليفة عن ٨٧ سنة. وتشير هذه السنّ العالية إلى أن حظوظ الخلفاء في الحياة كانت تتناسب تناسبًا عكسيًا مع سلطتهم الفعليّة. هل أعاد القادر جدّة الخلافة، «وجدّد ناموسها» على ما ذكر ابن الأثير؟[٧٨] يبدو ابن العبري أقرب إلى الواقع عندما يكتب أنّ الخليفة كان «ممتازًا بعفافه وفضله خلافًا لأسلافه».[٧٩] كان القادر، باختصار، مثال الخليفة الرسميّ الذي في وسعه أن يمارس شيئًا من النفوذ، بشرط ألاّ يحسّ أحد بذلك فيستاء.

الحواشي

(١) Kâdir، E.I.¹, II, p. 647, K.V. ZETTERSTEEN، أنظر الآن E.I.², VI, p. 394-395, par D. SOURDEL، الصفدي، ج ٦، ص ٢٣٩ - ٢٤١، رقم ٢٧١٧. عن سياسته الدينيّة، أنظر: H. LAOUST, Al-Mawardi, p. 52, 63, 75

(٢) البداية، ج ١١، ص ٣١٢، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١. الكامل، ج ٩، ص ١٠١.

(٣) وقد عُدَّت دار العلم أوّل جامعة كبرى في الإسلام وقد بنيت النظامية أيضًا ببغداد سنة ٤٥٧/٤٥٩.

(٤) ويعتبر هنري لاوست في كتابه عن الماوردي، ص ٤٥، الحاشية رقم ٤، أن فهرست النديم ربّما كان فهرست هذه المكتبة.

(٥) مذكور في شعراء، شيخو، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ و٣٩١ - ٣٩٢. ويخلط الأب شيخو بين هذا الشاعر وبين سميّه المعاصر للمتوكّل.

(٦) تاريخ الزمان، ص ٧٧، ثمّة مصادر عنه في طبعة الشالجي للرسالة البغداديّة للتوحيدي، ص ٤٥.

(٧) ماري، ص ١٠٧، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٤. الكامل، ج ٩، ص ١٣٦.

(٨) استنادًا إلى ماري الذي يؤرّخ الخبر «في السنة الرابعة» ولكنه ينسى أن يقول من جثلقة مَن.

(٩) ماري، وابن العبري، العمود ٢٥٨ - ٢٦٢. - ينسب ماري إعادة فرض السّمات المميّزة إلى «السنة الثانية» من جثلقة ماري، أي ٩٨٨/٣٧٧. لم يتوصّل المحقّق إلى قراءة أسماء أصحاب هذا التدبير أو ألقابهم. ويقود اقتراحه قراءة «الأتابكة» إلى مفارقة تاريخيّة. هل هم «الحنابلة»؟

(١٠) تحت لعام ٣٨٩ هـ.

(١١) لا سبيل إلى معرفة اسم هذا النقيب بالرغم من القوائم التي يثبتها BUSSE, p. 297 لأن الحادث غير مؤرّخ.

(١٢) عن وزارات سابور، أنظر BUSSE, p.240-241

(١٣) الكامل، ج ٩، ص ١٢٨.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(١٥) صليبا الموضع المذكور، ولا شكّ أنّ ابن العبري قد غلط في الصفحة ٦٩ من تاريخ الزمان إذ كتب تحت العام ٩٨٢/٣٧٢: «ومات في سنّ الأربعين» لأنه يكمل بعد ذلك قائلاً: «وخَلَفه صمصام الدولة أخوه». ليس الطبيب إذن هو الذي مات عن أربعين سنة. . . بل هو عضد الدولة الذي لم يكن له من العمر ٥٠ عامًا لما مات. يجب أن يصحّح معجم المؤلّفين لعمر رضا كحّالة، ج ٨، ص ٣٥، في هذا الصدد أيضًا.

(١٦) عن تطوّر السنّة في خلافة القادر، أنظر: A. LAOUST, Mawardi, p. 53-54 et p. 77-92

(١٧) أنظر قوانين الوزارة وسياسة الملك للماوردي، تحقيق د. رضوان السيد، بيروت، ١٩٧٩، ص ٥ ـ ١١٤.

(١٨) A New Look at the Ahkam al-Sultaniya, par DONALD P. LITTLE, dans **The Muslim World**, LXIV (1974), p. 1-15, et **E.I.²**, III, p. 788-790 s.v. Ibn al-Farra, par H. LAOUST.

(١٩) LAOUST, **Mawardi**, p. 13.

(٢٠) وقد أثر عن هذا الأمير أنه كان بخيلاً طمّاعًا، البداية، ج ١١، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠. حتى ابن العبري لا يذكر ما قدّمه له يوانيس لما قصده.

(٢١) يذكر منهم ابن الجمال، أي الكاتب أبو نصر بشر بن هارون بن جملا الذي مات سنة ٤٠٠/١٠٠٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٧.

(٢٢) يقول ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق السادس، ص ٥٢٠ ـ ٥٢٤ رقم ٤٠: إنه انتخب من قِبَل أهل بغداد (؟).

(٢٣) ثمّة وثائق كثيرة عن هذه الحادثة، ماري، ص ١١١ ـ ١١٢. صليبا، ص ٩٦. ابن العبري، العمود ٢٦٢. تاريخ الزمان، ص ٧٥. البداية، ج ١١، ص ٣٣٠. الوزراء، ص ٤٤٣. تجارب الأمم، ج ٤، ص ٤١٨. المنتظم، ج ٧، ص ٢١٩، الخ.

(٢٤) BUSSE, p. 532

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٥٢٦ والحاشية رقم ٥ و٦. ـ G.MAKDISSI, **Ibn Akil**, p. 166, 168

(٢٦) الذي ربّما وجدنا ولده سنة ٤٦١/١٠٦٩. الصفدي، الوافي، ج ١٠، ص ٣٦٥، ج ١، ص ٢٧٩ رقم ١٨١.

(٢٧) الذي أرسله الوزير أبو نصر سابور من قبل مع أبي القاسم بن تمّا الديلمي للقبض على علوي فرّ منها فما تمكّنا منه. هلال الصابي في ذيل تجارب الأمم، ج ٤، ص ٤١٨، وقد كان ظهر اسم ابن إسحق في تاريخ ماري لدى تعيين الجاثليق.

(٢٨) يستعمل ابن العبري هنا لقب «مفريان» الذي لم يتلقّب به هذا الحبر إلاّ لاحقًا.

(٢٩) ميخائيل السرياني، ص ١٣٤.

(٣٠) كان لا يزال حينئذٍ في وزارته الثالثة التي بدأها في كانون الأول ٩٩٨، BUSSE, p. 248-249 مع مصادر، الصفدي، ج ٣، ص ٢٥٩، الرقم ١٢٨٧.

(٣١) وقد استمرّ هذا الوضع على حاله حتى زمن صليبا في أوائل القرن الرابع عشر.

(٣٢) E.I.², I, p. 399, s.v. par E. MITTWOCH . وقد كان معروفًا لدى اللاتين باسم Jesus Haly, M. MEYERHOF, in **The legacy of Islam**, 1ère ed. Oxford V. Press, 1931, p. 332, BUSSE, p. 478, no. 2.

(٣٣) مصادر عنه في **Islamochristiana**, 2, (1976) p. 203-208, par Samir KHALIL ، ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

(٣٤) إن محققي Chronique Ecclésiastique يماهونه بأبي سهل المسيحيّ، الذي رأيناه من قبل (مع ذكر الجملة نفسها: «ومات عن أربعين عامًا. . .»؟

(٣٥) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٦.

(٣٦) Islamochristiana, 1, (1975), p. 168 .

(٣٧) يذكر أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠/١٠١٠) في الصداقة والصديق، بعض أقوال المسيح التي أطلعه عليها الكاتب النصرانيّ ابن الحمل: MAX BERGÉ, dans B.E.O. (Damas) XVI, (1958-1960), p. 45-49.

(٣٨) أنظر قائمة عنها في BUSSE, p. 386-392 ؛ الكامل، ج ٩، ص ٢٠٤.

(٣٩) الكامل، ج ٩، ص ٢٠٨. وفي هذه السنة أمر الحاكم بأمر الله، صاحب مصر بهدم كنيسة القيامة بالقدس.

(٤٠) الكامل، ج ٩، ص ٢٣٥.

(٤١) الكامل، ج ٩، ص ٢٤١.

(٤٢) ماري، ص ١١٣ - ١١٦. صليبا، ص ٩٦ - ٩٧. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٨٤ - ٢٨٦. إيليا النصيبيني، تحت العام ٤٠٣ هـ. وحاشيته العربية، ص ٧٦ - ٧٧. ينتهي تاريخ إيليا النصيبيني في العام ١٣٣٠ يونانية وهو تاريخ كتابته، أي قبل وفاة الجاثليق.

(٤٣) يستعمل ماري هنا، للمرّة الأولى، كلمة «عهد» بدلاً من منشور التي استعملها سابقًا.

(٤٤) Ibn Akil , p. 155-156 ، مستشهدًا بالمنتظم، ج ٧، ص ٢٦٢، والبداية، ج ١١، ص ٣٤٨.

(٤٥) السّمات المميّزة، ص ٢٤، مستشهدًا بمرآة الزمان.

(٤٦) ص ١٨٥ - وأنا أميل إلى واحد من التواريخ الأولى.

(٤٧) لقب لُقّب به عدّة رجالات، منهم صاحب شرطة بغداد سنة ١٠٣٠، ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٩.

(٤٨) الكامل، ج ٩، ص ٢٦٠ - ٢٦٣، البداية، ج ١٢، ص ٥ - ٦. BUSSE, p. 242-243 no. 28 وقيل إنه كان يتشيّع.

(٤٩) إن رصف ماري النعتين الواحد تلو الآخر يدعو إلى التعجُّب، ذلك لأن الحجّاج لما أنشأها حظّر على «النبط»، أي السريان (واليهود/ الآراميين) أن يبيتوا بها ليلاً. كان عليهم المكوث في كسكر، أي المدينة القديمة على الجانب الآخر من دجلة. ويبدو أن الحظر كان قد تراخى مع مرّ الأيام.

(٥٠) ويحتوي نصّ ماري المطبوع. ص ١١٦، س ١٦، على الجملة المعترضة التالية: «وكان الوزير ابن قبيه» (كذا).

(٥١) البداية، ج ١٢، ص ٢.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٤.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٨. ـ عن سياسته أنظر LAOUST, **Ibn Batta, note 214**
(٥٤) في العام ١٠١٨/٤٠٩ على قول ماري، في العام ١٠١٦/٤٠٧ على قول BUSSE
(٥٥) BUSSE, p. 243, no. 29
(٥٦) إيليا النصيبيني، تحت العام ٤٠٧ هـ.، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٣٤.
(٥٧) BUSSE, p. 249, no. 13
(٥٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٣٤.
(٥٩) تلحظ العبارة الدارجة على أقلام المؤرّخين النصارى الذين يشيرون دائمًا إلى دُوَلِ الذلّ والفرج أو حتى الرفاه.
(٦٠) اللؤلؤ المنثور، ط ٢، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤، رقم ١٨٩.
(٦١) يحيى، ص ٢٤٧. زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق سامي الدهان المعهد الفرنسي بدمشق، ج ١ (١٩٥١)، ص ٢٨٨ ـ ٢٢٩. حبيب الزيّات، الصليب في الإسلام، ص ٤٩.
(٦٢) ماري، ص ١١٧ ـ ١١٨. صليبا، ص ٩٧. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٨٦.
(٦٣) وزر لسلطان الدولة منذ العام ١٠١٩/٤٠٩. الكامل، ج ٩، ص ٣١٠. BUSSE, p. 243, no. 31.
(٦٤) وقد وصلتنا رسالة احتجاج إيليا بر شينايا، مطران نصيبين، في هذه المناسبة، **Oriens Christianus**, II, III (1913), p. 59-81, 236-262.
(٦٥) الكامل، ج ٩، ص ٣٤٩.
(٦٦) يجعل صليبا الخبر في العام ١٠٣٢/٤٢٣، وهذا يعني وقوع الحادث بعد الانتخاب.
(٦٧) الكامل، ج ٩، ص ٣٥٣.
(٦٨) الذي يسمّيه صليبا جلال الدين.
(٦٩) BUSSE, table B, et réf. p. 580.
(٧٠) الكامل، ج ٩، ص ٣٦١.
(٧١) لا ذكر لعهد الخليفة ولكن الاستغناء عنه كان ممتنعًا.
(٧٢) ماري، ص ١١٨ ـ ١١٩. صليبا، ص ٩٧ ـ ٩٩. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٨٦ ـ ٢٨٨.
(٧٣) ويشكّك بعض الدارسين في صحّة نسبتها إليه.
(٧٤) الكامل، ج ٩، ص ٣٩٣.
(٧٥) الزركلي، ج ٣، ص ١٥٠، مع مصادر.
(٧٦) شعراء النصرانيّة لشيخو ص ٣٤١ ـ ٣٤٢. ـ تقع النيل في منتصف الطريق بين الحلّة والنعمانيّة إلى الجنوب من بغداد، وكانت أسقفية نسطوريّة، أثور النصرانيّة، **Assyrie Chrétienne**، ج ٣، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

(٧٧) الكامل، ج ٩، ص ٤١٠.
(٧٨) المصدر نفسه، ص ٤١٤ - ٤١٥.
(٧٩) تاريخ الزمان، ص ٨٤.

٢٦ - القائم (٤٢٢ - ١٠٣١/٤٦٧ - ١٠٧٥)

ورث أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله عن سلفه وأبيه القادر عاصمة في حال الفوضى القصوى فضلاً عن بيت المال الفارغ، والعائدات التي تذهب جميعها إلى خزائن الأمراء الفرس. وقد احتاج إلى بيع بعض الأثاث والقصور والحدائق ليتمكّن من تقديم حلوان ارتقائه العرش إلى المرتزقة التّرك.[١]

أمّا ما كان يُفترض أنها عاصمته فقد شهدت، سنة تولّيه بالذات، صراعات مسلّحة بين السنّة والشيعة: فأُحرقت أسواق الكرخ مرّة أخرى، ووقعت معارك بالطرق وبخاصة في سوق الثلاثاء، حيث كان يقيم بعض النصارى. وزاد الطين بلّة أن العيّارين زادوا وكثروا في المدينة وفرضوا الإتاوات على الناس.[٢]

لنلحظ مع ذلك أنّه إذا كانت حال النصارى، كحال غيرهم من السكان، قلقة مهدّدة في بغداد، فأنّ حال الأمن في غيرها من المدن كانت تتبع قوّة الأسر المحلّية المتغلّبة. ولم تكن الحال العامّة شديدة السوء، في المدن على الأقلّ لأننا نشهد في العام ١٠٣١ بعض يعاقبة الرُّها يغادرون المدينة مع غيرهم من «العرب»، لما ملكها الروم، وذلك لأنهم على قول ميخائيل السرياني، «كانوا قد اعتادوا على العرب في اللغة والكتابة»[٣] وانتشروا في البلدات التي وجدوا فيها أبناء ملّتهم، حتى وصلوا إلى تكريت بخاصة (وهذا عكس ما كان قد حصل في العام ٩٩٠/٣٨٠ عندما نزح أثرياء النصارى من تكريت وهجروها إلى ملطية).

شهد العام ١٠٣٧/٤٢٩ إعادة العمل «بالشروط العمرية». عُقد مجلس رسميّ بحضور رئيسي أهل الذمّة الجاثليق إيليا الأوّل ورأس الجالوت اليهودي،

وتعهّد هذان باحترام الاجراءات التمييزيّة وعدم مساواة أنفسهم بالمسلمين،[٤] والامتناع عن إعلاء دُورهم على دُور جيرانهم المسلمين،[٥] الخ. وقد ظلّت القاعدة الأخيرة معمولاً بها ضمنيًا حتى أيامنا هذه،[٦] وذلك فيما يتعلّق مثلاً بقباب النواقيس بالقياس إلى المآذن.

لم يعد للتواريخ وقت للكلام عن النصارى في السنوات التي أعقبت ذلك، بل نجد فيها تناوب الكوارث الطبيعية وروايات النّهب والسطو والسرقات، والغلاء على الجميع:

- في العام ١٠٣١/٤٢٣ ـ ١٠٣٢: غلاء ووباء وجدري مات منه بالموصل أربعة آلاف صبي وأصيب به الخليفة نفسه وسلم.[٧] واشتدّت المجاعة ببغداد والبادية حتى إنَّ البدو أكلوا أولادهم[٨].
- في العام ١٠٣٢/٤٢٤ ـ ١٠٣٣: «ثار العيّارون ببغداد وأخذوا أموال الناس ظاهرًا».[٩]
- في العام ١٠٣٣/٤٢٥ ـ ١٠٣٤: «كثر الموت بالخوانيق في كثير من بلاد العراق والشام والموصل وغيرها».[١٠]
- في العام ١٠٣٤/٤٢٦ ـ ١٠٣٥: عمَّ النّهب البلاد كلّها وكان من أبرز أبطاله الأكراد، «حتى إن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيى فلقيهم أكراد فأخذوا دوابّهم ولم يقدر الخليفة ولا جلال الدولة على ردّهم.[١١] ومع ذلك كان البساسيري قد استُخْلِفَ على حماية الجانب الغربي ببغداد في السنة السابقة[١٢]... والوزراء يتعاقبون[١٣]....
- في العام ١٠٣٦/٤٢٧ ـ ١٠٣٧: احتاج جلال الدولة نفسه إلى الهرب متخفيًّا من الجند الأتراك المتمرّدين، فنهبت داره.[١٤]

إنَّ مسرد المصائب هذا ليعطينا فكرة عن تفكُّك المملكة في السنوات الأخيرة من دولة البويهيين. إلى حوالي هذه الفترة يعزو المؤرّخون، على اختلافهم، ما يسمّونه «ابتداء أمر السلاجقة». فيجعل ابن العبري[١٥] ذلك في العام ١٠٣٦، أمّا

ابن الأثير[16] فيجعله في العام ٤٣٢/١٠٤٠ - ١٠٤١. وإنّما يتعلّق هذا التاريخ ببداية فتوحهم. ولكن، كان لا بدَّ من الانتظار حتى العام ٤٤٧/١٠٥٥، أي خمس عشرة سنة طوالاً ليدخلوا بغداد ويبسطوا الأمن والسلام فيها. حتى ذلك الحين استمرَّ مسلسل الفتن ببغداد وما والاها من البلاد.

في هذه الأثناء لا يذكر النصارى إلاّ في تواريخ تظهر وفيات بعض أهل الفضل منهم من أمثال:

- الفيلسوف والكحّال النسطوري، أبو الحسين البصريّ، تلميذ ابن الطيِّب الذي مات في أيلول ١٠٣٨[17] أي قبل وفاة معلِّمه.

- الفلكي الرياضي أبو الحسين بن سبريشوع المتوفي سنة ٤٣٤/١٠٤٢ - ١٠٤٣.[18]

- الفيلسوف الأرسطوطاليسي، «نظير، ابن سينا»، واللاهوتي القانوني ومفسِّر الكتاب المقدَّس أبو الفرج عبدالله بن الطيِّب الذي مات سنة ٤٣٤/١٠٤٣.[19] يشير ابن العبري إلى أنّه «تطرّف إلى ذمّ جثالقة النساطرة بسبب تغاضيهم عن العلوم البيعيّة وغيرها». ويضيف ابن العبري: «غير أنّه فيها أظنّ لم يكن متضلّعًا من السريانيّة إذ عثرتُ في بعض شروحه على أغلاط»[20] منها سوء قراءته لكلمات من سفر أيوب.

في المحرّم من العام ٤٣٤/ آب ١٠٤٢ اغتصب جلال الدولة بن بهاء الدولة، ملك العراق، ما تحصَّل من مال الجوالي (الجزية) ومنعه من الخليفة القائم. فعظم الأمر على الخليفة وهدَّد بمغادرة بغداد في جماعة الهاشميين والقضاة. ثم اصطلحا على أن يترك البويهي نوّاب الخليفة يحصلون الجزية في السنة الآتية، ٤٣٥/١٠٤٣.[21]

في السنة عينها أسدى الروم (عن غير قصد) خدمة جديدة إلى نصارى الخلافة العباسية، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل لّما نهبوا أهل نصيبين السريان والمسلمين. ففي هذه السنة ثارت في القسطنطينيّة فتنة ألقى أهل البلد تبعتها على «الغرباء» وأشاروا بإبعادهم. فصدر الأمر «فنودي أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ

ثلاثين سنة، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كُحل، فخرج منها أكثر من مئة ألف إنسان ولم يبقَ بها أكثر من اثني عشر نفسًا، ضمنهم الروم». كان لهذا الخبر الذي عرفه المؤرّخون المسلمون[٢٢] أثر طيِّب في العلاقات بين المسلمين والسريان، وصار هؤلاء منذئذٍ متميِّزين عن الروم الذين طردوهم من بينهم. ومنذئذٍ صار الأتهام الذي يطلقه بعض السريان ضدّ بعضهم، بالتعاون مع العدو التقليديّ، يلقى قدرًا أقل من الاكتراث له لدى السلطات المسلمة.

وفي هذه السنة عينها مات السلطان جلال الدولة البويهي في السادس من شعبان ٤٣٥/٢٥ أيلول ١٠٤٤.[٢٣] وكان رجلاً شيعيًّا تقيًّا، «وزار مرّة مشهد علي والحسين، عليهما السلام، وكان يمشي حافيًا قبل أن يصل إلى مشهد كل منهما، نحو فرسخ، يفعل ذلك تديّنًا». وقد خلفه على العراق محي الدين أبو كاليجار[٢٤] الذي كان يملك فارس وكرمان.

ولتوكيد تضامن النساطرة مع المسلمين، نرى الجاثليق ينهي إلى قصر الخليفة في العام ١٠٤٥، كتابًا بلغه من مطران سمرقند ينذره بغزاة وصلوا إلى كاشغر يقودهم سبعة ملوك مع كل منهم سبعمئة ألف فارس. وقد وصف المطران الغزاة بأنّهم «رحماء عادلون». لا تذكر المصادر ما كانت ردّة فعل القصر، ويبدو أنهم لم يكونوا يشعرون بأنّ الخطر وشيك، لأنهم راحوا يتناظرون في العبارة الأخيرة من الكتاب: «وخيلهم تأكل اللحم». ويقدّم ابن العبري الذي يورد الخبر تفسيرًا «علميًا» لذلك.[٢٥]

من ١٠٤٤ إلى ١٠٤٨، كان أمير الأمراء أبو كاليجار يدافع توسُّع السلاجقة بالحرب أو بالتحالفات التي يعقدها. وكانت المجاعة والوباء والغلاء تشكّل لحمة الحياة وسداها ببغداد والموصل،[٢٦] وهذا ما جعل المؤرّخين في شغل شاغل عن النصارى وأخبارهم.

وفي هذه الحقبة، في ١٨ تموز ١٠٤٦ تحديدًا، مات مطران نصيبين، إيليا برشينايا، صاحب التصانيف المشهورة.[٢٧] أمّا علاقاته بالمسلمين، فإن مناظراته بنصيبين مع الوزير أبي القاسم المغربي،[٢٨] سنة ١٠٢٦، تظهر جوّ الاحترام المتبادل

الذي كان يسود بين النخبة المثقّفة النصرانيّة والنخبة المثقّفة المسلمة، وإن كان ثمّة «ثقافتان تتواجهان». [٢٩] وقد استجرأ المطران في كثير من الحذق والدبلوماسية، على أن يقول للوزير أشياء عدّة. إذ لما سأل الوزير إيليا «ألكُم من العلوم مثل ما للمسلمين؟» أجابه: «نعم وزيادة وافرة». قال الوزير: «وما الدليل عليه؟» قال إيليا: «إن عند المسلمين علومًا كثيرة منقولة من السريان وليس عند السريان علم منقول من عند العرب».

بموت أبي كاليجار، الذي كان في طريقه لمنازعة السلاجقة على أرض كرمان، بدأ في جمادى الأولى ٤٤٠/ تشرين الأول ١٠٤٨، حكم آخر أمير أمراء بويهيّ، هو الملك الرحيم، بِكرُ أبي كاليجار.

في السنة عينها غادر بغداد في رمضان ٤٤٠/ آذار ١٠٤٩، الطبيب، المنطقيّ، صاحب التصانيف الكثيرة[٣٠] (الراهب؟) أبو الحسن المختار، المعروف بابن بطلان. [٣١] وكان قد درس على علماء النصارى بالكرخ[٣٢] وبخاصة على ابن الطيّب الذي كان يعدُّه أحسن تلاميذه. إن رواية رحلته التي أرسلها إلى هلال الصابي[٣٣] تعطي تقريرًا ملفتًا للانتباه عن المدن التي اجتاز بها: الرحبة، حلب، أنطاكية، اللاذقية، الخ. وكان شاعرًا أيضًا[٣٤] ونظم كتابًا بعنوان دعوة القسوس. يفترض مع الأسف أنّه مفقود، ولو وصَلنا وكان على شاكلة كتابه دعوة الأطباء لكان فيه هجاء للقسوس وأخلاقهم وكان من شأنه أن يطلعنا على معلومات مفيدة. [٣٥]

إن شكوكه الخمسة التي وجّهها إلى إيليا النصيبيني تكشف عن «عقل متحرِّر ونقديّ جدًا» إلاّ أن لا يتعدى ذلك «اللهو العقلي المجرّد». [٣٦] وقد مات ابن بطلان في دير بأنطاكية سنة ١٠٥٢/٤٤٤، ويُقال إنَّ السُرُج التي أُشعلت على قبره كانت تنطفىء دائمًا...

نجد في أصدقاء ابن بطلان واحدًا من أواخر آل بختيشوع هو أبو سعيد عبيدالله[٣٧] الذي يبدو أنه صحب أباه جبرائيل بن عبدالله لما قدم إلى ميافارقين سنة ١٠٠٠/٣٩٠. وكان طبيبًا هو أيضًا، وله تصانيف عديدة، وقد توفي سنة ١٠٥٨/٤٥٠. ويبدو أنّه لا بدُّ من الفرق بينه وبين الكاتب «الكبير» أبو سعيد

الحارث بن بختيشوع الخازن، الذي عُهِدَ إليه بعمارة بيمارستان ميّافارقين ومسجدها في العام ١٠٢٣/٤١٤.

وبعد أيام قلائل من مغادرة ابن بطلان بغداد مات الجاثليق، إيليا الأوّل في ذي القعدة ٦/٤٤٠ أيار ١٠٤٩، وكان قد فُلج وأُقعِدَ في أخريات حياته. وكانت مدّة جثلقته ٢١ سنة، وكان القائم خليفة منذ ١٠٣١ وظلّ كذلك حتى ١٠٧٥.

يوحنا بن الطرغال

XXIV انتُخب الجاثليق الجديد بعد خلوّ الكرسيّ مدّة سبعة أشهر، ولا علم لنا بتفاصيل المفاوضات التي سبقت الانتخاب. كان يوحنا كاتبًا بغداديًا على ناحية النهروانات وكانت «له معرفة تامّة بصناعة الكتابة». وكان قد ترهّب وعُيِّن أسقفًا منذ واحد وعشرين عامًا على ناحية القصر والنهروانات. ويُظهر انتخابه رغبة الكنيسة، متى خلّيت وما تختار، بأن يدبّرها أهل الاختصاص، أي أناس يعرفون موالج الآلة الإدارية ومخارجها، وبخاصة ما يتعلق بالضرائب والرسوم، ويتمتّعون برصيد من العلاقات الطيّبة بأهل الدواوين التي نشأوا فيها.

تمكّن يوحنا بن الطرغال[٣٨] من القيام بقسم من الزيارات الرسميّة بعد سيامته في رجب ١٧/٤٤١ كانون الأول ١٠٤٩، ولكنه اضطرّ إلى الانتظار ستة أشهر ليتمكّن من الجلوس على الكرسيّ في دير مار فثيون، إلى الجنوب الشرقي من الجانب الغربي ببغداد. ذلك لأن التاريخ يخبرنا بوقوع المزيد من الفتن بين السنّة والشيعة في ذلك العام.[٣٩]

استمرّ صعود السلاجقة الذي كان من شأنه تشجيع السنّة، وتوالت الفتن بين السنّة والشيعة ببغداد، وكان من ضحاياها بعض النصارى أحيانًا. في المحرّم من العام ٤٤٦/ نيسان - أيار ١٠٥٤، ثار المرتزقة الترك لأنهم لم يقبضوا أرزاقهم وراحوا ينهبون المدينة بأسرها. وقد هجمت جماعة منهم، مع من انضمّ إليهم من الأكراد والبدو، على حارة دار الروم حيث نهبوا وأحرقوا قلّية الجاثليق وكنيستها[٤٠] فضلاً عن دار أبي الحسن سعيد بن عبيدالله[٤١] وزير البساسيري التركيّ. ويجدر بنا

أن ننبّه هنا إلى أنّ الاقتصار على قراءة تاريخ ماري ربّما ساقنا إلى الاعتقاد بأن الفتنة كانت موجَّهة ضدّ النصارى على التخصيص لأنهم الوحيدون المذكورون من الضحايا. بينما تبيّن إعادة وضع الأحداث في سياقها أننا أمام حال عامّة. وقد تكفّل أبو الحسن إعادة عمارة القلّية على نفقته الخاصة وبإشراف قهرمانه أبي الفضل بن بهانش وغيره من أعيان الحيّ.(٤٢)

في رمضان ٤٤٧/ كانون الأول ١٠٥٥، أي بعد سنة ونصف، تعرَّضت الأبنية، التي رمِّمت بنفقات عظيمة، إلى هجوم جديد لدى وصول العسكر الخراساني (ويسمِّيهم ابن العبري الغُز)(٤٣) الذي رافق دخول طغرل بك، أوّل السلاجقة إلى بغداد. وبينما ضرب الأمير السلجوقي مضارب عسكره بالقرب من حيّ النصارى بباب الشماسيّة، ثار الترك والديلم الموالون للبويهيين على البساسيري ونهبوا قصره. كانت الأحياء الشرقيّة السنّية في حالة غليان.(٤٤) وقد نهبت القلّية وكرسيّ الجاثليق مرّة أخرى، فهرب يوحنا بن الطرغال إلى دير مار ماري بدور قنّى ثم اضطرّ إلى مفارقته لما صودر الأسكول.

ثمّة خبر هامشيّ عن الصراع مع البساسيري، وقع لما كان هذا الأمير مختبئًا بواسط في ربيع الآخر/ تموز ١٠٥٥، وذلك لما أرسل نصرانيّ من بغداد، يدعى أبو سعد، بالسفينة شحنة من ٦٠٠ جرّة خمرًا، فاعترُض المركبُ وحُجز وكُسِرت الجرار.(٤٥) قد أدّى الحادث إلى «تجدُّد الوحشة» بين البساسيري وبين أبي القاسم علي بن الحسن بن مسلمة الملقَّب برئيس الرؤساء. وقد قبضه البساسيري وعذّبه في العام ٤٥٠/ شباط ١٠٥٩.(٤٦)

في ٢٥ كانون الأول ١٠٥٥، دخل طغرل بك بغداد بفيلته. ولئن كان هذا التاريخ يُعَدُّ بداية لحكم السلاجقة فهذا لا يعني أنّ سيادتهم قد استقرَّت مذّاك بلا معارضة. صحيح أنه قد اعترف بالأمير التركي «سلطانًا» سنة ٤٤٩/١٠٥٨، وأنّ الخليفة (الذي كان بين يديه كتابع لا حول له ولا قوّة)(٤٧) قد خلع عليه لقب «ملك المشرق والمغرب». ولكن البساسيري، الأمير التركي الآخر، استعاد السيطرة على بغداد سنة ٤٥٠/ كانون الأول ١٠٥٨، وألجأ الخليفة إلى قريش بن بدران أمير

بني عقيل بالموصل، وفي الأوّل من كانون الثاني ١٠٥٩، خُطِبَ ببغداد للمنتصر، الخليفة الفاطمي بمصر. ولم يتمكّن القائم من الرجوع إلى العاصمة إلاّ سنة ١٠٥٩ - ١٠٦٠، ولكن كأداة في أيدي السلاجقة.[٤٨]

لم يتمكّن السلاجقة من بسط سيادتهم من غير آلام عظيمة عانت منها المدن والقرى ومن باب أولى الأديرة النائية. ففي دير كامول مثلاً، بالقرب من جزيرة ابن عمر، قتل الغزُّ ١٢٠ راهبًا من أصل أربع مئة كانوا بالدير. وفي سنجار خُرِّب قصر أمير البلد وأحرق الجامع وذبح أربعة آلاف من أهلها، الخ. وقد شهد تلّ أعفر ثم الموصل حروبًا بين عرب البساسيري (المصريين) وترك السلاجقة (الغزّ). وفي العام ١٠٥٨/٤٥٠، خُرِّبت الموصل[٤٩]... كل هذا لم يمنع ابن العبري من أن يكتب «أنّ السلطان كان رجلاً عادلاً»، وهو أمر تجلّى خصوصًا في تخفيف الضرائب.

في جثلقة يوحنا بن الطرغال حاول المحتسب، مرّة أخرى، «وبأمر من الخليفة» القائم أن ينفّذ «الشروط العمرية» سنة ١٠٥٦/٤٤٨ (أي بعد سنة من دخول السلاجقة)، ففرض السّمات المميّزة: الزنّار، العمائم المصبوغة، الخ.

ولكن لما كان للخاتون، زوجة طغرل بك، كاتب يهوديّ، هو أبو علي بن فضلان، فقد حالت دون تنفيذ هذه الاجراءات.[٥٠]

في هذا الصدد، يقدّم جورج مقدسي[٥١] تقويمًا صائبًا لطبيعة العلاقات بين أصحاب السلطة أنفسهم (من خلفاء وسلاطين ووزراء، الخ) الذين يحتاجون إلى مهارات الذمّيين، ولا يتّخذون، بالتالي، اجراءات ضدّهم إلاّ متى اضطرّهم إلى ذلك ضغط الرأي العام، أو ضغط العلماء (من فقهاء، ومحتسبين وقصّاص...) الذين يقودون الشعب ويوجّهون الرأي العام.[٥٢] فبينما يميل المسؤولون إلى حماية الذمّيين لحاجتهم إليهم، يجد العلماء أنفسهم أحرارًا في إبداء النقد، لأنهم لا يخسرون شيئًا إذا حاولوا تأكيد سلطتهم بالضغط على الحكم. كان الموقف من طرف ثالث [أهل الذمّة هنا] تحت ستار المبادىء الشرعيّة، اختبارًا ممتازًا ليروا إلى أيّ مدى يستطيعون الذّهاب في ممارسة الضغط.

إنَّ ما كان يحمي الذمّيين إجمالاً ممّا كان المتعصّبون يطالبون بفرضه عليهم هو دائمًا المكانة التي كان ينعم بها بعضهم لدى الحكّام وحاجة هؤلاء إليهم. وقد رأينا الدور الذي قام به الكتّاب والأطباء ولا يسعنا أن نهمل الدور الذي قام به أيضًا المنجّمون الذين يعدُّهم نظامي عروضي(٥٣) «من ركائز العرش الأربعة، ومن خواصّ الملك ولا غنى للملك عنهم». أمّا المنجّمون فبهم «نظام الأمور» في رأيه.

لم يشتهر إلاّ عدد قليل، نسبيًا، من المنجّمين النصارى.(٥٤) ونجد منهم واحدًا في هذا التاريخ يورد عنه هلال بن إبراهيم الصابي (ت ٤٤٨/١٠٥٦) أخبارًا كثيرة، أنّه أبو بشر يحيى بن سهل السديد، المنجم اليعقوبي التكريتي الذي كان «كثير الرحلة إلى بغداد والاجتماع برؤوسها ومقدّمي أهل الدولة».(٥٥) ولا يمكننا التقليل من دوره في حماية أبناء ملّته.

إلى جانب الكتّاب والأطباء والمنجّمين، كان ثمّة فريق رابع يشارك في تدبير الأمور: إنّهم الشعراء الذين كانوا يخلّدون أسماء الممدوحين. فلا بدَّ للملك من «شاعر جيّد يخلّد ذكره ويروي مآثره في دواوين الشعر والكتب الأخرى».(٥٦) ويورد نظامي عروضي لوائح بشعراء كلّ أسرة حاكمة ولا سيّما البويهيين والسلاجقة.(٥٧) ويبدو أنَّ لا ذكر لأحد من النصارى في هذه اللوائح.

ولكن لا بدَّ للمؤرّخ من سبر المصادر الأدبية البحت وإن جاء هذا السبر بخيبات الأمل في معظم الأحيان.(٥٨) من ذلك أنَّ بعض القصائد تحتوي على إشارات إلى عصرها، كالحروب بين الروم والعرب في شعر المتنبي(٥٩) وأبي تمّام(٦٠) والبحتري(٦١) وأبي فراس.(٦٢) وإن دراسات M. CANARD حول الأهمّيّة التاريخيّة لهذه القصائد لجديرة بأن يُقتدى بها في دراسة شعراء آخرين. وربّما لم يصلنا اسم بعض الأمراء إلاّ عن طريق قصيدة مدح نظمها فيه أحد الشعراء.(٦٣)

لم يبقَ لنا من أسماء شعراء النصارى في تلك الحقبة إلاّ اسم شاعر واحد، فيما يبدو، هو عون الرّاهب،(٦٤) المذكور قبل العام ٤٥٣/١٠٦١.

أخيرًا تمكّن الجاثليق يوحنا بن الطرغال من العودة إلى بغداد والإقامة بدار الروم من بعدما جدّدت عمارتها. إلاّ أنّه اعتلّ بعد سنتين من عودته ومات يوم

الأحد السادس من صيف ١٠٥٧/٤٤٩. عندئذٍ بدأت فترة من خلوّ الكرسيّ طويلة. وفي تلك الفترة، أي سنة ١٠٥٨/٤٥٠، جرت محاولة جديدة لفرض القيود على الذمّيين. هذه المرّة، كان السبب (أو الذريعة) معروفًا: وهو أنهم كانوا يشتطّون في سلوكهم العلنيّ بشكل يثير حفيظة المسلمين المتشدّدين. ذلك أنَّ جماعة من هؤلاء، هم الهاشميون المعروفون «بأصحاب عبد الصمد»،[٦٥] وقد صادفناهم من قبل، انتدبوا ممثلاً لهم هو ابن السكّرة ليذكّر ابن مسلم، وزير الخليفة القائم، بالتزاماته «الشرعيّة» في هذا الشأن. فما كان من الوزير، الذي ساءه الطلب، إلاّ أن نصح لرئيسيّ ديوانه أبي علي بن فضلان اليهودي، الذي عرفناه، وابن الموصلايا النصرانيّ (الذي سنتكلّم عنه من بعد طويلاً بأن لا يحضرا إلى الديوان، وأن يلزما داريهما، وبأن يعلما من والاهما من النصارى واليهود، من تجّار وصيارفة وصنّاع بالإضراب عن العمل، إلاّ أن الخليفة تدخّل بعد مدّة وأمر وزيره باستدعاء الذمّيين إلى العمل،[٦٦] ولم تُستبقَ القيود، كما لاحظ جورج مقدسي، نظرًا إلى قلّة اهتمام الخليفة والسلطان وأعوانهما بها.

أسلم بعض النصارى في خلافة القائم أيضًا. وقد عبَّر أبو العلاء المعرّي (ت ٤٤٩/ ١٠٥٧) معاصر القائم، عن ارتيابه من أسباب إسلام هؤلاء.[٦٧] وهاك ما يقول فيهم:[٦٨]

قد أسلمَ الرجلُ النصرانُ مرتغبًا ... وليس ذلك من حبٍّ لإسلامِ
وإنما رامَ عزًّا في معيشته ... أو خاف ضربة ماضي الحدِّ قلاّمِ
أو شاءَ تزويجَ مثل الظبي، مُعلَمَةٍ ... للناظرين بأسوارٍ وعُلاّمِ[٦٩]

لنلحظ إشارة الشاعر إلى الخوف من السيف، فضلاً عن إشارته إلى المزايا الاجتماعية (كالمكانة وتزوّج مسلمة حسناء). ربّما كانت الاضطهادات الدامية قليلة، إلاّ أنّ الشاعر لا يستبعد ذلك الاحتمال.

سبريشوع زنبور

XXV تأخّر انتخاب خلف ليوحنا بن الطرغال (ت. صيف ١٠٥٧) بسبب

صعود السلاجقة، أسياد الوقت الجدد. كان أبو العلاء أوجين أسقف النعمانيّة ناطر كرسيّ الجثلقة قد اختفى بعد ثلاث سنوات من النطارة، وذلك لدى دخول عسكر الخراسانيّة بغداد مع طغرل بك، ثم وجد بعد ذلك عاريًا جريحًا. ثم كان هرب الخليفة إلى عانة والخطبة للفاطميين ببغداد. ولما استطاع ماري أسقف نِفّر والنيل، المجيء إلى القلّية، كان أبناء الرعيّة قد شرعوا في تجديد عمارة الكنيسة، أمّا مقرّ الجاثليق فكان قد أفرغ مما كان فيه من أثاث وخلافه.

توصّل العلمانيون من أصحاب النفوذ آنئذٍ (سنرى عن قليل من هم) إلى الحصول، من غير انتخاب، على توقيع الخليفة بتعيين سبريشوع زنبور،[٧٠] مطران جنديسابور، جاثليقًا.

ولّما عاد الخليفة القائم إلى بغداد، كان الجاثليق المعيّن في صحبته وأعيان النصارى. وقد امتنع الأباء المسيمون عن الاعتراف بشرعيّة هذا الجاثليق الذي لم ينتخب بحسب أصول القانون الكنسيّ، فأمرهم السلطان بالامتثال. فامتثلوا إذن، وتسلّموا من الوزير أبي الفضل منصور بن أحمد بن دارست[٧١] الإذن بمباشرة السيامة، فسيم الجاثليق في ٣ آب سنة ١٠٦١.

إن فصول تعيين سبريشوع، الجاثليق المفروض، بين سنتي ١٠٥٨ و١٠٦١، لتتيح لنا التبصّر في الرصيد الذي لم يزل للعلمانيين النصارى لدى أصحاب السلطة في ذلك الوقت. كان أبرز هؤلاء النصارى يتحدّرون من أسر أصفهانيّة الأصل: وأوّلهم الطبيب رجاء، وثانيهم أبو سعيد، الذي كان في رتبة عميد[٧٢] والذي كانت داره على نهر المعلّى، وثالثهم أبو علي منصور بن عيسى بن مار سرجيس، الذي نجده يقوم بالوساطات للجاثليق أو يصحبه في زيارة الأكابر... من غير أن نستطيع (مع الأسف) أن نذكر المزيد عنهم.

لا يعرف الكثير عن جثلقة سبريشوع التي دامت عشر سنوات وبضعة أشهر (١٠٦١ - ١٠٧٢). «... وعمّرت القلاّية في أيامه بالرّحل والآلة وقامت هيبة الجثلقة بينها (؟) على المطارنة والأساقفة والشعب».

وقد اختلف الجاثليق يومًا مع رعيّته بسبب رئيس الشمامسة، ثم لّما تمكّن،

بعد سنتين من الاستغناء عن خدماته استعاض عنه بكاتبين، كاتب للرسائل السريانية وكاتب للعربية. إلاّ أنّ صاحب المنتظم[٧٣] يذكر، في العام ١٠٦٧/٤٥٩، وبمناسبة بناء قبّة جديدة على قبر أبي حنيفة ببغداد، أن «ساجه وأبوابه غصب من بعض بيع سامراء». وإنّ هذا لمما يلفت الانتباه، لأنه من الإشارات المباشرة القليلة إلى وجود عدّة كنائس بسامراء (حسب العبارة المستعملة هنا). وليس في هذا الأمر ما يدهش لأننا قد نبّهنا لدى الكلام عن عصر المتوكّل إلى وجود قساوسة وشمامسة بالمدينة فضلاً عن إقامة الجاثليق فيها فترة من الزمن، ولا نعلم باسم أي القديسين كانت هذه الكنائس، كما لا نعلم هل كان بالمدينة طوائف أخرى غير النساطرة أم لا.

العلاقات بين الطوائف النصرانية

وقعت في ربيع الآخر ٤٦١/ شباط ١٠٦٩، بين جاثليق النساطرة وبين يعاقبة بغداد خصومة كان لها ما بعدها في المدينة، على ما يظهر، بدليل أنّ رجلاً مسلمًا اسمه أبو علي ابن البنّا (ت ١٠٧٨/٤٧١ ـ ١٠٧٩) يأتي على ذكرها في «يوميّاته»[٧٤].

أمّا سبب الخصومة فهو أنّ طبيبًا نسطوريًا، يدعى أبو غالب، زوّج ابنته من ابن رجل من اليعاقبة يدعى أبو طاهر البلدي، (من بَلَد إلى الغرب من الموصل) وذلك خلافًا لتقاليد اليعاقبة في علاقتهم بالنساطرة.

إن الخطة التي اتّبعها كلّ من الفريقين في هذه القضيّة بالذات جديرة بالاهتمام. لّما استُدعي القسّ[٧٥] هبة توما المسؤول عن الطائفة اليعقوبية ليحاسب أمام الجاثليق عن هذه المخالفة قال: «نحن رئيسان لشعبين وبيعتين» أي أنّ كل واحد منّا سيّد على جماعته. ثمّ لّما أقرّ بأنّه ربّما بدرت منه مخالفة أضاف أنّه «إذا كان متعديًا في ذلك، وأخذ ما ليس له بحقّ فالذي حمله على ذلك جهله وسوء طباعه، لأنه كان رجلاً فظًا تكريتيًا وأصغى [لرجل] قورلسي المذهب» أي ملكاني في أرجح الظنّ. إلاّ أنّ سبريشوع لم يرضَ عن الحجّة بل أراد اعتذارًا رسميًا علنيًا. ومن أجل التوصّل إلى ما أراد دعا أبناء رعيّته إلى الإضراب العام: فلم يذهب الكتّاب

إلى الدواوين ولا الأطبّاء إلى البيمارستانات ولا التجّار إلى المتاجر، الخ، وذلك ليستدرج السلطات الإسلامية إلى التدخُّل.

أمّا الطبيب أبو غالب النسطوري والد الفتاة، فقد حرمه الجاثليق وأحلّ لسلطان المسلمين مصادرة أمواله.

انهمكت الدواوين المختصّة، فاستخرجت المناشير التي كتبها المقتدر لإبراهيم الثالث سنة ٩١٣، والقادر ليوانيس سنة ١٠٠٣ ـ ١٠٠٤، وأخرج توقيع مماثل لها إلى سبريشوع «يضمن دخول زعيم اليعاقبة والملكانيّة في طاعته والائتمار له».

أمّا المحرّض على المخالفة، الرجل الملكاني «الجاهل الهرطيق المتعدّي طوره» فقد أمر بالمثول بين يديّ الجاثليق، مصحوبًا بزوجته ورفاقه اليعاقبة، لتقديم الاعتذار. وجرى الاعتذار العلني في بعض أيام الصوم الكبير: اجتمع زعماء النساطرة جميعًا ومعهم «المشايخ المؤمنون» في مقرّ الجثلقة ومثل الجناة في حضرة الحبر، فألقى عليهم سبريشوع عِظةً أعاد فيها الأمور إلى نصابها.

أمّا هبة القسّ اليعقوبي المسكين الذي عقد القِران، فقد أمضى الليل تحت الحراسة في بيت مار ماري بدار الروم من بعدما جاؤوا له بشمعة وطعام، فلم يأكل بل قال بتواضع: «لا طريق إلى أخذ الغذاء دون أن يقع الرضا عنّي». وفي الغد من ذلك اليوم أُدخل إلى حضرة الجاثليق واعتذر فقبل منه العذر وأذن له بالمغادرة.

ولّما خرج من قلّية الجاثليق قاصدًا كنيسته التي كانت، كما هو معلوم، على مقربة من ذلك الموضع قبض عليه رجال الأمير ايتكين السليماني.[٧٦] فتفضّل الجاثليق سبريشوع وقصد دار هذا الأمير وحصل منه على أمر بالإفراج عن القسّ المذلول.

ويلوح أنّ ماري المؤرّخ يجد علاقة سببيّة بين انزعاج الجاثليق من هذه القضيّة وبين الفالج الذي ألمّ به بُعَيد ذلك. والحقيقة أنّ الحبر قد تعرّض لصدمة أخرى مؤرّخة بدقّة في ١٠ رجب ٤٦١/٥ أيار ١٠٦٩، نجد خبرها في يوميّات ابن البنّا.[٧٧] ذلك أنّه بينما كان يجتاز بموضع يعرف بالتوثة هوجم، من دون أن يذكر مهاجموه، وأُلقي عن بغلته وأوشك أن يُقتل. إلاّ أنّ الحاجب أنفذ الأمر «بالكفّ

عنه»، وهذا يوحي بأنه كان محتجزًا في موضع ما قبل أن يُقتل. وقد نُهبت بعض دور النصارى في عملية السطو هذه.

ظلَّ سبريشوع زنبور مدّة شهرين يعاني من الفالج النصفي ثم ظلّ شهرين آخرين «باطلاً» إلاّ أنه يحسّ ولا يمكنه الكلام إلى أن توفّي في رجب ١٧/٤٦٤ نيسان ١٠٧٢، ثم انقضى عامان وسبعة أشهر قبل سيامة خَلَفه.

عبد ايشوع بن العارض

XXVI كان أبو الفضل عبد ايشوع بن العارض الموصلي،[٧٨]، مطران نصيبين، غائبًا لما انتخبه أربعة أساقفة والتمسوا من الخليفة الإذن بسيامته. تأخّر الجواب عن هذا الالتماس كما أنّ الجاثليق المنتخب لم يتمكّن من الحضور لأنه كان بميافارقين وكانت المدينة تحت حصار الأتراك.

وفي الفترة التي انقضت بين الانتخاب والرسامة، زادت دجلة زيادة عظيمة في شباط ١٠٧٤، فانخرقت إحدى حافتي نهر القرج بباب الشماسيّة فوق دار الروم. وانضافت إلى ذلك أمطار جارفة حتى «جاء الماء إلى المنازل من فوق» وصعد، على ما ترويه الأخبار، من أبواب الدور والآبار والبلاليع. فهلك خلق كثير وانهدّت دور كثيرة. «ومن عجيب ما يحكى أنّ الناس، في العام الماضي، كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور» التي تلكأت السلطات في قطع أسبابها على الرّغم من شكوى الصالحين الذين لازموا الدُّعاء إلى الله بكشف البلاء فأجابهم بإغراق الخمّارات.[٧٩]

وقد أكثر النساطرة من الابتهالات والسهر في طلب شفاعة السيّدة مريم العذراء، شفيعة كنيستهم. أمّا الخليفة الذي رأى الماء يصعد تحت سريره، والذي اضطرّ إلى مغادرة مخدعه على ظهر بعض الخدم فقد قام «يتضرّع ويصلّي، وعليه البردة وبيده القضيب». وأمّا قلّية الجاثليق فلم تستحق، فيما يبدو، العقوبة السماويّة لأن الماء توقّف على بُعد مئتي ذراع منها.[٨٠] جمع البلاء الأسد والثور كأخوين في الجزيرات الناجية، على قول ابن العبري. ويجوز لنا الظنّ أنّ طوائف بغداد المتخاصمة والمتحاربة عادة قد تهادنت لمدافعة البلاء.

أمّا الجاثليق المنتخب فقد «خرج الإذن الشريف بيديّ محمد بن علي المكنّى أبا الفضل إلى العزيز أبي نصر محمد بن جُهير الملقّب بفخر الدولة»، بأن يتوجّه إلى المدائن للرّسامة. وفي الوقت نفسه، أمر العلاء بن الحسن بن مُوصلايا بإنشاء عهد الجاثليق، ففعل في ٢٨ ربيع الأول ٤٦٧/٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤. وسوف نتفحّص عن قليل مضمون أمثال هذا العهد.

بعد الرسامة، وفي كانون الثاني ١٠٧٥، فيما يبدو، أصعد عبديشوع إلى بغداد في موكب شرف يقوده سعد الله جوهر، ابن والي بغداد.

وبعد ثلاثة أشهر من رسامة الجاثليق، على قول ماري، أي في شعبان ٤٦٧/ نيسان ١٠٧٥[٨١] توفي الخليفة القائم عن ٧٥ سنة. وقد اختصر ابن العبري تأبينه بجملة واحدة إذ قال إنه «كان أصفر اللون بسبب إكثاره من أكل الباليون».[٨٢]

عهد الجاثليق

كان زعماء ملّة النصارى يدّعون أنّه لم يزل في أيديهم عهود ذمّة[٨٣] منذ أوائل الإسلام. وقد رأينا سابقًا أنّ العهد[٨٤] الذي كتب لإبراهيم الثالث سنة ٩١٣ يحدّد علاقة تراتبيّة جديدة فيما يبدو، بين طوائف النصرانيّة: ففي نصّه أن جاثليق النساطرة مقدّم على غيره من الملكانيّة واليعاقبة في دار الإسلام.

لا أودّ العودة إلى ما أُقِرَّ للجاثليق من حقوق على طائفته. فكل مرّة تقتطف نصوص من هذه العهود ويستشهد بها نجد أن المقتطفات «اللائقة» هي التي يُلفت إليها الانتباه[٨٥] عادة. ولكن هل تعبّر هذه الجمل المنتزعة من سياقها (والتي يستعملها النصارى المحدثون ليشعروا بالأمان في علاقتهم بالمسلمين، ويذكّروا هؤلاء بلطف أجدادهم) عن معنى الوثيقة كلّها بدقّة؟

لنفحص النموذج الذي وضعه القلقشندي بين يديّ كتّاب المستقبل.[٨٦] إنّه النصّ عينه الذي كتبه لعبديشوع بن العارض الكاتب النصرانيّ العلاء بن موصلايا بأمر من الخليفة القائم في ٢٨ ربيع الأوّل ٤٦٧/٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤.

يمهّد للنصّ بثلاث فقرات من النثر المسجّع تبدأ كلّ منها بالحمدلة. يحمد الله

أوّلاً لذاته ثم يحمد على الإسلام الذي «اختاره دينًا وارتضاه، وعلى إرساله رسوله محمدًا بالحق» وأخيرًا على الخليفة الذي استخلصه أميرًا للمؤمنين وأعزّه بالإمامة على العالمين.

ويلحظ في تضاعيف النصّ أيضًا تحميل الجاثليق المسؤولية عن مراعاة أهل ملّته «الشروط المعتادة» والرسوم الشرعيّة عملاً بما سنّه «الأئمة الماضون والخلفاء الراشدون.. مع [أمثاله] من الجثالقة الذين سبقوا»... وإذا لم يشأ هؤلاء القيام بهذه المهمّات فأمامهم خيار آخر: إنّه اعتناق الإسلام.

بعد ذلك يذكّر الجاثليق بوجوب تسديد الجزية مرّة كل سنة. إنّه إذن شرعة تكافؤ الواجبات فيها الحقوق وتنوف عليها. إنه وثيقة تسامح، إلى أن تكون تثبيتًا لوضع التبعيّة هي أقرب منها إلى الاعتراف الرسميّ.(٨٧) ومع تزايد الميل إلى التشدّد في المجتمع الإسلامي، تزايد بروز هذه السّمة. فمن ذلك أنّ القلقشندي يوضح، قبل إيراد هذا النموذج، المرامي التي كان يرمي إليها النصّ في أوائل القرن الخامس عشر وبخاصة الفقرات التمهيديّة منه: «ثم يُقال أمّا بعد فالحمد لله ويؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميدات أن قصد المبالغة في قهر أهل الذمّة بدخولهم تحت ذمّة الإسلام وانقيادهم إليه».

بقيّة النصّ معروفة وتقسم إلى ثلاثة رؤوس: اختصاص أمير المؤمنين رعاياه، ومنهم أهل ذمّته، بالعناية والحياطة، ثم كيف أنهي إلى الخليفة طلب الإذن بترتيب فلان جاثليقًا، وأخيرًا تأتي النصائح بالمواظبة على الطاعة وتجنّب التقصير.

في «المؤلفين الذمّيين»

على هامش نهاية حكم القائم، نشير إلى خبر قاتم يرد من أطراف المملكة سنة ١٠٧٥. ففي الجواب على رسالة اخرسطودولو بطريرك الاسكندرية، يردّد يوحنا بن شوشان بطريرك اليعاقبة أصداء شكوى مكاتبه قائلاً: «أصابنا الغمّ الكثير من كثرة ضيق التجارب. وكلّ ذلك من كثرة خطايانا، تسلّط العدوّ علينا وصار يحاربنا بأقوى المحاربة. وقولكم على ما أصاب رعيّتكم الأبويّة كذلك رعيّتنا

المسيحيّة. طردونا وإيّاكم عن المساكن الأرضيّة. فنقول عرايا خلقنا في البريّة كذلك نخرج منها كالكلمة النبويّة والبشارة الإنجيليّة الرسوليّة، لأن ماذا هو ربحنا بهذا العالم نحن متعلّقون بالحقيقة... من الآن ليس همّنا على الغنيات بل على غلق الكنائس المضيئات. فآه لو خرجنا كما عبرنا فكان يحيط علومكم الأبويّة أن ضرباتنا كلّها سويّة. والمؤمنون في كلّ النواحي انتهبوا وقتلوا وأسروا كلّ هذا من كثرة ذنوبنا». [٨٨]

هل يجب اتّهام البطريرك وغيره من «المؤلّفين الذمّيين» بالميل عادة «إلى التعبير على نحو لا يخلو من المبالغة عن آلام وآمال بني ملّتهم؟» هل يجب لذلك اتّهامهم «بالانحياز؟» [٨٩] من الجليّ، كما يلاحظ فاروق عمر، [٩٠] أنّ هؤلاء المؤلّفين «لم يكن في مقدورهم أن ينظروا إلى تاريخ دولة الإسلام إلاّ من وجهة مباينة لتلك التي كان ينظر منها المؤلّفون المسلمون». ولكن هل يجب لذلك أن نحطّ، بصورة آليّة، من قيمة شهاداتهم، علمًا بأن ذلك التاريخ كان حياتهم؟

على أيّة حال لا أستطيع أن أقبل من J.B. Segal حكمه القطعي إذ يقول: «لا يمكننا الاعتماد على رواية هؤلاء المؤرِّخين (السريان) لأحداث عصرهم الجلّي في الحقبة الإسلامية. فقد كانوا يعيشون الحياة المنعزلة التي تعيشها طائفة أقلّية يحجبها عن قصور الملوك والأمراء شعور بالدونيّة السياسية، حياة جمهور مشاهدين ممتثل وغير مهتمّ بمجرى الأحداث (بل خائب الرجاء منها)....» [٩١] إنّ كل ما سقناه عن الكتّاب والأطباء النصارى في قصور الكبار، وعن لقاءات أحبار النصارى «الملوك والأمراء» يدحض هذا الزعم. [٩٢]

الحواشي

(١) تاريخ الزمان، ص ٨٤.

(٢) الكامل، ج ٩، ص ٤١٨ - ٤٢١. - يعتبر هنري لاوست في مقالته Les agitations religieuses الفترة الممتدّة من بداية خلافة القادر ٣٨١/٩٩١ حتى موت ملكشاه (٤٨٥/١٠٩٢) «فترة انتقاليّة سواء على الصعيد الدينيّ أو السياسيّ». انظر للكاتب تاريخًا مختصرًا للفتن في كتابه عن ابن بطّة العكبري، الحاشية ٢١٣.

(٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٨٠.
(٤) إبن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٩٦ـ ٩٧.
(٥) الماوردي، تحقيق ENGER، ص ٤٢٨. ـ يلفت متز النظر، ج ١، ص ١٠٤، إلى أنّ البابا اينوسنت الثالث وقف في العام ١٢٠٥ موقفًا مشابهًا في شأن محفل لليهود بمدينة سانس كان يعلو على كنيسة مجاورة.
(٦) عن استمرار القوانين المتعلّقة ببناء الكنائس في عهد العثمانيّين وفي القانون الإداريّ المصريّ، انظر Le lien (Le Caire) XVII (1952) et XVIII (1953) par Joseph CASSIS.
(٧) الكامل، ج ٩، ص ٤٢٦.
(٨) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٨٥.
(٩) الكامل، ج ٩، ص ٤٣٢.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٤٣٩. ـ في هذه السنة عينها قدم البطريرك السريانيّ، ديونيسيوس، هاربًا من بلاد «المراطقة» أي الملكانيّين البيزنطيّين ليسكن «ببلاد المسلمين» في آمد (ديار بكر) أوّلاً ثمّ في دير مار حنانيا بماردين، الرهاوي المجهول، ص ٢١٦.
(١١) الكامل، ج ٩، ص ٤٤٠.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٧.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٣.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٦.
(١٥) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٨٦.
(١٦) الكامل، ج ٩، ص ٤٧٣.
(١٧) **Islamochrstiana, 2,** (1976), p. 202-203. Edition de M. HAYEK, Ammar al-Basri, **Apologie et controverses,** Coll. Recherches, Beyrouth, 1978.
(١٨) إبن الجوزي، ج ٨، ص ١٦.
(١٩) **Islamochristiana,** 2, (1976), p. 203-208.
(٢٠) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩٤.
(٢١) الكامل، ج ٩، ص ٥١١.
(٢٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٥.
(٢٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٦.
(٢٤) E.I.[2], I. p. 135-136, par H. BOWEN, s.v.
(٢٥) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩٥ـ ٩٦.
(٢٦) الكامل، ج ٩، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢، ٥٥٢. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩٦.
(٢٧) **Islamochristiana,** 3 (1977). p. 257-284، يسمّيه صليبا، ص ٩٩: «القدّيس».
(٢٨) عن الناحية اللاهوتيّة انظر دراسة المطران عمانوئيل كريم دلّي في فهرس المراجع.

(٢٩) سمير خليل في .Mélanges de l'Université Saint Joseph (Beyrouth) XLIX (1975-1976), Mélanges offerts au P. Henri Fleisch, vol II, p. 617-650، مجـلّة المشرق، ج ٢٠، (١٩٢٢)، ص ٣٦٦.

(٣٠) أنظر نصائحه لمعرفة شراء العبيد في «رسالته في شراء الرقيق وتقليب العبيد»، تحقيق عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات، ج ٤، القاهرة، ١٩٥٤. ـ يذكر أسامة بن منقذ (١٠٩٥ ـ ١١٨٨) في كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتّي، برنستون، ١٩٣٠) ص ١٨٣ ـ ١٨٥، بعضًا من «عجائبه» بحلب.

(٣١) GCAL, II, p. 191-194، ابن القفطي، ص ١٩٢ ـ ٢٠٨، ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٨.

(٣٢) ونجد رجلاً روميًا، هو ابن اصطفانوس، يأتي إلى العراق ليدرس الأدب والفلسفة، شيخو، شعراء، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٣٣) إبن القفطي، ص ١٩٣ ـ ١٩٥، ويذكر سعيد بن شمّاس هذه الرحلة، شيخو، شعراء، ص ٢٧٨.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٧ و٣٩٢.

(٣٥) J. SCHACHT, dans E.I.², II, p. 371, s.v.

(٣٦) سمير خليل في Islamochristiana, 3, (1977), no. 15, p. 276-277

(٣٧) عبد الرقيب يوسف، المرجع المذكور، ص ١١ ـ ١٤. وللكاتب نفسه: عبيدالله بن بختيشوع وكتابه «منافع الحيوان» مجلّة مجمع اللغة السريانيّة، ج ٣ (١٩٧٧) ص ٣٣١ ـ ٣٤٩.

(٣٨) ماري، ص ١١٩ ـ ١٢١، صليبا، ص ٩٩ ـ ١٠٠، ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٠٠.

(٣٩) الكامل، ج ٩، ص ٥٦١.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

(٤١) الذي نراه، في ماري، يناصر رئيس شمامسة من المدائنيّين ضدّ نصارى آخرين من العباديّين.

(٤٢) وقد أسلم في رمضان ١٠٥٤/٤٤٦ هربًا من التعذيب بأمر الوزير ابن المسلم. ولكنه عُذِّب مع ذلك في الشهر التالي بأمر من الكندري وزير طغرل بك، مرآة الزمان، الورقة ١٤ ب ـ ١٧ ب. المنتظم، ج ٨، ص ١٧٣، مذكور في G. MAKDISI, Ibn'Aqil p.95

(٤٣) تاريخ الزمان، ص ٩٩.

(٤٤) ماري، في الموضع المذكور، الكامل، ج ٩، ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٤٥) الكامل، الموضع نفسه. ـ وقد قاد العمليّة الشريف أبو عليّ بن سكرة، أحد أقرباء الخليفة وأحد أشهر أنصار الحنابلة ببغداد. وقد آزره على ذلك أتباع الداعية السنّيّ المعروف عبد الصمد المتوفّى سنة ٣٩٧؛ Henri LAOUST, Mawardi, p. 88

(٤٦) الكامل، ج ٩، ص ٦٤٤، كان نائب وزير الخليفة منذ سنة ٤٣٧. المصدر نفسه، ص ٥٣٠.

(٤٧) CAHEN, **Baghdad au temps de ses derniers califes,** p. 293.

(٤٨) **E.I.[1], II, p. 683, par K.V. ZETTERSTEEN, s.v. al-Ka'im**

(٤٩) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٠٣.

(٥٠) المنتظم، ج ٨، ص ١٧١. البداية، ج ١٢، ص ٦٩. يؤكّد نظام الملك، ص ٣٧١، أنّه لم يكن في عهود العمّال التي كتبها طغرل بك وخلفه ألب أرسلان، أي حتّى ١٠٧٢/٤٦٣، أسماء نصارى، ولا في عهود ملوك غزنة محمود ومسعود، أي للفترة ٣٨٨ - ٩٩٨/٤٣٢ - ١٠٤٠.

(٥١) **Ibn 'Aqil,** p. 154-157

(٥٢) يلحظ P. RONDOT، ص ١٣٣ «أنّ الرأي العام الذي غالبًا ما يُظنّ أنّه معدوم في بلاد الإسلام، كان يملي، أحيانًا، ما يريد على السلطة التي كان جشعها أو أنانيّتها ينسجمان تمامًا مع استخدام النصارى».

(٥٣) المصدر المذكور، ص ٣٣.

(٥٤) لا نستطيع التأريخ للكاتب النصرانيّ عليّ بن عليّ الذي يعترض البيرونيّ على نظريّاته الفلكيّة (الآثار، ص ٢٦٩)، أي قبل العام ١٠٠٠ - عن الفلكيّين النصارى، انظر **Bulletin d'arabe chrétien** (Louvain) V. 1-3 (1981), p. 39, 182-186

(٥٥) إبن القفطي، ص ٢٣٩، وقد قتله عليّ بن منيع قرواش العقيلي أمير الموصل، أي قبل سنة ١٠٥٢.

(٥٦) نظامي عروضي، ص ٣٥.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٥٨) أنظر أطروحة نشأت الخطيب: **Etude historique de l'époque abbaside à travers le Kitab al-Aghani,** Paris — Sorbonne, 1975.

(٥٩) في: **Byzance et les Arabes, II,** Bruxelles, 1950, p. 304-348

(٦٠) ABDUL-HAQ, **Abu Tammam,** p. 26-41, et **Historical Poems,** cit

(٦١) **Byzance et les Arabes,** I, 1935, Appendice I, p. 397-408.

(٦٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٧٠.

(٦٣) أنظر مثال ذلك في نظامي عروضي، ص ٨٩. - وإن الوهم ليذهب إلى حكاية الغراب والثعلب عندما نقرأ الصيغ المتكلّفة التي كانت تستعمل في مدح أمراء أجلاف لا يفقهون نصف ما يقال لهم، في أغلب الظنّ. فمن ذلك أنّ أميرًا تركيًّا من أمراء الموصل اسمه زين الدين أجاب، حوالى العام ١١٥٠، شويعرًا امتدحه، فقال: «إنّي لم أفهم ما قلتَ ولكنّي عرفتُ أنّك تطلب شيئًا ثم أمر له بصلة»، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٠. يقارن

G. WIET في كتابه Soieries Persanes، ص ٢٠٢، دور الشعراء المدّاحين بدور الصحافة اليوم.

(٦٤) شيخو، شعراء، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، ٣٩٣.

(٦٥) المنتظم، ج ٨، ص ٢٧٢.

(٦٦) المنتظم، ج ٨، ص ١٩٠.

(٦٧) وهو يتكلّم عن مشاهداته في ناحية معرّة النعمان بالشام (بين حلب وحماه) في ظلّ بني مرداس حكّام الوقت، ويلوح لي أن ليس في تعميم حكمه تعسُّفًا. ولا بدَّ لنا من أن نتذكّر أنّ أعمى المعرّة كان يزدري نفاق أهل ملّته أيضًا. ـ عن النصرانيّة والنصارى في أعمال المعرّي، أنظر الجندي، ص ١٩٧، ١٤١٠ ـ ١٤١٦، ١٥٢١. ـ عن لقاء المعرّي راهبًا بدير الفاروس بالقرب من اللاذقيّة، انظر Bibliographie critique بقلم مصطفى سالم في B.E.O. XXII (1969), p. 133-204, et XXIII (1970), p. 197-279, no. 53, 88, 489 والرقم ١٥٩، عن موقف المعرّي من الأديان كلّها. ونجد على العكس من ذلك رجلاً مسلمًا يتنصّر من أجل فتاة روميّة بصقت في وجهه، القليوبي، كتاب حكايات وغرائب تحقيق LEES، كلكتا، ١٨٥٦، الحكاية رقم ٢٠٥، ص ٢٠٥.

(٦٨) اللزوميّات، دار صادر، بيروت، ١٩٦١، ج ٢، ص ٤٥٧.

(٦٩) وإنّنا لنذكر أسباب اعتناق الإسلام التي عدّدها حنين بن إسحق، ولكن الشاعر هنا مسلم كعليّ بن ربّن الطبري الذي أسلم وألمح، هو أيضًا، إلى أسباب مماثلة.

(٧٠) ماري، ص ١٢١ ـ ١٢٦. صليبا، ص ١٠٠ ـ ١٠١. إبن العبري، ج ٢، العمود ٣٠٢.

(٧١) يصحّح الاسم في ماري، بتحقيق جيسموندي، الذي يضع كارست. كان دارست قد وزّر من سنة ١٠٦١/٤٥٣ حتّى وفاته سنة ١٠٧٥/٤٦٨ ـ ١٠٧٦، الكامل، ج ١٠، ص ١٤، ١٠١ E.I.², Supplément p. 384 بقلم C.E. BOSWORTH. كذلك يجب أن يقرأ الفيني بدلاً من القاني في ماري ص ١٢٣، س. ٣ وذلك حسب الكامل، ج ١٠، ص ٢٥، ٢٧.

(٧٢) راجع Cl. CAHEN, E.I.², I, P. 446، وحسين أمين في مقاله: «نظام الحكم في العصر السلجوقيّ»، مجلّة سومر، (بغداد) ٢٠ (١٩٦٤)، ص ٢٠٩ ـ ٢٢٦.

(٧٣) ج ٨، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦. وينتقد ابن عقيل بناة القبّة لا على ظلمهم فحسب بل على نفاقهم وريائهم: «فما عند هؤلاء من الدين خبَر»، على قوله.

(٧٤) جورج المقدسي، ابن البنّا، ج ١٩، ص ٤٣.

(٧٥) لم يكن قد صار أسقفًا بعد. ويسمّيه ماري زعيمًا. والأغلب أن يسمّى رئيسًا لو كان من أعيان العلمانيّين.

(٧٦) عامل بغداد من قبل ألب أرسلان وبنت الخليفة من ١٠٦٤/٤٥٦ إلى ربيع الأوّل سنة ٤٦٤/ آخر ١٠٧١. الكامل، ج ١٠، ص ٣٥، ٧٠، إلخ. يصحّح الاسم في ماري ص ١٢٦ س ٩ بتحقيق جيسموندي الذي يضع السلماني. وكذلك فقد كانت وظيفة هذا الأمير تسمّى الشحنة لا الشحفة.

(٧٧) ص ٢٨٩.

(٧٨) ماري، ص ١٢٦ - ١٢٧، صليبا، ص ١٠١، ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٠٢ - ٣١٠.

(٧٩) الكامل، ج ١٠، ص ٩١.

(٨٠) ماري، ص ١٢٧ - ١٢٨، صليبا، ص ١٠١. إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١٤.
الكامل، ج ١٠، ص ٩٠ - ٩١؛ أحمد سوسه، فيضانات بغداد، ج ١، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.
عن نهر القرج، المصدر نفسه، ص ٢٩٩، الحاشية رقم ٢.

(٨١) الكامل، ج ١٠، ص ٩٥.

(٨٢) تاريخ الزمان، ص ١١٤ - ١١٥، ويبيّن فيها أحكام النجوم لليلة موته.

(٨٣) مراجعة نقديّة بقلم الأب لويس شيخو في مجلّة المشرق، ١٢ (١٩٠٩)، ص ٦٠٩ - ٦١٨، ٦٨٢ - ٦٧٤ A.S. TRITTON, **The Caliphs**, cit; A. FATTAL, **Le statut légal**, cit.; AS-SEMANI, **Bibliotheca Orientalis**, III, II, p. 95.

(٨٤) إلى متى يرقى أوّل عهد من هذا القبيل؟ أنظر مقالتي **Rûm à l'Est de l'Euphrate** ص ٣٨٩ - ٣٩٠ مع مصادر.

(٨٥) الأب شيخو مثلاً في شعراء، ص ٢٨٧ - ٢٨٨، يستشهد «بابن ماري» (كذا). مقتطفات من عهد عبد يشوع الثالث في **Baghdad Observer**, July 19th, 1972.

(٨٦) صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٩٤ - ٢٩٩، الذي يتبع تصحيح تحقيق جيسموندي لكتاب ماري ص ١٣٣ - ١٣٧. وانظر تصحيحات نيوفيتوس أدلبي: **P.O.C. I** (1951) p. 206-208

(٨٧) يروي ابن عبد الحكم (أبو محمّد عبدالله) في كتاب فتوح مصر وأخبارها، المذكور في كتاب جاك تاجر، ص ٥٠، ردّ المقوقس (البطريرك قورش؟) على مواطنيه المصريّين «نعم تكونون عبيدًا مسلّطين في بلادكم أمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم».

(٨٨) رسالة البطريرك أنبا يوحنّا بن شوشان، النصّ العربيّ والترجمة الفرنسيّة، لأنطوان خاطر في **Bulletin de la société d'archéologie Copte**, XXII, (1974-75), p. 46.

(٨٩) يلاحظ أنّ النصّ المذكور هنا هو نصّ رسالة غير معدّة للنشر.

(٩٠) **The Abbassid Caliphate**, p. 48-49

(٩١) **Syriac Chronicles**, p. 251

(٩٢) ومن بين المآخذ التي يأخذها فاروق عمر على «المؤلّفين النصّيين» ما يسمّيه «بغموض الأحداث»، ولكن هل هذا الغموض مقتصر عليهم؟ كم من الروايات المتباينة للواقعة نفسها نجد اليوم بصرف النظر عن ديانة المؤرّخين؟ وأنا بعد هذا أوافق فاروق عمر كلّ الموافقة على «تحريف الأسماء» وأرى أنّ ذلك التحريف يعزى إلى قواعد الإملاء السريانيّة أو المتحدّرة من أصل سريانيّ. ويجدر بنا أن نتوقّف أمام خاتمة هذه الفقرة للمؤلّف نفسه إذ يقول «إنّ رواياتهم تستحقّ الاعتبار إمّا من حيث هي مكمّلة لغيرها أو من حيث تتيح لنا معلومات جديدة عن بلدانهم بخاصّة أو عن طوائفهم».

٢٧ ـ المقتدي (٤٦٧ ـ ٤٨٧/١٠٧٥ ـ ١٠٩٤)

لم يحكم عبدالله المقتدي بأمر الله[١]، حفيد القائم، حكمًا فعليًا أكثر من أسلافه. فالسيّد الحقيقيّ المطاع كان السلطان السلجوقيّ التركيّ ملكشاه (ت٤٨٥/ تشرين الثاني ١٠٩٢)، الذي اتّخذ لقب «مولى العرب والعجم»،[٢] ثمّ بركيارق ابنه.

إلى جانب الخليفة نجد الطبيب النصرانيّ أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين[٣] الذي خدم في البيمارستان العضدي وصنّف كتبًا في الطبّ. وقد طبّب الخليفة التالي المستظهر بالله، ومات سنة ٤٩٥/ ١١٠١.

ويذكر أطبّاء نصارى مشاهير آخرون في الفترة نفسها في بقاع أخرى، منهم الأخوان التكريتيّان اليعقوبيّان ابنا جرير المذكوران سنة ٤٧٢/١٠٧٩: الفضل طبيب ناصر الدولة بميافارقين[٤] وأبو نصر يحيى، الذي كتب رسالة في فائدة رياضة البدن[٥] إلى محمّد بن محمّد بن جهير.

تبدو أحداث هذه الخلافة في صورة مفكّكة لا تمكّن من رؤية موالج الأمور ومخارجها بوضوح كافٍ. فمن ذلك أنّ أهل سوق المدرسة اشتبكوا سنة ٤٧٠/١٠٧٧ ـ ١٠٧٨ مع أهل سوق الثلاثاء، «بسبب الاعتقاد (؟) فنهب بعضهم بعضًا، وكان مؤيّد الملك بن نظام الملك ببغداد بالدار التي عند المدرسة، فأرسل إلى العميد والشحنة فحضرا ومعهما الجند فضربوا الناس، فقتل بينهم جماعة وانفصلوا».[٦] الأرجح أنّ الفتنة قد وقعت بين أصحاب مذهبين من أهل السنّة، وإنّما ذكرناها لأنّنا نعلم أنّه كان في الحيّ الثاني قوم من النصارى.

عن العام ١٠٨٤/٤٧٧ ـ ١٠٨٥، يكتب ماري من غير تفسير: «بُني مسجد بعُمر واسط» أي دير مار سبريشوع.(٧) لنذكر أيضًا وباء الطاعون سنة ١٠٨٥/٤٧٨ بالمحوّل إلى الجنوب الغربي من بغداد، أي بالقرب من حيّ اليعاقبة(٨) وبذلك نصل إلى سيل من الأحداث التي تنبىء بفتنة سنة ١٠٩١/٤٨٤ الكبرى التي أخرجت رهطًا من النصارى عن دينهم.

يصيب جورج مقدسي(٩) إذ يقول: «إنّ المطالبة بتطبيق القيود [على أهل الذمّة] لم تزل تتكرّر طيلة القرن الخامس/ الحادي عشر، ذلك لأنّها لم تطبّق إلاّ لتهدئة العامّة التي أحفظها اختيال الأثرياء من الذمّيين، والحريّات والامتيازات التي كانوا يتمتّعون بها علنًا، بسبب أهمّيتهم السياسيّة والاجتماعيّة. وهذا يفسّر سلوك العامّة من المسلمين الذين لّما وجدوا أنفسهم بلا نصير يستظهرون به لدى الحكّام، أخذوا على عاتقهم مهمّة الانتصاف فأحرقوا الكنائس ونهبوا المنازل وأشعلوا الفتن الدامية أحيانًا».

في ربيع الأوّل ١٠٨٥/٤٧٨ تصاعدت أوائل الشكاوى على اليهود بسبب ما كانوا يتجرّؤون عليه في العلن.(١٠) وقد هدمت بعض منازل اليهود بأمر المقتدي في أواخر تلك السنة بحجّة أنّها كانت أعلى من منازل المسلمين المجاورة لها، وكان على اليهود أن يتعّهدوا بعدم تلاوة التوراة إلاّ في منازلهم من غير جهر بالتلاوة، وأن يتعمّموا بعمائم من اللون المفروض عليهم. وفي العام ١٠٨٧/٤٨٠ امتدّ تطبيق هذه الإجراءات ليشمل شرق بغداد وجنوبها.(١١) ويمكن أن نلمح في هذه الإجراءات أثر الشيخ أبي بكر أحمد بن عليّ بن بدران الحلواني. فبعد أن ساء هذا الشيخ ما ترقّى إليه أهل الذمّة من مناصب رفيعة لدى السلاطين، صنّف قبيل ذلك العام كتابًا في القواعد التي يجب إلزام أهل الذمّة بها سمّاه «الفصول الجامعة في ما يجب على أهل الذمّة من أحكام أهل الملّة». وقد أُهدي الكتاب إلى المقتدي فأمر لصاحبه بجائزة سنيّة. إلاّ أنّ هذا ردُّها قائلاً ما معناه إنّ الهديّة التي اطلبها لنفسي وللمسلمين هي أن تحكم أهل الذمّة حسب أحكام هذا الكتاب. ويشهد أحد تلامذة ابن بدران (وهو فقيه مجهول الاسم من طنجة أقام ببغداد من سنة ١٠٩٥/٤٨٨ إلى سنة ١١٠١/٤٩٤، على الأقل) بأنّه رأى هذه الأصول تراعى في العاصمة.(١٢)

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنّ الخليفة المقتدي لم يكن يستهدف اليهود فحسب، ومن ثمّ النصارى، بل كان ينتهج سياسة عامّة يطغى عليها الميل الدينيّ والأصوليّ. فقد أمر محتسبو المحالّ بأن يقتدوا بسيرة أصحاب عبد الصمد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكسرت جرار الخمر وآلات الملاهي وهدمت المواخير وأبراج الحمام التي كان أصحابها يطّلعون منها على حُرَم الناس، وحظرت ألعاب القمار، «ومُنع الناس أن يدخل أحد الحمّام إلاّ بمئزر. . . ومنع الملاّحون أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين. . .». كان من السهل على وزير ماهر أن يوجّه هذه الحملة الأصولية[١٣] كلّها ضد غير المسلمين من يهود ونصارى. وقد كان هؤلاء متّهمين منذ مدّة طويلة، كما رأينا، بإفساد أخلاق المؤمنين في خمّاراتهم بمحلّة دار الروم مثلاً، وفي أديرتهم أيضًا.

نهاية طائفة نصرانيّة

كان من شأن الحميّة التي ولّدها لدى المسلمين فرض السمات المميّزة على النصارى القضاء على طائفة نصرانيّة بتكريت شمالي بغداد.

كانت تكريت منذ سنة ٦٢٩، أي قبل الفتح الإسلاميّ، مركزًا لأحد الأقاليم الشرقيّة التابعة لبطريركيّة أنطاكية (أي الكنيسة السريانيّة المغربيّة اليعقوبيّة)، وهي ناحية كانت تقع في أراضي الكنيسة السريانيّة المشرقيّة النسطوريّة. وفي الفترة التي وصلنا إليها كان مطران هذا الإقليم، باسيليوس الرابع، قد بدأ يتلقّب بلقب مفريان.

من وجهة النظر الكنسية كانت أبرشية المفريان قد توسّعت سنة ١٠٧٥ بعدما ضمّت إليها عدّة رعيّات سريانيّة مغربيّة كانت من قبل تابعة للبطريركيّة مباشرة، ومنها نصيبين، قلْث ودارا. وهذا يفسّر لنا حماسة أهل تكريت لما عاد مفريانهم الذي تعظّم شأنه على هذا النحو إلى مدينتهم. ولكن هذا الاستقبال الاستعراضيّ أزعج بعض المسلمين الذين راحوا يرمون الموكب بالحجارة، فالتجأ المفريان وصحبه إلى كنيسة مار أحودمّه.

وبعدما أقام فترة ببغداد بدأ المفريان يبيع قطعًا من آلات الكنائس، ويختال بالألبسة النفيسة الفائقة ويولم الولائم الفاخرة ويدعو إليها أعيان المسلمين فكان من شأن ذلك أن كرهته رعيّته.

من الصعب أن نؤرّخ لفتنة تكريت بدقّة استنادًا إلى المصادر المختلفة،[١٤] لأن تواريخ السنوات المتاحة، للهجرة أو للإسكندر لا تتلاءم. ففي العام ١٠٨٩ (على ما يبدو) نُهبت الكنيسة الكبرى، المعروفة بالكنيسة الخضراء، و«ما فيها من آلات بيعيّة فائقة وأموال ودور وحوانيت، ولم تجدِ ولايم المفريان نفعًا» على قول ابن العبري. وقد أُخذت كنيسة أخرى قريبة من القلعة، هي كنيسة القدّيسين سرجيس وباخوس، من النصارى وأعطيت للمسلمين بدلاً عن المسجد الجامع الذي هدّمه قيقباذ بن هزارسب الديلمي الذي كان سيّد المدينة في ذلك الوقت.

بعد ذلك (في العام ١١٠٦/٥٠٠؟) أُخذت الكنيسة الخضراء نفسها و«أعطيت للعرب». هل كان ذلك بسبب «اتّصال الفتن بين العرب والنصارى» على قول ميخائيل السريانيّ؟[١٥] على أيّة حال، أرسل السلطان الكبير غياث الدين محمّد بن ملكشاه عسكره إلى المدينة وبعد سبعة أشهر من الحصار، وقعت في تشرين الأوّل، في يد صدقة بن دبيس ملك الحلّة العربيّ الملقّب بسيف الدولة.

ويبدو أنّ الاضطهاد كان عنيفًا، إذ إنّ معظم اليعاقبة وفيهم المفريان، غادروا تكريت وتفرّقوا في المدن والقرى المجاورة. وذهب الحبر نفسه إلى الموصل ونزل بها.

تنتشر أمامنا هنا على مدى سبعة عشر عامًا سلسلة من الأحداث الخطيرة الشأن التي أدّت إلى القضاء شبه التّام على طائفة نصرانيّة عريقة في القدم وناطقة بالعربيّة أيضًا. إلاّ أنّ بغداد عرفت فترة من الهدوء قبل المأساة المنتظرة، وذلك لّما استؤنفت في العام ١٠٨٩/٤٨٢، الفتن الدامية[١٦] داخل الإسلام، إذ عاد السنّة والشيعة إلى التقاتل. بيد أنّ نظرة العامّة إلى النصرانيّة باعتبارها «عدوّة الإسلام» قد ظهرت مرّة أخرى من خلال الصلبان التي رفعها العوام على القنا وذلك مثلما فعل الترك العصاة من قبل. ولم تهدأ الفتنة حتّى تدخل بنو مزيد من عرب الحلّة الذين استجاشهم الخليفة.[١٧]

في الثاني من كانون الثاني ١٠٩٠، ووسط هذه الأحداث مات عبديشوع بن العارض الذي لا نعلم عنه إلاّ القليل.[١٨] من ذلك أنّ ماري الذي أثبت في تاريخه نصّ عهد الجاثليق الذي كتب له، قد نسي خبر موته وتقويم جثلقته. أمّا صليبا الذي كتب أقلّ من صفحة عن هذا الخبر (مقابل عشر صفحات ونصف عند ماري) فلا ينسى أن يقول عنه إنّه كان «شيخًا طاهرًا عالمًا خبيرًا خيّرًا صالح التدبير». وقد تكلّم ماري في ما بعد عن جهله «بقوانين البيعة»[١٩] ولكن هذا يخرج بنا عن موضوعنا. دامت جثلقة ابن العارض ١٦ عامًا ودام خلوّ كرسي الجثلقة مدّة سنتين ونصف.[٢٠]

كتاب سياسة نامه

أمّا في ما يخصّ السلاجقة الكبار فقد نُصّب ملكشاه سلطانًا خلفًا لألب أرسلان سنة ١٠٧٢. ولمّا لم تكن سنّ الأمير إلاّ ١٨ سنة، سيطر عليه نظام الملك،[٢١] الوزير الشهير، الذي كان أوّل من تلقّب بلقب أتابك. وقد كتب هذا الوصيّ بالفارسيّة «لمولاه (؟) سلطان العالم» كتابًا في سياسة المُلك سمّاه «سياسة نامه» (أي كتاب السياسة)، وسمّاه مترجمه إلى العربيّة «سير الملوك».[٢٢] وقد وضع جلُّ الكتاب في العام ١٠٩١/٤٨٤، وصنّفت الفصول الأحد عشر الأخيرة في العام الذي تلاه بحيث يحتوي الكتاب على خمسين فصلاً.

بالنسبة إلى استخدام النصارى، يعبّر الوزير عن النظرة التقليدية للإسلام والتي تقوم على الآية القرآنية المعروفة (الآية ٥١ من سورة المائدة)، ويستشهد على ذلك بما كان من عمر بن الخطّاب في خبر أبي موسى الأشعري[٢٣] وكاتبه، وفي خبر سعد بن أبي وقّاص مع اليهوديّ.[٢٤]

هذا من الوجهة النظريّة. أمّا من الوجهة العمليّة، فيؤكّد الكاتب[٢٥] «أنّهم في كل العهود والأيّام كانوا يعهدون بالأعمال إلى مَن كان على مذهبهم» أي إلى المسلمين. ثمّ ينتهز الفرصة ليثني على كتّاب خراسان (المسلمين) الشرفاء. ويؤكّد أنّه لم يجد اسمًا لنصرانيّ أو ليهوديّ أو لمجوسيّ، إلخ «أمّا اليوم فقد ارتفع هذا التمييز، إذا تولّى أعمال الترك ورئاستهم يهوديّ فإنّ الترك يسيغون ذلك... والآن

قد بلغ الحال مبلغ أنّ الباب والديوان مليئان بهم. . . وهم ساعون إلى أن لا يدعوا خراسانيًا واحدًا يمرّ بالباب».

أمّا ما لا يقوله الوزير فهو كيف اتّفق أن تمّ هذا التسلل الكثيف حتّى الإشباع والتفرُّد مع وجوده هو في السلطة واستبداده بالأمر منذ نهاية ما يعتبره العصر الذهبيّ عصر طغرل بك وألب أرسلان «السلطان الشهيد». ثمّة جملة صغيرة،(٢٦) مفادها أنّ الوضع في قصر ملكشاه ليس كالوضع في العراق، يُفهم منها أنّ ما يشكو منه الوزير هي الأحوال السائدة في دواوين الخلافة حيث كان النصارى كُثُرًا، على خلاف ما هي الحال في الدواوين السلطانيّة، أي التابعة له.

ولكن الأمور تغيّرت بعد ذلك في دواوين الخلافة أيضًا.

خلوّ كرسي الجثلقة وصروف الدهر

لم يطل الوقت حتّى عثر الخليفة على الوزير ذي الحميّة الدينيّة(٢٧) في شخص أبي شجاع ظهير الدين الروذراوري(٢٨) الذي بدأ اضطهاد النصارى بأن استحصل في ١٤ صفر ٤٨٤/٧ نيسان ١٠٩١(٢٩) على توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمّة بالسمات المميّزة. منذئذٍ لم يعد يجوز لليهود والنصارى أن يخرجوا إلى شوارع بغداد من دون لبس الغيار وعقد الزنار وتقلّد درهم رصاصيّ في أعناقهم ضربت عليه كلمة ذمّيّ. وكان على النساء أن يتقلّدن هذا الدرهم في الحمّامات، وأن يلبسن، عند المشي في المدينة، أحذية ملوّنة بلونين واحد أحمر وواحد أسود، وأن يجعلن في أرجلهن الخلاخيل.

نذكر أنّ أم الخليفة أرجوان/ قرّة العين كانت أرمنيّة، وأنّها لم تفعل شيئًا، أو لم تقدر على عمل شيء لمنع تنفيذ هذه الإجراءات التمييزيّة.

وقد أسهم هذا القرار في خسارة أبي شجاع وزارته في الشهر التالي (ربيع الأوّل/ ٢٣ نيسان ـ ٢٢ أيار ١٠٩١). و«كان سبب عزله أنّ إنسانًا يهوديًا ببغداد يقال له أبو سعد بن سمحا(٣٠) كان وكيل السلطان ونظام الملك» اتّفق مع كوهرائين (وهو أمير يلقّب بسعد الدولة) على الشكاية من أبي شجاع، واستغلّ

حادثة اعتداء تعرّض لها ليوقع بالوزير. وقد عُزل هذا من وزارته ولكن أمر الخليفة بمخالفة أهل الذمّة ظلّ ساري المفعول مدّة أربعة عشر عامًا.

إسلام النصارى

كان من نتائج أمر الخليفة هذا أن «هرب النصارى كلّ مهرب» فأسلم بعض مَن كان منهم في منصب رفيع. وكان من أشهر مَن أسلم كاتبان من بني الموصلايا.(٣١) وقد صادفنا سابقًا واحدًا من رجال هذه الأسرة بين العامين ١٠٥٧ و١٠٦١، هو أبو الخير سعيد بن منصور بن الموصلايا، الذي كان له ضلع في اختيار الجاثليق سبريشوع الثالث، وكان من جملة أعيان النصارى الذين قصدوا الوزير ابن دارست مستأذنين في رسامة الجاثليق. أمّا الكاتب الثاني، الذي صار من بعد أعظم شهرة، فهو أبو سعد العلاء بن الحسن بن الموصلايا(٣٢) الذي أنشأ العهد الذي كتبه القائم لعبديشوع الجاثليق في ٢٨ ربيع الأوّل ٤٦٧/٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤.

إمتدّت السيرة العمليّة لهذا الكاتب المثاليّ، الأديب الشاعر الفاضل، على مدى خمس وستّين سنة، وهي معروفة جيّدًا.(٣٣) فقد بدأ العمل في خلافة القائم سنة ٤٣٢/١٠٤٠ ـ ١٠٤١. وأسلم على يدي الخليفة المستظهر سنة ١٠٩١ أنفًا من لبس الغيار. كان في هذا الوقت كاتب الإنشاء في ديوان الخليفة. وقد أُجزلت مكافأته على إسلامه إذ استُنيب على الوزارة بعد عزل أبي شجاع في السنة عينها، ثمّ خلع عليه لقب أمين الدولة.(٣٤)

وقد خضعت بقيّة حياته لصروف الحال السياسيّة المتقلّبة لذلك الزمن. فاضطرّ إلى الامتناع عن الحضور إلى القصر لفترة احتياطًا سنة ١١٠١، وذلك لّما ارتاب الوزير الأعزّ أبو المحاسن الدهستانيّ بأنّه يُميلُ الخليفة إلى السلطان محمّد ضد السلطان بركيارق. ولم يعد إلى منصبه إلاّ بعد أن أُعدم الوزير. وفي أواسط رجب ٤٩٦/أواخر نيسان ١١٠٣ استُنيبَ أمين الدولة مرّة ثانية على الوزارة لّما قبض على سديد الملك أبي المعالي (المفضّل بن عبد الرزاق الأصبهانيّ) وزير الخليفة. مات ابن الموصلايا ببغداد سنة ٤٩٧/١١٠٣ ـ ١١٠٤ من بعدما كُفَّ بصره، فأورث أمواله

لأعمال البر والإحسان الإسلاميّة لأنّ أسرته التي ظلّت على النصرانيّة لم يكن لها الحقّ في أن ترثه.[٣٥]

وقد خلفه على رأس ديوان الإنشاء ابن أخته، أبو نصر هبة الله،[٣٦] بن الحسن بن عليّ النصرانيّ صاحب الخبر. أسلم أبو نصر، الملقّب بتاج الرؤساء، سنة ١٠٩١ هو وخاله أمين الدولة في الوقت نفسه. وكان هو قد صار صاحب الخبر عندما أنشأ في صفر ١٢/٤٨٥ آذار ـ ١٠ نيسان ١٠٩٢ العهد الذي كتبه المقتدي للجاثليق مكّيخا. بعد ذلك أي في العام ١١٠١ ـ ١١٠٢، لم يكتفِ مثل خاله بملازمة داره لما اتّصل به صراع التنافس بين السلطانين. فقد هرب أبو نصر الذي كان أخوَف من خاله أو أكثر عرضة لارتياب بركيارق والتجأ إلى الأمير العربيّ سيف الدولة صدقة بن مزيَد، سيّد الحلّة. ولّما زال الخطر وعاد أمين الدولة إلى منصبه، عاد أبو نصر إلى عمله أيضًا. لذلك لا نعجب إذا رأينا الخليفة يبعث أبا نصر ليستجيش سيف الدولة، لّما احتاج إلى معونته.

خلف أبو نصر خاله، الذي مات سنة ١١٠٣ ـ ١١٠٤، في رئاسة ديوان الإنشاء إذًا، ولُقّب بلقب نظام الحضرتين.[٣٧] ولم يمارس مهمّات هذا المنصب إلاّ حوالي العام لأنّه ما لبث أن توفّي هو أيضًا عن سبعين عامًا في ١١ جمادى الأولى ١٦/٤٩٨ آب ١١٠٥، بعد مرض دام خمسة أيّام، ولم يكن له ورثة شرعيّون للسبب الذي ذكرناه من قبل. وقد دُفن في مقبرة باب أبرز.[٣٨]

وثمّة رجل رابع من هذه الأسرة يؤتى على ذكره في التواريخ، إن أبو الحسين بن الموصلايا كاتب ديوان الزمام الذي توفّي في ذي القعدة ٤٨٧/تشرين الثاني ـ كانون الأوّل سنة ١٠٩٤.[٣٩] ولا نعلم هل كان قد أسلم هو أيضًا أم لا، لأنّ النصارى في ذلك الوقت كانوا يتسمّون بالحسين ويتكنّون به.

ويبدو أنّ الاضطهاد الذي بدأ سنة ١٠٩١ ودام أربعة عشر عامًا قد أدّى إلى إسلام الكثيرين من النصارى غير مَن ذكرنا، ولم يحفظ التاريخ إلاّ أسماء المشاهير منهم. ويمكننا أن نضيف إلى أولئك الذين سقنا ذكرهم آنفًا، الأخوين أبي غالب وأبي طاهر عبيدالله ابني هبة الله الأصبغي.[٤٠] أمّا الأوّل، وقد أسلم قبل يوم من

إسلام الموصلايا، فقد لقِّب في ما بعد بتاج الرؤساء وتقلّب في مناصب عدّة في ديوان الزمام. وكان حُسَّاب العراق يكتبون الحساب على طريقته. وأمّا الثاني، وهو أبو طاهر، أخو الأوّل، فقد عمل في خدمة عفيف القائمي، وكان يلقّب أيضًا بالرئيس.(٤١)

إلى جانب رغبة المسلمين الجدد في التخلّص من الإذلال (الذي كان هدفه المعلن حمل الذمّيين على الإسلام)، يجب أن تعزى بعض حالات اعتناق الإسلام إلى مواعظ المسلمين أنفسهم ونصائحهم، مثال ذلك ابن جزلة المتطبّب الذي أسلم في العام ٤٦٦/شباط ١٠٧٤، ومات سنة ٤٩٣/ ١٠٩٩ - ١١٠٠.(٤٢)

كان أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة(٤٣) قد درس الطبّ على «نصارى الكرخ»، ومنهم أبي الحسن سعيد بن هبة الله.(٤٤) وأراد أن يدرس المنطق أيضًا ولّما لم يجد مَن يعلّمه من النصارى قصد الشيخ أبا علي الوليد المغربيّ المعتزليّ. و«لم يزل هذا يحسِّن له دخول الإسلام ويبيّن له أنّ الاتّحاد الأقنوميّ على زعم النساطرة غير معقول»(٤٥). وقد أسلم ابن جزلة بين يدي قاضي القضاة أبي عبدالله الدامغاني، ثمّ عمل كاتبًا وكان يطبّب الناس مجّانًا. ولّما كان بمرض موته أوصى بكتبه لمشهد الإمام أبي حنيفة. وقد صنّف في الطبّ تصانيف اشتهرت في زمانه، وكتب رسالة إلى إيليّا القسّ، يبيّن فيها مسوِّغات إسلامه، وهي رسالة يمكن أن تحلّ مع غيرها من المصنّفات السجاليّة في باب الردّ على النصارى، لولا أنّها تعدُّ مفقودة.(٤٦)

ولكن بعض النصارى أسلم طمعًا في المال وكان هذا ممّا دعا أصحاب أبي جعفر بن أبي موسى الشريف الحنبليّ إلى القول: «هذا إسلام الرشا لا إسلام القناعة». ذلك أنّ الذين كانوا ينظمون عمليّات الإسلام «الإعلاميّة» هذه، ويتبعونها بعرضة تجوب شوارع المدينة، هم الأشاعرة، خصوم الحنابلة. وقد تميّز منهم (الأشاعرة) أبو نصر القشيري الخطيب بالمدرسة النظاميّة، الذي كان يُسلم على يديه يهوديّ أو نصرانيّ بعد كلّ خطبة من صلاة الجمعة.(٤٧)

هل أسلم من أهل الذمّة أحد بسبب كرامات بعض المسلمين؟ لم يركِّز الإسلام على معجزات الرسول خلافًا لتركيز النصرانيّة على معجزات المسيح. ولا

أذكر أنّي وقعت على وقائع تاريخيّة بهذا المعنى إلاّ ظهور النبيّ العربيّ في بعض الأحلام.[٤٨] على أنّ ألف ليلة وليلة[٤٩] تروي قصّة معجزة إسلاميّة أدّت إلى إسلام ديراني ورهبانه الأربعين. وليس ثمّة ما يخوّلنا القطع هل أنّ للخبر أساسًا تاريخيًّا أم لا.[٥٠]

مكّيخا

XXVII بعد اضطراب الأحوال إبّان خلوّ كرسي الجثلقة، وبعدما هدأت موجة الخروج من النصرانيّة، تمكّن السريان النساطرة أخيرًا من انتخاب جاثليق لهم واستصدار إذن السلطات بتوليته، وجرى ذلك في ظلّ استمرار التدابير التمييزيّة خلال وزارة عميد الدولة أبي منصور بن جهير[٥١] الذي وزر للخليفة المقتدي بأمر الله منذ العام ١٠٩١.

عند هذا التاريخ يظهر لأوّل مرّة رجل سنسمع عنه كثيرًا من بعد، إنّه ابن الواسطي. إنّ اسمه يدلّ على أن أسرته تتحدّر من واسط،[٥٢] إلاّ أنّها كانت تنزل ببغداد في حيّ العتيقة، إذ إنّنا سنرى لاحقًا أنّ أباه قد دفن في كنيسة ذلك الحيّ التي كانت تسمّى، في بعض المصادر، «كنيسته».[٥٣]

كان أبو الفرج سعيد بن إبراهيم الواسطي، القسّ الراهب، طبيب السلطان ألب أرسلان ملكشاه السلجوقيّ،[٥٤] قد حلّ محلّ الكتاب من بني الموصلايا على رأس أعيان المشارقة من السريان. فهو الذي ساند بقوّة ترشيح مكّيخا مطران الموصل وحزّة (من أعمال أربل) لكرسي الجثلقة، يعضده في ذلك رجل يعرف بأبي الفرج بن التلميذ، وهو الذي حصل على الشلموث الحاوي إجماع الناخبين وخطوطهم، وربّما أيضًا على المنشور الخليفي الذي أنشأه أبو نصر بن الموصلايا في صفر ٤٨٥، أي بين ١٣ آذار و١٠ نيسان ١٠٩٢.[٥٥]

ومن دواعي الأسف أنّه كان يصعب على حماة البطاركة الجدد (سواء أكانوا من العلمانيّين أو من القسوس) أن يلزموا حدودهم من بعد فوز مرشّحهم. فغالبًا ما كان يحدث أن تنزع الشخصيّة صاحبة النفوذ إلى التحكّم في مَن يدين لها بالجلوس

على الكرسي، وإن لم يقطع لها قبل الانتخاب أي وعد صريح بمشاورتها عند تولّي الأمر (كما فعل طيماثاوس وإبراهيم الثالث وغيرهم). وغالبًا ما كان يحدث العكس أيضًا، إذ كان الجاثليق المنتخب يميل إلى التملّص من هذه الوصاية التي كانت تصبح أقلّ فائدة كلّما ازدادت تسلُّطًا. من ذلك أنّ الصراع بين مكّيخا وابن الواسطي قد بدأ بسبب خلاف على التدابير الواجب ترتيبها لإصلاح القلّية، إذ لم يردّ ابن الواسطي على دعوة الجاثليق للتفاوض في تباين المواقف من هذا الشأن. ثمّ عقب ذلك وحشة بين الرجلين، لم يلتقيا من بعدها أبدًا.

إنّ تأريخ مختلف وقائع النزاع بينهما عَصِيٌّ على التحقيق نظرًا إلى أنّ ماري المؤرّخ لا يبيّن ترابط الوقائع والأحداث ولا تواريخها الدقيقة.

يبقى أنّ الأحداث الخارجيّة هي التي تبيّن معالم سيرة مكّيخا. فبعد سنتين من انتخابه جاثليقًا أي في العام ٤٨٧/شباط ١٠٩٤، مات الخليفة المقتدي فجأة عن ٣٨ سنة، وخلافة دامت حوالي عشرين سنة، إذ كان على مائدته يتغدّى دجاجة مشويّة. غشي عليه وتراءى له أنّ أشخاصًا دخلوا عليه من غير استئذان، ثمّ ما لبث أن فارق.[٥٦] وقد أُرجف بأن بركيارق، ابن ملكشاه وخَلَفه، قد سمَّ الخليفة لأنّه كان قد مال إلى الموافقة على تقليد أخيه محمود لقب السلطنة.

الحواشي

(١) E.I.¹, III, p.768, par K.V.. KETTERSTEEN, s.v.

(٢) نقش مؤرّخ بسنة ٤٧٥ بدمشق، Répertoire, VII, no. 2735

(٣) إبن أبي أصيبعة، ص ٣٤٣. ثمّة مصادر أخرى في الزركلي، ج ٣، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٤) إبن أبي أصيبعة، ص ٣٢٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩، Islamochristiana, 2, (1976), p.217-221

(٦) الكامل، ج ١٠، ص ١٠٧.

(٧) ماري، ص ١٣٢.

(٨) يذكر ذلك ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١٩.

(٩) Ibn'Aqil, p.158-161

(١٠) المنتظم، ج ١١، ص ١٤.
(١١) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(١٢) أنظر Consultations juridiques des faqihs du Maghrib, dans **Archives Marocaines, XII** (1906), p.233-240, par Emile AMMAR. وقد انتزعت المقتطفات المتعلّقة بأهل الذمّة (ص ٢٣١ - ٢٤٤) من «كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل أفريقيا والأندلس والمغرب». (١٢ مجلّدًا) الذي صنّفه أحمد الونشريشي حوالى العام ١٤٥٩/٨٧٤.
(١٣) المنتظم، ج ٩، ص ١٧. البداية، ج ١٢، ص ١٢٧، ١٤٦. الكامل، ج ١٠، ص ٢٣١. ونذكر هنا أيضًا بعض التدابير لمنع تلوّث مياه دجلة بمياه الحمّامات، كما شهدت خلافة المقتدي نهضة عمرانيّة ببغداد.
(١٤) المذكورة في مقالتي Tagrit في **Orient Syrien, 8,** (1963), p.291-342 التي نُشرت في **Chrétientés syriaques en Iran et Iraq** من قبل Variorum Reprints, London, 1979, X.
(١٥) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٢١٤ - ٢١٥.
(١٦) التي لم تتوقّف تمامًا: فقد اصطدمت الأكثريّة الحنبليّة (حزب بغداد والخليفة) بالشافعيّة الأشعريّة (حزب نظام الملك وزير السلطان وأهل نيسابور) ثلاث مرّات: مدّة خمسة أشهر في العام ١٠٧٧/٤٦٩، في العام ١٠٧٨/٤٧٠ وفي العام ١٠٨٣/٤٧٥، انظر تفصيل ذلك في Simha SABARI, **Mouvements populaires à Bagdad, à l'époque abbasside IXème-XIème siècles,** Adrien Maisonneuve, Paris, 1981.
(١٧) أنظر مصادر عنها في الصليب في الإسلام لحبيب الزيّات، ص ٥٠ وأنّي لأتردّد في أن أرى في ذلك «ظواهر مهمّة مؤيّدة للنصارى». الكامل، ج ١٠، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(١٨) إنّ أخبار جثلقته الطويلة في تاريخ ماري ملأى بالتفاصيل الثمينة للتاريخ المدنيّ، ولكنّها لا تطلعنا على أحوال النصارى في تلك الفترة.
(١٩) ص ١٤٢.
(٢٠) يذهب ابن العبري في تاريخه الكنسيّ، ج ٢، العمود ٣٠٩ - ٣١٠، إلى أنّ الكرسيّ ظلّ شاغرًا مدّة عشرين عامًا، ولا يذكر خلائف الجاثليق.
(٢١) **E.I.**[1], III, p.997-1000, par Harold BOWEN
(٢٢) أنظر فهرس المصادر والمراجع تحت نظام الملك.
(٢٣) سير الملوك، ص ٣٧٦. في هذه الرواية يصرف أبو موسى كاتبه.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٧٠ - ٣٧١.
(٢٦) ص ٣٧١.
(٢٧) وتستبين مرارة لهجته في انتقاده ملكشاه على فتح سمرقند وكأنّها من مدن الروم والمشركين، الكامل، ج ١٠، ص ١٨٧. كانت الإشارة إلى الروم روسيا: فقبل بضعة أعوام وبّخ

العميد بعض الترك على قتلهم رجلاً بباب الدير ببغداد قائلاً: «لو أنّ الروم ملكوا المسلمين ما فعلوا ما فعلتم، إذا رأوهم في مساجدهم وصلواتهم»، ابن البنا، ص ٢٢، الفقرة ٨٣.

(٢٨) انظر مقالة عنه في: E.I², p1250 بقلم Ibn G. MAKDISSI. K.V. ZETTERSTEEN 'Aqil, pp 160-161 - وانظر مدحه في البداية، ج١٢ ص ص ١٥٠ - ١٥١، الصفدي، ج٣، ص ص ٣ - ٤، رقم ٣٥٣.

(٢٩) إنّ هذا التاريخ الذي يذكره ابن الجوزي في المنتظم، ج ٩، ص ٥٥ (والمذكور في ص ٧٩ من مقال «السمات» لحبيب الزيّات) يبدو أصحّ من ١٠٩٥/٤٨٨ الذي يورده ابن خلّكان في الوفيّات، رقم ٧٠٢، (وذلك لأنّ هذه الإجراءات قد دامت ١٤ عامًا وانتهت سنة ١١٠٥، على قول ماري، ص ١٤٣). يلاحظ أنّ ابن القيّم لا يأتي على ذكر أمر المقتدر. ولكن يذكر أن آخر من نفّذه كان ابن فضلان في العام ١٢٢٩ للميلاد.

(٣٠) الكامل، ج ١٠، ص ١٨٦. أنظر مصادر أخرى في: G.MAKDISSI. Ibn'Aqil, p.138. 139.

(٣١) «من أسماء النصارى» على قول ابّن خلّكان، المصدر المذكور. إنّني إذ أكتب «مُوصِلايا» التزم بالكتابة المعتمدة في الطبعات كلّها. أمّا قراءة «مَوصلايا» (بإضافة النسبة السريانيّة إلى اسم عربيّ) فتجعل معنى الاسم «الموصلي». ولكن أما كان الأولى في هذه الحال أن يقال آثورايا، باعتبار أنّ آثور هو اسم الموصل بالسريانيّة (استنادًا إلى Lexicon de Bar Bahlul [Xème s.] éd. RUBENS DUVAL. I. col. 322 وكذلك نجد في كتاب الرؤساء لتوما المرجي، ترجمة BUDGE، ج ٢، ص ٣٨٨، قوله «مدينة الآثورايي».

(٣٢) صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٩٤، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١، نجد اسمه: «أبو سعيد... بن وهب...» الباخرزي، دمية القصر (أطروحة التونجي) ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٣٣، يسميه: «أبا سعد الحسن بن العلاء (البغدادي) الموصلاني، مع إحالة إلى أنساب الأشراف، ص ٥٤٥.

(٣٣) الكامل، ج ١٠، ص ٣٥٠، ٣٦٢، ٣٧٧ - ٣٧٨، ٥٣٤ - ٥٣٥. البداية، ج ١٢، ص ١٦٤. إبن خلّكان، المصدر المذكور، يجعل إسلامها في العام ١٠٩٥/٤٨٨ (؟). مصادر أخرى في الزركلي، ج ٥، ص ٤٥. شيخو، شعراء، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ و٣٩٣. ويذكر القلقشندي (ج ٥، ص ٤٧٣ - ٥٠١، ج ٦، ص ٤٠٤، ٤١٥، ج ٨، ص ١٣٥، ج ١٠، ص ٣١، ٢٣٤، ٢٩٤، ج ١٣، ص ٢٧٣) عددًا من آرائه ويورد بعضًا من رسائله. ويروي الأصبهانيّ عددًا من قصائده في الخريدة، ج ١، ص ١٢٣ - ١٣٢.

(٣٤) عن هذا النوع من الألقاب انظر مقالة H.BUSSE عن عزّ الدولة في: E.I². IV. p.306 307 ويسمّيه القلقشندي في الصبح، ج ١٠، ص ٣١، أمين الدين بدلاً من أمين الدولة.

(٣٥) FATTAL. Statut légal, p. 137

(٣٦) الكامل، ج١٠، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦، ٣٥٠ ـ ٣٥١، ٣٥٧، ٣٧٨ ٣٩٧. ماري، ص ١٤٧ ـ ١٥٠. المنتظم، ج٩، ص ٥٥. البداية، ج١٢، ص ١٣٧. خريدة العصر، ج١، ص ١٣٢ ـ ١٣٤. شيخو، شعراء، ص ٢٨٨ ـ ٢٩١.

(٣٧) حضرة الخليفة (قصره) وحضرة السلطان. أنظر I.GOLDZIEHER في مقالته Uber Dualtitel في، Wiener Zeitschrift für die Kunde der Morgenlandes XIII (1899), p.329.

(٣٨) إلى الجنوب من محطّة قطارات بغداد الشماليّة اليوم.

(٣٩) الكامل، ج ١٠، ص ٢٤٠.

(٤٠) تجد أشعاره في الخريدة، ج ١، ص ١٣٥ ـ ١٤٠. شيخو، شعراء، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ و٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٤١) عن دلالات هذه الكلمة، انظر: G.WIET, Soieries Persanes, p.38-39

(٤٢) الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٢. أفضّل هذا التاريخ ٤٦٦/١٠٧٣ ـ ١٠٧٤ الذي يعطيه ابن أبي أصيبعة في الصفحة ٣٤٣ من عيون الأنباء.

(٤٣) إبن القفطي، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠. المنتظم، ج ٩، ص ١١٩، البداية، ج ١٢، ص ٤٩٤. MAKDISI, Ibn 'Aqil, p. 407-409

(٤٤) إبن أبي أصيبعة، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٤٥) يوضح ابن العبري في تاريخ الزمان، ص ١٢٥، أنّ الشيخ أقنعه: «بأن الاتّحاد الحبّي والأقنوميّ على زعم النساطرة لا يتيسّر تصوّره في الطبع الإلهيّ» وهذا أمر يوافق عليه ابن العبريّ طبعًا.

(٤٦) إلاّ أن تكون هي الرسالة التي ينسبها STEINSCHNEIDER إلى «يوسف اللبنانيّ» في: Islamo-christiana, 4, (1978), p.249-250, no. 31.3 ففي هذه الرسالة يأخذ «المطران» الياس النسطوريّ على يوسف إسلامه من أجل أسباب ماديّة. فيرد عليه يوسف مظهرًا فضل القرآن على الإنجيل لأسباب فلسفيّة ودينيّة. تجد ملخّصًا لرسالة ابن جزلة، المكتوبة سنة ٤٨٥/١٠٩٣ في الوفيّات، رقم ٨٢٢.

(٤٧) Ibn Aqil, p. 356-357, 366, etc مع مصادر.

(٤٨) وكان بعض «الوعّاظ الكذبة» يرتّب في مجلسه مَن يقوم ويدّعي أنّه «رأى في المنام سيّد المرسلين» وأنّه أسلم من جرّاء ذلك. أنظر الجوبري، كشف الأسرار، ط ١٣٠٢/١٨٨٥، ص ٣٤ ـ ٣٥، والقصيدة الساسانيّة لأبي دلف الخزرجي (القرن ٩ ـ ١٠) تحقيق وترجمة C.E. BOSWORTH في The Medieval Islamic Underworld, The Banū Sāsān in Arabic Society and Literature, 2 vol., Brill 1976, pp. 112, 196 (49) et (59), 296 (19) والحواشي ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٤٩) ELISSÉEF, Thèmes, p. 145. لم يسمح للرهبان أن «يرفعوا» جثّة صبيّة نصرانيّة أسلمت، بلا شهود، على قبر عاشقها المسلم ثمّ ماتت لساعتها، لأنّ ذلك اعتبر من حق المسلمين.

على درب عمورية أسلمت بلدة نصرانيّة بأسرها وكذلك عبد المسيح الراهب الدبرانيّ الذي صار اسمه عبدالله الغريب، طبعة صبيح، القاهرة. د.ت. ج ٢، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠.

(٥٠) في كتاب التوّابين لابن قدامة المقدسي (ت ١٢٢٣/٦٢٠) نجد في «ذكر جماعة ممّن أسلم» ثلاثة نصارى الأوّل هو أبو إسماعيل الموصلي الذي هدته آية من القرآن الكريم والثاني شابّ (يُدعى عبد المسيح؟) صاحب الحجّاج إلى مكّة والثالث طبيب نصرانيّ كوفيّ بالإسلام على ما تصدّق به من إطعام فقير وصحبه الأربعين، كتاب التوّابين، تحقيق جورج المقدسي، دمشق، ١٩٧١، ص ٢٨١ ـ ٢٩٢.

(٥١) من أسرة بني جهير القويّة النفوذ، انظر مقالة كلود كاهن عنها في E.I.[2] II,p. 394-395 بعنوان Djahir (Banû). وتضبط طبعة بيروت للكامل في التاريخ الاسم بفتح الهاء: جُهَير (؟).

(٥٢) في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة.

(٥٣) ماري، ص ١٤٢.

(٥٤) (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢)، انظر E.I.[2], III, p.225-226, par M. Th. HOUTSMA

(٥٥) سقط العدد «١٠» من «١٨» في نص ماري، ص ١٣٧، س ٢١. ويلحظ في خلال حفل الرسامة سيامة الرئيس ابن الفتح سعد الله «بن نظام الملك»؟. عن مكيخا: ماري، ص ١٣٧ ـ ١٥٢، صليبا، ص ١٠٢، ابن العبري، ج ٢، العمود ٣١٠ ـ ٣١٢. توجد عناصر من الفصل الحاضر في مقالة لي بعنوان: Makkiha 1er et Ibn al-Wâsitî في Le Muséon, 91 (1978), p. 449-471.

(٥٦) إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٢١.

٢٨ ـ المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢/١٠٩٤ ـ ١١١٨)

كان أبو العبّاس أحمد المستظهر بالله في السادسة عشرة من عمره لّما خلف أباه في ظلّ سلطنة بركيارق،[١] وبدأ خلافة دامت أربع وعشرين سنة «لم يكد يؤتى له في تاريخها السياسيّ على ذكر يُذكر».[٢] وقد وزر عزّ الملك بن نظام الملك للسلطان بركيارق. أمّا وزير الخليفة فكان، في بداية الخلافة، عميد الدولة أبو منصور بن جهير التغلبيّ الذي ورثه الخليفة الشابّ عن أبيه المقتدي.

في العام نفسه، أي ٤٨٧/١٠٩٤، قتل طبيب مشهور يُدعى أبو نعيم (أو نُعَيم؟) بن ساوا الواسطيّ الذي يرجّح أن يكون نصرانيًا نظرًا إلى اسم أبيه. ولا نعلم شيئًا عن ظروف مصرعه ولا هل كان ذلك قبل خلافة المستظهر أم خلالها.[٣]

في العام التالي هدّم فيضان دجلة جدار قصر الخلافة من جهة الحريم، وقد أوقفت الحروب بين سلاطين السلاجقة أعمال الترميم، وكادت بغداد تصبح نهبة ليوسف بن آبق التركمانيّ من أمراء تاج الدولة تُتش[٤] الذي اكتسح المنطقة المجاورة.

نزاعات داخل الكنيسة

لن أعيد هنا ما قلته في موضع آخر[٥] عن السجال الكنسيّ الذي نشب بين مكيخا الجاثليق وابن الواسطيّ الراهب المتطبّب، والذي انتهى (في العام ١٠٩٧؟) بحرمان ابن الواسطيّ ثمّ بما أنزله الجاثليق به من عقوبة العمى «بمعجزة»، وهي عقوبة تعدُّ طفيفة إذا ما قيست بما أظهره مكّيخا، في أحوال أخرى، من مقدرة رهيبة على تعجيل آجال أعدائه بالدعاء عليهم.

في الحالة التي بين أيدينا أراد الجاثليق الإبقاء على حياة الطبيب ويبدو أنّ عماه كان مؤقتًا. وقد حاول ذوو النفوذ من أصحابه التدخّل للدفاع عنه، ذلك لأنّه كان آنئذٍ طبيب الخليفة المستظهر، وكان عظيم المنزلة عنده. فمن ذلك أنّ الطبيب لّما عجز عن الوفاء بدين قدره ألف دينار اضطرّ إلى رهن كتبه لقاء نصف المبلغ فدفع الخليفة النصف الثاني.(٦)

في هذا الوقت، أي بعد الحرمان في ما يبدو، تدخل قصر الخلافة لصالح الطبيب، فاستُدعي الجاثليق رسميًا من دار الروم، ووضع تحت الحراسة بدار في محلّة باب العامّة(٧) كانت لرجل يُدعى بدران فهروز. وقد مكث مكّيخا هناك، يصحبه واحد من تلاميذه فحسب ينام على الأرض مفترشًا شدّايته(٨) لا غير بانتظار المثول بين يدي الخليفة.

وعندما استحضره عميد الدولة بطلب من مولاه المعظّم، دار بين الرجلين حوار التزم فيه الوزير العظيم النفوذ جانب الاعتدال الحصيف لِما كان يعرفه من منازلته خصمًا يستمدّ من المقدرة على صنع الكرامات هيبة مرهوبة.(٩)

سواء أكانت لهجة الوزير، لهجة تأنيب أو اقتراح ودّي إذ قال: «لا يجوز أن تخالف أمير المؤمنين وتغضب طبيبه» يعني ابن الواسطي. فقد جاء ردّ الجاثليق بلا مواربة ملتهبًا: «لا يجوز أن يغضبني ويخالفني في ما أفعل، وأنا أمري عليه». لم يكن عميد الدولة معتادًا على أن يخاطب بهذه اللهجة، لـذلك حمي غضبه ونمّت عن الوعيد إجابته إذ قال: «إن لم تقبل منه، ما لك شغل في بلدنا». وكان ذلك يعني النفي إلى بلاد الروم المعادية. ولكن الجاثليق لم يَهَب التهديد بل أجاب: «إنّي إن مضيت من بلدكم فأمري ونهيي وما أحلّ وأعقد، فهو على حاله ولا يحسب أنّ هذا العهد الذي كتبتم لي أنا مولًى به وإنّما هو سنّة وعهد وإلاّ فأنا مولًى من السماء، وإن كان أمركم ونهيكم مائتي فرسخ فأنا أمري من مشرق الأرض إلى مغربها وأمّا هذا الطاغي يعني ابن الواسطي فلا يصحّ له صلاة إلاّ بذكري».

ولعلّ الوزير لم ينزعج من هذه الجملة الأخيرة بل ربّما وجد فيها مخرجًا لائقًا. على أيّة حال توقّفت المناظرة عند هذا الحدّ، ثمّ رفع الوزير تقريرًا خطيًّا إلى الخليفة

«وما أخلّ بحرف واحد». ولّما كان من غد ذلك اليوم ومثل ابن الواسطي بين يدي مولاه أحبّ الخليفة أن يستثبت منه صحّة زعم الجاثليق فسأله: «أنت إذا ما صلّيت تذكر في صلاتك الجاثليق فقال نعم. وقال له: ما يصحّ أن تخلّ بها؟ فقال ما يجوز...» فلمّا سمع الخليفة إقرار المذنب، أحس بأنّه قد حشر نفسه في قفير النحل، فصرف الطبيب قائلاً: «فإذا كان لا يجوز إلاّ أن تذكر اسمه في صلاتك فأيش يدخلنا نحن بينكم، ولا يجوز أن تخالفه؟» ثمّ وجّه في الحال ورفع الحراسة عن الجاثليق، فأطلق سراحه فعاد إلى دار الروم «وطاب قلبه».

كان ابن الواسطيّ حتّى ذلك التاريخ قد انزوى في كنيسته الأصليّة بمحلة العتيقة، حيث استمرّ في إقامة الصلوات وتوزيع القربان على جماعة من أصحابه مستهترًا بأمر الحرمان.

وقد توسّط الوزير في مصالحة الرجلين، فاستدعاهما إلى داره، وأمر ابن الواسطيّ بأن يقبّل يد الجاثليق، فاكتفى الجاثليق بهذا القدر، ولم يطلب منه أكثر ليرفع الحرمان.

ولم يطل الوقت حتّى حلّ عيد كنيسة العتيقة[10] «في منتصف الصوم الماراني»، فترأس الجاثليق الاحتفال واحتجب عنه ابن الواسطي. إلاّ أنّ القسّ الطبيب حضر يومًا مراسم دفن بعض أعيان النصارى حيث واجه الجاثليق فقبّل يده حسب العادة، ولكنّه لم يلبث أن غادر المكان. بعد ذلك نجده في كنيسة رعيّته بسوق الثلاثاء.

مُلك الفرنج بيتَ المقدِس

في حوالى هذه الفترة، أي في العام ٤٩٢/تموز ١٠٩٩، استولى الصليبيّون على بَيتِ المقدِس وأعملوا السيف والسبي في أهلها وركبوا شتّى صنوف الفظائع حتّى في حرم المسجد الأقصى. ولّما بلغ الخبر إلى بغداد بكى الناس بالمدينة كلّها، وهبّ خطباء المساجد كلّهم يستنهضون المؤمنين الى الجهاد[11]. ولكن ثمة أمر حري بالانتباه: لا ذِكر لأية حادثة ضد النصارى لا في تواريخ المسلمين ولا النصارى. وهذا من الأمور التي لا بدّ من ذكرها.[12]

ويجدر بنا في هذا المجال أن نلاحظ مع E. SIVAN[١٣] «أنّ الجهاد لم يكن له، طوال القرن الثاني عشر، أيّ تأثير في أحوال أهل الذمّة إلاّ إبّان حصار أنطاكية (١٠٩٨) وحصار حلب (١١٢٤)».

وقد تغيّر موقف عامّة المسلمين في العهد الأيوبيّ في مصر بخاصّة، إبّان فتنتي ١٢١٩ و١٢٤٢. في الفتنة الأولى، يبدو أنّ الملك الكامل كان يوافق على ما جرى من تعدّيات توقّع منها أن تخلق جوًّا مؤاتيًا لجمع المتطوّعين للقتال في دمياط، أمّا في الثانية فقد عاقب صلاح الدين مثيري الفتنة. وقد اندلعت، في دمشق سنة ١٢٥٠، وبعد أيّام من استسلام القدّيس لويس، «هبّة محدودة» أخرى من تلك الهبّات «التي تظهر في لحظات الهياج الشديد»، فقد انقلبت الجماهير المسلمة النشوانة على النصارى المحليّين الذين ربّما كانوا قد سوّدوا وجوه أصنامهم في كنائسهم حزنًا على هزيمة الفرنج.[١٤] لذلك نفهم أن يكون المسلمون قد ردّوا على ما اعتبروه استفزازًا.

في هذه الحالات كلّها كانت الفتن تعبيرًا عن ارتياب (ربّما كان له ما يسوّغه أحيانًا) من تعاون النصارى مع العدوّ، أمّا العامل الفعّال فهم عامّة المدن الكبرى يقودهم غالبًا خطباء أو وعّاظ متشدّدون، ولسنا، إذًا، أمام حملات اضطهاد تنظّمها السلطة. ويؤكّد هذا الأمرَ ما يبدو من تأسّف ابن القيّم (القرن ١٤) على تساهل الملوك، إذ يقول: «لو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنّيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال».[١٥] ولكن الحقيقة أنّ «ملوك الإسلام» كانوا على بيّنة من واقع الحال وكانوا يعرفون أنّ هذه الاتّهامات كانت باطلة في معظم الأحيان.

لذلك لم يتغيّر الموقف المبدئيّ لفقهاء ذاك العصر من جرّاء الحملات الصليبيّة. فقد ظلّوا يميّزون بين الموقف من نصارى الداخل وبين الموقف من نصارى الخارج، حتّى إنّ رجلاً من أكثر الناس حميّة للجهاد، مثل موفّق الدين بن قدامة (ت ٦٢٠/١٢٢٣) قد أفتى بوجوب رعاية ذمّة أهل الذمّة.[١٦]

ولكن، لنعد إلى بغداد.

فتنة أخرى

إنّ تاريخ حرمان ابن الواسطي (١٠٩٧) ومثله ظروف هذا الحرمان تجبرنا على تمييز قضيَّته هذه عن أزمة أخرى، أشدّ منها غموضًا، أدّت إلى إبعاد الجاثليق عن مقرّه لفترة قصيرة.

كانت مدينة الحلَّة إمارة يحكمها الغسّانيّ سيف الدولة[١٧] صدقة بن مزيد وكانت الملاذ العادي، في ذلك العصر، لِمن تضطرّه الظروف إلى الابتعاد عن بغداد كما رأينا من قبل عند الكلام عن بني الموصلايا.[١٨]

ولّما سُخِطَ على مكيخا الجاثليق أراد أن يستجير بأمير الحلَّة العربيّ الذي كان الخليفة يحتاج كثيرًا إلى قوّته ليصون هيبة الخلافة في وجه سلاطين التركمان وأمرائهم. بيد أنّ رجلاً يُدعى ابن حبشي[١٩] اعترض على ذلك وحمله على مغادرة الحلَّة. لا ريب أنّ مكيخا قد استنزل الغضب الإلهيّ على غريمه، فانهدمت داره. ولكن الجاثليق اضطرّ إلى التفتيش عن ملاذ آخر.

هل اندفع عندئذٍ جنوبًا حتّى وصل إلى بلدة النيل؟[٢٠] هذا ما لا نستطيع البتُّ فيه. وفي أثناء انتباذه من بغداد حاول الحزب المناوئ له، في طائفته نفسها، أن يستقدموا يشوع يهب مطران نصيبين لينصِّبوه جاثليقًا بدلاً منه. أمّا مكيخا الذي كان غادر بغداد لتوّه في طريقه إلى الحلَّة، فقد كان بالمدائن، على بعد ٣٥ كلم، لّما بلغه الخبر، فأقبل يصلّي. ولّما نهض من صلاته قال: «قضيت الحاجة ومات الرجل»، يعني المطران. وكان هذا قد توقَّف في طريقه من نصيبين إلى بغداد، عند دير مار ميخائيل قبل دخوله الموصل، أي على مسافة أربع مئة كلم ونيِّف من الموضع الذي كان فيه الجاثليق، فمات هناك.

أمّا مكيخا فقد رجع، بعد مدّة من النيل إلى بغداد. ولن أعود هنا إلى كراماته «الانتقاميّة»[٢١] (فثمّة ست جثث مسجّلة في ملفّه) ولا إلى مصنّفاته المكتوبة، فقد درس هذان الأمران في مقالة Le Muséon المذكورة آنفًا.

عود إلى ابن الواسطي

هل كان لطبيب الخليفة ضلع في أزمة ١١٠٤ ـ ١١٠٥ الجديدة وإبعاد

الجاثليق مؤقّتًا؟ على أيّة حال حصل ابن الواسطي سنة ١١٠٥ (في ٢٩ آذار تحديدًا) «لقربه من الخدمة الشريفة الإمامية المستظهريّة[٢٢] وخدمته للجوانب المحترمة وأفعاله المرضيّة الحسنة» على إعفاء النصارى ببغداد من لبس الغيار.

بهذا العمل كان الطبيب يحقّق نبوءة مكيخا بأنّه سيؤدّي خدمات جلّى للنصارى، ولكن توقيت هذه الخدمة يربكنا. لّما كان أمر العفو لا يوافق تغيّر الخليفة ولا تبديل الوزير (كان قوام الدولة في الوزارة منذ أيّار ـ حزيران ١١٠٣) فقد يجوز لنا الظنّ أنّ الطبيب قد أجّل تدخّله متعمّدًا (لأنّ لبس الغيار كان مفروضًا منذ ١٤ عامًا) ليبيّن نفوذه (؟) أو ربّما اختار زمن السخط على الجاثليق ليبيِّن أنّه أقدر منه على التأثير في مصير جماعة النصارى؟ أيّة تكن الحال، فإنّ ماري المؤرّخ يخصّص ما يقارب الصفحة (وهذا نادر جدًّا) للثناء على مناقب القسّ المتطبّب «الذي كان أعجوبة زمانه». وهو يذهب إلى حدّ امتداح إخلاصه في «العمل بالترتيبات البيعيّة» (؟) والدفاع عن العقيدة (النسطوريّة) القويمة ضدّ «الفرق المباينة» أي ضدّ اليعاقبة والموارنة،[٢٣] تحديدًا.

تدلّ إشارة من ابن الأثير[٢٤] ترد تحت العام ١١٠٨/٥٠١ على أنّ مجد الدين أبا المعالي هبة الله بن المطّلب[٢٥] كان، في ما روي، يكثر من استعمال الذمّيّين في دواوينه. ولّما كانت عليه مآخذ أخرى طلب السلطان محمّد بن ملكشاه السلجوقيّ من الخليفة عزله. ثمّ لّما عدل السلطان عن موقفه، لأسباب نجهلها، وسمح للخليفة باستعادة وزيره، شرط عليه شروطًا منها: «العدل وحسن السيرة وأن لا يستعمل أحدًا من أهل الذمّة». ربّما كان من المفيد أن نعرف من أين جاء الضغط لفرض الشرط الأخير. فمن المستبعد أن يعزى ذلك إلى قرار مباشر يصدر عن السلطان، لأنّه لم يكن له من العمر إلاّ ستّة وعشرين عامًا ولأنّ الوزير عمل في خدمته هو من بعدما عزل من منصبه.

موت مكيخا وخلافته

مات مكيخا من بعدما عاد إلى دار الروم يوم الأربعاء ١٢ شعبان ١٧/٥٠٢ آذار ١١٠٩. ولا تذكر المصادر شيئًا عن ظروف وفاته ولا عن سنّه يومئذٍ.

أمّا ماري الذي لم يزل متنازعًا بين إعجابه بابن الواسطي وبين خشيته من هيبة مكيخا (تراه يترحّم على كلّ منهما كلّما أتى على ذكر اسم أي منهما) فيختصر سيرة حياة الجاثليق بكلمات قلائل: «وما عرف له أمر يكره لا في صباه ولا في رهبنته».

وبعد وفاة مكيخا شغر كرسي الجثلقة مدّة سنتين من دون أن تذكر المصادر النصرانيّة سببًا لذلك. ولا سبيل إلى استقرائه من المصادر الإسلاميّة التي لا تتكلّم في تلك الفترة إلاّ عن وقائع الحرب مع الصليبيّين وتبديل الوزراء. ولا خبر أيضًا عن تفاصيل انتخاب خلفه.

XXVIII كان إيليّا بن المقلي(٢٦) مطران حزّة والموصل، ولم يبرز إلاّ يوم سيامته في ٥ شوّال ٥٠٤/١٦ نيسان ١١١١. وكان في مقدّمة الأعيان النصارى الذين حضروا سيامته القسّ «الأجلّ» أمين الدولة موفّق الملك أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم الغيائيّ المعروف بابن التلميذ، ساعور البيمارستان العضدي،(٢٧) ومعه زعماء الطائفة وجمهور النصارى.

نرى هنا واحدة من أشهر أسر الأطبّاء النصارى. وكان الذي صادفناه الآن ينتمي إلى بني غياث عن طريق أمّه، وكان يتقن السريانيّة واليونانيّة والفارسيّة والعربيّة، وصنّف تصانيف كثيرة في الطبّ(٢٨) ونظم قصائد عدّة (وكان يكاتب مرضاه نظمًا).(٢٩) وكان له ابن، هو رضيّ الدولة أبو نصر، مات مخنوقًا في بعض دهاليز داره. وقد عُمّر أمين الدولة حتّى أدرك جثلقة يشوع يهب البلديّ(٣٠) سنة ٥٥٩/١١٦٤، وكان آنئذٍ يناهز المئة عام.(٣١)

إلى الأسرة نفسها كان ينتسب طبيب شاعر آخر مشهور هو معتمد الملك (أو معتمد الدولة) أبو الفرج يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ،(٣٢) الذي عاش حتّى آخر خلافة المستظهر (حوالى ٥١٢/١١١٨) وكان له تلاميذ كثر في الطبّ، وأقام فترة في أصفهان. وقد أسلم المجد بن الصاحب،(٣٣) ابن أمين الدولة قبل وفاة أبيه، وهو الذي ورث أموال ابن عمّه المغدور وكتبه (حمل اثني عشر جملاً).

لا يجوز لنا الكلام عن هؤلاء الأطبّاء النصارى من غير أن نلمح إلى

المنافسات التي كانت تستشري بين جماعات أو أسر الأطبّاء. من ذلك أنّ أمين الدولة هبة الله بن التلميذ كان عرضة لافتراءات طبيب يهوديّ يُدعى أبو البركات هبة الله بن عليّ بن ملكا كان يشاطره خدمة الخليفة المستضيء. ولّما بيّن التحقيق الذي أمر الخليفة بإجرائه بطلان الافتراءات عُزِلَ ابن ملكا وأُبعد من الخدمة. وقد أسلم بعد مدّة، ونجده في ما بعد في خدمة الخليفة المستنجد.(٣٤)

لنلاحظ عابرين أنّه نظرًا إلى الجوّ العامّ المؤاتي الذي أوجده المستظهر، ونظرًا إلى الجوّ المحلّيّ المتسامح في ظلّ ولاية خصيٍّ أرمنيّ الأصل هو مجاهد الدين،(٣٥) توصّل المفريان ديونيسيوس موسى، بعد سنة ١١١٢، إلى أن يستحصل من الخليفة على الإذن بإعادة عمارة كنائس تكريت المهدّمة، أو على الأقلّ تلك التي ظلّت في يد النصارى منها. والظاهر أنّ ذلك لم يحرِّك دواعي اليعاقبة للعودة إلى المدينة التي هربوا منها، ولم يبق (ولأجل قصير) إلاّ جماعة صغيرة من النصارى في ما كان يعدُّ مركز القطاع الشرقيّ من الكنيسة السريانيّة المغربيّة.(٣٦)

مات الخليفة المستظهر سنة ٥١٢/آب ١١١٨، عن واحد وأربعين عامًا، ولِيَ الخلافة فيها مدّة أربعة وعشرين عامًا.(٣٧) ويثني ابن الأثير عليه بقوله: «وكانت أيّامه أيّام سرور للرعيّة، فكأنّها من حسنها أعياد»... على أيّة حال ربّما كان هذا صحيحًا حتّى بالنظر إلى النصارى، بعد أيّام أبيه.

الحواشي

(١) E.I.², I, p. 1083-1084, s.v., par CL. CAHEN.

(٢) الصفدي، الوافي، ج ٧، ص ١١٥٧، الرقم ٣٠٤٣، E.I.¹ III, p.825–826, s.v. par K.V. ZETTERSTEEN.

(٣) الكامل، ج ١٠، ص ٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٤، ٢٥٥.

(٥) Le Muséon, 91 (1978), p.449–471.

(٦) هذا، مع الأسف، الخبر الوحيد الذي يرويه عنه ابن أبي أصيبعة. ولكنّنا نجد في مصادر أخرى أنّ أبا سعيد المعوّج صاحب الديوان والمظفّر بن الدواتي الحاجب، ورجل ثالث يُدعى الركابي يتكلّفون الذهاب لزيارة الطبيب في داره.

(٧) ويذهب ماري (ص ١٥١) إلى أنّ هذه الدار «كانت مقطوعة الدرجة» (للتأكّد من استحالة هربُ السجين منها؟).

(٨) يقول PAYNE SMITH في معجم **Thesaurus** ، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢، مستشهدًا ببر عليّ، أنّ الشدّاية هي كالبرنس. ومعلوم أنّ البرنس القديم كان أقصر من البرنس المعروف اليوم، إذ كان يقتصر على تغطية الرأس والكتفين.

(٩) نذكر أنّ المنصور كان يعدُّ صلاة الأحبار مستجابة وغير مأمونة العواقب.

(١٠) لا ذكر لهذا العيد في قائمة أعياد أديرة بغداد التي يوردها الشابشتي في الديارات الطبعة الثانية، بغداد ١٩٦٦، ص ٣ ـ ٤، إلاُ أن يكون هذا هو دير الزريقيّة الذي لا يعرف عنه شيء والذي كان عيده يقع يوم الأحد الثاني من صوم النصارى الكبير، حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد.

(١١) **البداية**، ج ١٢، ص ١٥٦، على رواية ابن الجوزي. ربّما دعانا هذا إلى التخفيف من حدّة قول S. RUNCIMAN: «كان من شأن هذا التعبير عن التعصّب المسيحيّ الدمويّ أن يولّد ردّة فعل الإسلام المتعصّبة» في **History of the Crusades, I,** p. 287.

(١٢) يلاحظ كلود كاهن بحقّ: «أنّ مصير النصارى المقيمين داخل مملكة السلاجقة قد ظلّ من دون تغيير. فقد راعى السلاجقة، ورثة التقاليد الإسلاميّة السنّيّة، عهد الذمّة الشرعيّة الذي منحته دولة الإسلام لرعاياها غير المسلمين»، في **An Introduction to the First Crusade** الذي أُعيد طبعه في **Turcobyzantina et Oriens Christianus,** Variorum Reprints, Londres, 1974, B. p. 9.

(١٣) **L'Islam et la Croisade,** p.180–181. **Chrétiens sous les Ayyoubides,** p.124, 129–30.

(١٤) أبو شامة، **ذيل الروضتين**، تحقيق الكوثري، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٨٤.

(١٥) ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(١٦) إبن رجب، **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة**، تحقيق الفقّي، ج ٢، ص ١٤٦.

(١٧) لقد بيّن جورج المقدسي في: **Notes on Hilla,** p.249-59 أنّ المدينة كانت قائمة قبل سيف الدولة الذي ربطها باسمه وزيّنها، وأنّ بداية السلالة يجب أن ترقى إلى الأعوام ٣٤٥ ـ ٣٥٠ (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢).

(١٨) يقدّم **الكامل**، ج ١٠، أمثلة عدّة منها: زعيم الرؤساء أبو القاسم بن جهير سنة ١١٠٣، قبل أن يصير وزيرًا بلقب قوام الدولة (ص ٣٦٦). سديد، الوزير المعزول سنة ١١٠٣ أيضًا (ص ٣٧٧). الوزير أبو القاسم، من جديد سنة ١١٠٨ (ص ٤٣٨) إلخ. ويقول ابن الأثير هنا: «وكانت [دار سيف الدولة] ملجأ لكلّ ملهوف». وقد استمرّ دبيس بن صدقة، وكان من أجود أهل الأرض، في القيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به أبوه، حيال أبي الحسن أخي الخليفة المسترشد، مثلاً. أنظر مناقب المدينة، في هذا الشأن في كتاب **الفخريّ** لابن الطقطقي، ص ٣٠٢.

(١٩) نجد في الكامل، ج ١٠، ص ٤٣٠، بعد سنتين من هذه الحادثة رجلاً يُدعى حبشي بن جكرمش كان يملك على جزيرة بن عمر. هل الشخص المذكور هنا هو نفسه؟

(٢٠) صليبا، ص ١٠٢، (أثور المسيحيّة) Assyrie Chrétienne, III, p.252. وكان سرجيس أسقف بفُر والنيل والنعمانيّة قد حضر سيامته.

(٢١) واحدة فحسب من هذه الكرامات تتعلّق برجل غير نصرانيّ، بأمير تركيّ أقطع على ناحية السلاميّة بالخالص، فاستولى على بعض ضياع الجثلقة. فلمّا ضربه المرض اعتذر عمّا بدر منه وردّ المال فشفاه الجاثليق.

(٢٢) وفي هذا ردّ على سؤال جورج مقدسي الذي يقول (Ibn 'Aqil, p161): «إنّ المؤرّخين في حيرة من تفسير سبب» عفو الخليفة.... المنتظم، ج ٩، ص ١٤٣. البداية، ج ١٢، ص ١٦٤.

(٢٣) لا يذكر وجود هؤلاء في العراق إلاّ نادرًا. وعلى الضدّ من ذلك، لا كلام هنا عن الملكانيّة الذين نصادفهم كثيرًا في مواضع عدّة.

(٢٤) الكامل، ج ١٠، ص ٤٥٤.

(٢٥) وزر من المحرّم ٥٠١/آب ـ أيلول ١١٠٧ حتّى رجب ٥٠٢ أو ٥٠٣، الكامل، ج ١٠، ص ٤٣٨، ٤٧٠، ٤٧٨.

(٢٦) ماري، ص ١٥٢ ـ ١٥٣، صليبا، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢٧) إبن أبي أصيبعة، ص ٣٤٩ ـ ٣٧١. شيخو، شعراء، ص ٣١٥ ـ ٣٣٤ و٣٩٤ مع مصادر. وكان باب داره بسوق العطر إلى جانب الباب الغربيّ لقصر الخلافة في الشارع الذي ينزل إلى شاطئ دجلة.

(٢٨) له رسالة في الدفاع عن الإيمان المسيحيّ في مخطوطة فريدة هي مخطوطة: Diarbékir 193 (Catal. A. SCHER. dans J.A., Nov. Déc., 1907, p. 414–415) ولكنّها ليست في جملة المخطوطات التي وجدت حتّى اليوم، انظر: New Finds of Syriac Manuscripts in the Middle East, ZDMG, sup. I, vol. 2,1969, p.480.

(٢٩) ومن هؤلاء «المكاتبين» الكاتب النصرانيّ جمال الرؤساء أبو الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد البغداديّ، شيخو، شعراء، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

(٣٠) صليبا، ص ١٠٦.

(٣١) فقد كان يجلس مذ كان يزور الخليفة المقتدي، بسبب علوّ سنّه، ابن العبري، المختصر ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٣٢) شيخو، شعراء، ص ٣١٠ ـ ٣١٤ و٣٩٤.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٣١٨.

(٣٤) إبن أبي أصيبعة، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦.

(٣٥) إبن العبري، ج ٢، العمود ٣١٨.

(٣٦) يميل المؤرّخون من مغاربة السريان الذين يروي عنهم ميخائيل السرياني (ج ٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧) إلى التشاؤم في ما يتعلّق بهذه الحقبة: من ذلك أنّ ديونيسيوس بن صليبي أسقف آمد يتحدّث عن «أيّام الاضطراب التي نعيشها»، ومنه ما يكتبه يوحنّا أسقف كيسوم: «الأيّام منهكة، وقد ألمّ بجيلنا وهن عظيم لأنّ جماعتنا السريانيّة كلّها قد هلكت وسحقت».

(٣٧) **الكامل**، ج ١٠، ص ٥٣٤ - ٥٣٥. إبن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٣٧.

٢٩ ـ المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩/١١١٨ ـ ١١٣٥)

بدأ أبو منصور الفضل المسترشد بالله[١] بن المستظهر، سنة ٥١٢/١١١٨، خلافة دامت قرابة ثمانية عشر عامًا، استُهلّت منذ بدايتها بشعار الإصلاح. فقد أمر بكسر جرار الخمر التي كانت لأبيه، وطرد المغنّيات والمغنّين.[٢] على إثر حلم تراءى له فيه أنّ أباه ينذره بالابتعاد عن قبره لئلاّ يجتذبه إليه، استولى على قصر أبي طاهر يوسف بن أحمد الحزّي صاحب المخزن، من بعدما ألقى القبض عليه، فوجد فيه «كنيسة ومذبحًا وآلتهما» فلمّا سئل صاحب المخزن عن ذلك حاول أن يتنصّل من التهمة قائلاً: «لي امرأة نصرانيّة قد عملت ذلك من دون علمي».[٣]

في العام ٥١٥/١١٢١ نشهد أمرًا، صار مألوفًا بعد ذلك، ألا وهو التهديد بفرض السمات المميّزة من أجل ابتزاز أهل الذمّة، واعتصار المال منهم.[٤] أمّا صاحب هذه الفكرة الرائعة فكان السلطان محمود بن محمّد بن ملكشاه.[٥] إقترح الذمّيون على السلطان صفقة مربحة من بعدما هُدّدوا بلبس الغيار: فقد تقدّموا بدفع مبلغ من المال فقبل السلطان عشرين ألف دينار وخصّص أربعة آلاف أخرى للخليفة.

يحذّر جورج مقدسي من المبالغة في التبسيط التي ينطوي عليها القول إنّ الخليفة كان يقوم بدور «حامي الذمّة في وجه السلطان»: إذ قد رأينا أنّ الخليفة نفسه قد أخذ حظّه من المال الذي دفعوه.[٦]

ويذهب الباحث نفسه إلى استنتاج عام[٧] يبدو صحيحًا في معظمه، وإن كان لا بدّ لنا من التمييز بين السلاجقة أنفسهم وبين البعض من وزرائهم كنظام الملك،

الذي تعرّفنا إليه مثلاً. هاكم ما يقول جورج مقدسي: «لم يكن الحكّام السلاجقة يتحلّون بالتسامح حيال الأقليّات الدينيّة، بل بعدم الاكتراث».[٨]

«أمّا سوء المعاملة الذي كانت هذه الأقليّات تتعرّض له أحيانًا فيعزى إلى المكانة الاجتماعيّة الفعليّة الرفيعة التي كان يتمتّع بها اليهود والنصارى بسبب دورهم الإداريّ أو المالي لدى الحكّام. ولم يكن العلماء وهم لسان حال الشعب، يلاقون من الحكّام أذنًا صاغية لدعواهم ضدّ الأقليّات إلاّ كلّما كان هؤلاء الحكّام يجدون مصلحتهم في الإصغاء. فمن ذلك أنّه كلّما احتاج الحكّام إلى المال لم يكن عليهم إلاّ تهديد الأقليّات بتطبيق القيود، فيحصلون على المال. على أيّة حال لم يكن الموظّفون المسلمون أنفسهم بمنجاة من مصادرات الحكّام. وقد عانى اليهود والنصارى من المصادرات نفسها بوساطة هذه الأساليب. كان بذل الأموال يبطل فائدة تطبيق القيود التي كانت لا تميّز بين اليهود والنصارى. كان كلّ مَن يقدر على دفع الأموال يعاني أكثر من غيره، سواء أكان من النصارى أم من اليهود، ولم يكن للاعتبارات الدينيّة أي مدخل في هذا الشأن. لم يكن اليهود يخضعون لهذه التهديدات من حيث هم يهود، بل من حيث هم يملكون المال، مثلهم في ذلك كمثل الوزراء والعمداء والشِحنات والتّجار، وذلك كلّما احتاج الخليفة أو السلطان إلى المال».

الأغلب أنّهما كانا بحاجة إليه في العام ٥٢٥/١١٣٠، إذ إنّه قد أُعيد فرض القيود على الذمّة مجدّدًا.[٩]

وفي نهاية العام ٥٢٥/تشرين ١١٣١ مات الجاثليق إيليّا الثاني بن المقلي عن جثلقة دامت واحد وعشرين عامًا وسبعة أشهر. وكان هذا «الشيخ الفاضل العالم الماهر» الذي لا نعرف عنه إلاّ النزر اليسير، «قد حكم بالحقّ والنصفة بين القوي والضعيف والغنيّ والفقير».

إبن الواسطيّ جاثليق منتخب

لا نعرف شيئًا عمّا حلّ بالقسّ المتطبّب بعد وفاة الخليفة المستظهر سنة

١١١٨، ولا في أثناء جثلقة إيليّا الثاني خَلَفْ مكيخا. فقد دامت المفاوضات في ما بين أعيان العلمانيّين والمطارنة المسيمين، بشأن اختيار خلف لإيليّا، منذ وفاته في تشرين ١١٣١ حتّى أوائل حزيران ١١٣٢. وعندها وقع الاتّفاق على ابن الواسطي، فكتب له الشلموث وحمل إلى داره بسوق الثلاثاء. وبعد موعظة عبَّر فيها (حسب الأعراف) عن عدم استحقاقه لهذه الرتبة الرفيعة خلص إلى القبول، فترك منصبه وتطبيبه واعتكف في كنيسة محلّته بالعتيقة في غربيّ بغداد.

ولكن الأقدار ما شاءت أن يُسام ابن الواسطي جاثليقًا. فقد ألمت به وعكة بعد ثلاثة أيّام وانتابته الحمى، ثمّ أخذته بعد أسبوع، فمات يوم الاثنين ١٠ حزيران ١١٣٢، بعد ثلاثة وعشرين عامًا من وفاة خصمه مكيخا. وقد دُفن في كنيسة محلّته خلف البيم، إلى جانب والده. ويقول ماري عنه كما قال عن مكيخا، قبل الترحّم عليهما: «وما عرف له أمر يكره لا في صباه ولا في رهبنته».

برصوما الأوّل

XXIX جاء بعد إيليّا بن المقلي برصوما أسقف «مرعيث» ثمانين حيث نزل نوح، في ما يروى، من السفينة ومعه صحبه الثمانون. وكان برصوما رجلاً زاهدًا ورعًا تقيًا مشهودًا له بحسن تدبير رعيّته،(١٠) كما كان معروفًا برؤاه الصادقة.

لا تفاصيل لدينا عن انتخابه إلاّ منذ جاء ليُسام جاثليقًا ببغداد حيث كان قد نزل بدار أبي الفضل بن داود الكاتب بالبادرية. وفي الثامن من شوّال ٥٢٨/الأوّل من آب ١١٣٤ استقبله شرف الدين عليّ بن طراد الزينبي، وزير الخليفة المسترشد منذ سنة ٥٢٢،(١١) فخلع عليه طرحة(١٢) ودفع إليه عهد الخليفة بإقراره جاثليقًا، ثمّ عاد برصوما في موكب من الحجّاب وفرسان الأتراك إلى كنيسة سوق الثلاثاء. وبعد ثلاثة أيّام، في ١١ شوّال/ ٤ آب، جرت رسامته بالمدائن على ما جرت به العادة.

إنتهت جثلقة برصوما القصيرة (أقلّ من سنة ونصف) في خضمّ من الصعوبات. نهبت قلية دير الروم وكنيسته، وأخذت الكتب السريانيّة والعربيّة

والأثاث كلّه لأنّ الجاثليق لم يكن قادرًا على تلبية المطالب الباهظة المتذرّعة بـأتفه الأسباب. تراكمت عليه الديون ولم يكن له مال ليدفع، فتمنّى الموت وحنّ في حزن إلى أيّامه في نصيبين حيث كان ينعم بالهدوء والاعتبار. فغادر دار الروم ولاذ بكنيسة سوق الثلاثاء مختبئًا، ثمّ مات هناك في ربيع الآخر ٥٣٠/كانون الثاني ١١٣٦.(١٣)

قبل ذلك بـأشهر قـلائل، في ذي القعـدة ٥٢٩/آخر أيلول ١١٣٥، قتـل الخليفة المسترشد(١٤) غيلة في حبس السلطان مسعود، ومثّـل بجثته وكـان له من العمر ٤٠ عامًا وولي الخلافة أقلّ من ١٨ عامًا.(١٥)

الحواشي

(١) البداية، ج ١٢، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ E.I.¹, III, p.824, par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) نقرأ في تاريخ ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٢٢١: «وقد وقعت على العرب بلبلة واضطراب حتّى صاروا يقولون: هؤلاء مَن نصّبهم الناس أمراء للمؤمنين ينغمسون في المحرّمات. ولا عجب بعد هذا أن يزول الملك من يد العرب».

(٣) الكامل، ج ١٠، ص ٥٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٩٥، المنتظم، ج ٩، ص ٢٢٨.

(٥) E.I¹, III, p.138–139, par M. Th. HOUTSMA

(٦) Ibn'Aqil, p.147

(٧) المرجع نفسه، ١٦١ ـ ١٦٢.

(٨) وفي وسعنا تأييد هذا إذا رجعنا إلى ما يكتبه ميخائيـل السريانيّ، ج ٣، ص ٢٢٢: «إنّ الترك... الذين لا يفقهون شيئًا من الأسرار المقدّسة ويعدّون النصرانيّة ضلالة لأجل ذلك، لم يكن من عادتهم الاستخبار عن العقائد ولا اضطهاد أحد بسبب عقيدته كما كان يفعل الـروم الأشرار الهراطيق». ويستشهـد O.TURAN بهـذه الفقـرة ليـبرز «التفهّم الـواسـع» و«التسامح» الذي تحلّى به الترك «حيال الأعراق والأديان الأجنبيّة» (ص ٦٥ ـ ٦٦). ويرى هذا المؤلّف أنّ كلّ «الهفوات» التي قد نقع عليها في ذلك العصر، إنّما كانت تحصل خارج بلاد الأناضول، أي خارج قلب المملكة السلجوقيّة.

(٩) المنتظم، ج ١٠، ص ٢٠، Ibn'Aqil, p.161

(١٠) ماري، ص ١٥٣ ـ ١٥٨. صليبا، ص ١٠٤ ـ ١٠٥. إبن العبري، ج ٢، ص ٣٢٨.

(١١) الكامل، ج ١١، ص ٢٦.

(١٢) دوزي، **المعجم المفصل**، ص ٢١٢.

(١٣) وقد مات بذات الرئة على قول ماري. أمّا ابن العبري فيروي في **تاريخ الزمان**، ص ١٤٧، تحت العام ٥٢٩ (؟) وفاة جاثليق النساطرة ويسمّيه «برجبارا» (بدلاً من برصوما). وهو على هذه الرواية قد خرج إلى البستان ليلاً فوطئ حيّة فلدغته. وذكر بعضهم أنّ الحيّة لم تلدغه لكن الرعب قضى على حياته».

(١٤) ثمّة روايات أخرى عند ابن **الطقطقي**، ص ٢٤٣. ويقول هذا الكاتب إنّه رأى قبر الخليفة في مراغة سنة ٦٩٧/١٢٩٧ ـ ١٢٩٨.

(١٥) **الكامل**، ج ١١، ص ٢٧ ـ ٢٨، ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٣٧.

٣٠ ـ الراشد (٥٢٩ ـ ١١٣٥/٥٣٠ ـ ١١٣٦)

كان أبو جعفر المنصور الراشد بالله، بن المسترشد صنيعة من صنائع الوزير شرف الدين عليّ بن طراد الزينبي،[1] وكان في الثانية عشرة من عمره لّما أخذت له البيعة بالخلافة. وقد استمرّت في خلافته القصيرة المناوشات بين الأمراء، ولم يطل الوقت بالخليفة الصغير حتّى فرّ من بغداد هربًا من السلطان مسعود.

وقد اجتُهِدَ في توجيه الفتاوى في خلعه، فكان من جملة ما نقم عليه: «أنّه خرق حرمة جواري أبيه وشرب الخمر وترك الصلاة ولعب بالكعاب وتمادى في الظلم والغدر وسفك الدماء الزكيّة».[2]

مضى الخليفة الصغير المخلوع إلى الموصل أوّلاً حيث أنزله عماد الدين زنكي في ضيافته إلاّ أنّه ما لبث أن قُتل غيلة بظاهر أصفهان.[3]

لا تأتي المصادر على ذكر النصارى الذين عانوا، كغيرهم، من جور العساكر المتخالفة، ومن انعدام الأمن بين معركتين، إذ كان العيارون ينطلقون ويعيثون في الأرض فسادًا.[4] لذلك نفهم لِمَ عجز برصوما الجاثليق عن دفع الإتاوات التي طلبت منه كلّها، ولِمَ لم يكن في وسع الأقليّة النصرانيّة، خلال تلك الفترة المضطربة، إلاّ الاحتماء ببعض زعماء العصابات من «فتوّات» الحيّ وتلبية طلباته كلّها.

الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٢.

(٢) الكامل، ج ١١، ص ٤٢ ـ ٤٣، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) الكامل، ج ١١، ص ٦٢ ـ ٦٣. يلاحظ ابن الأثير في هذا الشأن أنّ كلّ سادس من الخلفاء كان يخلع وربّما يقتل، ويورد قائمة بذلك.

(٤) الكامل، ج ١١، ص ٤٥. ويعدُّهم محمّد أركون في كتابه عن مسكويه، ص ١٦٤ «من الطبقات الخطرة... المؤلّفة من صغار الناس المستبعدين غالبًا من الوظائف ومن كل مشاركة منتظمة في مكاسب الحياة... [وهم] السند الاجتماعيّ الفعّال للحنابلة والشيعة المناضلين». أمّا Herbert MASON فيقدّم في الصفحة ١٢٩ من **Two Statesmen of Medieval Islam,** La Haye- Paris, 1972 صورة مثاليّة عنهم ويشبّههم بروبن هود في الفضل والانتصاف للفقراء من الأغنياء. الدراسات الأساسيّة في هذا الموضوع هي دراسات Cl. CAHEN في E.I.[2] بعنوان عيّارون، فتوة، حماية وما يحيل إليه كاهن في ختام كلّ من هذه المقالات. نجد قائمة بالأخبار المتّصلة بالعيارين ببغداد في Mouvements populaires, **Arabica,** VI, (1959), p.25–26.

٣١ ـ المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥/١١٣٦ ـ ١١٦٠)

أبو عبدالله محمّد، أخو المسترشد[١] وعمّ سلفه المخلوع، بويع له بالخلافة في العام ٥٣٠/أيلول ١١٣٦، ولقّب بالمقتفي لأمر الله.[٢] وكان الحسين بن عمرو كاتبه وعليّ بن الراهبة طبيبه نصرانيّين.[٣]

بعد أحداث «يطول ذكرها» كان من جرّائها بقاء كرسي الجثلقة شاغرًا مدّة سنتين، اختير لخلافة برصوما الذي مات في كانون الثاني سنة ١١٣٦، مرشّح نافسه على الجثلقة من قبل، هو مطران باجرمي.

XXX عبد يشوع بن المقلي[٤] الموصلي. وكان الوزير شرف الدين بن طراد الزينبي[٥] قد تدخّل لترجيح كفّته.

عندها صار من الممكن الشروع في مراسم التولية من قبل الخليفة: خلع الطرحة (كما ذكرناه عند تولية برصوما)، العهد[٦] وموكب التشييع بالحجّاب والأتراك، بقيادة حسّام الشرف (كذا) أبي الكرم بن محمّد الهاشمي[٧] صاحب الشرطة (كان هذا الموكب إذن أعلى رتبة من موكب برصوما).

جرت رسامة عبديشوع الثالث في ٧ ربيع الأوّل ١٣/٥٣٣ تشرين الثاني ١١٣٨.[٨] في الشهر نفسه أزال السلطان مسعود، عند نزوله ببغداد، المكوس «وتقدّم أن لا ينزل جنديّ في دار عاميّ من أهل بغداد إلاّ بإذن، فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان».[٩]

في هذه الفترة بدأ الخليفة يتحرّك للتحرّر من سيطرة السلاجقة مستغلاً انقساماتهم.[١٠]

ثمّ استفحلت إتاوات العيّارين وبلغت ذروتها حتّى إنّ إعادة تولية شحنكيّة بغداد لرجل شديد حديد كمجاهد الدين بهروز في العام ٥٣٦/١١٤١ ـ ١١٤٢، لم تعد تكفي للقضاء عليهم. ذلك لأنّ ولد الوزير شرف الدين وابن القاورت أخا امرأة السلطان مسعود كانا يبسطان حمايتهما على العيّارين ويقاسمانهم المكاسب.(١١)

كان لا بدّ من انتظار العام ٥٣٨/١١٤٣ ـ ١١٤٤ لكي يأتي مملوك صارم اسمه إيلدكز كان نائبًا على شحنكية بغداد فيحصل من السلطان على الإذن بضرب العيارين وكبس «عقيدَيهم» ابن القاورت وابن الوزير. فأُخذ أخو زوجة السلطان وصلب وهرب ابن الوزير «ورئي ابن قاورت مصلوبًا فهرب أكثر العيّارين وقبض على مَن أقام وكفي الناس شرّهم».(١٢)

في هذه الأثناء استمرّت جثلقة ابن المقلي، في ما يبدو، من دون أحداث تذكر. وقد تمكّن من إعادة عمارة بعض المباني وبخاصّة مباني دار الروم، وهذا يدلّ على أنّ تلك الفترة كانت هادئة. على أيّة حال، تثني مصادرنا على حسن تدبيره وتنتقد بخله وحبّه لجمع المال. كان قليل التصدّق على الفقراء والمساكين، وربّما كان مردُّ ذلك إلى خشيته من أن تركبه الديون كما ركبت سلفه.

فلج عبديشوع وعجز عن الكلام ورأى نفسه يموت فبكى على اضطراره إلى مفارقة هذا العالم، ثمّ فارق في جمادى الثانية العام ٥٤٢/٢٥ تشرين الثاني ١١٤٧، عن جثلقة دامت أقلّ من عشر سنوات.

أحوال النواحي الغربيّة من المملكة

لم نتحدّث عن القسم الغربيّ من الكنيسة السريانيّة أكثر ممّا يتحدّث مؤرّخ من ذلك القسم (كالبطريرك ميخائيل) عن بغداد، وذلك لأنّ مشكلات المغاربة من السريان تختلف كثيرًا عن مشكلات المشارقة منهم. لقد كان يحكمهم أمراء مسلمون محلّيون صغار، منقسمون بعضهم على بعضهم، مشتغلون بصراعات ضدّ الصليبيّين (أو معهم) الخ.

وثمّة حدث يحتلّ مكانًا عظيمًا في أخبار المغاربة من السريان، إنّه فتح الرها

على يد زنكي سنة ١١٤٥. إنّ الكلام عنه ليبعدنا عن موضوعنا[١٣] لولا أنّ مظهرًا من مظاهر ردّة فعل النصارى على تلك النكبة يكشف لنا عن مواقفهم من نكبات كهذه.

فقد نشأ عندئذٍ سجال عظيم بين النصارى: «هل تأتي التجارب وتنزل البلايا والكوارث بمشيئة الله أم لا؟». إنّها على وجه الإجمال مشكلة الشرّ القديمة التي انقسمت حولها آراء المفكّرين السريان في ذلك العصر[١٤] (يُذكر يوحنّا الماردينيّ، ديونيسيوس برصليبي، باسيليوس برشمانا).

ويتطرّق ميخائيل السريانيّ نفسه، غالباً، إلى هذه المسألة، وهو يختصر حجاجه في ما يتعلّق بحادثة أهل حصن زياد الذين غرقوا لدى عبورهم الفرات للمجيء إلى عيد مار اغريبا (ببلاد جوباس) في تشرين الأوّل ١١٥٢، إلى حجج ثلاث:

- الحجّة الأولى: إنّه يجب الامتناع عن محاولة سبر حكمة الله في خلقه.
- الثانية: ربّما كان البلاء عقوبة، لأنّ أعياد الأديرة كانت في معظم الأحيان مناسبات للهو أكثر ممّا كانت مناسبات للصلاة.
- الثالثة: إنّ الضحايا لم يذهبوا سدى، على أيّة حال، فالوثنيّون يهلكون، أمّا المؤمنون فلا... ولكن لنعد إلى بغداد.

حدود التسامح

شهد العام ١١٤٩/٥٤٤ (أي خلال خلوّ كرسيّ الجثلقة) وصول الوزير الحنبليّ أبو مظفّر يحيى بن هبيرة،[١٥] الملقّب بجلال الدين ثمّ بعون الدين. وكان من بين شيوخه الشيخ الفيلسوف أبو منصور الجواليقي (ت ٥٤٥/١١٥٠)، الذي تروى[١٦] عنه وخزة غير مباشرة وجّهها الخليفة المقتفي إلى أمين الدولة بن التلميذ الطبيب المشهور ذي الفضل والأدب الغزير: ذلك أنّ الشيخ لّما استعمل في تحيّة الخليفة صيغة غير معهودة استجرأ الطبيب النصرانيّ على تنبيهه إلى ذلك. فما كان من الجواليقي إلاّ أنّ توجّه بالكلام إلى الخليفة، من غير التفات إلى ابن التلميذ،

وقال: «يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنّة النبويّة» ثمّ استغلّ مزيّته على الطبيب فأضاف هذه الكلمات غير الودودة: «يا أمير المؤمنين، لو حلف حالف أنّ نصرانيًا أو يهوديًا لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المرضي لما لزمته كفّارة الحنث لأنّ الله تعالى ختم على قلوبهم ولن يفك ختم الله إلاّ الإيمان» فأثنى عليه الخليفة قائلاً: صدقت وأحسنت في ما فعلت! وكأنّما ألقم ابن التلميذ حجرًا مع فضله وغزارة أدبه». نجد هنا مرّة أخرى تطبيق مفهوم «حدود التسامح» التي لا يجوز للذمّيّ تجاوزها من غير رادع.

وعلى العكس من هذا نجد الطبيب النصرانيّ نفسه، أمين الدولة بن التلميذ يتطاول إلى ملامة السلطان مسعود على قلّة اكتراثه له مستعملاً عبارات جريئة جدًا.

يظهر الخبر، كما يرد في كتاب الفخريّ،(١٧) السلطان مسعودًا في مظهر صيّاد كبير يزيّن كلابه بثياب من الحرير المطرّز والأساور، بينما لا يبالي إلاّ قليلاً بطبيبه ولذلك أنشد الطبيب قائلاً:

مَن كان يُلبِس كلبه وَشيًا ويقنع لي بجلدي
فالكلب خير عنده منّي وخير منه عندي

ولا يذكر صاحب الفخريّ أنّ السلطان قد سخط لهذا القول.

وفي حوالي العام ١١٣٧ تذكر المصادر خبرًا عن واحدة من أتعس حالات المروق من الدين والارتداد المتكرّر، وكأنّه من علائم اضطراب ذلك الزمن: فقد عُيِّن راهب من مغاربة السريان، اسمه هارون السجستانيّ(١٨) من دير مار متى، أسقفًا على الحدث من «بلاد الروم»، فأسلم في ظروف لا نعلم عنها شيئًا،(١٩) ثم ارتدّ إلى النصرانيّة تائبًا فلم يُقبل في أبرشيّته. بعد ذلك لحق بالقسطنطينيّة وصار على مذهب الخلقيدونيّين (الملكانيّين). وإذ عاد إلى كنيسته أذن له بطريركه بإقامة القدّاس ولكن المفريان لام البطريرك على هذا الإذن. فلمّا علم هارون بذلك أسلم للمرّة الثانية ثمّ عاد إلى مذهبه ومضى إلى القدس فرفضه مغاربة السريان، فأصعد إلى لبنان حيث قبل به الموارنة ومات هناك. ولا يبدو أنّ ارتداده مرّتين عن الإسلام قد أثار أيّة ردّة فعل لدى السلطات الإسلاميّة.

يشوع يهب (الخامس) البلديّ

XXXI كانت رسامة يشوع يهب المسمّى ابن الحائك[٢٠] جاثليقًا يوم الأحد الثاني من تكريس البيعة سنة ١١٤٩.[٢١] وينسب اختياره إلى «أبي منصور (؟) الطبيب المشهور بن الكاتب الحكيم».

بدأت جثلقة ابن الحائك بسنة خير وخصب، سنة ١١٥٠/٥٤٥، شوهد فيها أهل السواد يرجعون إلى ضياعهم.[٢٢] ولكن السنة التالية جاءت بوباء اكتسح بغداد.[٢٣]

شهدت السنوات اللاحقة استغلال الخليفة المقتفي صراعات السلاجقة في ما بينهم، في محاولته لتوسيع رقعة نفوذه. وقد حالفه النجاح في الحلّة وواسط ولكنّه أخفق مرّتين أمام تكريت.[٢٤] «وهو أوّل مَن استبدّ بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه. . . من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن» على قول ابن الأثير.[٢٥] ولعلّ ذلك يعزى إلى شجاعة المقتفي الشخصيّة، وإلى إدارة ابن هبيرة الوزير، وإلى بسط يد صاحب الخبر، مثلما قد يعزى إلى الظروف: موت السلطان مسعود سنة ١١٥٢/٥٤٧، وهزيمة السلطان سنجر في السنة التي أعقبتها.[٢٦] وقد كان ذلك علامة على زوال نفوذ السلاجقة في رأي جورج مقدسي.

يقوِّم G. WIET[٢٧] العصر السلجوقي من حيث العلاقة بالنصارى على الوجه التالي: إنّ «سلاطين الإسلام»، فرسان المذهب السنّيّ الحنفي، قد اضطهدوا حتى الشوافع «الذين نظّموا نظام عقائد كان موجّهًا بلا شك لمناهضة البدع، ولكنّه أدخل في الإيمان عنصرًا عقلانيًا. . . عُدَّ تطاولاً على عقيدة السلف الصالح». ولقد كان من المنطقيّ أن يضطهدوا النصارى كذلك (مثلما فعل المتوكّل من قبل) لأنّهم كانوا هم أيضًا مسؤولين عن تلك «الانحرافات». إلاّ أنّ الأحوال كانت قد تغيّرت، وكان النصارى في ذلك الوقت أضعف من أن يكونوا خطرين. ولئن لم يبق في تلك الحقبة إلاّ الأطبّاء وتناقص عدد الكتّاب كثيرًا فإنّ مَن كان منهم لا يزال في مناصب يحسد عليها، فهؤلاء كانوا قد تعلّموا كيف يظهرون بمظهر أكثر تواضعًا. . .

وإذا زلّت قدم بعضهم فتعدّى طوره، فقد كان ثمّة من ينبّهه: وقد مرّ معنا، منذ قليل، ما كان من أمر ابن التلميذ مع الشيخ الجواليقيّ.

الأطبّاء من بني الأثردي

في خلافة المقتفي كان الطبيب النصرانيّ أبو الغنائم سعيد بن هبة الله الأثردي[٢٨] ساعور البيمارستان العضدي. وكان والده هبة الله بن عليّ بن الحسين، المكنّى أيضًا بأبي الغنائم طبيبًا وفيلسوفًا وكانت له مصنّفات في الطبّ والفلسفة، ومات حوالي العام ١٠٨٠. وقد ألّف أبو الحسن عليّ، أخو سعيد وابن هبة الله كتابًا في الطبّ لزميل نصرانيّ له سنتعرّف إليه عمّا قليل.

وفي الجيل الثالث نصادف أبا عليّ الحسن بن عليّ المذكور، أمّا سعيد فقد خلّف ابنًا اسمه أبو الحسن عليّ كان لا يزال حيًّا سنة ١١٨٤.

أمّا الطبيب الذي ألمحنا إليه فهو أبو العلاء محفوظ بن المسيحيّ بن عيسى، المعروف بالنيليّ نسبة إلى مسقط رأسه، أو بالواسطيّ نسبة إلى نزوله بواسط: وكان أديبًا شاعرًا ومات سنة ٥٦٠/١١٦٥.[٢٩]

ثمّة خبر عن طائفة اليعاقبة ينمّ عن الاستقرار الذي خيّم على بغداد سنة ١١٥٢: ففي تلك السنة رمّم المفريان إغناطيوس لعازر كنيسة مار توما ببغداد.

وعلى الضدّ من ذلك واجه هذا المفريان نفسه بعض المتاعب[٣٠] سنة ١١٥٩، بسبب قسّ، يُدعى إبراهيم، أراد خلع زوجته المسنّة ليتزوّج امرأة شابّة. ويذهب ميخائيل السريانيّ إلى أنّ هذا القسّ قد تسبّب في قضيّة تل أعفر بالتواطؤ مع سلطات الموصل.

كانت هناك فتاة أحبّت البقاء على نصرانيّتها من بعدما أسلم أبوها. وقد وافق قساوسة تل أعفر على تكريس زواجها النصرانيّ من بعد مراجعة إغناطيوس لعازر المفريان. ولكن السلطات المدنيّة تدخّلت فور تلقّيها الخبر. فألقي المفريان المسؤول في السجن وأهين ثمّ افتدي بعد أربعين يومًا بثلاث مئة دينار. وقد ظلّت الفتاة، التي ألقيت في السجن أيضًا، متمسّكة بإيمانها الراسخ، ثمّ ترهّبت ودخلت ديرًا

بالقدس من بعدما أفرج عنها. وقد نظمت قصائد سريانيّة عدّة في قصّة هذه الفتاة بحيث عوقب القسّ المفتري عليها عقوبة إلهيّة (طبعًا) ومات بعيد ذلك بقليل.(٣١)

حوصر الخليفة في عاصمته من العام ٥٥١ حتّى ربيع الأوّل ٥٥٢ لأنّه رفض إعلان محمّد بن محمود، حفيد ملكشاه سلطانًا. وقد أعان العامّة الخليفة واستعملوا النار الإغريقيّة في دفع المهاجين. ثمّ آل الأمر إلى انسحاب السلطان من تلقاء نفسه لأنّه اضطرّ إلى محاربة أخيه الذي استولى على همذان.

بيد أنّ العاصمة التي خلصت من الحصار وقعت فريسة وباء وحرائق مدّة شهرين.(٣٢) أمّا الخليفة فقد مرض سنة ٥٥٤ مرضًا شفي منه وزيّنت لشفائه بغداد(٣٣) فرحًا، ثمّ توفّي في السنة التي أعقبتها في ١٢ آذار ١١٦٠(٣٤) مخلّفًا ذكرى رجل عادل «فرح به المسلمون»(٣٥) ويذهب أبو طالب الهاشمي(٣٦) إلى أن «أيّام المقتفي كانت نضرة بالعدل، زاهرة بفعل الخيرات، وكان على قدم من العبادة قبل إفضاء الأمر إليه، وكان في أوّل أمره متشاغلاً بالدين ونسخ العلوم وقراءة القرآن، ولم يُر - مع سماحته ولين جانبه ورأفته - بعد المعتصم خليفة في شهامته وصرامته وشجاعته مع ما خُصّ به من زهده وورعه وعبادته ولم تزل جيوشه منصورة حيث يمّمت».

ونضيف مع ابن الجوزي أن بغداد والعراق قد لبثا منذ ذلك الوقت في حوزة الخليفة.

الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٢، يورد ابن الأثير قائمة بخلفاء كانوا أخوة، اثنين، ثلاثة، اربعة.

(٢) E.I.[1], III, p. 765, par K.V. ZETTERSTEEN

(٣) زيات، أسماء، ص ٣، ولا يذكر مصادره.

(٤) ماري، ص ١٥٦ - ١٥٨ (وهذه أخر ترجمة عنده). صليبا، ص ١٠٥ - ١٠٦. ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٢٨.

(٥) يصحّح ماري، تحقيق جيسموندي، ص ١٥٨، س ٤، حيث نجد «ابن طازاد الربيي».

(٦) نجد نسخة من هذا العهد في ماري، ص ١٥٨، ونجد جزءاً من النص في، H.F. AMEDROZ, The Tadhkira of Ibn Hamdun, in JRAS, 1908, p. 467-470.

وثمّة نسخة عن عهد جاثليق في مقالة A Nestorian Diploma of Investiture from the Tadkira of Ibn Hamdun: LAWRENCE I. CONRAD في دراسات عربية وإسلاميّة مهداة إلى إحسان عبّاس، الجامعة الأميركيّة في بيروت ١٩٨١، ص ٨٣ - ١٠٤.

(٧) هل هو نفس الشريف أبو الكرم والي بغداد العام ١١٣٨/٥٣٢؟ **الكامل**، ج ١١، ص ٦٣.

(٨) في ذي الحجّة/ آب - أيلول من السنة نفسها قتل واحد من أشهر عياري بغداد، هو ابن بكران، **الكامل**، ج ١١، ٦٣ - ٦٤.

(٩) **الكامل**، ج ١١، ص ٧١. لعلّه نفس كمال الدين أبو الفتوح محمد بن علي بن طلحة الذي ابتنى المدرسة الكامليّة العام ٥٣٥. وقد تصوّف العام ٥٣٦ بعد عوده من الحج، **المصدر نفسه**، ص ٨٠، ٨٩.

(١٠) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٥٥، في العام ١١٣٩/٥٣٤.

(١١) **الكامل**، ج ١١، ص ٨٩.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٥.

(١٣) ولكن لا بدّ من الإشارة مرّة أخرى إلى حياد المؤرّخ الرهاوي المجهول الذي يثني (ص ٩٩) على الأتابك عماد الدين زنكي (ت ١١٤٦) لأنّه قبّل الإنجيل، فيما روي، عندما استقبل في المدينة.

(١٤) **ميخائيل السرياني**، ج ٣، ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

(١٥) أخذ الوزير دار القوارير من ابن التلميذ ثم أمر الخليفة بأن تردّ إليه إثر «تماجن الطبيب في حضرته» ياقوت، إرشاد، ج٧، ص٢٤٣. R. LEVY, **A Baghdad Chronicle** P.165, citant.

(١٦) ابن خلكان، **وفيات**، ج ٥، ص ٤٤٢ - ٤٤٣، **السيوطي**، ص ٤٤٢.

(١٧) **الفخري**، ص ٤٦.

(١٨) **ميخائيل السرياني**، ج ٣، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٣٠١. يلمّح برصليبي إلى أنّ «الكثيرين تركوا دينهم قهرًا.. تحت نير الأثوريّين» يعني إبّان حكم الأتابك زنكي أمير الموصل (؟).

(٢٠) حسب ناسخ أخبار ماري، ص ١٥٨، صليبا، ص ١٠٦ - ١١٠. **ابن العبري**، ج ٢، العمود ٣٣٠.

(٢١) وهذا لا يوافق العام ٥٤٢ للهجرة، الذي يذكره ابن العبري.

(٢٢) **الكامل**، ج ١١، ص ١٤٦.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ١٥٢.

(٢٤) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ١٧٠.

(٢٥) الكامل، ج ١١، ص ٢٥٦.

(٢٦) مصادر ومراجع في **Ibn 'Aqil**, p. 147 والحواشي.

(٢٧) **Soleries Persanes**, p. 199

(٢٨) عن بني الأثردي انظر ابن أبي أصيبعة، ص ٣٩٩ - ٤٠١، وأيضًا G. TROUPEAU, Recherches sur un médecin philosophe de Baghdad: Ibn Atradi, dans **Mémorial Mgr. G. Khouri-Sarkis**, Louvain, 1969, p. 259-262; S.KHALIL.dans **Islamochristiana**, 2 (1969), p. 215-216.

(٢٩) شيخو، شعراء، ص ٣٣٥ - ٣٤١.

(٣٠) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣١٦ - ٣١٧. ابن العبري، ج ٢، ص ٣٤٨. مقال للمطران بولس بهنام في مجلة لسان المشرق الموصليّة، المجلد ١، ١٩٤٩، العددان ٦ و٧ ص ٣٥.

(٣١) يكثر ورود أمثال هذه «العدالة الفورية» تحت أقلام المؤرّخين للنصارى، سواء لتشجيع أبناء ملّتهم أو لردع من يقصدهم بالشرّ. فبعد صفحات من ذكر هذا الخبر يورد ميخائيل السريانيّ ما كان من أمر والٍ ظالم تولّى أمر ماردين فجار على أهل المدن والقرى واغتصب فناء الكنيسة ليعطيه للمسلمين ولكنه وقع عن فرسه في اليوم التالي. ولّما قرع سن الندم لم يستطع ردّ ما كان غصبه من خشية العرب (المصدر نفسه، ص ٣٣٧ - ٣٣٨). لنلاحظ في هذا السياق أنّ الاستيلاء على أفنية الكنائس لبناء المساجد فيها أمر تشهد المصادر على تكراره، انظر مثلاً الكامل، ج ٧، ص ٧٨، حيث نجد بحمص جامعًا بلزق كنيسة وكذلك ألصق مسجد بدير مار قرياقوس بالأنبار، الشابشتي، الديارات، ط ٢، ص ١٦٠ - ١٧٠. لذلك نجد قدرًا لا بأس به من السذاجة في قول O. TURAN، ص ٧١، إنّ التفاهم والانسجام اللذين خيّما وقتئذٍ (القرن الثاني عشر) على العلاقات بين المسلمين والنصارى، كانا قد بلغا حدًّا بعيدًا حتى إنّ الكنائس والمساجد كانت متلاصقة بمدينة «دبيل» (دوين)...

(٣٢) البداية، ج ١٢، ص ٢٣٤. الكامل، ج ١١، ص ٢١٢ - ٢١٦.

(٣٣) البداية، ج ١٢، ص ٢٤٠. الكامل، ج ١١، ص ٢٥٢.

(٣٤) الكامل، ج ١١، ص ٢٥٦. تاريخ الزمان، ص ١٧٤.

(٣٥) البداية، ج ١٢، ص ٢٤١.

(٣٦) مذكور في السيوطي، ص ٤٤١.

٣٢ ـ المستنجد (٥٥٥ ـ ٥٦٦/١١٦٠ ـ ١١٧٠)

نجا أبو المظفَّر يوسف، الملقَّب بالمستنجد بالله، بن المقتفي، من إحدى مؤامرات الحريم منذ أوَّل أيَّام خلافته: فقد أرادت أمّ أخيه الأصغر أبي عليّ، وهي أمّ ولد تركيّة، قتله وتولية الأمر لابنها.[١]

إنَّ صورة أحوال النصارى في خلافته جزئيّة، مثلها في ذلك مثل صورة أحوالهم في خلافة أسلافه الأقربين. ومن الجائز أن يكونوا قد استفادوا كغيرهم من المقهورين، من إزالة المكوس والضرائب.[٢]

ويأتي الخبر الأوَّل عنهم من الموصل حيث أرسل الأمير جمال الدين، الذي «امتاز، على قول ابن العبري، بعطفه وحسناته الوافرة»،[٣] مفريان اليعاقبة إغناطيوس لعازار، سنة ١١٦١، إلى جورجي ملك الكرج ليفتدي منهم رهطًا من عرب الموصل أسرهم الصليبيّون الكرج. وكانت عودة الأسرى محلّ احتفال عظيم بالموصل: وقد واكبت المفريان والأسرى فرقة من الفرسان الكرج جالت جولة العرضة في شوارع المدينة رافعة الصلبان على رؤوس الرماح.

لذلك نجد الحروب الصليبيّة تصبح أكثر «حضورًا» بالنسبة إلى نصارى القسم الشرقيّ من المملكة العبّاسيّة. وإنّنا لنلمس ما خلّفه مشهد عرضة الصلبان (وهو أمر لم يكن ليعقل وقوعه بدار الإسلام في ذلك العصر) في أذهان نصارى الموصل من خلال نقش عمله بعض الرهبان من أعمال الموصل لماربهنام «الأمير» الذي استشهد في عصر الساسانيّين. ولم يتردَّد النحّات في أن يسبغ عليه درعًا دلاصًا، وأن يجعل على رأسه تاج نبلاء الصليبيّين وفي رجليه ما ينتعله هؤلاء من أحذية حديديّة مدبّبة الرأس، وفي أعلى رمحه صليبًا.[٤]

في السنة عينها (١١٦٢/٥٥٧) تذكر المصادر شاعرًا نصرانيًا ولد ببغداد وعاش بواسط، هو الرئيس أبو غالب بن عيسى بن باباي.(٥)

وإنّنا لنقترب من بغداد مع خبر يقع بتكريت ويتعلّق بشركوه عمّ صلاح الدين الكبير وبأبيه أيّوب، الكرديّين الدبيليّين، اللذين كانا يعملان في خدمة مجاهد الدين بهروز، أمير المدينة الذي صادفناه ببغداد، والذي يقول عنه ابن العبري الآن إنّه كان محبًا للنصارى.(٦) في العام ١١٦٣/٥٥٩، قتل شركوه رجلاً نصرانيًا «عزيزًا على قلب الأمير». ثم هرب القاتل وأخوه من الموصل خوفًا من عقوبة الأمير، ومذاك بدأ يلمع نجم الأسرة.

لنذكر عابرين، في العام ١١٦٤ ـ ١١٦٥، وفاة طبيب كبير ببغداد هو أمين الدولة بن التلميذ (الذي صادفناه سابقًا) عن تسعين سنة «وكان متضلّعًا من مختلف العلوم ووحيد عصره في الطبّ وخبيرًا راسخًا في الفصاحة ونحو العرب وشعرهم لا ينقص عنهم علمًا وفضلاً وتقلّب أيام حياته في خفضٍ من العيش والقرب من الملوك».(٧)

ويبدو أنّ ابن العبري الذي يكتب هذا الكلام ينسى قليلاً المضائق الصعبة التي قاساها هذا الطبيب وأبناء ملّته. ذلك أنّ هذا المؤرّخ يميل، كما لاحظنا من قبل إلى الثناء على أحوال الماضي عندما يقيسها «بويلات» عصره، أي بعد قرن من الزمان، وربّما أعطتنا هذه الملاحظة فكرة عن اتّجاه الضغط الاجتماعيّ ـ الدينيّ المتنامي الذي تعرّض له النصارى. فقد كان البقاء على النصرانيّة ببغداد يزداد صعوبة يومًا بعد يوم، وكانت الطوائف النصرانيّة هناك تتقلّص باستمرار.

ويقع الخبر التالي في الموصل. فقد أوكل قطب الدين مودود، أمير المدينة، القلعة والوزارة إلى أسير قديم من أنطاكية هو الخصي النصرانيّ عبد المسيح الملقّب بفخر الدين. وقد أبعد فخر الدين هذا لدى وفاة سيّده، سنة ١١٦٩/٥٦٥، عماد الدين زنكي عن تولّي الإمارة وجعل مكانه سيف الدين غازي، ولّما أطاح نور الدين بعبد المسيح سنة ١١٧١/٥٦٦، تسمّى هذا بعبدالله وأظهر الإسلام، وهذا ما أتاح له أن يحامي عن النصارى.(٨)

ولهذا السبب، «وخوفًا من أن يصير عضدًا لنصارى الموصل» الذين كان نور الدين قد فرض عليهم شروطه اصطحبه نور الدين معه إلى حلب «فأنزل ذلك بالنصارى كربًا عظيمًا».[٩]

إلاّ أنّ ما لا يذكره المؤلّفون النصارى هو أنّ نور الدين كانت له أسباب أخرى لإزاحة فخر الدين، فضلاً عن الأسباب السياسيّة. من ذلك أنّ الوزير الخصي كان قد أثار سخط أهالي الموصل المسلمين بما أرهقهم به من ضرائب ومكوس. وقد حطّ نور الدين تلك الأعباء عن كواهلهم حال وصوله إلى الموصل، غير أنه لم يقدم على التشدّد في الانتقام من الوزير الذي كان يحظى بحماية أمراء آخرين.[١٠]

آخر نصرانيّ نصادفه في خلافة المستنجد هو طبيبه أبو غالب بن صفيّة.[١١] وإنّ دور هذا الطبيب في اغتيال الخليفة لا جدال فيه، على ما يبدو. فقد كان على علم بنيّة مولاه أن يقبض على قطب الدين أستاذ الدار، ففضّل أن ينذر قطب الدين. فتقرّر أنّ إغلاق باب الحمام على الخليفة المريض من شأنه أن يعجّل أجَلَه.[١٢]

وتنسب رواية أخرى قرار الاغتيال إلى امرأة من نساء الخليفة كانت تغار من امرأة أخرى من نسائه هي بنفسج بنت عبدالله الروميّة.[١٣] ولكن أيّة تكن العلّة فالمنفّذ كان واحدًا. تعقيبًا على ذلك يذكر ابن أبي أصيبعة كلمة أمين الدولة الطبيب الكبير: «لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك في أسرارهم».

إن الكلام الذي يثني به ابن الأثير على الخليفة المغدور يفسّر لنا لِمَ قلّت الأخبار عن النصارى في خلافته التي دامت أحد عشر عامًا، يقول: «كان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعيّة، عادلاً فيهم كثير الرفق بهم، وأطلق كثيرًا من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئًا، وكان شديدًا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.. وردّ كثيرًا من الأموال على أصحابها».[١٤]

إلاّ أنّ ميخائيل السريانيّ يتّهم ابن البلدي، وزير المستنجد منذ

١١٦٧/٥٦٣ ـ ١١٦٨، بأنّه كان يبغض النصارى وبأنّه قد حبس بعض اليعاقبة. وسوف نتعرّفه أكثر في عهد الخليفة التالي.

ربّما نسب إلى هذه السنوات الأخيرة حادث يؤسف له وقع ببغداد إبّان جثلقة يشوع يهب الخامس أي بين العام ١١٤٩/٥٤٤ والعام ١١٧٥/٥٧٠ من دون تحديد دقيق: إنّه إعدام عدد غير محدّد من الأسرى الفرنج. صعق النساطرة لما رأوا، وعدّوا الفرنج شهداء وواروهم في فناء كنيسة سوق الثلاثاء أمام الرواق الصيفيّ للصلاة بين الكودين.(١٥) وسوف نرى من بعد أمثلة أخرى أدّى فيها شطط السلطات المدنيّة إلى تقريب نصارى المشرق، وحتى النساطرة، من أولئك الصليبيّين البعيدين عنهم جدًا في المكان القريبين منهم في الإيمان. وقد أسهم ذلك في تعميق الهوّة بين الذمّيين وبين المسلمين.

على أيّة حال مات المستنجد مخنوقًا في التاسع من ربيع الأخر ٥٦٦/٢٠ كانون الأوّل ١١٧٠.

الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٢٥٧. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٧٤.

(٢) ابن الطقطقي، ص ٢٥٥.

(٣) ابن العبري، ص ١٧٤. ويقول ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٣١٨: «وكان في ذلك عزاء عظيم للنصارى والمسلمين بسبب إطلاق الأسرى».

(٤) أنظر صورة النقش في كتابي أثور المسيحية، ج ٢ اللوحة F. ـ الصليب في حلقتي الأذن من اختراع الفنان.

(٥) شيخو، شعراء، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٦.

(٦) تاريخ الزمان، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٧) ميخائيل السرياني، ـ ج ٣، ص ٣٢٧. تاريخ الزمان، ص ١٧٧ ـ ١٧٨. دائرة المعارف (بيروت)، ج ٢، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

(٨) وقد رأينا وضعًا مشابهًا لدى كتاب دور فنّي. ونجد مثلاً مشابهًا في خبر ابن النحال الكاتب الذي أسلم عندما استولى الملك العادل على السلطة سنة ١١٨٣/٥٧٩، ثم اجتهد في حشر النصارى في مناصب عدّة. حتى قيل في هجائه:

فـاق دينُ المسيـحِ في دولـة العـا　دل حـتى عـلا عـلى الأديـان
ذا أمـير وذا وزيـر وذا وا　لٍ وذا مشرف عـلى الـديـوان

أبو شامة، كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٥٢.

(٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(١٠) ELISSEEFF, Nûr al-Dîn, p. 619-620, 657-661, 679. ـ وقد ولاّه نور الدين على سيواس سنة ١١٧٣. وفي العام ١١٧٥/٥٧١ أسره صلاح الدين ثم أطلقه، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٩٢. ـ أنظر نصوصًا أخرى عنه في كتاب شيخو وحشيمه، وزراء النصرانيّة وكتّابها في الإسلام (٦٢٢ ـ ١٥١٧)، جونية ـ روما، ١٩٨٧، ص ١٨٩، الحاشية رقم ٣. ـ وقد ظهر هذا الكتاب بعد كتابي هذا واقتبس منه بوفرة. وقد أتاح لي ذلك استدراك بعض الأخطاء وتصحيحها.

(١١) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩.

(١٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٦٠.

(١٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٦. نساء الخلفاء، ص ١١١ ـ ١١٥. مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ١٦٣ ـ ١٧٢.

(١٤) الكامل، ج ١١، ص ٣٦٢. وكذلك يعتبره ابن كثير (البداية، ج ١٢، ص ٢٤١ ـ ٢٦٢) من أفضل خلفاء بني العبّاس ومن أعدلهم في الرعيّة.

(١٥) صليبا، ص ١٠٦ ـ ١٠٧، والمفرد الكود: أي كرسي القراءة.

٣٣ ـ المستضيء (٥٦٦ ـ ٥٧٥/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠)

نصبه قَتَلَةُ أبيه. وكان أبو محمد الحسن، المستضيء بأمر الله حليمًا.[١] وكان الأولى به أن يكون كذلك، وربّما كان مبذّرًا.[٢] وقد كان من شأن النزاعات بين الأمراء والوزراء[٣] (وحوصر قصره في بعضها) ومسلسل النكبات الطبيعيّة (فيضانات، حرائق، زلازل، أوبئة، غلاء، الخ). أن تحول دون قيامه بدور أكبر من الدور المتواضع الذي قام به، حتى إنّه قد خطب له بمصر، من حيث لا يدري، وذلك بفضل نور الدين وصلاح الدين[٤] الذي كان سيّدها المطاع.

مع ذلك فقد أقدم المستضيء يوم ولي الأمر على إجراء سلطويّ: أمر بقطع رأس شرف الدين أبي جعفر أحمد بن البلدي، وزير أبيه المستنجد منذ العام ٥٦٣/١١٦٧ ـ ١١٦٨، لأنّه حاول منعه من خلافة أبيه.[٥] ويذهب ميخائيل السريانيّ[٦] إلى «أنّه لما كان الوزير الذي أُعدم عدوًا للنصارى، فقد أحبّ الخليفة الجديد النصارى من كرهه للوزير. ومن ذلك أنّه أطلق بني توما، أولئك الأمراء المؤمنين الذين كانوا محبوسين وردّ عليهم دورهم وكنائسهم».

وسوف نصادف مرّة ثانية (في خلافة الناصر) سليل هذه الأسرة اليعقوبيّة الطبيب أمين الدولة صاعد بن هبة الله بن توما وأبنائه الذين كانت كنيستهم، كنيسة مار توما، بالقرب من باب المحوّل.[٧]

في العام ١١٧٢، وإثر تسلّم مبلغ عظيم من المال، اتّخذ الخليفة الجديد، (أو أصحاب دواوينه على الأقل) قرارًا لصالح اليعاقبة ضدّ مسلمي جزيرة ابن عمر الواقعة إلى الشمال من الموصل. ذلك لأنّ المسلمين كانوا قد وضعوا اليد على دير

لليعاقبة كان بها وحبسوا بالموصل مطرانهم باسيليوس الذي حاول أن يتدخّل. فأُعيد الدير إلى أصحابه وأُطلق المطران.[٨]

وينبغي لنا أن نذكر هنا أنّ يعاقبة جزيرة ابن عمر كانوا عرضة لتدابير كيديّة دبّرتها السلطات المحليّة: ففي العام ١١٤٣ قبض عامل المدينة على مطرانهم ولم يفرج عنه إلاّ لأجل فدية بُذلت له،[٩] كما أنّ المطران الذي خلفه لم يفلح في الحؤول دون بناء مئذنة على مقربة من كنيسة طائفته لأنه أهمل حمل ما جرت العادة بحمله إلى «علماء العرب» على حدّ قول ابن العبري.[١٠]

لقد سبّب تشدُّد نور الدين الأتابك متاعب كثيرة للنصارى بدمشق وحلب والموصل وسواها.[١١] فقد زاد المكوس وأعاد فرض السمات المميّزة من قصّ الشعر وعقد الزنانير. كما أمر بنقض ما استحدث من كنائس، في نصيبين مثلاً. وقد بيَّنت في موضع آخر[١٢] كيف أنّ قابليّة الرشوة لدى بعض المرؤوسين، كابن عزرون مثلاً، كانت عاملاً على تخفيف هذه الإجراءات أو على المبالغة فيها كلّما عنَّ للرؤساء فرض هذه الاجراءات.

«لقد صرف الخليفة المستضيء عن النصارى حُمَيّا غضب نور الدين وحقده»،[١٣] إذ يروى أنَّ هذا الأخير كتب إلى المستنجد قبل عام من وفاته رسالة يحرّضه فيها على توعُّد النصارى بالقتل إذا لم يسلموا، لأنّ: «هذا مكتوب في القرآن (كذا): يحكم المسلمون ٥٠٠ عام[١٤] لا يسيئون فيها إلى النصارى. وهذه الأعوام قد انقضت»... وكان أن ردَّ عليه المستضيء. ولّما كان الخليفة الجديد غير حريص على استقدام رجل أطاح حتى الآن بالخلافة الفاطميّة بمصر وادّعى «النبوّة» (؟) فوق ذلك، أرسل إليه رسالة تأنيب تقول: «ليس لك أن تسمّي نفسك «نبيًا»... أنت لم تفهم حديث الرسول عن السنين، والله لا يأمر بقتل الناس من غير ذنب يستحقّ القتل». ويختم ميخائيل السريانيّ بالقول معلّقًا: «وقد أفاد النصارى من هذا أيضًا... امّا نحن فيجب علينا أن نفهم أنّه لئن أذن الله للعرب والأتراك أن يسودوا علينا بسبب خطايانا، فإنّه من عظيم رحمته لنا لم يتركنا في أي وقت ولا بأيّة حال ولن يتخلّى عنّا، بل إنّه في عنايته الإلهيّة يحفظنا ويخلّصنا من أعدائنا، لأجل محبته لكنيسته».

كانت وفاة نور الدين، سنة ١١٧٤/٥٦٩، بالرغم من عناية طبيبه النصرانيّ رحابايا،[١٥] «خبرًا سارًا» للنصارى والمسلمين على السواء.[١٦] وقد أعلن ابن عمّه سيف الدين غازي الأفراح فشرب الجميع وسكروا.[١٧] وسوف نرى من بعد العلاقات التي قامت بين البطريرك ميخائيل الأوّل وبين هذا الأمير.

أمّا جاثليق النساطرة يشوع يهب الخامس البلدي فقد مات سنة ٥٧٠/ ٢٥ أيار ١١٧٥، عن تسعين سنة وجثلقة دامت أكثر من ستّة وعشرين عامًا. وقد أدّت الكرامات على قبره بكنيسة درب دينار بسوق الثلاثاء إلى اجتذاب الحجّاج إلى الكنيسة.[١٨]

إيليا الثالث

XXXII بعد خلوّ كرسي الجثلقة حوالي ثمانية أشهر لا نعلم عنها شيئًا، انتخب مطران نصيبين الياس أبو حليم الملقّب بالحديثي مع أنّ أصله من ميافارقين. وليس بين أيدينا أي خبر عن انتخابه، ولا ذكر في التراجم لأيّ علماني نصرانيًّا كان أم غير نصرانيّ.[١٩] كلّ ما نعلمه هو أنّه «لم يكن فيهم من يماثله علمًا وحكمًا وكرمًا وحسنًا وبلاغة وفصاحة» الخ. وقد سيم سنة ٥٧١/ الأحد ٢٤ كانون الثاني ١١٧٦.

وإذ عاد إلى دار الروم وجد القلية خرابًا، فجدّد عمارتها لينزل فيها، كما جدّد عمارة كنيسة دير مار ماري بدور قني وغيرها من الأديرة والكنائس، وهذا دليل على هدوء الأحوال واستقرارها.

إنّ أعمال إيليا الثالث الأدبيّة معروفة جيدًا[٢٠]. أمّا ما يهمّنا هنا فهو هذه العبارة التي يذكرها صليبا في ترجمته: «وكان مع أوصافه الجميلة بحسن الخلق والخلقة سخيًا متلافًا للمال في عمل الخير مع الناس الضعفاء والمساكين ومع الأشرار الذين من غير الدين ومع الحكّام المتولّين لأجل إقامة جاه النصارى».

ولّما كان صليبا قد قال سابقًا إنّ الله قد أنعم عليه وأجرى الخيرات من بين يديه فإننا نفهم من ذلك أنّ الجاثليق لم يكن يجد صعوبات تذكر في إرضاء حُماته من رسميّين وغير رسميّين، وأنّ النصارى قد نعموا في أيّامه بالسلام، في حدود ما

كانت تسمح به ظروف ذلك الوقت، لنلاحظ مرّة أخرى أنّ الحملات الصليبيّة المعاصرة له لم تولّد، فيما يبدو، مشاعر عداء للنصارى ببغداد.

لنذكر أيضًا أنّ الخليفة وإن صنّفه بعض المؤرّخين في جملة «أصدقاء النصارى» فهذا لا يعني أنّ أصاغر الأمراء في كلّ مدن المملكة وبلداتها كانوا يترسّمون خطاه، ويقتدون به. ولئن أمكن أن يُقال عن أحدهم، مثلما قيل عن نجم الدين أمير ماردين (الذي مات سنة ١١٧٦ من بعدما حكم المدينة مدّة اثنتين وعشرين سنة) إنّه «عامل النصارى وكنائسهم وأديارهم خير معاملة»،(٢١) فهذا لا يعني أنّ ولايته لم تشهد بعض التعدّيات التي ربّما وقع بعضها من باب ردّ الفعل على ضحاياها أنفسهم.

فمن ذلك أنّ قسًّا راهبًا من رهبان دير بَكرِه، بجبال ماردين، يدعى الحسن بن كليب ترك النصرانيّة وأسلم سنة ١١٧١، فكان من جرّاء ذلك أن وضع العرب يدهم على ديره ثم حوّله الأكراد إلى مسجد. إلاّ أنّ الراهب ارتدّ إلى النصرانيّة ومضى إلى القدس. فما كان من صاحب ماردين إلاّ أن قبض على أخي المذنب وعذّبه حتى الموت.

وفي العام التالي، أُخذ بماردين أيضًا رجل من أعيان اليعاقبة، يُدعى برصوما، كان يزني بامرأة عربيّة فعذّب وأفلت من الموت وما كاد، وصودرت أمواله. ولّما كان قد أعاد عمارة كنيسة مار توما على أيّام حسام الدين، أخذت تلك الكنيسة ليعمل منها مسجدًا.(٢٢)

نحن في الحالتين أمام ردّة فعل إسلاميّة على ما اعتبر استفزازًا. ولكن هل يجوز إدانة ردّة الفعل تلك حسب معايير ذلك العصر؟

ونحن نجد، على الضدّ من ذلك، أنّ الولاة المسلمين كانوا يتصرّفون، في معظم الأحيان، بكثير من الحلم وضبط النفس. فمن ذلك أنّه في الفترة نفسها ظهرت بالرُّها جماعة منشقّة من الأرمن واتّهمت سواها من الأرمن والمغاربة من السريان بمكاتبة قيصر الروم ومؤامرته على تسليم المدينة، فما كان من صاحب حلب إلاّ أن طرد المفترين.(٢٣)

وفي خبر آخر اتّهم البطريرك ميخائيل نفسه بذلك، وكان المتّهِم (بكسر الهاء) أحد أساقفته المدعو دنحا ـ يوانيس الرقّي،[٢٤] فسيق ميخائيل إلى معسكر سيف الدين أمير الموصل. وإنّ كلام البطريرك في الردّ على مستجوبيه لذو دلالة على شجاعة زعماء النصارى إذا ما لمسوا التعاطف من ولاة الأمر المسلمين حين يمثلون أمامهم. فقد قال لهم البطريرك «إنّ الله لم يأمر الملوك بتدبير شؤون الإيمان بالسيف. ومنذ أن ساق الله الملك إلى المسلمين لم يقدم أي ملك من الملوك العادلين على دوس شريعة الله بالأرجل، بل أطاعها والتزم حدودها. وقد فرض المسلمون على النصارى وبإذن الله تعالى، شتّى صنوف الإذلال الجسديّ، إلاّ أنّهم لم يدّعوا لأنفسهم أيّ سلطان على العقيدة...».

ولّما رفعت القضيّة إلى الأمير لينظر فيها اتُّهم دنحا البطريرك «بأخذ العرب وتنصيرهم» فاضطرم غضب بعض الحاضرين لدى سماع هذه الكلمات وأرادوا رجم البطريرك. ولكن من حسن الاتّفاق أن أتيح له الوقت ليتكلّم ويثبت أنّ القضية المشار إليها هي قضيّة ابن كليب وأنّها تتعلّق براهب لا برجل عربيّ، فبرئت ساحة الحبر وأخلي سبيله فغادر معسكر الأمير. وقد حاول دنحا الإيقاع بميخائيل لدى الخليفة ولكنّه طرد من الحضرة ولم يؤبه لافتراءاته.

هل كان من جملة ما اتُّهم به البطريرك ميخائيل أنّه تلقّى عهد توليته من أموري ملك بيت المقدس وأنّ هذا العهد قد جدّده بغدوين الخامس الأبرص سنة ١١٧٩؟[٢٥] ولئن كانت القضيّة قد أثيرت فيبدو أنّه لم يلتفت إليها أحد، لأجل ما لم تزل عليه حال مغاربة السريان من الحراجة، لأنّهم لم يزل لهم أخوة في المذهب ببلاد مملكتين متحاربتين: روم وساسانيّون ثمّ روم ومسلمون والآن صليبيّون ومسلمون، وذلك خلافًا لحال مشارقة السريان.

في العام ٥٧٥/ آذار ١١٨٠، وفي جثلقة إيليّا الثالث، انتهت خلافة المستضيء التي دامت ما يقارب العشر سنوات. ويثني ابن الأثير على الخليفة بما يلي: «كان عادلاً حسن السيرة في الرعيّة... وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وكان حليمًا قليل المعاقبة على الذنوب محبًّا للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميدًا ومات سعيدًا».[٢٦]

الحواشي

(١) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٦.
(٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٦١، ٤٥٩.
(٣) E.I.[1], III, s.v., par K.V. ZETTERSTEEN.
(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٧.
(٥) الكامل، ج ١١، ص ٣٦١. ابن الطقطقي، ص ٢٥٥.
(٦) ج ٣، ص ٣٤٤.
(٧) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.
(٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٥٠ - ٣٥١. ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٦٨.
(٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٥٥.
(١٠) ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٤٦. - بينما كان المفريان إغناطيوس لعازر يعرف فيما مضى كيف يتدبّر أمر الحفاظ على صداقتهم والتوصّل إلى بناء الكنائس ببغداد وبرطلي أو ترميم ما تهدّم منها.
(١١) يشير الأسنوي (ص ١٤ - ١٨) إلى تأثير وزير الموصل أبي جعفر الجواد الأصفهاني (أنظر E.I.[2] ص ٥٠١ - ٥٠٢ تحت عنوان Djawad). وقد اتّخذ نور الدين قرار إبعاد النصارى عن الخدمة في الدواوين إثر الرجوع من الحجّ، وثمّة دور لرؤيا النبي بالمنام. - يلاحظ KRENKOW في كتابه **Tarikh Baghdad** ص ٧٧، في هذا المجال أنّ رؤى النبي «قد لعبت في العالم الإسلامي دورًا مشابهًا لدور الرسائل الهابطة من السماء في بلاد النصارى».
(١٢) كتابي: **Nisibe**, p. 99-100
(١٣) ميخائيل السريانّي، ج ٣، ص ٣٤٠، ٣٤٤ - ٣٤٥. - لم يلتفت N. ELISSEEFF إلى هذا النص الذي يبدو كرواية قصصية للأحداث، ولم يهتمّ به.
(١٤) أو ٦٠٠ سنة تنقضي في العام ١٢٠٣ - ١٢٠٤ م على قول وزير صاحب المغرب في رجب سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٧٧. - وقد أرجف بمثل هذا بحق اليهود في عصر الموحّدين بالأندلس سنة ١١٤٦، أنظر F. LOVSKY في: **L'antisémitisme chrétien**, CERF, 1970, p. 206-207.
(١٥) الذي أدرك ابن العبري ابنيه في شيخوختهما، وكانا هما أيضًا من الأطبّاء المذكورين، تاريخ الزمان، ص ١٨٩.
(١٦) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٥٣. يبقى الرهاوي المجهول على حياده المعهود، إذ يثني (ص ١٢٧) على فضائل الأمير. - ويشير F. SIVAN في ص ١٢٠ من كتابه **Chrétiens sous les Ayyoubides** إلى أنّ موقف كلّ من نور الدين وصلاح الدين حيال النصارى كان

جزءًا من «سياسة تميل إلى التشدّد في مراعاة أحكام الشريعة» وهي سياسة كانت تأخذ بالشدّة نفسها في التعامل مع المسلمين المتهاونين بالشرع، ومن ذلك فرحهم بموت الأمير.

(١٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٦١ - ٣٦٢. الرهاوي المجهول، ص ١٢٩.

(١٨) يلاحظ صليبا، ص ١٠٦، أنّ طوائف ثلاثًا فقدت رؤساءها في هذه السنة عينها (٥٧٠): فالنصارى فقدوا الجاثليق (يقرأ هكذا بدلاً من الخليفة)، والمسلمون فقدوا قاضي القضاة (روح بن أحمد، البداية، ج ١٢، ص ٢٩١)، واليهود فقدوا دانيال، رأس الجالوت.

(١٩) صليبا، ص ١١٠ - ١١٢. ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٣٠، ٣٦٨ - ٣٧٠.

(٢٠) دائرة المعارف، بيروت، ج٢، ص ٤٤٠ تحت عنوان ابن الحديثي. SAMIR KHALIL., Islamochristiana, 2 (1976), P. 201-202 يضاف إلى ذلك ما يذكره صليبا: «ورسايل كثيرة في إثبات الإيمان والاعتقاد وصحّة دين النصرانيّة».

(٢١) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٩٣.

(٢٢) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٥١، ٣٥٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٨ - ٣٦٠.

(٢٥) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٣٧٣.

(٢٦) الكامل، ج ١١، ص ٤٥٩ - ٤٦٠. البداية، ج ١٢، ص ٣٠٤.

٣٤ ـ الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢/١١٨٠ ـ ١٢٢٥)

تلقَّب أبو العبّاس أحمد بن المستضيء بلقب الناصر لدين الله،[١] يعني عزمه على نصرة دين الله. وفي خلافته اضطربت أحوال شرق المملكة من جرّاء تقلّب التحالفات بين المغول وخوارزم شاه. أمّا في الغرب فقد استعاد صلاح الدين القدس، ولكن الخليفة لم يكن كثير الاهتمام بمدافعة الصليبيّين. وسوف نرى من بعد ما كان تصوّره للحكم، إلاّ أنّ نزوات هذا «الرجل الغريب»[٢] تضفي كثيرًا من التشويش على ما كان يدبِّره من تدابير.

بدأ الإصلاح الداخليّ عندما نظّم حاجب الباب حملة على المنكرات ببغداد سنة ٥٧٧/١١٨١.[٣] ثمّ في العام ٥٧٨/١١٨٢ ـ ١١٨٣[٤] أو في ذي الحجّة ٥٧٩/ أذار ـ نيسان ١١٨٤[٥] أمر الناصر بإقصاء النصارى من الدواوين. أمّا الدواعي إلى هذا الأمر[٦] فمختلف فيها: فمنها فساد الكتّاب النصارى وصلفهم، على قول، ومنها أنّ الخليفة قد صار يعدُّ مجرَّد وجودهم إذلالاً للمسلمين، على قول آخر. وقد أدّى الأمر الخليفيّ إلى صرف الكثيرين من الخدمة، فكان ممَّن صرفوا بنو النظام وابن الأشقر من ديوان الأرض بالرغم من تدخُّل ابن البخاري، الوزير المفوَّض، للدفاع عنه. وقد دخل كتّاب نصارى آخرون الإسلام ليحتفظوا بمناصبهم. ونجد فيهم أبا غالب بن زطينا (ت ٦٠١/١٢٠٤ ـ ١٢٠٥) وأحد أولاد ابن الأشقر الذي حصل فورًا على المنصب الذي شغر بعدما رفض أبوه الإسلام.[٧]

ولنلحظ عابرين في هذه السنوات شعبيّة الخليفة الناصر في صفوف تقاة

المسلمين الذين خالطهم ابن جبير لدى زيارته بغداد في صفر ٥٨٠/ أيار - حزيران ١١٨٤. فقد أتيح لهذا الرحّالة أن يشهد الخليفة مرّتين كتب على أثرهما:[٨] «وظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامّة، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلاّ اشتهارًا، وهو مع ذلك يحبّ الظهور للعامّة، ويؤثر التحبّب إليهم، وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيّامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داعٍ له».

وقد كان الرحّالة وصف، قبل بضع صفحات من قوله هذا، ما آلت إليه العاصمة العبّاسيّة من حال تناقض، مناقضة مرّة، الصورة المثالية التي كانت آنذاك قد استقرّت في أذهان الناس، والتي كانوا يتناقلونها في أطراف دار الإسلام وأكنافها: «(فهي) قد ذهب أكثر رسمها ولم يبقَ منها إلاّ شهير اسمها. وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه من قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص».[٩]

أطبّاء نصارى

على الرغم من الأمر الرسميّ بإبعادهم ظلّ الأطبّاء النصارى يحيطون بالخليفة. أمّا أشهرهم والمقدّم عليهم عند الناصر فهو رئيس الشمامسة أبو الخير[١٠] ماري بن هبة الله عبد البقاء بن إبراهيم المؤمّل من بني المسيحيّ، النيلي الأصل (أو الحظيري؟). كان أبوه قد أخذه منذ طفولته إلى ابن التلميذ (ت ١١٦٥) الذي علّمه أولى مسائل حنين بن إسحق.

كان أبو الخير قد طعن في السن وخدم الخليفة الناصر منذ سنين لّما أُصيب الخليفة سنة ١٢٠١/٥٩٨ - ١٢٠٢، بمرض بمثانته. وقد ارتاب الناصر منه وكاد أن يأمر بقتله لّما رأى عجزه عن مداواته بما يشفيه.

وقد مات هذا الطبيب بعدما غازل المئة، سنة ١٢١٢/٦٠٨ وخلّف كتاب الاقتضاب في الطبّ ومختصره «انتخاب الاقتضاب» وأشعارًا بالسريانيّة. ويُقال إنّه ترك تركة عظيمة المقدار.

وكان أبو الحسن (أو الحسين) صاعد،[11] أخو أبي الخير الأكبر، طبيبًا أديبًا فيلسوفًا منطقيًّا، ووضع كتابًا في الدفاع عن النصرانيّة فضلاً عن كتاب الصفوة في الطبّ، ومات سنة ١١٩٥/٥٩١، وكان هو أيضًا محبّبًا إلى الناصر.

وقد صار أخوهم الثالث الأصغر، سبريشوع، جاثليقًا سنة ١٢٢٦ وسوف نلتقيه من بعد.

كان الجيل التالي من بني المسيحيّ أقلّ شهرة وأسوأ سيرة. فقد ارتكب أبو عليّ[12] ابن أبي الخير رئيس الشمامسة أخطاء مهنيّة عدّة وبدّد ما خلّفه له أبوه من ثروة في الفسق والمجون. وقد قُبض عليه وحُكم عليه بالقتل سنة ٦١٧/ أيار ١٢٢٠ ولكنه افتدى نفسه بستة آلاف دينار جمعها من بيع الكتب والنفائس التي كانت لأبيه.

وفي أسرة المسيحيّ عينها نجد، في خدمة الناصر أيضًا أبا الفرج المتطبّب الذي توفي سنة ٦٠٠/ آذار ١٢٠٤،[13]، وأُخرجت جنازته ليلاً[14] وحضرها حشد عظيم من النصارى في كثير من الشموع، ودفن في كنيسة الكافين.

رأينا من قبل أن أبا الخير الكبير عجز عن شفاء الناصر سنة ١٢٠١/٥٩٨ - ١٢٠٢. فاستدعي واحد من أفضل جرّاحي الكرخ هو ابن عكاشة. وبعد عدّة علاجات غير مجدية توصّل طبيب نصرانيّ آخر هو أبو نصر سعيد بن أبي الخير (غير الأوّل) بن عيسى[15] إلى مداواته بالمرهم المحلِّل للحصى. فأغرق بالهدايا وأذن له الخليفة بأن يأخذ ما يقدر على حمله من بيت المال. زد على ذلك أن ابني الخليفة والوزير ابن المهدي وعدّة أمراء آخرين غمروه بالصلات وعلائم التشريف، كما أنّ الناصر أجرى له رزقًا سنويًا يصل إليه حتّى يوافيه الأجل.

وممّن اشتُهر في ذلك العصر أيضًا أبو العبّاس يحيى بن سعيد بن ماري النصرانيّ الطبيب الشاعر، المتحدِّر من الطيب، المولود بالبصرة التي أقام بها حتّى وفاته سنة ١١٩٣/٥٨٩،[16] صاحب المقامات.[17]

كان هؤلاء الأطبّاء يعالجون المرضى في البيمارستانات، ومنها البيمارستان العضدي الذي وصفه ابن جبير حين زار بغداد، سنة ١١٨٤/٥٨٠، بهذه العبارة:

«بين الشارع ومحلّة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقّده الأطبّاء كلّ يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكيّة، والماء يدخل إليه من دجلة».(١٨)

البطريرك ميخائيل والسلاجقة

في القسم الغربيّ من الخلافة العبّاسيّة، أي بلاد سلاجقة الروم (آسيا الصغرى)، كان لميخائيل الأوّل بطريرك المغاربة من السريان (اليعاقبة) علاقات ودّية جدًّا بالسلطان قلج أرسلان الثانيّ (١١٥٥ ـ ١١٩٢) قاهر الأمبراطوريّة البيزنطيّة في العام ١١٧٦. وقد جرت لقاءات الرجلين في العامين ١١٨١ ـ ١١٨٢(١٩) بخاصّة. لا يذكر ميخائيل كيف كان ابتداء أمر العلاقات، ولعلّها انجرّت عن زيارة تهنئة وهدايا بمناسبة فتح السلطان ملطية سنة ١١٧٧، على أيّة حال، يذكر ميخائيل أنّ السلطان لمّا اجتاز بالمدينة سنة ١١٨١ «استخبر عن حقارتي. . . وأرسل إليّ رسالة مودّة وعصا رعويّة وعشرين دينارًا حمرًا. فاندهش الجميع لذلك!».

في تموز من السنة التالية اجتاز السلطان بملطية مرّة ثانية فاستدعى البطريرك وأرسل لمصاحبته موكب شرف ضمّ ثلاثة أمراء في «جمع من الفرسان». فتحيّر عقل ميخائيل: «دهشت لمّا رأيت أمرًا خارجًا عن العادات. . . وانتابني الخوف وذهب وهمي إلى أنّه ربّما قد دُسّ الحنظل في العسل».(٢٠)

وكان السلطان قد رسم بأن يكون دخول البطريرك عليه «على سنّة النصارى بالصليب والإنجيل. . . فاستكثر النصارى من الشموع وشكّوا الصلبان في أطراف القنا وجهروا بترانيمهم في الصلاة». فلمّا حصل البطريرك بين يدي السلطان الراكب على فرسه، في ما يبدو، لم يدعه يترجّل عن مطيّته ولا تركه يقبّل يده بل عانقه، ثم سار الموكب السلطانيّ إلى الكنيسة حيث تليت الصلوات والأدعية لنصرة السلطان.

وقد حطّ السلطان الجزية عن دير [مار برصوما] وأهداه «كفًا من الذهب

الحرّ، مطعّمًا بالجواهر واللآلىء، فيها ذخائر من القـدّيس بطرس».[٢١] ولم يـزل السلطان يستقبل البطريرك في مجلسه طيلة الشهر الذي نزل فيه بالمدينة. وقد دارت الأحاديث حول موضوعات «المسيح والأنبياء والحواريّين الخ»، وهذا يدلّ على أنّ ذلك السلجوقيّ على الأقلّ كان يهتمّ بالمسائل الدينيّة. وربّما حضر بعض المناظرات فيلسوف السلطان «وهو رجل فارسيّ بليغ العبارة يدعى كمال الدين».[٢٢] وجريًا على عادة الملوك الـذين يصطحبـون البطاركـة في حلّهم وترحـالهم، أمر السلطان ميخائيل بأن يصحبه.

وفي ما بعد كتب قلج أرسلان، لدى انتزاعه اثنين وسبعين حصنًا من الروم، رسائل عدّة إلى البطريرك، يقول في إحـداها، عـلى يد كـاتب نصرانيّ في أغلب الظنّ: «من قلج أرسلان سلطان بلاد الروم والشام وأرمينية الأكبر إلى ميخائيـل البطريرك صديق السلطنة والداعي لنا بالنصر. نذكر أنّ الله أعزّ ملكنا في هذه الأيّام بدعائك. . . ونذكر أنّ الله أنعم علينا بهذه الأشياء كلّها استجابة لصلواتك. نطلب إليك ألاّ تكفّ عن الصلاة لدوام ملكنا. حفظك الله».[٢٣]

نقتصر من هذه الوقائع على أنّ السلطان كان يعدُّ صلاة البطريرك مستجابة، وأنّه كان يجلّه لأجل ذلك، ولا نعرف هل تغيّر هذا الموقف من بعدما انقلب الزمان عليه في أواخر حياته. أمّا من جهة البطريرك فنلحظ صيغة التعجُّب وعسر التصديق أمام لطف الكبار وحسن التفاتهم إليه: «وهذا أمر غير معهود»؛ كما نلحظ خشيته من أن يُدسَّ الحنظل بالعسل.

وأنا لو لم أخشى المبالغة في التبسيط لقلت إنّ الاعتقاد الخرافي (بقوى الأحبار الغيبيّة) كانت له اليد الطولى في تشكيل الصـلات بين أوائـل السلاجقـة وأحبار النصارى. إلاّ أنّ الاعتقادات الخرافيّة كانت تقوم أحيانًا بدور مناقض مثلما حدث سنة ١١٥٢ إذ ألقي في روع قره أرسلان أنّه «حيثما تبنى كنيسة جديدة يموت أمير البلد» فأمر بتهديم كنيسة للأرمن في ناحية حنزيط وصلب القسّ.[٢٤]

ولنلحظ في هذا المعنى أيضًا تعليق ميخائيل السريانيّ[٢٥] على ذكر وفاة أمير حصن كيفا نور الدين محمّد سنة ١١٨٥: «لقد حلّت عليه العقوبة لأنّه كان قد

انتزع أعمدة المرمر من الكنيسة وأدخلها في جملة بناء داره فمات». كان النصارى يعتقدون هذا الاعتقاد لِما فيه حمايتهم، وقد كان يشاطرهم اعتقادهم هذا بعض المسلمين. وقد أدركتُ أنا آغا كرديًا، من نواحي العَقْر بشمال العراق، كان يقول لي إنّه لا يعجب من أن داره تنهار دائمًا «لأنّها قد بنيت على كنيسة قديمة».[٢٦]

وقد شهد العام ١١٨٦ اشتراك النصارى والمسلمين في خوف عظيم. فقد تنبّأ المنجّمون بكارثة تجلبها الرياح في ١٤ أيلول من ذلك العام. فاحتفر الملوك وكل المقتدرين الأقبية والسراديب تحت الأرض أو ابتنوا الدور المتينة. ولّما جاء ذلك اليوم توقّف البيع والشراء في انتظار الكارثة. ولكن لّما مرّ ذلك اليوم من دون أن يحصل شيء ممّا قيل «ازدرى الملوك المنجّمين ونبذوهم لما يخدعون الناس بصناعتهم». ولئن كان ميخائيل السريانيّ يقول:[٢٧] «إنّ النصارى والراسخين منهم في الإيمان بخاصّة لم تكن تغرّهم هذه الأباطيل» فهو مع ذلك يضيف أنّهم «واظبوا على إقامة الصلوات والبواعيث، وعلى الصوم والصدقات». وبعد أن بيّن ما يُنسب إلى النجوم من حقٍّ ومن باطل، خلص البطريرك إلى أنّ التنجيم قد يفيد في معرفة الغيب ولكن الله قادر على تغيير مجرى الأحداث «لرأفته بالبشر».

فتح صلاح الدين بيت المقدس

كان احتلال الصليبيّين قسمًا من بلاد المسلمين قد أدّى إلى نوع من التعايش القائم على توازن غير مستقرّ. فمن ذلك أنّه لّما أراد الفرنج، سنة ٥٧٨/١١٨٣، تخريب مسجد داريّا إلى الجنوب من دمشق،[٢٨] أُنذروا «بأنّكم إذا خربتم الجامع جدّدنا عمارته، وخرّبنا كلّ بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكّن أحدًا من عمارتها» فتخلّى الفرنج عما كانوا عزموا عليه. ولعلّ مساومات أخرى قد جرت بين الفريقين.[٢٩]

إلاّ أنّ كفّة المسلمين لم تزل تميل إلى الرجحان، حتى جاء العام ٥٨٣/١١٨٧ بحدث كان له وقع النكبة في العالم النصراني بأسره شرقًا ومغربًا: إنّه فتح صلاح الدين القدس.

بكى النصارى السريان كلّهم سرًا على سقوط المدينة المقدّسة في قبضة صلاح

الدين، مع أن المسلمين لم يتصرّفوا فيها بنفس الوحشية التي أظهرها الفرنج[٣٠] لّما ملكوها. فبعد سنة من ذلك نجد ربّن عزيز، وهو من يعاقبة برطلّي القريبة من الموصل، يؤرّخ الفراغ من نسخ مخطوطة «بالسنة الأولى بعد الفتح الرهيب لبيت المقدس». [٣١] وبعد ستين سنة، أي سنة ١٢٤٧، كتب سبريشوع الخامس جاثليق النساطرة إلى البابا اينوكنتوس الرابع: «كان من الواجب على كنائس المسيح كلّها وعلى الأديرة وكلّ المؤمنين في الشرق والغرب أن يلبسوا المسوح ويجلسوا للأحزان ويبكوا على بيت المقدس وعلى ما حلّ به في أيّامنا». [٣٢]

وقد أحسّ السريان أنهم مسؤولون قليلاً عن هذه النكبة. فمن ذلك ما يكتبه البطريرك ميخائيل: «لقد خُذِلَ الفرنج بسبب خطايانا نحن، ومزّقوا إربًا... وأنا أقول إنّه لولا خذلان الله لما حلّت بهم هذه الهزيمة». [٣٣]

إنّ نصارى بغداد وإن ظلّوا غير مبالين[٣٤] بعَرضة الأسرى من فرسان الفرنج «بدروعهم وراياتهم المنكوسة»، فإن بوسع المرء أن يحزر غيظهم العاجز الكظيم لّما رأوا صلاح الدين قد بعث إلى الخليفة الصلبوت الذي كان قد نصب على قبّة الصخرة بالقدس (وهو صليب برونزي ملبّس بالذهب) «ليدفن تحت عتبة بوابة بغداد المسمّاة بباب النوبي الشريف ويستبقى منه جزء مكشوف بحيث يدوسه المارّة بالأرجل ويبصقون عليه». [٣٥]

يبدو أنّ نبأ فتح القدس قد أدّى إلى موجة اضطهاد للنصارى في أماكن شتّى من المملكة العبّاسيّة، وإن كنّا لا نملك شهادات أخرى غير شهادة ميخائيل السريانيّ الذي عاصر[٣٦] الحدث وكتب يقول: «إنّ ما أنزله المسلمون من احتقار وإهانات وشتائم بالشعب النصرانيّ المضطهد بدمشق وحلب وحرّان والرُّها وآمد وماردين والموصل وسائر أنحاء المملكة لأمر يعجز عن وصفه الكلام». لم يكن من شأن ذلك كلّه إلاّ أن يعمّق الهوة التي فصلت بين النصارى والمسلمين، ويعزّز المشاعر التي برزت سنة ١٢٥٨، لدى دخول التتر بغداد.

وقد أسهمت هذه الأحداث أيضًا في خلق فراغات جديدة في صفوف النصارى. لا نملك أسماء من أسلم منهم ببغداد في تلك السنوات. أمّا بدمشق فإن

طبيب صلاح الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح الياس بن جورجيس الملكاني المذهب والملقّب بموفّق الدين بن المطران[٣٧] قد أسلم «حبًا للدنيا الزائلة» على قول ابن العبري[٣٨] الذي يضيف أنه «ما عتم أن مات واضمحل ذكره»، وذلك في ربيع الأوّل سنة ٥٨٥/ نيسان ـ أيار ١١٨٩.[٣٩]

في السنة التالية، ٥٨٦/ نيسان ١١٩٠، مات الجاثليق إيليا الثالث أبو حليم عن حوالي ستين سنة قضى منها أكثر من ١٤ سنة في كرسي الجثلقة.[٤٠] إنّ الترانيم التي كتبها لأعياد الرب «بلغة مهذبة رائعة» (؟) معروفة جيدًا، كما أن أرجازه البالغة الصنعة لم تزل تنشد في حفلات الزفاف والجنائز بالعراق.

لم يشغر كرسي الجثلقة بعد موته إلاّ ثلاثة أشهر فيما يبدو. ذلك أنّ يابالاها بن قيُوما[٤١] الموصلي، مطران نصيبين «لّما رأى أنّ لا الأساقفة ولا البغداديّين يريدونه»، وكان رجلاً جسورًا، دفع سبعة آلاف دينار لصاحب بغداد فأجبر الأساقفة على اختياره وسيامته. وهذه التفاصيل مذكورة في تاريخ ابن العبري اليعقوبي المذهب، الذي قلّما يلين قلبه على النساطرة.

XXXIII وكانت سيامة يابالاها الثاني في أواخر صيف سنة ٥٨٦/١١٩٠.[٤٢]

هنا يظهر ابن فضلان

رأينا جورج مقدسي يقول لنا من قبل «إنّ الصحوة السنّية التي ميّزت القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، لم تكن من صنع الخلفاء ولا السلاطين، بل كانت للعلماء فيها حصّة الأسد».[٤٣]. ومن الشواهد الدالّة على دور هؤلاء العلماء ما جرى في خلافة الناصر إذ ذكّر أحد مدرّسي المدرسة النظامية الخليفة بواجبه حيال أهل الذمّة. أمّا هذا العالم فهو أبو عبدالله محيي الدين محمد بن يحيى. وكان أبوه، أبو القاسم جمال الدين يحيى فقيهًا شافعيًا يدرّس في النظامية. وقد كان ابن فضلان[٤٤] قد درس على أبيه ثم في خراسان، ثم خلف أباه في التدريس لّما مات هذا سنة ١١٩٩. بعيد ذلك[٤٥] أرسل إلى الخليفة رقعة طويلة[٤٦] يقول فيها: «مذهب الشافعي... يقضي أن المأخوذ من أهل الذمّة.. في كلّ سنة أجرة

عن سكناهم في دار السلم[٤٧] والارتفاق بمرافقها لا يتقدَّر في الشرع بمقدار معيّن في طرف الزيادة ويتقدَّر في طرف النقصان بدينار». لأنّ «منهم مَن هو في خدمات الديوان وله المعيشة السنيّة غير تركة يده الممتدّة إلى أموال السلطان والرعيّة من الرشا والبراطيل. ولعلّ الواحد منهم ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة».

ثم ضرب هذا العالم أمثلة على الامتيازات المتاحة للذمّيّين ومنها: «أن ابن حاجب القيصر[٤٨] أقام ابن محرز الفقيه من طرف موضع كان به وأقعد مكانه ابن زطينا[٤٩] كاتب المخزن»، ومنها أنّ ابن ساوا[٥٠] كاد يولّى على واسط الخ. . . وبعدما ذكّر بما استنّه الخلفاء الراشدون أمثال عمر وعليّ من سنّة التشدُّد في معاملة الذمّة قال: «ثمّ ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام (بغداد)».

ثم ثنّى هذا الفقيه بانتقاد كلّ أولئك الذمّيّين «من أصحاب المكاسب الجزيلة»[٥١]: فمنهم أطبّاء لا يحجبون عن الدخول على الأعيان «معها يخطئون في المعالجات. . . ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل من مسائل حنين وخمس قوائم من تذكرة الكحّالين. . . ومنهم أرباب المعايش من العطّارين والمخلّطين والكسّارين أصحاب المكاسب الظاهرة والارتفاقات الكثيرة بأموال التجّار المسلمين. . . ومنهم أصحاب الحرف والصناعات من الصاغة وغيرهم» الذين يتلاعبون في الذهب والفضّة، ومنهم الجهابذة والصيارفة الذي يستغلّون مكاسبهم غير المشروعة لإغواء نساء المسلمين وصبيانهم «ويبذل جزيل المال في تحصيل أغراضهم في الفساد ورفاهية العيش والتلذُّذ في المآكل والمشارب. ثم ما زالوا على اختلاف الزمان يؤخذون بالصغار ولبس الغيار الذي أوجبه الشرع عليهم». ثم ذكُر ابن فضلان «بالشروط» (التي ينسبها إلى عمر بن الخطاب) وبيّن أنّ هذا «ما جرت به العادة» أيّام المتوكّل وأنّ المقتدي كان آخر من فرضها. فاطّلع الخليفة على الرقعة ولم يردّ على الفقيه. وسوف نلتقي هذا الفقيه عينه في خلافة المستنصر ولكن في موقع يمكنه هذه المرّة من تنفيذ آرائه المتشدّدة.

يفهم من هذا إذن أنّ كثيرين من النصارى كانوا يحتلّون مناصب مهمّة في السنوات الأولى من خلافة الناصر. ونجد من بين الذين احتجّ ابن فضلان على

توليتهم أمور الناس رجلاً كثر الحديث عنه: إنّه أبو الغنائم نصر بن ساوا (واسمه الأصليّ عبديشوع[٥٢]) الذي خلف الأمير علاء الدين تنامش الناصري على الدجيل والداقوق من بعدما مُنع من تولّي النظر بواسط. إلاّ أنّه ما لبث أن اتّهم في العام ٦٠٤/ كانون الأوّل ١٢٠٧ بتدبير موت سلفه بالسم، ثم أدين. وكان قد أخرج ١٠٠٠٠ دينار ليفتدي نفسه بها، فما دفع عنه ماله. فقطعت يداه ورجلاه ثم صُلب أمام دار الأمير. ويعتبره صليبا «شهيدًا».

مهما يكن من الأمر، فالظاهر أنّه لم يقع اضطهاد عام في تلك الفترة، لأنّ صليبا نفسه يختم ترجمة يابالاها الجاثليق قائلاً: «وفي أيّامه كان النصارى آمنين في عيش هنيء».

والحق أنّ طائفة النصارى لم تعد تخيف أحدًا، باستثناء بعض المتعصّبين الذين يودّون إذلال «القلّة الباقية»، أو أصاغر طغاة الأرياف الذين يودّون أن يعتصروا منهم آخر دينار يمتلكونه. من هذا المنظور يكتب R. ARNALDEZ عن فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦/١٢٠٩) فيقول إنّ كتابات هذا المتكلّم المسلم «توحي في قوّة بأنّ الأمر كان قد حسم في عصره وفي بيئته (فالأزمات اللاحقة قد جاءت من بيئات أخرى): فقد صار في حوزة الإسلام نظام دفاعي لا يخترق، وعلم كلام وطيد الأركان ولم تعد النصرانيّة، من حيث هي نظام حياة وتفكير، تمثّل خطرًا على العقيدة والأخلاق أكبر مما كان نصارى دار الإسلام يشكّلون، من الوجهة السياسيّة، خطرًا على السلطة الزمنيّة للمسلمين».[٥٣]

أمّا عن الأحوال العامّة فقد كان من شأن أمر الخليفة الناصر، سنة ٦٠٤/١٢٠٧، بإلغاء المكوس على المبيعات وبناء «دور ضيافة» ليفطر فيها الفقراء[٥٤] في رمضان، كان من شأن ذلك الأمر أن يبهجنا لو لم نعلم أنّ هذا الخليفة المتقلّب المزاج قد أمر بعد قليل بخلاف ذلك: ألغيت دور الضيافة وأُعيدت المكوس. وقد وقع في السنة عينها فيضان من ناحية باب كلواذى ربّما أصاب نصارى سوق الثلاثاء المجاورين لهذا الباب، وفيهم الجاثليق الذي كان ينزل هناك.

تذكر هنا وفاة طبيب نصرانيّ آخر من بغداد، إنّه المهذّب بن هُبَل من تلاميذ

أبي البركات الطبيب اليهوديّ. وكان قد مارس المهنة في مدينة خلاط بأرمينية ثم رجع إلى الموصل وبها مات سنة ١٢١٣/٦٠١ عن خمس وتسعين سنة. ولـه من الكتب كتاب المختار الذي لم يزل مستعملاً حتى أيّام ابن العبري.(٥٥)

ثمّ تمرُّ عشر سنوات ينعم فيها النصارى بهدوء البال ويوافي الأجل يابالاها الثاني بعد واحد وثلاثين عامًا ونيِّف. سنة ٦١٨/ آخر كانون الثاني ١٢٢٢، فيدفن بالعتيقة في كنيسة السيّدة مارة مريم(٥٦) المعروفة بكنيسة العتيقة، أي بالحيّ الجنوبيّ الغربيّ من بغداد. وكان يابالاها طاهرًا ذكيًا خبيرًا بالمداراة واجتذاب قلوب الناس متقدّمًا عند الملوك.

سبريشوع بن قيّوما

XXXIV بعد موت الجاثليق يابالاها الثاني، اجتمع أساقفة المشارقة من السريان «وطلب كلّ واحد منهم الرياسة لنفسه»، على قول صليبا. ربّما كانت هذه علامة طيّبة: كان المنصب مرغوبًا فيه لا عنه! انقسم العلمانيون إلى حزبين: منهم أقلّية ترشح الأسقف سبريشوع بن المسيحي الذي كان، فضلاً عن علمه وفضله وتقواه، من أخوة الأطبّاء المشهورين من بني المسيحي، وهذا ممّا لا بأس فيه. وأمّا الأكثريّة من العلمانيّين فكانت تفضّل أن ينتخب الأساقفة سبريشوع بن قيّوما،(٥٧) الذي كـان، على قـول صليبا، ابن أخي الجـاثليق السابق، فتعلّم عليـه فن السياسـة «والعلاقات العامة»، وكان مثل عمّه: «يكاتب الشعب ويستميل قلوبهم».

ويروي ابن العبري، الذي لا يني لسانه عن القدح بالنساطرة، نفس قصّة الرشوة المدفوعة إلى الوالي، ويذكر المبلغ نفسه أيضًا (٧٠٠٠ دينار)... أمّا الوسيط فكان الطبيب اليعقوبيّ الواسع النفوذ، أمين الدولة، الذي سنتكلّم عنه فيما يلي. وافق الخليفة الناصر على الانتخاب والباقي معروف: سيامة، زيارات رسميّة، الخ.

لنعد إلى الوسيط. كان أمين الدولة أبو الكرم صاعد بن توما،(٥٨) المعروف بفضائله، طبيبًا وكاتبًا ووزيرًا لنجم الدولة أبي اليمن نجاح الشرابي ثم صار من خواص الخليفة الناصر «حتى أوكل إليه تدبير سائر أمور المملكة وتدبير شؤون أبنائه وبناته(٥٩) ونسـائه» وكذلك تدبير دواوين عدّة وجعله بمنزلة وزير.

إلاَّ أنَّ سيرة هذا الطبيب اللامع آلت إلى نهاية مأساوية إذ قُتِل غيلة سنة ١٢٢٣/٦٢٠. لأيّ سبب؟ لا نعرف شيئًا مؤكّدًا غير عدد القتلة. يقول ابن أبي أصيبعة إنّه خاطب «رجلين من الجند، بما فيه بعض المكروه» فتعقّباه وطعناه بالسكاكين فأعدما. إلاَّ أنَّ رواية ابن العبري أدقّ تفصيلاً، وتبدو بدسائس قصور بغداد أشبه.

يقول ابن العبري إنَّ الخليفة الناصر عَشِي وصار شبه أعمى وكان يخفي ذلك لئلاَّ يعزل. وكانت مكاتباته مع الوزير تكتبها امرأة خطّها يشبه خطّه، هي الست نسيم صاحبة تاج الدين رشيق الخصي. ولكن الوقت لم يطل بالوزير مؤيد الدين القمي حتى استراب من الأمر، فاستفسر من الطبيب، فأطلعه على عمى الخليفة، فجنى على نفسه، وساءت عاقبة أمره. إذ أمر الخليفة ابني قمر الدين بقتله ثم صلبهما فورًا لأنهما ربّما شهدا بما علما، وأرجف بأن تجافيه مع الجنديّين كان السبب في اغتياله.

وممّا يوحي بأنَّ رواية ابن العبري صحيحة في معظمها هو ما عقب قتل الطبيب من مصادرة الخليفة ما خلّفه القتيل من نقد (٨٠٠٠ و١٣٠٠٠ دينار) والكفّ عما سوى ذلك من متاع (قيمته مليون دينار) وتخليته لأولاده الثلاثة، شمس الدولة وفخر الدولة وتاج الدولة[٦٠] الذين كانوا من أصحاب الجاه والشهرة.

موت الخليفة والجاثليق

دامت جثلقة سبريشوع بن قيوما أقل من ثلاث سنوات، ومات سنة ١١/٦٢٢ حزيران ١٢٢٥، بعدما دبّر الرعيّة تدبيرًا حسنًا، ودفن بالقرب من عمّه.

ومات الخليفة الناصر في السنة نفسها في ٦ تشرين الأوّل. «وكان قبيح السيرة في رعيّته، ظالمًا، فخرب في أيّامه العراق وتفرّق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم» على قول ابن الأثير.[٦١] أمّا ابن العبري[٦٢] فقد حفظ لنا ذكرى جولاته متنكّرًا في أسواق بغداد، مؤكّدًا أنّه كان يقتل كل من كان يتعرّفه (؟). كان الناس يتهاربون من أمامه «وكان الرجل إذا سار مع امرأته ليلاً خاف أن يحدّثها حديثًا

كيفما كان إذ كانا يخافان أن يكون الخليفة معهما في البيت أو في النافذة أو على السطح». (٦٣)

لننظر، بعد هذا الفولكلور، إلى تقويم جدّي لسياسته في الحكم قدّمته انجليكا هارتمان: (٦٤) كان هو نفسه شيخًا (٦٥) من شيوخ الحنابلة، واستعان بالميول الدينيّة القائمة ليعيد السلطة إلى الخلافة ويتخلّص نهائيًا من نفوذ السلاجقة. وللتوصّل إلى هذا الهدف لم يعدُ هذا الخليفة مجرّد «تأييد مطالب أولئك العلماء الذين كان يحتاج إليهم للتقرُّب من العامة». (٦٦)

ولئن كان لم يستعمل هذا الأسلوب، كما أظنّ، في التعامل مع مطالب ابن فضلان، فإنّ ذلك يعود إلى سببين: أوّلهما أن النصارى والأطبّاء منهم بخاصة (مثل أمين الدولة الذي بقي حتى العام ١٢٢٣) كانوا لا يزالون يتمتّعون بنفوذ كافٍ ليحولوا دون إصغاء الخليفة إلى مقالة الفقيه ابن فضلان. (٦٧) وثانيهما أنّ الأمر لم يعد يستحق الاهتمام، لأنّ عدد النصارى قد أضحى ضئيلاً وإن كانوا يتمتّعون بمكانة اجتماعيّة مرموقة.

الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٥٩. وهو أحد الرجلين اللذين يصفهما هربرت ماسون في كتابه **Two Statesmen of Medieval Islam** أمّا الثاني فهو ابن هبيرة الوزير، وكنّا نتمنّى لو أنّ لهذا الكتاب فهرسًا. أنظر E.I¹, III, p. 920-921 par F. TAESCHNER. والآن Angelika HARTMANN, **An Nasir Li Din Allah**, cit.

(٢) CAHEN, **Bagbdad au temps de ses derniers califes**, p. 300-301.

(٣) الكامل، ج ١١، ص ٤٧٦.

(٤) استنادًا إلى مضمار الحقائق وسرّ الخلائق للملك المنصور، مذكور في كتاب HARTMANN عن الناصر، ص ٢٩٧، رقم ١٣.

(٥) استنادًا إلى سبط ابن الجوزي، مرآة، ص ٣٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨. يلاحظ الأسنوي، ص ١٩ ـ ٢٣ (من غير ذكر التاريخ) أنّ صلاح الدين أصدر أمرًا مماثلاً بتحريض من قاضي دمشق محي الدين بن الزكي الذي نراه يمدح صلاح الدين سنة ١١٨٣/٥٧٩ ويصلّي معه في قبّة الصخرة سنة ١١٨٧/٥٨٣؛

الكامل، ج ١١، ص ٤٩٧، ٥٥١. أمّا الحجج التي ساقها القاضي فهي: اختلاسات الكتّاب النصارى من مختلف الرتب، ورذائلهم: السكر والزنا حتى بالنساء المسلمات، وتسلّلهم حتى إلى داخل قصور الأمراء. وهو يورد على ذلك مثال رجل مسلم اضطرّ إلى تقبيل يد كاتب نصرانيّ، عظيم النفوذ عند الأمير، ليتمكّن من بلوغ حاجته. - ويذهب الأسنوي (ص ١٠ - ١١) إلى أنّ حيل الكتّاب النصارى واختلاساتهم كانت تمكّنهم من تشييد الكنائس والأديرة أو تجديد عمارتها بينما مساجد المسلمين تتداعى إلى الخراب. - ولن يتّهم النصارى بحرق مساجد المسلمين بمصر ودمشق إلاّ في القرن الرابع عشر (المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤). - عن هذه النقطة الأخيرة أنظر صلاح الدين المنجد حريق الجامع الأموي بدمشق، ١٣٣٩/٧٤٠ في مجلة المجمع العلمي بدمشق، ٣١ (١٩٥٦) ص ٣٥ - ٤٧. وينتقد D.R. MACDONALD في كتابه **The Religious Attitude and Life in Islam** ، ص ٣٣ - ٣٤، المنجد لأخذه «اعترافات» المتّهمين «على ظاهرها».

(٧) محمد بن تقي الدين الأيّوبي، مضمار الحقائق، ص ٧٤.

(٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٩٣. وهو يقابل الواقع المحزن باستعلاء البغداديّين وافتخارهم ببغداد: «قد تصوّر كلّ منهم في معتقده وخلده أنّ الوجود كلّه يصغر بالإضافة إلى بلده».

(١٠) ابن العبري، المختصر، ص ٤١٦. ابن أبي أصيبعة، ص ٤٠٣ - ٤٠٥: ابن القفطي، ص ٢١٨؛ BAUMSTARK p.306؛ دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠؛ HARTMANN, P.298 كحّالة، المؤلّفين، ج٤، ص ١٣٢.

(١١) ابن القفطي، ص ١٤٤ - ١٤٥. ابن أبي أصيبعة، ص ٤٠٦. GCAL, II, p. 200 ، دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠؛ HARTMANN, P. 299; **Islamochristiana**, 2, p. 225 (no. 22.17) avec réf.

(١٢) ابن القفطي، ص ٢٦٨. الحوادث الجامعة، ص ١٣. HARTMANN, P. 298

(١٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٣٢. HARTMANN, P. 299

(١٤) هل كان ذلك إبّان فترة كان يحظّر على النصارى فيها إخراج جنازاتهم نهارًا؟

(١٥) ينسب إليه ابن أبي أصيبعة كتاب الاقتضاب، ص ٢٩٨ - ٣٠١، ٣٠٢؛ دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠. HARTMANN, P. 298

(١٦) ياقوت، إرشاد، ج ٧، ص ٢٩٧؛ ابن القفطي، ص ٢٣٦؛ شيخو، شعراء، ص ٣٤٧ - ٣٥١ و٣٩٤ - ٣٩٥.

(١٧) التي حقّق القسم الأوّل منها الأب أنستاس الكرملي، ونشرها في مجلة المشرق، ٣ (١٩٠٠)، ص ٥٩١ - ٥٩٨.

(١٨) رحلة، ص ٢٠١.

(١٩) ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ٣٩٠ - ٣٩١، ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٢٠) إنّ O. TURAN الذي يصوِّر العلاقات بين سلاطين السلاجقة وبين النصارى بصورة مثاليّة، يغفل هذه الجمل المعترضة، أنظر كتابه، ص ٧٦ ـ ٧٨.

(٢١) حبّذا لو كنّا نعرف مصدر هذه الذخائر.

(٢٢) الفقيه الشافعي كمال الدين بن يونس، أنظر ابن خلكان، وفيات، ج ٥، ص ٣١٢ ـ ٣١٣. وقد درّس لاحقًا بالموصل حيث «كان أهل الذمّة يقرأون عليه التوراة والإنجيل ويشرح لهم هذين الكتابين شرحًا يعترفون أنّهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله»، على قول ابن خلكان. وانظر أيضًا كتاب أسامة عانوتي كنوز الفكر العربي، بيروت ١٩٨١، ص ٦٧، ٧٤.

(٢٣) ثمّة مثال على هذه الصلوات الطقسيّة في المخطوط العربي والكلدانيّ، رحماني ـ شرفة رقم ٦٤٩ (فهرست بهنام سوني، الورقة ٣١ ـ ٣٢). ـ وانظر أيضًا التراجم السنيّة لإيليا أبو حليم، تحقيق يعقوب نعمو، الموصل، ١٨٧٣، ص ٣٠٦ ـ ٣١٠.

(٢٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٠٧. ـ إنّ O. TURAN الذي يورد الخبر (ص ٩٣) ينسبه إلى أسباب منها «القرب من ديار المسلمين»، لأنّ العرب عنده أشدّ تعصّبًا من الترك.

(٢٥) ج ٣، ص ٣٩٦.

(٢٦) عن الاعتقاد بالمصائب التي تحلّ بالذين يغتصبون الكنائس، أنظر F.W. HASLUCK, **Christianity and Islam Under the Sultans**, Oxford (1929), I, p. 21-22.

(٢٧) ج ٣، ص ٣٩٧ ـ ٤٠٠؛ وقد كان أورد نبوءة كاذبة أخرى من نبوءات المنجّمين في المصدر نفسه، ص ٣٥٢.

(٢٨) الكامل، ج ١١، ص ٤٨٤. ـ ويقال إنّ بلالاً، مؤذّن الرسول، أقام فيه.

(٢٩) بعدما أخذ الصليبيّون عكا، أراد صلاح الدين تهديم كنيسة القيامة بالقدس، إلاّ أنّه عدل عن قصده خشية أن ينتقموا من المساجد ببلاد النصارى، Claude CAHEN, Indigènes et Croisés, **Syria**, XV (1934), p. 355, note. وفي فترة أخرى لام بعض السلاطين عاملاً له على تنكيله بالنصارى تنكيلاً يخشى معه الانتقام من تجّار المسلمين في أراضي الروم. مذكور في: PERLMANN, **Asnawi**, p. 202

(٣٠) ولكن علينا ألاّ نغفل أيضًا عن رواية شاهد عيان هو الرهاوي المجهول (ج ٢، ص ١٥٠) الذي يتميّز عادة بالحياد التامّ، ولا عن رثاء البطريرك الأرمنيّ غريغوريوس دغا، في Recueil des historiens des Croisades. **Documents arméniens**, t.I, p. 279-280. ولا عن جملة ابن أبي أصيبعة: «ولم يسلم من البيت المقدّس من الأسر والقتل ووزن القطيعة سوى بيت هذا الحكيم المذكور (أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانه) وكتب له كتابًا إلى سائر ممالكه برًّا وبحرًا بمسامحتهم بجميع الحقوق اللازمة للنصارى فأعفوا منها إلى الآن»، ص ٥٨٧ ـ ٥٨٩. ويذهب كلود كاهن الذي يورد هذه الجملة في: **Indigènes et Croisés**, p. 351-360 إلى أنّها تنطوي على مبالغة. وعلى الرغم من التعديّات

التي ارتكبها عسكر صلاح الدين فإنّ الرجل كان يتحلّ بمناقب «الفارس» الأصيل كما تشهد به قرائن عدّة. وإنّ الرأي الذي يرويه عنه جوانفيل، مؤرّخ الحروب الصليبيّة، فيمن يمرقون من دينهم ليستحقّ أن يورد هنا: «لم يُرَ قطّ نصرانيًا صالحًا حَسُن إسلامه ولا مسلمًا صالحًا حسُنت نصرانيّته»، Saint Louis, Paris, 1963, p. 84.

(٣١) WRIGHT, P. 257-258 . المخطوطة السريانية، رقم ٣١٨ بالمتحف البريطاني.

(٣٢) S. GIAMIL, **Genuinae relationes inter Sedem Apostolicam et Assyriorum Orientalium seu Chaldeorum Ecclesiam**, Rome, 1902, p. 2

(٣٣) ج ٣، ص ٤٠٤.

(٣٤) يقول E. SINAN: «أبدى نصارى المشرق لا مبالاة تامة حيال الصليبيّين، محرّريهم المزعومين» في الصفحة ١٢١ من كتابه: **Chrétiens sous les Ayyoubides**. ـ ليس هذا ما يتراءى لقارىء ميخائيل السرياني أو تاريخ الرهاوي المجهول.
أنظر مقالي:
Chrétiens syriaques entre Croisés et Mongols. Symposium Syriacum, Rome 1972; in **Orientalia Christiana Analecta** no. 197 (1974), p. 327-341.

(٣٥) وترى مصادر أخرى (حبيب الزيّات، السمات المميّزة، ص ١٥، الصليب في الإسلام ص ١٠) فيه صليبًا من صلبان الصلبوت، أي صلبان الحرب لا «الصليب الحقيقي». ـ عن أخذ صليب الصلبوت، في حطّين سنة ١١٨٧، أنظر عماد الدين الأصفهاني الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسيّ، مصر ١٣٢١ هـ. وقد أرسل صليب حطّين إلى دمشق مع عدد من وجوه الأسرى، وقد حمله مقلوبًا القاضي ابن أبي عصرون لدى دخوله الاحتفالي إلى المدينة، أنظر أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني آل أيّوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد، ١٩٧٨، ص ١٢١.

(٣٦) ينتهي تاريخه إلى العام ١١٩٥، وقد مات هو سنة ١١٩٩.

(٣٧) J. NASRALLAH dans Abu'l-Farağ al-Yabrūdi, dans **Arabica** XXIII (1976) p. 20-22.
الصفدي، ج ١١، ص ٤٠ ـ ٤٣، رقم ٣٩٤٦؛ ابن أبي أصيبعة، ص ٦٥١ ـ ٦٥٩.

(٣٨) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢١٤.

(٣٩) البداية، ج ١٢، ص ٣٤٧. ـ يذكر في العام ١١٩٥، حظر قرع النواقيس بالرُّها، وقد نزل من جرّاء هذا الحظر «كرب عظيم بالنصارى»، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٤١٣. وكان الحظر بأمر من الملك العادل، أي أنّه كان محليًّا لا شاملاً.

(٤٠) وكان من ضيوفه في القلّية أبو سعيد الحسن بن خليل بن المبارك بن المحضار المارديني. وكان قد برع في العلوم ثم اختار حياة العزلة، وقد توصّل أحد زملائه القدامى في الدراسة وهو قطب الدين إيلغازي الثاني الأرتقي إلى إقناعه بالدخول في خدمته من بعدما ملك على ديار بكر سنة ١١٧٦/٥٧٢ ـ ١١٧٧، وأحاطه بالعناية والاحترام. وقد رفض دعوة بروق شاه

بن قلج أرسلان الذي أراد أن يجعله وزيره، وربّما جاء إلى بغداد بعد وفاة قطب الدين سنة ١١٨٤/٥٨٠، حيث نزل بجوار إيليا الثالث أبو حليم (١١٧٦ - ١١٩٠). أخيرًا عاد إلى بلاده ماردين حيث مات سنة ١٢٠٣/٦٠٠. وقد أثرت عنه قصائد تجدها في الجامع المختصر، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤١) صليبا، ص ١١٥؛ ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٧٠ - ٣٧٢.

(٤٢) أمّا من جهة سلاطين سلاجقة الروم فقد تغيّرت الأحوال عمّا كانت عليه أيّام العلاقات الطيّبة بين البطريرك ميخائيل وقلج أرسلان. ففي آيّام غياث الدين (١١٩٢/٥٨٨) كان على نصارى أرزنجان أن يدفعوا ٣٠٠٠ درهم للحصول على الإذن بالخروج في موكب حتى الفرات يوم عيد معمودية المسيح (الغطاس). وقد استمرّ هذا العرف حتى آيّام ركن الدين، راجع زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوطة المتحف البريطاني العربية ٢٣٣٢٥، الورقة ٥٢ (أ) مذكورة في كتاب الصليب في الإسلام لحبيب الزيّات، ص ٨٨ - ٨٩. ونجد في هذا النص ذكر جاثليق (أ) يدعى مار حسيا. والحق أنّ هذا اللقب الذي يعني «السيّد الطاهر» كان يطلق على المطارنة كلّهم.

(٤٣) أنظر أعلاه ص (281). وقد رأينا ابن عزرون لدى نور الدين، ومحيي الدين الزكي لدى صلاح الدين وابن بدران لدى المقتدي، الخ.

(٤٤) الجامع المختصر، ص ١١ - ١٣؛ دائرة المعارف، ج ٣، ص ٤٣٣؛ أنظر مختصر عمله في Bishr FARES, **Vision chrétienne et signes musulmans** (Mém. Inst. Eg. 56, 1961), p. 25-26.

(٤٥) قبل العام ١٢٠٧، لأنّ ابن ساوا مذكور في الرقعة التي سنتكلّم عنها.

(٤٦) في الحوادث الجامعة، ص ٩٣: مقتطفات منها في شذرات تاريخيّة، المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٥٩٦ - ٥٩٩، الخزانة التيمورية، ص ٣ - ٤، ٤٣ - ٤٧.

(٤٧) أي دار الإسلام، وهي خلاف دار الحرب.

(٤٨) يذكر هذا الحاجب في العام ١١٩٩/٥٩٥، ابن الساعي، جامع، ص ١٦.

(٤٩) أسلم أبو الفضل جبريل بن زطينا قبل وفاته سنة ١٢٢٨/٦٢٦، شيخو، المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٥٩٦ - ٦٠٧.

(٥٠) هو أبو الغنائم نصر بن ساوا الذي سنلتقيه سنة ١٢٠٧/٦٠٤.

(٥١) يدلّنا هذا النص على بنية الطائفتين النصرانيّة واليهوديّة في ذلك العصر.

(٥٢) ابن الساعي، جامع، ص ٢١٩ - ٢٢٠. صليبا، ص ١١٥. ابن العماد، شذرات، ج ٥، ص ٩. - كانت داره بدرب القيار حيث كانت أيضًا مدرسة لفقهاء الحنابلة. هل كان لجيرانه ضلع في اتّهامه؟ - وقد صارت داره، دار ابن ساوا، إلى غيره سنة ٦٠٦، جامع، ص ١٤، ٢٨٩.

(٥٣) Les chrétiens selon le commentaire coranique de Râzi, dans **Mélanges Islamologiques**,

Volume à la mémoire d'ARMAND ABEL, éd. par P. SALMON Brill, 1974, p. 57 . _ نودّ
لفت الأنظار إلى الفقرة التي يتكلّم فيها ابن العبري في تاريخ الزمان، ص ٢٤٩، عن وفاة فخر الدين الرازي عن ثلاث وستين سنة هجرية.. «وكان من أفاضل فقهاء زمانه وقد استنار العرب وما برحوا يستنيرون بتصانيفه الكثيرة. ضارع أوريجانيس الذي بعدما استفاد علماء الكنيسة بتآليفه، عادوا فاعتبروه هرطوقيًا وكذلك الرازي فقد اعتبره العرب كافرًا مجاريًا أريسطو في آرائه».

(٥٤) **الكامل**، ج ١٢، ص ٢٧٨.

(٥٥) **تاريخ الزمان**، ص ٢٥٠.

(٥٦) يجعلها ابن العبري برعاية والدة الله، وهذا قول لا يتّفق وعقيدة النساطرة.

(٥٧) **صليبا**، ص ١١٥ _ ١١٧. **ابن العبري**، ج ٢، العمود ٣٧٢.

(٥٨) أتبع هنا الأسماء والتواريخ الواردة في تاريخ ابن العبري الذي يفترض أن يكون أخبر به لأنّه من طائفته. أمّا ابن أبي أصيبعة فيسمّيه أبا الفرج صاعد بن هبة الله بن توما، وترجمته مشابهة لترجمة ابن العبري. **دائرة المعارف**، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٥٩) قد صار في العام ٦٠٠/١٢٠٣ _ ١٢٠٤ وكيلاً لدى ختا خاتون، بنت المملوك سنقر الطويل، ابن الساعي، **جامع**، ج ٩، ص ١٢١. الصفدي، **الوافي**، ج ١٦، ص ٢٣٩ _ ٢٤٠. **ابن أبي أصيبعة**، ص ٤٠٥ _ ٤٠٦.

(٦٠) وقد رأينا من قبل المستضيء يطلق أجدادهم سنة ٥٦٦/١١٧٠. _ ثمّة قصيدتان بالسريانية في مدح الاثنين الأخيرين نظمهما سويريوس يعقوب البرطلّي مطران مار متى سنة ١٢٢٣، تجدهما في نهاية إحدى مخطوطات مطرانية السريان الأرثوذكس بالموصل. أنظر **فهارس المخطوطات السريانيّة في العراق**، ج ٢ (بغداد، ١٩٨١) ص ١٦٤، رقم ١/٣٤ حيث يسمّيان فخر الدولة ماري وتاج الدولة أبو طاهر. وانظر MINGANA مخطوطة سريانيّة رقم ١٠٠ (Catalogue I, col. 247-248) وفي فهرسه (العمود ١٢٢٣) يظنّ منغانا أنّ ماري كان راهبًا.

(٦١) **الكامل**، ج ١٢، ص ٤٤٠. _ بيد أنّ ابن الطقطقي يطنب في سرد مناقبه ويعدّه من أفاضل الخلفاء وأنبههم ذكرًا، **الفخري**، ص ٢٥٧.

(٦٢) **تاريخ الزمان**، ص ٢٦٩.

(٦٣) كان عيون الناصر في دور السلاطين والأسواق على ما يذكره ابن **الطقطقي**، ص ٢٣ و٢٥٧.

(٦٤) Dans: **Orientalia Suecana XXII** (1973) p. 52-61

(٦٥) يعطي Georges VAJDA في مقاله Une liste d'autorité du calife al Nāsir, **Arabica** 6 (1959), p. 173-177 أسماء المحدّثين الحنابلة.

(٦٦) يذهب H. LAOUST في مقاله: **Le précis de droit d'Ibn Qudâma**, Inst. Fr. Damas, 1950, P. XX إلى أنّ الناصر كان ينوي إعادة بناء وحدة الإسلام الأولى بمحاولته مصالحة السنّة والشيعة.

(٦٧) وربّما كان الخليفة أميل إلى الحنابلة، المتشدّدين عادة، ولذلك لم يستحسن أن ينبّهه على الصواب مدرّس شافعي شاب. ـ عن سياسة الناصر الدينيّة، أنظر أيضًا LAOUST, **Ibn Batta**, p. CXXV

٣٥ ـ الظاهر (٦٢٢ ـ ٦٢٣/١٢٢٥ ـ ١٢٢٦)

كان أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله ابن سلفه الناصر، ولكنه كان يختلف عنه اختلافًا بيِّنًا، وكانت خلافته القصيرة (أقل من عشرة أشهر) مثل الربيع لشعبه بالرغم من المجاعة والوباء اللذين ضربا البلاد سنة تولِّيه الخلافة.

فقد ألغى الزيادات في المكوس التي أحدثها والده، والفروق في زنة الذهب والدنانير، والمطالعات اليوميّة التي كان يكتبها حرّاس الدروب عن اجتماع الناس بعضهم ببعض، ورخّص الأسعار، وأخرج كل مَن كان في السجون، وأمر بإعادة ما أخذ منهم وعدل[1] في الناس وأحسن إلى الجميع. فلمّا «قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال، قال لهم: أنا فتحت الدكّان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير، فكم أعيش؟». [2]

فكان ما خيف أن يكون في الرابع عشر من رجب من العام ٦٢٣. ويختم ابن الأثير صفحات عدّة في الثناء على هذا الخليفة قائلاً: «ولم أزل، علم الله سبحانه، مذ ولي الخلافة أخاف عليه قصر المدّة لخبث الزمان وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا: وما أخوفني أن تقصر مدّة خلافته، لأنّ زماننا وأهله لا يستحقّون خلافته». [3]

ويضيف ابن العبري خبرًا مهمًا عنه: فقد أمر ببناء جسر ثانٍ على دجلة لأنّ بغداد ظلّت مئتي سنة بجسر واحد. [4]

سبريشوع بن المسيحي

XXXV أمّا خلف سبريشوع بن قيّوما فكان مطران باجرمي، أبو الفضل بن

أبي الخير، سبريشوع بن المسيحي[٥] من أسرة أولئك الأطبّاء البغداديّين الذين صادفناهم من قبل. وقد انتخب بالإجماع بعد خلوّ الكرسي ما يقارب السنة. ويتّهمه ابن العبري كالعادة، بأنّه حصل على المنصب «بالذهب» (؟) سواء من ماله أو من مال أخوته «الرجالات الأخيار والأطبّاء المشاهير». وقد منحه الخليفة الظاهر عهد التولية مع إعفائه من الرسوم.

دامت جثلقة ابن المسيحي واحدًا وثلاثين عامًا، في خلافة الظاهر والمستنصر والمستعصم. يثني الجميع على حسن تدبيره أمور الرعيّة، ولكنّنا لا نجد شيئًا في التراجم المخصّصة له عن أحوال النصارى في عصره، أي أواخر أيّام بني العبّاس.

من الجائز أن تكون علاقات أسرة الجاثليق بأهل الطبّ، وبالتالي بأهل البلاط قد سهّلت خلق جوٍّ ودّي في التعامل مع النصارى على وجه الإجمال. كانت هذه الظروف مؤاتية جدًّا، وهذا ما حدا بأبي صاعد عبد الرحمن بن محمد بن دواست لأن ينشد قبل ذلك بحوالي القرن:

لمّا رأيتُ الجسمَ ذا اعتلالِ ودبَّت الآلامُ في أوصالي
دعوتُ شيخًا من بني الجوالي بطريقَ عمٍّ جاثليقَ خالِ[٦]

ويروى أنّ حادثة يؤسف لها قد وقعت في أيّام الظاهر، أيّ في العام ١٢٢٥ - ١٢٢٦ (من غير أن يعرف شيء عن مداخلها ومخارجها) للمفريان اليعقوبي إغناطيوس داوود لمّا أراد أن يرى مدينة تكريت «التي كان يقيم فيها المطارنة فيما غبر من السنين». ولكن، ساء ما فعل، إذ ما كادت رعيّته الصغيرة تفرغ من استقباله حتى اتّهم لدى الخليفة بتهمة غير معروفة. فأمر الخليفة (؟) بنهب دور النصارى: وفرضت سلطات تكريت المحليّة على المفريان وعلى أعيان النصارى غرامة قدرها ٢٠٠٠٠ زوزي وسجنتهم. ولم يطلقوا إلاّ بعدما تدخّل الأتابك لؤلؤ[٧] الذي كان يهبُّ لنجدة مَن يدفع له أكثر، وسوف نلتقيه من بعد.

الحواشي

(١) يقول ابن الأثير: «فلو قيل إنّه لم يلِ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل

صادقًا، وهو الذي صرف ابن فضلان ووكّله بالنظر في شؤون البيمارستان، وذلك بعد شهرين من تولّيه الخلافة (أي في كانون الأوّل ١٢٢٥)، الصفدي، ج ٥، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، الرقم ٢٢٦٠.

(٢) يعني أنّه جاء متأخّرًا، إشارة إلى المثل القائل: يا فاتحًا دكّانه بعد العصر ماذا تبيع وماذا تشتري؟

(٣) الكامل، ج ١٢، ص ٤٤١ ـ ٤٥٧، ونجد ثناء مماثلاً في تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٤٨٥.

(٤) تاريخ الزمان، ص ٢٧٠، وكذلك ابن الطقطقي (ص ٢٦٣) الذي يشير إلى السير في اتّجاه واحد على كلّ من الجسرين المتوازيّين (كما كان من قبل بين طيسفون وبهراسير).

(٥) صليبا، ص ١١٧ ـ ١١٩. ابن العبري، العمود: ٣٧٢، ٤٠٠ ـ ٤٠٢.

(٦) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٤٢٧؛ عن الشاعر أنظر دائرة المعارف، ج ٣، ص ٥٨.

(٧) ابن العبري، ج ٣، العمود ٣٩٠.

٣٦ ـ المستنصر (٦٢٣ ـ ١٢٢٦/٦٤٠ ـ ١٢٤٢)

سلك أبو جعفر المنصور، الملقَّب بالمستنصر بالله[١] سيرة أبيه الظاهر في الخير والإحسان إلى الناس[٢]. وقد بقي اسمه مرتبطًا بالمدرسة المنسوبة إليه ببغداد، المستنصرية «التي لم يعمّر في الدنيا مثلها» على قول ابن العبري[٣] والتي «رتّب فيها أربعة مدرّسين لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة مدرّسًا، وأضاف إليهم ثلاث مئة فقيه» كان يجري عليهم الأرزاق، وشيِّد فيها حمامًا خاصًا لا يدخله غيرهم وأقام لهم طبيبًا خاصًا يعالج مرضاهم، الخ. والحق أنّ تلك كانت المرّة الأولى التي أُذن فيها للمذاهب السنِّية الأربعة بالتدريس في وقت واحد.[٤]

ولكن ثمّة إشارة صغيرة حزينة نجدها في تاريخ ابن العبري، إذ يتحدَّث في العام ١٢٢٧/٦٢٥، عن طبيب رهاوي يدعى حسنون انتهى مهملاً في حلب لأنه نصرانيّ، مع أنّه كان بارعًا.[٥] وهكذا جاء الزمن الذي حلم به الجاحظ في خلافة المتوكّل، الزمن الذي حلّ فيه الأطبّاء المسلمون محلّ الأطبّاء النصارى، وصاروا مقبولين لدى الجميع.

ابن فضلان مرّة ثانية

انتقل هذا الفقيه الشديد الحماسة إلى المدرسة المستنصريّة، منذ تأسيسها، من بعدما درَّس في النظامية ثم بمدرسة أمّ الناصر. وقد عهد إليه في العام ١٢٢٨/٦٢٦ ـ ١٢٢٩ بديوان الموالي والرسوم والأوقاف، الخ.، ثم صار محتسب دار الإسلام كلّها.[٦]

عندئذٍ تمكّن من أن يفرض على أهل الذمّة مبادئه الصارمة ويذلّ حتى أصحاب المراتب العالية منهم. واستنادًا إلى تفسير حرفي للآية ٢٩ من سورة التوبة أصرَّ في العام ٦٢٧/١٢٣٠ على أن يأتي كل ذمّي بنفسه نهارًا ويؤدّي الجزية «عن يد»[٧] واقفًا طول مدّة العملية.

فمن ذلك أنّه أجبر أبا عليّ بن المسيحي ساعور البيمارستان على الحضور لأداء الجزية (مع أنّه كان يختلف إلى قصر الخليفة) وذلك بعد أن تمنّع وتمارض وأراد أن يدفع بوساطة ابنه... ومثله أحد رؤساء اليهود، الذي أراد المجيء بعد المغرب... كان على الجميع أن يخضعوا، بلا استثناء، لهذه الاجراءات المذلّة.[٨] كان في وسع ابن فضلان أن يبتهج بعدما تمكّن من أن يثبت لكلّ ذمّي وجه خضوعه للإسلام وكونه، بعبارة أخرى، عضوًا في طبقة اجتماعيّة أدنى. ولا تذكر المصادر هل فضّل بعض النصارى دخول الإسلام على الخضوع لهذه المذلّة، ولا هل كرّر ابن فضلان هذه الاجراءات على توالي السنين. على أيّة حال، توفّي الرجل بعد ذلك بأربع سنوات في العام ٦٣١/١٢٣٣.

وثمّة مثال آخر على التعصّب نجده، في العام ٦٣٠/١٢٣٢، بدمشق متمثّلاً في شخص عبد الرحمن عليّ المهذّب الطبيب الملقّب بذخوار.[٩] وكان هذا الطبيب قد أساء إبّان خدمته الأيوبيّين إلى العديد من زملائه الأطبّاء. «وكان مكارًا شتّامًا شرهًا نهمًا» على قول ابن العبري. ولّما مات في هذه السنة عينها، وقف منزله مدرسة للطبّ على أن لا يطأه يهوديّ أو نصرانيّ. وقد كان هذا الشرط لا يزال نافذ المفعول حتى أيّام ابن العبري.[١٠]

بيد أنّ هذه الصغائر تهون إذا ما علمنا بالأحداث العظام التي كانت بها حبلى الأيّام الآتية. إنّ تاريخ ابن الأثير الذي يصل حتى العام ٦٢٨/١٢٣٠ ـ ١٢٣١ يشير إلى الخطر الداهم. ففي هذا التاريخ شنّ التتر غارة في العمق وصلوا بها إلى الكرخيني (كركوك، على بعد يقلّ عن مئتيّ كلم من بغداد).[١١]

ومع ذلك، استمرّت الحياة على منوالها، فقد نقل طبيب يعقوبيّ من الموصل، يدعى أبو يوسف بهنام بن موسى بن يوسف، في ٢٧ صفر ٦٢٦/٢٢ كانون الثاني

١٢٢٩، كتابًا في الطبّ إلى العربيّة وزيّنه بصورة للمؤلّف ديوسكوريد.[١٢] ولا زال بعض النصارى يحصلون على بعض المناصب المهمّة: ففي العام ١٢٣٢/٦٣١ وبوساطة ابن حاجب القيصر،[١٣] صار هبة الله بن زطينا النصرانيّ (الذي لم يتبع والده جبريل في الإسلام) خلفًا لابن الحاجب المذكور في رئاسة الديوان ثم عيّن كاتبًا للسكّة.[١٤]

وفي العام ١٢٣٦/٦٣٤ أيضًا، عيّن مجاهد الدين أيبك أحدَ العلويّين خواجًا له، وأحدَ النصارى، ويدعى تاج الدولة ماري بن صاعد، وكيلاً.[١٥] وعلى الضدّ من هذا نجد غلامًا يقتل سيّده النصرانيّ سنة ١٢٣٤/٦٣٢، ويطلق، لأنّه مسلم شافعيّ.[١٦]

ليس من الممكن إذن أن نرسم خطوط سياسة ثابتة. فقد كان استعمال الجزرة أو العصا مع النصارى يتناوب حسب الأشخاص والظروف. أمّا الشيء الوحيد الثابت فكان تقلّب الغد على النصارى.

في العام ١٢٤٢/٦٤٠ مات الخليفة المستنصر[١٧] عن خلافة دامت سبعة عشر عامًا. كان تقيًّا عادلاً، أحبّه الجميع ولم يؤثر عنه قرار سياسيّ مهمّ ولا علاقات خاصة بالنصارى.

الحواشي

(١) E.I.¹, III, p. 820 par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) الكامل، ج ١٢، ص ٤٥٨. الذهبي، تاريخ دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٠. البداية ج ١٣، ص ١٥٩.

(٣) تاريخ الزمان، ص ٢٧١.

(٤) LAOUST, Ibn Qudama, p. XLV. البداية، ج ١٣، ص ١٣٩ - ١٤٠. - يصحّح F. KRENKOW وصاحبة كتاب The Libraries (O. PINTO)، عندما تقول في الحاشية الأولى من الصفحة ٢٢٣ إنّ مكتبة هذه المدرسة قد خرّبها هولاكو. والحق أنّها كانت لا تزال قائمة بعد ذلك بأكثر من قرن.

(٥) تاريخ الزمان، ص ٢٧٣.

(٦) ويذكر أنّه قد أرسل في سفارة إلى الروم، **الصفدي**، ج ٥، ص ٢٠٠ و٢٠١، رقم ٢٢٦٠.

(٧) لهذا عدّت الجزية إجراء انتقاميًا، ويمكن أن نكوّن فكرة عن تفسير كلمة «صاغرون» من منهاج الطالبين لمحي الدين النووي الشامي الدار الشافعي المذهب (١٢٣٣ ـ ١٢٧٨): «وتؤخذ [الجزية] بإهانة فيجلس الآخذ ويقوم الذمّيّ ويطأطىء رأسه ويضعها في الميزان ويقبض الآخذ لحيته ويضرب لهزمتيه، وكلّه مستحبّ وقيل واجب. فعلى الأوّل، له توكيل مسلم بالأداء وحوالة عليه وأن يضمنها. قلتُ هذه الهيئة باطلة ودعوى استحبابها أشدّ خطأ والله أعلم» (طبعة د.ت. ص ١٣٩).

(٨) شذرات تاريخيّة، ص ٥٩٦.

(٩) ابن أبي أصيبعة، ص ٧٢٨ ـ ٧٣٦. وفي دمشق بستان معروف «ببستان ذخوار» أنظر ELISEEFF, **La description de Damas d'Ibn Asakir,** Inst. Fr. Damas, 1959, p. 153 et 156 notes.

(١٠) تاريخ الزمان، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(١١) الكامل، ج ١٢، ص ٤٩٧ ـ ٥٠٣.

(١٢) Bishr FARES, Philosophie et jurisprudence illustrés par les Arabes, dans **Mélanges L. Massignon,** t.II (PIFD, 1957, pp 95-96.

(١٣) يذكر هنا نصرانيان آخران: ابن كاتب القيصر (إبراهيم بن أبي الثناء علم الملك) وأخوه الشاعر تاج الملك إسحق، الصفدي، ج ٥، ص ٣٤٠، رقم ٢٤٠٩.

(١٤) شيخو، المشرق، ص ٥٩٦ ـ ٦٠٧.

(١٥) شذرات تاريخيّة، ص ٦٠٠.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٩٩ ـ ٦٠٠.

(١٧) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٨٨. ـ ويروي المفضل بن الفضائل (ت. قبل ٧٨٣/١٣٨١ ـ ١٣٨٢) في النهج السديد، أنّ الخليفة لم يمت بل كان محبوسًا ببغداد. وقد عاش مع التتر في غرب العراق، من بعدما أطلقوه سنة ١٢٥٨، ثمّ ذهب إلى مصر واستقبله بالقاهرة السلطان الملك الظاهر يوم الخميس الثاني من رمضان سنة ٦٥٨/١١ آب ١٢٦٠. ويذكر من بين الذين حضروا استقباله النصارى حاملين الإنجيل. وقد اختفى في أثناء معركة لاسترجاع بغداد من قرابغا سنة ١٢٦١ أو ١٢٦٢ (؟) P.O. XII, 423-432 .

٣٧ ـ المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦/١٢٤٢ ـ ١٢٥٨)

امتدّت جثلقة سبريشوع بن المسيحي أربعة عشر عامًا في ظلّ خلافة أبي أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر. إنّ هذا الرجل الذي كان آخر خلفـاء بني العبّاس، لم يكن أبدًا في مستوى الظروف الحرجة التي اضطرّ إلى مواجهتها. فقد كان «رجلاً خيّرًا متديّنًا ليّن الجانب سهل العريكة عفيف اللسان، حمل كتاب الله تعالى وكتب خطًا مليحًا. . . إلاّ أنّه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة. وكان زمـانه ينقضي أكـثره بسماع الأغـاني. . . وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب[1] جلوسًا ليس فيه كبير فائدة»[2] وكان عقله «عقل الصبيان لا يميّز الخير من الشرّ، أنفق زمانه بلعب الحمام والإلتهاء بالطيور»،[3] ولم تكن لديه «الفطنة ولا القوة الكافيتان لدرء الخطر المغولي»[4] الذي كان على وشك الإطاحة به وبخلافته.

إنّ حال النصارى في أواخر أيّام الخلافة هذه[5] تأتي، أكـثر من أيّ وقت مضى، متأخّرة في الأهميّة عن الأحداث الجسام.[6]

لا نكاد نشعر، لدى وفاة الجاثليق سبريشوع (٦٥٤/٢٠ أيار ١٢٥٦)، أيّ قبل سنتين من سقوط بغداد، ولدى إقامة عملاء هولاكو اتصالات بالوزير مؤيّد الدين بن العلقمي،[7] لا نكاد نشعر بأصـاغر العمّال الذين مـا زالوا يمـارسون تدابيرهم القهرية لاعتصار ما يقدرون عليه من الناس المغلوبين على أمرهم، والذين نجد في صفوفهم أهل الذمّة، في أغلب الأحيان.

فمن ذلك أنّ ابن الصليحية «ناظر ديوان التركـات ختم على جميـع ما في

القلاّية» عقب وفاة الجاثليق. و«في اليوم الثالث جاء والي بيت مال المسلمين وعمل باليد القويّة غير الواجب وفتح الختوم وأخذ جميع ما وجد في القلاّية والكتب والبيرونات[٨] وأحضرها قدام الخليفة (؟) وردّ الكتب ووهب البيرونات لابن وحيد (؟) واشتريت منه من مال الوقف وأعيدت «من أجل خَلَف الجاثليق»، على قول صليبا.

أمّا عن اختيار هذا الخلَف فإنّ السيناريو الذي جرت به عادة القوم، مع الأسف، قد صار «طبيعيًا» إلى حدّ أنّه يبدو غير معقول إذا ما نظر إليه في سياقه التاريخيّ: ففي هذه السنة نفسها (١٢٥٦) خلقت إيلخانة «بلاد المغرب» التي ولاّها مونكا، الخان المغوليّ الكبير، إلى هولاكو أوغل وأمره بأخذ بغداد وإبطال الخلافة.

وفي حال قد تبدو لنا اليوم أشبه بحال اللاوعي، انطلق الأساقفة المسيمون في مكائدهم التقليديّة «وطلب كل واحد الرياسة لنفسه».[٩] واستمرّت المماحكات أكثر من عشرة أشهر، وتأرجحت الآراء بين أربعة مرشّحين.

مرّة أخرى، نجد ابن العبري اليعقوبي يقدّم لنا التفاصيل: وضعت السلطات المدنية الجثلقة في المزاد عمليًا. ووصلت المزايدة إلى أربعين ألف دينار ذهبًا، وقد كاد دنحا، مطران إربل الذي دفع عربونًا قدره ٤٠٠٠ دينار، أن يجمع بقيّة المبلغ لولا أن حاول بعضهم أن يسدّ عليه الطريق إذ اتّهمه لدى السلطات الإسلامية بمكاتبة... ملك التتر، فمن علائم هذا الزمن نسيان الروم، لقد تغيّر اسم العدو! أمّا النصارى الذين فرّق دنحا فيهم الرشا فقد أُنذروا «بأنّ كلّ ما يصلكم منه اليوم سيطلب منكم أضعافه غدًا».[١٠]

أصغى خواص الخليفة إلى ما اتُّهم به دنحا، واستدعى الخليفة (؟) المرشّحين، ففضّل «كهل نصيبين»، المطران مكّيخا، على «فتى إربل»، دنحا، الذي كان عليه أن ينتظر دوره.

مكّيخا

XXXVI تسلّم مكّيخا، إذًا، العهد والطرحة وعاد إلى كنيسته بسوق الثلاثاء

على بغلة مزيَّنة، يواكبه اثنان من أكابر الأمراء يرفعان فوق رأسه عهد الخليفة. بعد ذلك جاءت مراسم السيامة والزيارات التقليديّة على ما جرت به العادة. وكان ذلك في ربيع العام ١٢٥٦.

لا نسمع بعد ذلك ذكرًا للجاثليق حتى إحكام الطوق المغوليّ على بغداد. إذ لّما رأى الخليفة أن لا أمل يرجى، ألّف وفدًا ضمَّ الوزير العلقمي ونجم الدين عبد الغني بن دريوس(١١) والجاثليق مار مكّيخا. وأمرهم «أن يأخذوا ذهبًا كثيرًا ونفائس ملكيّة وخيلاً عربية» وأن يطلقوا من السجن السفراء الذين بعثهم التتر من قبل وأن يخلعوا عليهم الخلع السنّية ويلبسوهم الثياب الفائقة وأن يصحبوهم إلى لدن ملك الملوك. كان على الوفد أن يطلب الأمان للخليفة وأولاده وأهله وان يعتذر بأن ما بدر من تأخير في تسليم المدينة وقبح معاملة الموفدين المغول، إنّما يعزى إلى سوء مشورة بعض الخونة من أصحاب الخليفة. فإن رأى ملك الملوك أن يمنّ عليهم بالحياة صاروا جميعهم عبيده ورعاياه ودفعوا الجزية.(١٢)

استقبل هولاكو الوفد، إلاّ أنّه استبقاهم في عسكره ومضى في الحصار. معلوم ما عقب ذلك من المآسي: سقوط بغداد والمذابح التي تعرَّض لها أهلها على أيدي الكُرج النصارى، حلفاء المغول، وقتل الخليفة(١٣)... أمّا نصارى بغداد فإنَّ الجاثليق جمعهم في الكنائس من بعدما رجع بالأمان لهم من عسكر المغول. وقد بقي هو في كنيسة سوق الثلاثاء، ولم يصب أحد من طائفته بمكروه، وذلك بأمر صريح من دوقوز خاتون زوجة الايلخان الأوّل النسطوريّة.(١٤)

أمّا وقد وصلنا إلى النهاية فما علينا أن ننظر إلى الأمام، فقد كفانا مؤونة ذلك كتابي «النصارى السريان في عصر المغول Chrétiens Syriaques sous les Mongols». إنَّ ما يهمّنا هنا هو كيف نظر نصارى بغداد أنفسهم إلى الوراء، إلى مجمل تلك الفترة التي كانوا فيها رعايا العرب.

لا مراء في أنَّ النصارى قد اعتبروا دخول المغول خلاصًا لهم، وابتهجوا لانتصار هؤلاء وعدُّوا ذلك علامة على سقوط «بابل الجديدة».

وكان من أشمت الناس ببغداد الخلفاء، رجل أرمني يدعى كيراكوس

الجنزوي الذي كتب في هلاكها يقول:[١٥] «كانت بغداد مدّة حيازتها عصا المُلك أشبه شيء بعلقة تمصّ الدماء: ابتلعت العالم كلّه ثم قاءت عندئذٍ كلّ ما بلعت... ولّما طفح كيل مظالمها قدّام الرب[١٦] عوقبت على ما أراقت من دماء وما عملت من شرور... وقد دامت سيادة الطاجيك العدائية القاسية ٦٤٧ سنة».[١٧]

ولا سبيل إلى أن ننكر أيضًا مشاطرة النصارى، في معظمهم، رأي إسطفان أوربليان[١٨] الذي عدَّ هولاكو ودوقوز خاتون بمثابة «قسطنطين وهيلانه جديدين» و«أداتين من أدوات الانتقام الإلهي من أعداء المسيح». ومن هذا القبيل أيضًا أنّه لّما أراد أحد المصوِّرين من السريان اليعاقبة، في أيار ١٢٦٠، أن يعبِّر بالصورة عن انتصار الصليب (في المخطوطة السريانية رقم ٥٥٩ من مكتبة الفاتيكان)، استعاد تصوّر البيزنطيّين لقسطنطين وهيلانة الممسكين بالصليب، ولكنّه أضفى على هذين ملامح هولاكو ودوقوز خاتون.[١٩] ونجد خلاصة ذلك كلّه في شهادة أخيرة اقتبسها ماركو بولو من النصارى المحلّيّين إذ كتب يقول: «وأظنّ أن ربّنا أراد الثأر لنصاراه الذين كان الخلفاء يكرهونهم أشدّ الكره» (كذا).[٢٠]

الحواشي

(١) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤١١ ـ ٤١٢.
(٢) ابن الطقطقي، ص ٢٦٦.
(٣) البداية، ج ١٣، ص ١٥٩. تاريخ الزمان، ص ٢٨٩.
(٤) E.I.¹, III, p. 825; par K.V. ZETTERSTEEN. ـ يروي ابن شاكر الكتبي أنّه بينما كان هولاكو يطلب من حليفه بدر الدين لؤلؤ منجنيقات وآلات للحصار، كان المستعصم يكتب إلى الأمير نفسه ليبعث إليه... جماعة من المغنّين. ويُقال إنّ بدر الدين صاح برمًا: «انظروا إلى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله». فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٦.
(٥) إنّ الرسوم الماليّة التي كان لؤلؤ صاحب الموصل يفرضها على المفريان إغناطيوس صليبا الثالث سنة ١٢٥٣ لم تعد تمتّ بصلة إلى الخلافة العبّاسيّة، لأنّ صاحب الموصل هذا كان قد أصبح في هذا التاريخ حليفًا للمغول Assyrie Chrétienne, II, p. 422 وأيضًا Chrétiens Syriaques sous les Mongols, p. 12.
(٦) لم يكن الخبر التالي الذي جرى بمصر في ظلّ الملك الصالح الأيّوبي (٦٣٨ ـ ٦٤٦/١٢٤٠ ـ

١٢٤٨) ليستوقفنا (لخروجه عن نطاق بحثنا) لو لم يتح لابن القيِّم، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣، فرصة قول بعض الكلمات غير الودودة المعبّرة عن عقليّة المتعصّبين: مدار الكلام على كاتب نصرانيّ يدعى أبو الفضل بن دخان الملقّب بخاص الدولة (؟) أو محاضر الدولة (؟): «ولم يكن في المباشرين أمكن منه. وكان قذاة في عين الإسلام وبثرة في وجه الدين. ومثالبه في الصحف مسطورة ومخازيه مخلّدة مذكورة حتى بلغ من أمره أنّه وقّع لرجل نصرانيّ أسلم بردّه إلى دين النصرانيّة» ثم آل أمره إلى الذبح. ـ ويروي غازي الواسطي الأحداث نفسها بمزيد من التفاصيل (ص ٤٠٠ ـ ٤٠٣) ولكنه يجعلها في ظلّ العاضد (١١٦٠ ـ ١١٧١).

(٧) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٨) البيرون من علائم الأحبار ويوازي في شكله البرنس المعروف في ذلك الزمن.

(٩) صليبا، ص ١١٩ ـ ١٢١. ابن العبري، ج ٢، العمود ٤٠٢، ٤٢٤ ـ ٤٢٦.

(١٠) يعترف ابن العبري نفسه، بأمانة، أنّ دنحا ردّ المال الذي اقترضه لأنّه لم يجد الوقت ليدفعه إلى أصحاب المناصب المسلمين من بعدما وصل المغول.

(١١) عن عبد الغني بن دربوس البرّاج الذي صار جليس الخليفة وصاحب مشورته، أنظر ابن الطقطقي، الفخري، ص ٣١ ـ ٣٢.

(١٢) تاريخ الزمان، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(١٣) انظر: P.O. XII, p. 334

(١٤) تاريخ الزمان، ص ٢٩٨.

(١٥) **Journal Asiatique,** 1858, p. 492 .

(١٦) نجد نغمة مشابهة لدى مؤرّخ مسلم، هو المقريزي في كتاب السلوك، ج ١، ص ٤٠٩: «فصحّ حديث حبيب ابن أبي ثابت، عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، أنّ رسول الله قام فقال: «يا معشر قريش إنّ هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالاً تخرجكم منه. فإذا فعلتم ذلك سلّط الله عليكم شرّ خلقه، فالتحوكم كما يلتحى القضيب».

(١٧) لا نرى كيف توصّل هذا الكاتب إلى حسبان هذا العدد.

(١٨) في: L'Histoire de Siounie مذكور لدى RUNCIMAN, III, p. 304, note 2

(١٩) **Le Muséon,** 83 (1975), p. 59-64

(٢٠) **La description du monde,** tr. L. HAMBIS, Paris, 1955, p. 28 .

خاتمة

إن شماتة النصارى السريان بزوال دولة بني العبّاس لا تترك شكًّا في حقيقة مشاعرهم: كان ذلك بالنسبة إليهم يعني الخلاص من نظام حكم تمييزي وظالم. أو هذا ما كانوا يعتقدونه على الأقلّ.

وأظنّ أن الصفحات السابقة قد أثبتت أنّ النصارى لم يتعرّضوا للاضطهاد الحقيقيّ، إلاّ نادرًا جدًّا في خلافة بني العبّاس. لقد عانوا، مثلهم في ذلك كمثل مواطنيهم المسلمين، من آثار الأحداث الداخلية كالاضطرابات السياسيّة بخاصة. أمّا من حيث هم نصارى فربّما أصابتهم أحيانًا عقابيل العداوات والنزاعات الخارجية مع أمراء يُقال عنهم نصارى أيّ بيزنطيّين أو صليبيّين. وكان عليهم أن يدفعوا ثمن قلّة تبصّرهم كلّما انساقوا إلى ما كان المسلمون يعدّونه استفزازات: الجنائز الصاخبة، قرع النواقيس، التيه بالثراء، الخ. أمّا العوامل المؤدّية إلى ضمور جماعة النصارى، وهي ممّا يصعب قياسه، فمن أهمّها مناخ متزايد الثقل من الضغط الاجتماعيّ والتمييز الشرعيّ، أو حتى الإذلال: الضرائب الخاصة، وقوانين التميّز بالملابس التي كانت تفرض بين الفينة والفينة والتي كانت ترسّخ فيهم الشعور الجارح بعدم الانتماء، أو حتى بالانتباذ.[1]

ولئن كان من قد بقي من نصارى المشرق يرفضون، إلى أن سقطت بغداد، العالم الذي ما زالوا يعيشون فيه منذ ستّة قرون ونيّف، فلا بدَّ من الاعتراف بأنّ رفضهم إنّما يعزى إلى كون هذا العالم نفسه قد تشدّد في أخذهم بقوانين لم تتح لهم فرصًا سياسيّة متكافئة، ولم تعاملهم معاملة مواطنين متمتّعين بحقوق المواطنية التامة، بل معاملة الهامشيّين.[2]

لا بدَّ لنا هنا من أن نستعيد الكثير ممّا قيل في المؤتمر الخامس الذي عقده مركز البحوث الاجتماعية البروتستانتيّ في استراسبورغ في تشرين الأوّل ١٩٧٦،[٣] حول موضوع الهامشية والتهميش (أي النبذ إلى هامش الجماعة).

فممّا يؤسف له أنّه حيثما كان «ما هو دينيّ» وثيق التمازج «بما هو اجتماعيّ»، كان السبيل الوحيد إلى الاندماج هو الدخول في الديانة السائدة التي لا تلبث أن تصبح ديانة الأكثرية.[٤] فإذا رفض المنتمي إلى الأقلّية الدخول، وقف المنتمي إلى الأكثرية منه أحد موقفين: التسامح أو العدوان.[٥]

إن مسألة «هل الإسلام متسامح أم غير متسامح» لم تزل تناقش بالعقل تارة وبالهوى طورًا. ومثلها السؤال: «هل هو كذلك من حيث الماهية أم من حيث صيرورته على تعاقب القرون؟».

ومع أنَّ هذه المسألة قد استدعت أجوبة رائعة،[٦] فإنّني لأظنّ أنَّ مجرّد طرح القضية على هذه الصورة قد أدّى، على مدى التاريخ الذي استعرضناه في هذا الكتاب، إلى تشويه العلاقات بين أناس من ديانات متباينة. إذ ربّما كان للتسامح وجه سلبي، كأن يشعر المتسامح مثلاً أنّ الحق بيده دون الآخر، وأنّه هو الأقوى وأنَّ بمقدوره أن يرفق، بالتالي، بمَن هو أضعف منه. فالمفهوم اليوم من التسامح هو تنازل المتسامح عن بعض حقّه وشعوره لذلك بأنّه متفوّق مع أنَّ دلالة «تسامح» (المؤلّفة من مادة سمح ووزن تفاعل) تفيد وقوع فعل التساهل والتلاين من طرفين لا من طرف واحد.

ولقد صنّف مؤلّف عربيّ معاصر[٧] في «التسامح» كتاب مقتطفات بعنوان: La tolérance ومن اللافت للنظر فيه أنَّ الكاتب لم يجد ما يمثل حضارة الإسلام، بعد نصوص القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف وأحاديث الخلفاء الراشدين، إلاّ بعض نصوص المتصوّفة، قبل الوصول إلى محاولة محمد عبده الإصلاحيّة. وهذا يدلُّ على التصلُّب الذي أدخله بعض الفقهاء والذي أدّى إلى اضمحلال النصرانيّة بصورة شبه كليّة في دار الإسلام. كما أنّه يفسّر لنا قول هذا المؤلّف بمرارة: «ماذا يمكن أن يكون مدلول لفظ «التسامح كما تشكّل حتى الآن؟ إنّه تصور ضيّق الحدود

جدًا ضمن واقع لا يفتأ يتوسّع ويتجدّد. إن استعمالات اللفظ نفسها تنم عن توازن مزيّف، فيها اهتمام بصون الوضع الراهن (Statu quo) أكثر ممّا فيها دعوة إلى تضامن الإنسان مع الإنسان». [٨]

بدلاً من طرح مسألة «التسامح» ربّما كان من الأولى أن ينظر إلى ما تنطوي عليه الديانات من إمكانيات مُغْفَلَة غالبًا (مع الأسف) للانفتاح على الآخر.

إنّ في القرآن الكريم، طالما أنّ الحديث عن الإسلام هنا، نصوصًا رائعة في هذا المعنى: **﴿ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾**. الآية ٤٨ من سورة المائدة.

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾. الآية ٤٦ من سورة العنكبوت. **﴿ولتجدَن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهبانًا وأنّهم لا يستكبرون﴾**. الآية ٨٢ من سورة المائدة.

ومن سوء الطالع أنّ الظروف التاريخيّة في الفترة التي درسناها قد شاءت، بعون الفقهاء المسيطرين أن يغلب الحرف على الروح (ولا يجدي استثناء المتصوّفة من ذلك شيئًا لأنّهم كانوا هم أنفسهم هامشيّين)، وأن يتعلّق أهل الفروع بتفسيرات ضيّقة لآيات أخرى (تلك التي أوردناها في المقدمة) وبمبادىء (اعتبرها هؤلاء) من الشرع.

إذ من البيّن الجليّ أنّ مفهوم «أهل الذمّة» الشرعيّ (غير القرآنيّ) الذي أحلّ محلّ مفهوم «أهل الكتاب»، إنّما هو مفهوم موروث من الساسانيّين ومن المجتمع القديم كلّه. إنّ المرء ليتمنّى لو أنّ هذا المفهوم لم يمثل إلاّ وضعًا عابرًا لأنّه وليد ظرف تاريخيّ محدّد. [٩] إلاّ أنّه استمرّ على مدى قرون طويلة لأنّه لم يكن في مقدور أحد أنئذٍ أن يتصوّر العلاقات بين الجماعات البشرية إلاّ من حيث هي علاقات بين سيّد ومسود. وحريّ بنا أن لا ندين تلك الذهنية لأنّ الناس كلّهم كانوا يفكّرون

بهذه الطريقة في تلك الفترة. ومن السهل على المسلم في هذا الإطار أن يردّ على النصرانيّ الغربيّ بحجج تستهدفه من حيث هو نصرانيّ غربيّ، منها المآخذ على محاكم التفتيش[١٠] وما إلى ذلك. ربّما كان التسامح في القرون الخوالي موقفًا كريمًا. ومع ذلك، فإنّ التاريخ إذ يرينا الشطط الذي أدّى إليه ذلك التصلّب يقدر أيضًا أن يرشدنا إلى الخطر الناجم عن اعتبار كلّ جماعة نفسها مركزًا ونبذها «الآخرين» إلى الهوامش.

ونحن إن لم نتخلّص من هذه النظرة (التقليدية التي لا يكاد ينجو منها أحد) ونضع أنفسنا بلا تردّد في عالم اليوم التعدّدي، فإنّنا سنمضي قدمًا فيما نفعله معظم الأحيان، سنمضي كلّ منّا في نجواه الذاتيّة.[١١]

كنّا سنغلق هذا الكتاب على حزن عظيم، حزن لإخفاق تلك الأجيال كلّها في العيش سعداء سويّة وإن اختلف بعضهم عن بعض، لو لم نكن نرجو أن يعلّمنا إخفاقهم البحث عن سبيل آخر، ولا أقول «تعلّمنا أخطاؤهم» إذ من يحقّ له أن يحكم؟[١٢]

الحواشي

(١) لا أرى في الطائفيّة بلبنان «سمًّا في جسد البلد» كما قيل، بل «جسمًا مضادًّا» أفرز سابقًا من أجل المناعة. ولكنه أضحى اليوم قد تخطّاه الزمن لأنّه من مخلّفات حال كانت واقعًا فيما مضى.

(٢) يقول P. RONDOT. المرجع المذكور، ص ١٢٩، الشيء نفسه بطريقة مختلفة: «إنّ علاقات الإسلام بالشعوب التي غُلبت ولم تسلم، تقوم على مبدأ عام ذي وجهين: التسامح الدينيّ، والتمييز الاجتماعيّ». - وهذه هي النتيجة نفسها التي يصل إليها E. STRAUSS, **The Social Isolation of Ahl al-Dhimma**, in **P. Hirschler Memorial Book**, Budapest, 1949, p. 73-94 المعاد طبعه تحت اسم ELIYAHU ASHTOR, **The Medieval Near East**, Variorum Reprints, 1978, VII.

(٣) أنظر CERDIC في فهرس المصادر. وكذلك Jacques GELLARD, **Marginalité de l'Eglise [Catholique] en France?**, Etudes, janv. 1979, p. 81-100.

(٤) CERDIC ، ص ٢١٢، ٢١٣ (D. BENSIMON). إنّ تناقص عدد الجماعة يضيف مؤشّرًا إضافيًا على الهامشيّة، ويسبّب الهامشيّة الإحصائيّة. المرجع نفسه، ص ٦٩، (F.A. ISAMBERT.

(٥) المرجع نفسه، ص ٦٨، (F.A. ISAMBERT).

(٦) كجواب كلود كاهن، **L'Islam et les minorités confessionnelles** .

(٧) هو زغلول مُرسي.

(٨) ص ٢٥٣.

(٩) لم يتوصّل العالم المسيحيّ، جملة، إلاّ مؤخّرًا إلى تفهّم «أنّه من غير الممكن الثبات على لحظة عابرة من التاريخ» على حدّ قول الأب Y. CONGAR في: **La crise de l'Eglise de Mgr. Lefèvre**, Le Cerf, 1976, p. 82.

(١٠) إنّ الموقف السجالي العقيم، المستشهد بمعاملة غير المسيحيّين في أوروبا العصر الوسيط شائع جدًّا، ومنه مقدّمة محمد حميد الله **لأحكام أهل الذمّة**، ص ٨٦ ـ ٨٩، لابن قيّم الجوزية. والحقّ أنّ الماضي ليس أمرًا يُدان أو يُدافع عنه، بل لا بدّ من فهمه لإعداد المستقبل. ومع ذلك فإنّ دراسة تاريخيّة مقارنة لهذه الظواهر في الشرق كما في الغرب ربّما أثمرت ثمارًا طيّبة إذا ما خلت من الأهواء: ولعلّها تقودنا إلى اكتشاف عوامل مشتركة بين الذهنيّات الدينيّة كلّها. أنظر Paul VEYNE, **Comment on écrit l'histoire**, Seuil, 1971, p. 157-158. ـ أنظر Claude GERSET, Dans L'intransigeance chrétienne, jusqu'à mort d'homme, **Lumière et Vie** (Lyon). XXVIII (1979), no. 14 p. 17-33.

(١١) يجب أن لا يُستهان باللقاءات التي يصغي فيها الفريقان بعضهم إلى بعض باحترام وتقدير، وهذه بداية طيّبة للحوار الحقيقي.

(١٢) علينا أن نذكّر هنا أيضًا بـ Paul VEYNE الصفحات ٢١٩ ـ ٢٢٤ بخاصة حيث يعالج «الأحكام التقويميّة في التاريخ» «Les jugements de valeur en histoire» فهو يشهد لي بأنْ «ذكر الفرق بين قيم (بعض الناس) وقيمنا نحن ليس من الحكم عليها في شيء».

ملحق ألفبائي في التعريف بغريب هذا الكتاب

الأسكول : المدرسة الجثلقية، وكانت في سلوقية أوّلاً ثم ببغداد.

الباعوث : وجمعها بواعيث، صلاة تضرُّع «والباعوث للنصارى كالاستسقاء للمسلمين» (لسان العرب).

البرّاج : صاحب أبراج الحمام.

البيرون : رداء كالبُرنُس القديم الذي كان يغطّي الأكتاف فحسب، وهو من علائم الأحبار.

البيم : دكّة قليلة الارتفاع في وسط كنيسة النساطرة يقوم عليها الإكليروس لتلاوة الصلوات باستثناء القدّاس.

تعديل السواد : ولاية قضاء السواد.

التوقيع : توقيع الرشيد مثلاً، أي قراره.

الجعفريات : من أنواع السفن المستعملة بأنهار العراق في القرن الرابع للهجرة.

جوباس : بُلَيْدة كانت بالقرب من ملطية.

الحِب : وجمعه الحُباب، إناء كالجرّة.

حنزيط : هي تلنزيت (Tilenzit) الحاليّة، بالقرب من «مرات سو» بتركيا اليوم.

الديراني : صاحب الدير أو وكيل الدير.

زوزي : دنانير أو دراهم.

الساعور : رئيس أطبّاء البيمارستان.

السايوم : الأسقف الذي يحقّ له انتخاب الجاثليق.

السليح : أحد الحواريّين أو تابعيهم.
السِنكسار : كتاب تراجم القدّيسين وأعمالهم يقرأ في الكنائس يوميًّا.
الشاشيّة : وجمعها شاشيّات، عرقية أو طاقية تلفُّ عليها العمامة.
الشحنكية : وظيفة الشِحنة.
الشهّار : لفظة سريانيّة بمعنى السهّار، وهو من يتولّى ترتيب صلاة الليل في الكنائس.
الصوم الماراني : المنسوب إلى «مار» أي السيّد، والمقصود صوم النصارى أربعين يومًا أسوة بالسيّد المسيح.
الصير : السمك المملّح.
العَمر : وجمعه أعمار، الدَير.
الفطركة : البطركة أو الجثلقة.
قانون الإيمان المسيحيّ (Credo) : يقابل الشهادتين في الإسلام.
القلأية (أو القلّية) : صومعة الراهب، أو مقرّ الجاثليق أو المطران.
قورس : مدينة بنواحي حلب (ياقوت).
الكود : كرسي القراءة، وهو شبه حائط قليل الارتفاع يوضع عليه كتاب القراءات من العهد القديم أو من رسائل الحواريّين.
المستخرج : رجل كان يحضر استجوابات المصادَرين، أي أولئك الذين كان يؤمل استخراج المال منهم وإن بالتعذيب.
المسيم : الأب المسيم كالسايوم، أطلبه أعلاه.
المفريان : المطران الأكبر الذي يرأس الأبرشيّات السريانيّة الغربيّة الموجودة في أراضي الكنيسة السريانيّة الشرقيّة.
ناطر الكرسي : مدبِّر كرسي الجثلقة في انتظار انتخاب جاثليق جديد.
النطارة : وظيفة الناطر.

فهرس الموضوعات

ا

ت

ث

ص

ع

غ

ق

ك

فهرس الأماكن

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ش -

- ط -

- ع -

- ق -

- ن -

- هـ -

- و -

فهرس الأشخاص

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

- ش -

- ص -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس المحتويات

أنجزت المطبعة الكاثوليكية ش م ل،
عاريا - لبنان، طباعة هذا الكتاب
في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٩٠

٩٠/١/٣١ - ٢ - ٠٠٩٩٠٢